الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السادس والعشرون . السنة الثالثة . مارس ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 26 - March 2001

قمّة عمّان العربية نهايات طُرُق
محمد حسنين هيكل

"مؤسسة" القمة العربية
أحمد يوسف أحمد

باراك.. نابليون إسرائيل الصغير
آفى شلايم

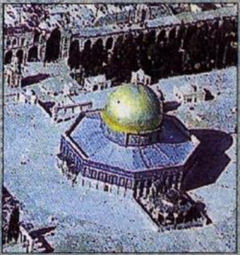
أم كلثوم وملحِّنوها
إلياس سحاب

محاربة الاحتكار .. لكن دون قتل المريض
أحمد أبو شادى

الأقباط يكتبون رواياتهم
يوسف قعيد

لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة؟
سلامة أحمد سلامة

حديث الحفريات الأثريّة



فلسطين لم تكن وطناً لبني إسرائيل
عفيف البهنسى

كلمة..

عنوان مرحلة

«أصاب إدوارد سعيد.. وأخطأت» هكذا يعترف - بوضوح - المؤرخ الإسرائيلي الشهير «آفي شلايم» في مقال مثير نشرته له قبل أسابيع مجلة London Review of Books تحت عنوان لا يقل إثارة: «كيف تخلص آفي شلايم من أوهام باراك».

المقال الذي تنشره «وجهات نظر» بترتيب خاص مع المطبوعة البريطانية الرصينة، يحكي على لسان الكاتب الإسرائيلي القصة المريرة لسنوات أوسلو السبع.

وكانت المجلة اللندنية ذاتها قد نشرت في أكتوبر ١٩٩٣ وبعد أيام من توقيع اتفاق أوسلو في حديقة البيت الأبيض مقالين حول الاتفاق. أحدهما للمؤرخ الإسرائيلي والذي تحمس يومها للحدث معتبرا أنه «الخطوة الأولى على طريق السلام الحقيقي» وأنه «أخيراً اعترف كلا الطرفين بالآخر.. وقبل مبدأ التقسيم، ووافق على قطع مرحلة تلو الأخرى نحو التسوية النهائية». يومها عبر آفي شلايم عن اعتقاده - الذي لم يبد غريباً وقتها - بأن «الاتفاق سوف يؤدي إلى انسحاب إسرائيلي تدريجي لا رجعة فيه من الأراضي المحتلة، وأنه «لن تمضي خمس سنوات..» (لاحظ أن المقال نشر في أكتوبر ١٩٩٣) حتى - والكلام مازال لآفي شلايم - تكون هناك دولة فلسطينية مستقلة.. وينتهي صراع نصف القرن العربي الإسرائيلي!

المقال الآخر الذي نشرته المجلة يومها كان للمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد والذي رفض الاتفاق بوضوح ووصفه بأنه «فرساي فلسطينية» وأنه بتنازله عن الحقوق القومية الأساسية للشعب الفلسطيني.. لن يؤدي إلا إلى مزيد من الدماء.

وبغض النظر عن الجدال الذي لم يتوقف يوما حول «أوسلو» التي يعتقد الكثيرون الآن أن أوراقها قد طوتها أحداث ودماء. فإن آفي شلايم في مقاله الجديد يعيد «قراءة رأيه القديم» معترفاً بأنه كان متفائلاً «أكثر مما يجب» عندما اعتقد أن قادة إسرائيل يستطيعون صنع السلام وبأن خطأه كان فادحاً حينما رحب قبل عام في مقدمة كتابه الشهير «الجدار الحديدي» بانتخاب باراك. معتبراً أنه «الظهور المبشر بالخير لنابليون إسرائيل الصغير». وأنه يمثل «شروق الشمس بعد ثلاث سنوات مظلمة ومرعبة خضعت فيها إسرائيل لقيادة مؤيدي الجدار الحديدي المتسمين بالجمود».

ويشرح المؤرخ الإسرائيلي كيف أن باراك «الذي خدع الجميع يوم قدم نفسه على أنه التلميذ المخلص لرابين..» لم يكن مؤهلاً أبدا لصنع السلام. وأنه - بحكم تكوينه - «يظل جندياً حتى وإن ارتدى الملابس المدنية كرئيس للوزراء». وأننا نسينا يوم جاء أن نطرح السؤال الواقعي «هل يمكنه، وهو أكثر من حصل من الجنود على النياشين والأوسمة، أن ينجح في صنع السلام مع العرب مثلما نجح في قتلهم؟» يقول شلايم الذي طرح السؤال أن باراك نفسه تكفل بالإجابة. وأنه هو الذي قضى على اتفاقات أوسلو، «سيراً على خطى من سبقوه».

ذهب باراك. فلماذا إعادة تقييمه الآن؟

لأنه سواء عاد «نابليون الصغير» إلى المسرح وزيراً للدفاع/ الحرب في وزارة شارون، أو اكتفى بالانتظار - ربما إلى حين - على مقاعد الاحتياط خارج الملعب مع غيره من سياسيي/ جنرالات الدولة العبرية، فإن إعادة القراءة في ملفه - وهو المحسوب على الحمائم - تبقى «حُكماً باتاً» بشأن سلفه الذي لا يختلف اثنان في أنه أكثر الصقور تشددا.

أيا ما كانت المقارنة، والفائدة من قراءتها، فإن المؤرخ الإسرائيلي الذي كتب مقاله قبل الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة، يخلص إلى أن هناك إحباطاً فلسطينياً. وشكوكاً عميقة في قبول الإسرائيليين في يوم من الأيام طواعية لتسوية تنطوي ولو على القدر اليسير من العدل. فضلاً عن أن هناك اقتناعا كاملا بأن إسرائيل لا تفهم سوى لغة القوة.

لقد تحرر الفلسطينيون - يقول شلايم - من وهم عملية السلام، فقد افترضوا قبل سبع سنوات أن بإمكانهم التقدم في اتجاه دولة لهم عن طريق الدبلوماسية وحدها، وليس العنف. أما الآن فليسوا - ومعهم كل الحق - على يقين من ذلك.

وإذا كانت قراءة مقال آفي شلايم قد تؤدي إلى استنتاج بأن الفلسطينيين ربما وصلوا إلى «نهاية طريق» فإن الأستاذ محمد حسنين هيكل اختار «نهايات طرق» عنوانا لمقاله هذا الشهر، مطمئناً إلى صحة القول - ومشفقاً من دلالته - أن مؤتمر القمة العربي المقبل، والذي تستضيفه العاصمة الأردنية عمان يومي ٢١ و٢٨ من هذا الشهر (مارس ٢٠٠١) - سوف يكون «نهاية طريق» في السياسة العربية. وأنه إذا لم تتنبه قمة «عمان» إلى أنها قرب «نهاية طريق» فقد يتأكد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بمثل ما أنها «نهاية طريق»..

وموضحا أن أول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يستخذي فإن الطرف الآخر مدعو لأن يستقوي «لأن الغاية النبيلة لا تحققها وسيلة ذليلة»، يقلب هيكل كعادته في صفحات «التاريخ» ليبين لنا كيف أنه يواصل حركته، ويضع نقاط تحوله، ويحدد «نهايات طرقه». سواء تنبه أصحاب القرار في حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك - ومثال ذلك الأشهر في التاريخ القريب - يحكي هيكل - كيف أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ وهو «نيفل تشمبرلين» لم يكن يدرك وهو يحمل مظلته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألماني «أدولف هتلر» في «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليبشر الشعب البريطاني (وشعوب أوروبا) - بـ «السلام في زماننا» - أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق» - وأنه بوهم صنع «السلام في زماننا» - جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافت على السلام» دليلاً على الضعف والوهن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تحمل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

ومنبها إلى أن اعتبار «عمان» وقمتها المقبلة «نهاية طريق» - ليس مؤداه أن تتحول القمة إلى مجلس حرب، يوضح الأستاذ هيكل أنه من الصعب عقلاً أن يكون بديل «التهافت في طلب السلام» هو «الاندفاع إلى حمل السلاح» إذ إن «السياسة» الواضحة تعززها «الإرادة» قد تغني عن الحرب المسلحة وتزيفها الدموي - في حين أن «السياسة» المترددة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة في التيه أو مذبحة في العراء!

ويستكمل الأستاذ هيكل ما طرحه في مقاله الأخير لـ «وجهات نظر» عن «حدود السلاح» ليوضح أن السياسة الإسرائيلية هي الأخرى عند «نهاية الطريق». وإن كان الذي أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وهم السلام» كما هو الحال على الناحية العربية، وإنما «وهم السلاح». وأنه عندما يطيح «السلاح» متجاوزاً حدوده - وكل حدود - فإن أداءه يتنازل من «القتال» إلى «القتل». وممارسة «القتل» وإن كانت خطرا على الذين يتعرضون لنيرانها - فهي أخطر في المدى الطويل على الذين يمارسونها

وبعد أن يلاحظ الأستاذ هيكل أنه منذ بدأت عملية السلام مع مصر في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ - فإن رئاسة الوزارة الإسرائيلية ووزارة الخارجية بقيتا في يد العسكريين طول الوقت أو معظمه، يعرض سيناريوهات مختلفة لما قد يقدم عليه شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد. والذي قد يبادر بتوجيه رسالة اعتدال لمؤتمر القمة العربية في عمان بظن تفويت الفرصة على أي «متشدد» عربي - فيتوهم بعض العرب (كالعادة) أنه من المناسب «الانتظار عليه»، وأنه من العقل تذكر أن شارون «الجنرال» غير شارون «الوزير» غير شارون «المرشح لرئاسة الوزارة» غير شارون «رئيس الوزراء» ناسين ربما أن «شارون» كـ «ضابط عمليات خاصة» وليس «ضابط تخطيط إستراتيجي» - رجل بالطبيعة لا يقدر على الانتظار. وأنه لم يعد سراً أن الولايات المتحدة الأمريكية - سواء أدركنا ذلك أو تجاهلناه - قامت بتأميم الشرعية الدولية، بأن نقلت ملكيتها أولاً إلى مجلس الأمن، ثم قامت هي بعد ذلك «بخصخصة مجلس الأمن» وتحويله إلى ملكيتها الفردية، تتصرف فيه كما يتصرف المالك فيما يملك!

جاء شارون - إذن - بعد أن عبّد له باراك الطريق، وتقترب «عمان». ويبدو أن «نهاية عملية السلام» لم يعد مجرد عنوان لآخر كتب إدوارد سعيد. إذ إنه أصبح الآن باعتراف حتى أكثر المتفائلين «عنوان مرحلة».

وجهات نظر

قمّة عمّان القادمة

نهايات طُرُق



محمد حسنين هيكل

"١"

«نهاية طريق»

لا يحتاج أى مُتابع مشغول، أو مُراقب مُهتم ـ إلى مقدمات من أى نوع حتى يقول مُطمئناً إلى صحّة القول ـ ومُشفقاً من دلالته ـ أن مؤتمر القمة العربي المُقبل، والذى تستضيفه العاصمة الأردنية عمّان يومى ٢٧ و٢٨ من هذا الشهر (مارس ٢٠٠١) ـ سوف يكون «نهاية طريق» فى السياسة العربية.

وليس ضرورياً أن يوافق المشاركون فى القمة على صحّة هذه المقولة، ومن ثم يُنشئون خطاباً مُختلفاً ـ أو لا يوافقون ويجىء الخطاب بعزمهم على مواصلة «المسيرة»، وكان «السياسة» العربية قافلة على طُرُق التجارة القديمة بين أوروبا وآسيا، تلتزم مسارات تُكرّر نفسها وتقتفى أثر بعضها حتى لا تتوه أو تتأخر عن أسواقها التى تنتظر التوابل والبُخور.. الذهب والحرير، وغيرها من بضائع الشرق!

والحاصل أن «التاريخ» يُواصل حركته، ويضع نقط تحوّله، ويُحدّد «نهايات طرقه»، سواء تنبّه أصحاب القرار فى حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك ـ ومثال ذلك الأشهر فى التاريخ القريب أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ وهو «نيفل تشمبرلين» لم يكن يُدرك وهو يحمل مظلّته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألمانى «أدولف هتلر» فى «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليُبَشّر الشعب البريطانى (وشعوب أوروبا) ـ بـ«السلام فى زماننا» ـ أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق» ـ وأنه يوهم صنع «السلام فى زماننا» ـ جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافُت على السلام» دليلاً على الضعف والوهن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تحمّل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

لم يُدرك «نيفل تشمبرلين» وهو يُبَشّر بـ«السلام فى زماننا» أن استرضاء العدو «بأى ثمن» هو أقرب الطُرُق إلى الحرب، لأن التهافُت على الطلب مثير للطمع، ولأن الغاية النبيلة لا تُحقّقها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يَستخذى فإن الطرف الآخر مدعو لأن يَستقوى، وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع.

وتؤكد وثائق الحرب العالمية الثانية ـ وهى اختبار عظيم للسياسات والإرادات ـ أنه لم يكن مطلوباً من «تشمبرلين» عندما قصد إلى «ميونيخ» أن يصيح بـ«أنها الحرب إذا واصل هتلر سياسة قضم أجزاء من أوروبا لُقمة لُقمة» ـ وإنما كان يكفيه فى ذلك الوقت إدراك أنه وصل إلى «نهاية طريق» مع «هتلر»، وأنه لم يَعُد أمامه غير القول له بوضوح كاف أن «بريطانيا ليس فى مقدورها قبول مطالب التوسّع الألمانى مهما كانت ذرائعه»، ثم كان عليه أن يقول كلمته فى «ميونيخ» ـ ويعود منها إلى لندن ليضع «الإرادة» فى خدمة «السياسة».

لكن «تشمبرلين» لم يتنبّه فى «ميونيخ» إلى أنها «نهاية طريق»، وتصوّر أنه هناك يواصل «مسيرة سلام»، وكان هو أول دافع للتكاليف حين تحوّل «التهافُت» على طلب السلام إلى «عاصفة» حرب تمطر دماً ـ ولم يَبق له غير الخروج من رئاسة الوزارة البريطانية، وإفساح المجال لخصمه «ونستون تشرشل» ليُحدّد الخط السياسى ويضع «الإرادة» فى خدمته، بحيث تكون للسياسة قوة فعل تحترم نفسها، وتنتزع احترام الآخرين حين يرون السلام يعرض نفسه واقفاً على قدميه وليس راكعاً على رُكبتيه، مُتنبّهاً إلى أنها الآن «نهاية طريق».

ولكى لا يكون هناك التباس فإن «السياسة» الواضحة تُعزّزها «الإرادة» قد تغنى عن الحرب المسلحة ونزيفها الدموى ـ فى حين أن «السياسة» المتردّدة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة فى التيه أو مذبحة فى العراء!

وفى الظرف العربى الراهن فإن اعتبار «عمّان» وقمتها المقبلة «نهاية طريق» ـ ليس مؤدّاه أن تتحوّل القمة إلى مجلس حرب. فمن الصعب عقلاً أن يكون بديل «التهافُت فى طلب السلام» هو «الاندفاع إلى حمل السلاح»، وإذا انحصر الفعل بين المطرقة والسندان على هذا النحو، فذلك دلالة إفلاس السياسة ووقوعها فى مأزق أضاعت فيه خياراتها ولم يَعُد أمامها غير بديلين: «الانتحار» أو «الشهادة» ـ وكلاهما ليس مطلوباً فى صراعات أزمنة جديدة لا تضع ـ ولا تملك أن تضع ـ قيداً على البشر الأحرار فى عقلانية التفكير ومعه جسارة المعرفة، وفى حق الاختيار ومعه حكمة الإرادة!


جامعة الدول العربية

قمة عمان

لأن الغاية النبيلة
لا تحققها وسيلة ذليلة.
فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى
طرف لنفسه أن يستخذي فإن
الطرف الآخر مدعو لأن يستقوي.

وربما أن الخطر الأكبر على القمة القادمة في عمان أن يفوت عليها أنها عند - أو قرب - «نهاية طريق». ثم تأخذها أوهام شاعت أخيراً في التمهيد لاجتماعها بزعم أنه مطلب لشعوب الأمة اشتد إلحاحه وزاد. وهنا فإن «مجرد الاجتماع في حد ذاته كاف لتحقيق المطلوب منه».

وذلك وهم لا تبرره حقيقة. وفوق ذلك خطأ فادح لا يسمح به واقع الحال.

ومقولة أن «مجرد وقوع اجتماع ما في حد ذاته محقق لهدفه» - مقولة ليست جديدة في العصر الحديث. وفي الواقع فإنها تعود إلى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين (ولقد أتاحت لي الظروف أن أحضر مناسباتها الشهيرة شاهد عيان - وصدقت وصدق الجميع) - وأضاف التاريخ مصداقيته إلى تلك المقولة مرتين على الأقل (في زماننا!).

■ المرة الأولى كانت في مناسبة مؤتمر «باندونج» (إندونيسيا) سنة ١٩٥٥ - وهو مؤتمر تجمعت فيه دول آسيا وأفريقيا المستقلة، ومعها حركات التحرير الوطني في القارتين. وهدف المؤتمر إنهاء الحقبة الاستعمارية وتخليص الشعوب من سيطرة استبدت بالأوطان والناس والموارد طوال قرون. وهنا كان مجرد اجتماع المؤتمر دعوة لا تحتاج إلى قرارات - ونداؤها أنه قد حان وقت النهوض. وكان الصدى الأول لـ«باندونج» هو موقعة السويس، وفيها فإن مصر لم تكن في مقاومة العدوان وحدها، وإنما كان خط المواجهة ممتداً من «داكار» (السنغال) إلى «دكا» (بنجلاديش) ووراءهما حتى «كاراكاس» (فنزويلا).

وقد جرت موقعة السويس سنة ١٩٥٦ (سنة واحدة بعد «باندونج»)، وبعدها بسنة أخرى كانت الإمبراطورية البريطانية تتساقط، وكان رئيس وزرائها «أنتوني إيدن» ينهار عصبياً وصحياً، ووقف خلفه من حزب المحافظين «هارولد ماكميلان» يعلن في خطاب شهير (أبريل ١٩٥٨ أمام مجلس العموم) «أن رياح التغيير تهب على آسيا وأفريقيا، وأن الإمبراطورية البريطانية عليها أن تتراجع حتى تستطيع الحياة في عالم متغير».

وهكذا كان مجرد انعقاد مؤتمر «باندونج» هو جدول الأعمال وهو إعلان القرارات في نفس الوقت.

■ والمرة الثانية، كانت في مناسبة مؤتمر القمة الدولية في جنيف سنة ١٩٥٥، وقد شارك فيه الأربعة الكبار حين تخوفوا من أن تتحول الحرب الباردة بينهم إلى حرب ساخنة، والتقى في جنيف رؤساء الولايات المتحدة («أيزنهاور») وبريطانيا («إيدن») والاتحاد السوفيتي («بولجانين» و«خروشوف») وفرنسا («إدجار فور»)، ولم تكن قرارات المؤتمر المعلنة هي النتيجة الأهم، ولكن الأهم كان ما أطلق عليه «روح جنيف». فقد كانت هذه «الروح» بمثابة أمل تعلقت به احتمالات وفاق دولي يضبط الحرب الباردة لا ترتفع حرارتها وتصل إلى درجة الحمى بحرب يصعب عزلها عن الأسلحة النووية، لأنه في حروب القوى الكبرى الغالبة لا يسمح طرف لنفسه أن ينهزم، وبالتالي فإنه عند لحظة معينة يراها حاسمة لن يحرم على نفسه سلاحاً حتى وإن أجمع البشر على تحريمه!

وهكذا فإن مجرد انعقاد القمة الدولية الرباعية سنة ١٩٥٥ والأمل الذي أشاعته «روح جنيف» - كانا أهم من جدول أعمال يعتمده المؤتمر، ومن إعلان قرارات تصدر عنه.

وذلك لا ينطبق على مؤتمر عمان القادم.

فلا هو مثل مؤتمر «باندونج» (١٩٥٥) نداء إلى شعوب دخلت حديثاً إلى ساحة التحرير - بأحلامها العذراء..

ولا هو مثل مؤتمر «جنيف» (١٩٥٥) قادر على أن يشيع «روحاً» تنشر الأمل وتحاصر الشر.

وفي الحالتين - فقد كانت تلك «بداية طريق» - وعلى عكس عمان التي هي الآن «نهاية طريق».

فلا الأحلام العربية عذراء - ولا الروح أملاً ملهماً!

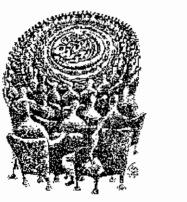
ولعل الأخطر من مقولة أن «مجرد انعقاد» قمة عمان يكفيها - هو ذيوع مقولة أخرى تحقق بها ملخصها «أنه وقد تقرر أن تكون القمة العربية دورية - كل سنة - فإن ما قد يفوت في مؤتمر يمكن اللحاق به في مؤتمر يليه». وذلك تصور ينقصه التنبه إلى أننا «نهاية طريق». وأن «الأمة» - خلافاً «للقمة» - واعية بقرب النهاية، وذلك سر إلحاحها على الاجتماع وتزايد الإلحاح.

والحاصل أنه منذ قمة القاهرة (أغسطس سنة ١٩٩٠)، وفي الأجواء الموحشة تلك الأيام، تحولت معركة إخراج العراق من الكويت إلى عملية مقصودة ومنظمة لتدميره - وتواترت الظنون بعدها أن قمة سنة ١٩٩٠ سوف تكون آخر القمم لأن هناك إرادة دولية - أمريكية بالتحديد - رسمت بتجميد الوضع العربي عند تلك اللحظة التي انقسمت فيها الأمة، والتي وقع فيها وطن من أهم أوطانها أسير محنة طاغية لم تقتصر على حصار العراق واعتصاره. وإنما شاعت نتائجها المأساوية إلى كافة أرجاء العالم العربي، وتباعدت الأهداف وتقاطعت الطرق، وتشرذمت الولاءات إلى درجة المساس بالهوية، وتلك كلها من زمن طويل مطالب مرغوب فيها ومقصودة من جانب قوى كثيرة أولها إسرائيل!

وخلال السنوات من ١٩٩١ وحتى ١٩٩٦ كانت الأمة تستشعر المحنة وتنادي زعماءها حتى تطمئن نفسها في أجواء الوحشة إلى أن هناك مسئولية وهناك مسئولين على مستواها - لكن النداء ظل معلقاً بغير جواب!

ووقع في روع الناس أن هناك «فيتو» أمريكي قائم ومرجعه مطلب الولايات المتحدة في استمرار حصار واعتصار العراق، ثم إن الولايات المتحدة - أساساً ومن حيث المبدأ - تكره القمم العربية «على ظن أن الزعماء العرب حين يجتمعون يشغلهم أن يسترضوا جماهيرهم خطابياً - ومن ثم فإن انعقاد أي قمة معناه مزايدات تجيء عند السقف الأعلى للمطالب العربية. ولكن المشكلة - حتى بـ«اعتدال» التصرفات رغم «حماسة» القرارات - أن ما يصدر عن القمم العربية يحدث لدى الشارع العربي نوعاً من التعبئة المعنوية تتحول بدورها إلى عنصر ضغط.

وهكذا يبدو الأسلم - من وجهة النظر الأمريكية - «وضع فيتو» يمنع انعقاد قمة عربية، خصوصاً بعد «مدريد» وبعد «أوسلو» - حيث ظهرت احتمالات لتسويات مع إسرائيل قاد إليها اليأس أكثر مما دفع الرجاء - وعلى هذا الأساس فتلك أحوال من الأفضل تثبيتها وتركها لتفاعلاتها لا يمسها أحد بكلمة أو حركة، ولا يضيف إليها ما يوقظ أو ينبه.



وكان ذلك ما وقع في روع الناس ابتداء من قمة سنة ١٩٩٠، وإلى حد ما فإن بعض منطقه (وبعض الوقائع) لم يكن مجانباً بالكامل للصواب.

لكنه في يونيو سنة ١٩٩٦ - جرى توجيه الدعوة إلى مؤتمر عربي على مستوى القمة انعقد فعلاً لثلاثة أيام من ذلك الشهر (يونيو) ١٩٩٦ - وتبدى انقسام بين المهتمين بالأمر حول السبب الذي من أجله جاءت الدعوة إلى القمة ولحقتها الردود بالإيجاب:

- كان هناك من رأوا أنها يقظة المسئولية جعلت الزعماء العرب يعصون «الفيتو الأمريكي» ويتحدونه.

- لكنه ظهر في نفس الوقت من رأوا أن القمة كانت «سماحاً» أمريكياً يريد امتصاص مفاجأة العرب بنجاح «بنيامين نتنياهو» «المتشدد» ضد «شيمون بيريز» «المعتدل» في انتخابات رئاسة الوزارة (١٩٩٦) في إسرائيل.

أي أن القلق من نتائج الانتخابات الإسرائيلية ووقع صدمتها على العرب هو الذي استوجب «السماح» الأمريكي خشية من يأس عربي ينفض يده من التفاوض ويعاند في رفض «الحل»!

ولتلافي هذا اليأس جاء «السماح» على أمل أن اجتماعاً عربياً على مستوى القمة - بعد طول انتظار وإلحاح - يستطيع تهدئة الشارع العربي وتطرية أجوائه، وبالتالي يخف الضغط عن حكامه، ولعلهم يجربون مع «الصقور» الإسرائيليين وأولهم «نتنياهو» - ثم يستمر «التفاوض» وتتواصل «المسيرة»!

وطبقاً لهذا الرأي فقد زاد على ذلك وفوقه - أن الذين «سمحوا» بالقمة وقتها، أو «لم يعترضوا» عليها، انتهزوا الفرصة «لتمرير» قرار عربي لم يطالب به - من قبل - أحد باعتبار السلام خياراً إستراتيجياً لكل شعوب المنطقة. وكان الادعاء الدافع لـ«تمرير» ذلك القرار أنه «يحرج نتنياهو أمام العالم كله» - عندما يتشدد في مواجهة أمة أجمعت رأيها على خيار السلام»!

وهكذا فإن «السماح» بالقمة استعار أسلوب «المنشار» في تحقيق أغراضه طالعاً ونازلاً!

ومضت سنوات من ١٩٩٦ حتى سنة ٢٠٠٠ والشارع العربي يسأل عن القمة العربية - ماذا جرى لها؟ وأين غابت؟ ومتى موعدها؟ - واشتد الإلحاح مرة أخرى عندما عاد حزب العمل الإسرائيلي إلى الحكم مرة ثانية بعد سقوط «نتنياهو». والنتيجة أن المدني الذي ظهر حمقه ترك مكانه لعسكري تأكد حمقه!

وبخيبة الأمل في «باراك» لاحقة بخيبة الأمل في «نتنياهو» - صدرت دعوة إلى مؤتمر جديد لقمة عربية انعقد ليوم واحد - أربع وعشرين ساعة - نهار ٢١ ونهار ٢٢ أكتوبر سنة ٢٠٠٠ - وكان بين قراراته أن تكون القمة دورية كل سنة - «على نحو ما يجري في مؤتمرات القمة الأفريقية، وفي مؤتمرات قمة دول الأطلسي أو دول السوق الأوروبية».

■ وكان التمثل بالقمم الأفريقية - لسوء الحظ - تشبيهاً غير مطلوب، لأن القارة السوداء - رغم القمم الدورية - دخلت إلى ليل غارق في الدم - وطويل، والشاهد الأكثر صدقاً على ما جرى فيها أحد كبار أبنائها وهو نفسه الأمين العام الحالي للأمم المتحدة «كوفي عنان»، الذي تحدث أخيراً - نهاية الشهر الماضي - أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في «دافوس» ليقول إن «القارة الأفريقية تعيش مأساة مروعة. والسبب الرئيسي فساد زعمائها وساستها (أبطال القمم) إلى درجة لا يرجى معها في الظروف القائمة - صلاح!»

والظاهر أمام الجميع الآن أنه عندما جاء الاستقلال لمعظم الدول الأفريقية - فإن الزعماء الذين وصلوا على القمة تصوروا أنهم «البديل الوطني» عن المستعمرين السابقين، والنتيجة أن الحكومات الأفريقية الجديدة راحت - بعد الاستقلال كما كان حال الإدارة الاستعمارية قبله - تعتبر نفسها المالك الشرعي للثروة والمقاسم فيها للقوى الكبرى المسيطرة والشركات الدولية الطامعة.

■ وكان التمثل بقمم دول الأطلسي أو دول السوق الأوروبية ادعاء لا تقدر عليه القمم العربية، لأن قمم الأطلسي والسوق الأوروبية تلاقي إرادات تعرف أنها في خدمة الأوطان

الخطر الأكبر على القمة القادمة في عمان أن يفوت عليها أنها عند، أو قرب!، «نهاية طريق»، وهنا فإن «مجرد الاجتماع في حد ذاته ليس كافيا لتحقيق المطلوب منه».

وليس العكس. وقد وصلت إلى درجة من النضج تجاوزت الاحتفالات والمراسم - بحيث أصبحت اجتماعات الرؤساء مواعيد عمل لا يضيع وقته، وهي في كثير من الأحيان عطلة نهاية الأسبوع في بيت ريفي يعرف فيه الأصدقاء كيف يفتحون قلوبهم لبعضهم، أو قبل أو بعد غداء أو عشاء خفيف في مطعم لا يحتاج فيه الزملاء إلى مبالغات المظاهر. تنزل عليها غلالة الأمن. ويتحول لقاء خطط الأصدقاء والزملاء - إلى مباراة في الشكليات والرسميات والأبهة بين السلاطين!

وبصرف النظر عن أي شيء وكل شيء فإن القضية الأكبر هي ما إذا كانت قمة «عمان» تدرك أنها قرب «نهاية طريق»؟

وهو سؤال مبهم - وفي نفس الوقت سؤال خطر.

ووجه الأهمية والخطر في السؤال أنه إذا لم تنتبه قمة «عمان» إلى أنها قرب «نهاية طريق»، فقد يتأكد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بعد ما أنها «نهاية طريق» - ذلك أن أهمية المؤتمرات والاجتماعات لا تتعلق بألقاب المشاركين فيها (ملحوقة بأوصاف الجلالة، والفخامة، والعظمة، والسمو، والدولة، والمعالي، والسعادة، إلى آخره!) وإنما تتعلق بقيمة ما تتوقعه الشعوب والأمة منها - فإذا لم تجد الشعوب والأمم ما كانت تأمله عندما استدعت القمم وطلبتها وألحت في الطلب - فهنا الخطر. حتى وإن تكرر بعد ذلك انعقاد القمم وأصبح لها عدد يحصى دون حساب يحسب! ■

66 99

واسرائيل أيضا عند «نهاية طريق»

■ وفي ذات الوقت فإن السياسة الإسرائيلية هي الأخرى عند «نهاية الطريق».

لكن الذي أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وهم السلام» كما هو الحال على الناحية العربية، وإنما «وهم السلاح».

وكان المشروع الصهيوني منذ بدايته - قبل مائة عام - يقدر للسلاح دورا لا يتجاوزه، ثم تحول هذا الدور مع التجربة العملية حتى تغير - بالكامل تقريبا.

● والذي جرى فعلا أنه على امتداد نصف قرن، أي من بداية المشروع وحتى سنة ١٩٤٨ - كان المطلوب من السلاح - طرد أكبر عدد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصا بعد أن اتضح أن فلسطين ليست - كما تصور «هيرتزل» - «أرضا بلا شعب تنتظر شعبا بلا أرض». وقد أدرك «هيرتزل» هذه الحقيقة أثناء قيادته للحركة الصهيونية، وراعه بعدها عن مخيلته (وكان الذي حدث أن «هرتزل» الذي أراد أن يستوثق من استعداد أرض فلسطين للاستيطان اليهودي بعث باثنين من حاخامات «فيينا» لمهمة استطلاع، ومن فلسطين أرسل إليه الاثنان «تلغرافا» يقول له بالرمز أن «العروس جميلة - لكن المشكلة أن لديها زوجا» - يقصد الحاخامان أن «الأرض عليها شعب».)

وفي هذه المرحلة - ومن مخيلة «تيودور هيرتزل» إلى مخطط «دافيد بن جوريون» - كانت مهمة السلاح في المشروع الإسرائيلي أن يتكفل بقتل الزوج، أو طرده على الأقل لكي يحل شعب محل شعب، أو زوج مكان زوج.

● وعلى مدى ما يقرب من عشرين سنة تالية - من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ - كانت الإستراتيجية العليا لإسرائيل تعطي للسلاح الإسرائيلي دورا محددا تطلبه إبعاد الواديين الكبيرين - وادي الفرات ووادي النيل - عن منطقة الشام التاريخية الممتدة والواصلة بينهما. والمطلوب من وراء هذا الدور أنه إذا كان لا بد للمشروع الإسرائيلي أن يعيش في «الوطن الموعود» فإن البيت الفلسطيني وحده لا يكفي، وإنما لا بد لسلامة البيت من محيط أمني يعطيه مساحة كافية للتمكن والنفوذ، لأن الأوطان لا يدافع عنها عند حدودها، وإنما يدافع عنها في إقليمها جوارا ومحيطا.

وفي هذه الفترة تركزت قوة السلاح الإسرائيلي أكثر على مصر بالذات تقصد إبعادها عن الشام بالذات. وهنا كانت القوة المصرية - العسكرية أولا - خطرا لا بد من إزاحته بكل الوسائل حتى يبتعد، أو يحصل قتله إذا عاند (وهنا وجه شبه بين وجود الجيش المصري على حدود فلسطين - وبين وجود الشعب الفلسطيني على أرضه - كلاهما يتعين عليه أن يرحل بعيدا عن فلسطين بالهجرة - فإذا عاند كان على السلاح أن يتكفل به!)

● وفي ظروف يونيو سنة ١٩٦٧ وإلى هذه اللحظة (مارس ٢٠٠١) - وقع المحظور الذي كان يخشاه كثيرون من «المختلفين» الذين شاركوا في إقامة المشروع وساعدوا على تحقيق مهامه، وبينهم على سبيل المثال رجل مثل «ناحوم جولدمان» الذي رأس «المؤتمر اليهودي» (وهو قيادة التنظيمات اليهودية في أمريكا وأوروبا)، ورجل مثل «موشي شاريت» الذي أدار السياسة الخارجية للوكالة اليهودية قبل قيام الدولة (وأصبح وزيرا للخارجية بعد قيامها، ثم تولى رئاسة الوزارة لسنة كاملة)، ورجل مثل الدكتور «يهودا ماجنس» (الذي قام على بناء النظام التعليمي في دولة جاء سكانها من ٩٢ دولة أخرى)، وغير هؤلاء كثيرون فهموا وتصرفوا بإدراك أن قوة السياسة - وليست قوة السلاح - هي أمان اليهود طوال تاريخهم - (قبل الدولة وبعدها).

كانوا جميعا يدركون حاجة المشروع الصهيوني إلى استخدام السلاح - لكنهم جميعا جاهدوا حتى يلتزم السلاح حدوده ولا يفسد على المشروع دعاواه المعنوية وضروراته العملية!

ثم وقع المحظور في تلك الأيام المشهودة من يونيو سنة ١٩٦٧. ففي لحظة انتظار التزمها القرار السياسي الإسرائيلي (عن رغبة في الاطمئنان أكثر إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها وقيادتها ورئيسها في ذلك الوقت «ليندون جونسون» - جاهزون جميعا للمعركة مع مصر) - اندفع السلاح إلى ما يمكن اعتباره نقطة تحول في التاريخ الإسرائيلي، إذ اعتبر نفسه مكلفا بمستقبل إسرائيل ومصيرها، وهنا قاطع الانتظار السياسي وقطعه. ثم استولى على الحرب، ومع استيلائه على الحرب استولى على السياسة، وتجاوز واخترق حدودا لم تطلبها إستراتيجية إسرائيل العليا كما قدرها الآباء المؤسسون الأوائل، بل حاذرتها متأكدة أنها على المدى البعيد محكوم عليها!

تجاوز السلاح الإسرائيلي حدوده واحتل كل سيناء (في حين كان المطلوب - وفق التخطيط الإستراتيجي - أقل من نصفها)، ثم تجاوز السلاح حدوده فاحتل كل الضفة الغربية للأردن بما فيها القدس (في حين كان المطلوب - سياسيا ومعنويا - وعند الضرورة حائط المبكى وحده)، ثم تجاوز السلاح الإسرائيلي حدوده فصعد إلى هضبة الجولان (ولم يكن ذلك مطلوبا من الأصل لأن الإستراتيجية العليا لإسرائيل كانت تحاذر من جراحات دموية في الشام. فهي تريد المنطقة سليمة بقدر الإمكان - هادئة بقدر الإمكان - بلا دم في الحاضر، ولا ثأر في المستقبل!)

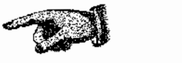
وكان تجاوز السلاح لحدوده نذير شؤم، وقد رآه «ليفي أشكول» رئيس وزراء إسرائيل في وقته، وأدرك مغزاه، وعبر عن قلقه من عواقبه عندما التفت إلى عدد من زملائه الوزراء (وفق ما سجله مدير مكتبه الجنرال «إسرائيل ليور») وقال بغضب مكبوت ممزوج بأسى مرير: «ماذا يريد هؤلاء الجنرالات؟ هل يريدون لإسرائيل أن تعيش بالسيف، وأن تعيش بالسيف وحده، وأن تعيش بالسيف وحده إلى ما لا نهاية؟»

وكذلك كان!

● والنتيجة أنه في ثلث القرن الأخير وجدت إسرائيل نفسها في الشام دولة إمبراطورية (وفي الإمبراطوريات كبير وصغير) - لكن الإمبراطورية مهما كان حجمها قد تكون لها مزايا مغرية، لكن لها مع مرور السنين تكاليف مرهقة، خصوصا عندما تتنازل كافة عوامل القوة وتترك مكانها للسلاح وحده.

ولقد تعلمت الإمبراطوريات - حتى تلك الكبيرة والقادرة - أن تكاليف الإمبراطورية - حين يكون اعتمادها على السلاح وحده - عبء ثقيل، خير منه الانسحاب، وحتى بغير شروط - وأحيانا بغير كرامة، كما فعلت الإمبراطورية البريطانية في السويس (مصر)، وكما فعلت الإمبراطورية الفرنسية في «ديان بيان فو»، وحتى كما فعلت الإمبراطورية الأمريكية في «سايجون» (فيتنام).

لكن مثل ذلك لم يكن في مقدور إسرائيل لأن «الإمبراطورية» كانت من حول حدود الدولة نفسها - فإذا كان لا بد من انسحابها فإن الشرط المطلوب



السياسة الإسرائيلية عند «نهاية الطريق»، لكن الذى أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وهم السلام» كما هى الحال على الناحية العربية، وإنما «وهم السلاح»

توافره أن يكون انتسابها مصحوباً باعتراف شامل «تاريخى» و«قانونى» و«سياسى» و«عسكرى» لا يملك العرب أن يقدّموه - وحتى إذا قدّموه فإن إسرائيل لن تُصدِّقه ولن تُصدِّق المتطوعين به لأنها أول من يعرف - وإن تاخر غيرها فى المعرفة - أن الحقائق على الأرض لها أحكامها، وأولها أن المحيط العربى حول الدولة اليهودية أكبر منها عدة مرات، وإذا لم يكن هذا المحيط الآن قوياً بما فيه الكفاية - فإن الضعف ليس مضموناً إلى ما لا نهاية!

ولتوفير كافة الشروط والضمانات وتوثيق عقود التأمين ضد مُتغيِّرات المستقبل (وأولها الاطمئنان إلى عَزْل الشام عن مصر ومصر عن الشام) فقد توصّلت إسرائيل - بمساعدة الولايات المتحدة - إلى عقد معاهدة مع مصر كان مقصدها الأكبر إبقاء القوة المصرية - وفيها الجيش المصرى - وراء قناة السويس شرقاً. ولتسهيل ذلك على مصر فإن إسرائيل أصبحت على استعداد للانسحاب من سيناء كلها بما فيها «شرم الشيخ» (برغم مقولة الجنرال «موشى ديان» بشأنها يوماً أنه «يُفضِّل شرم الشيخ دون سلام - على سلام دون شرم الشيخ»). ثم إنها كانت على استعداد أيضاً لهدم أى مُستعمَرة أقامتها فى سيناء بما فى ذلك مُستعمَرة «ياميت» (رغم عملية تمرّد وعصيان على القرار تزعمها الجنرال «أريل شارون» فى تلك الأيام).

وفوق ذلك ولتدعيم هذه المعاهدة بين إسرائيل ومصر - فإن الولايات المتحدة علّقت عليها - ولأجَل طويل - حزمة مساعدات عسكرية ومدنية حجمها خمسة بلايين دولار كل سنة، اثنان منها لمصر وثلاثة لإسرائيل - والحزمة كلها بقرار الرئيس وقرار الكونجرس الأمريكى ذيل للمعاهدة وشرط من شروطها، يقضى - ضمن ما يقضى - بأن «تبذل مصر جهدها لإقناع بقية العرب بضرورة وجدوى السلام مع إسرائيل»!

● وكان المفروض بعد إبعاد مصر عن الشام «بمعاهدة» أن تعود السياسة فى إسرائيل لممارسة الحق الذى اغتصبه السلاح منها فى ظروف سنة ١٩٦٧ - لكن السياسة ظلّت ضعيفة أمام السلاح، وتلك طبائع أحوال حين يتجاوز السلاح دوره، وتضعف السياسة عن استعادة حقها فى القرار - ففى مثل تلك الأحوال تنقلب نظرية «كلاوزفيتز» رأساً على عقب: لا تصبح الحرب ممارسة للسياسة بوسيلة أخرى، ولكن تصبح السياسة ممارسة للحرب بوسيلة أخرى!

والشاهد أنه منذ بدأت عملية السلام مع مصر فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ - فإن رئاسة الوزارة الإسرائيلية ووزارة الخارجية بقيتا فى يد العسكريين طول الوقت أو معظمه:

«رابين» رئيساً للوزراء مرتين - «باراك» رئيساً للوزراء مرة - والآن جاء الدور على «شارون».

وكان انتقال السُلطة من عسكرى إلى عسكرى ينزل بالسياسة درجة فى كل مرة لأنها الخطيئة الأولى ومعها ثمرة أو ثمرات منها مُضافة عليها!

وفى نفس الوقت فإن وزارة الخارجية تولاها العسكريون من الجنرال «آللون» منتصف السبعينات - والجنرال «موردخاى» فى الثمانينات - وحتى الجنرال «باراك» نهاية التسعينات. بل إنه حتى فى الاتصالات السياسية غير الرسمية ظلّ الجنرالات هم الرسل والرسائل - من الجنرال «ديان» إلى «الجنرال «شاهاك» - وحتى الجنرال «موفاز» رئيس الأركان الحالى!

لكنه يبقى أن السلاح يظل عاجزاً عندما يملك القرار وحده، وهو يقدر على النجاح فى معاركه ولكنه يَعجَز عن إحراز النصر فى حربه، ثم تزداد ضراوة السلاح بغرور القوة حتى تصبح إدارة السياسة «ساقية دم» دوّارة!



والذى حَدَث أن ضراوة السلاح مع النجاح زادت من اعتقاده بأن الظروف مالائمة لعَزل الشام عن الوديان: باعتبار أن وادى النيل بَعِيدٌ بمعاهدة «سلام» رَعَتها الولايات المتحدة، ووادى الفرات مُدمَّر بحرب تولتها الولايات المتحدة - أيضاً (طالبة من إسرائيل أن تضبط أعصابها ولا تستفز حتى إذا طالتها صواريخ العراق، وحُجّتها أن تدمير القوة العراقية فى مصلحة إستراتيجيتها العليا). وبالفعل ضبطت إسرائيل أعصابها حتى بعد أن طالتها صواريخ العراق، ثم انتظرت عشر سنوات لتطالب العراق الآن بتعويض قدره ٤٧ بليون دولار تريد أن تخصمها من عوائد النفط العراقى التى تُحصِّلها الأمم المتحدة بمقتضى قرار العقوبات الصادر عن مجلس الأمن (أغسطس ١٩٩٠).

ومع «ساقية الدم» الدوّارة - بلا نهاية - وأوهام فى عَزل الوديان - لم تتأكد صحتها - طاحَ السلاح الإسرائيلى.

وبَلَغَ به الغرور حداً فاحتل من جنوب لبنان شريطاً حدودياً ظنّ أنه يستطيع الاحتفاظ به عازلاً أمن على حدوده الشمالية، وإذا هو يواجه مقاومة لبنانية فاجأته بما لم يكن مستعداً له. ثم حاول فى الجنوب أن يَضغط بقبضته على كُتلة بَشرية أحسّ بخطرها فى غزة، فإذا الانتفاضة الأولى تنطلق، ولم يستطع الجنرال «رابين» (بَطَل السلام فى وَهْم بعض العرب الآن) أن «يكسر عظام» الانتفاضة و«يهرس لحمها».. حسب منطوق كلامه.

● وطرأت مضاعفات مُستجِدّة، ذلك أنه من قبل اتفاق «أوسلو» (١٩٩٣) ومن بعده عادت إسرائيل ومعها الولايات المتحدة تطلبان من مصر بمقتضى المعاهدة أن تبذل جهدها ونفوذها لإقناع العرب - والفلسطينيين بالذات - بضرورة وجدوى السلام مع إسرائيل. وتحرّكت مصر - لكن حركتها بالتزام المعاهدة «ذكّرتها» بدورها التاريخى.

وحين بدا أن دعوة وادى النيل إلى ممارسة دوره توقظ ذاكرته - ودوره التاريخى بالضرورة - وتوافق ذلك مع ظرف بدا فيه أن وادى الفرات يستجمع قواه - زادت العَصَبيّة الإسرائيلية، وزادَ اعتمادها على «السلاح». وذلك شأن كل محاولة إمبراطورية تقاوم تيار التاريخ يظن أنها قادرة على مُغالبته أو على غلبته:

● وعندما يطيح «السلاح» مُتجاوزاً حدوده - وكل حدود - فإن أداءه يتنازل من «القتال» إلى «القتل».

لكن ممارسة «القتل» خطر على الذين يتعرّضون لنيرانها - وهى أخطر فى المدى الطويل على الذين يمارسونها.

ذلك أنه عندما يتواصل سفك الدم تموت الأعصاب، وحين تموت الأعصاب يموت الضمير، وعندما يموت الضمير تموت الثقافة، وعندما تموت الثقافة يتساوى الإنسان فى المدينة مع الوَحش فى الغابة تاركاً روحه وعقله فى كُهوف الظلام!

وكانت تلك هى الأزمة التى استدعت الانتفاضة الثانية - وهى مختلفة فى كل شىء عن سابقتها.

■ فى الانتفاضة الأولى كان الشباب الفلسطينى يتحدّى القوات الإسرائيلية فى شوارع المدن والقرى وحواريها ثم يطاردها بالحجارة مُتعرّضاً للقتل.

■ وفى الانتفاضة الثانية، وهى لاحقة لقيام السُلطة الفلسطينية، كان الجيش الإسرائيلى قد خَرَج من قلب المدن والقرى إلى أطرافها مُمسكاً بنقط المرور بينها - أو مُمسكاً بتقاطعات الطرُق منها وإليها. وهنا كان على الشباب الفلسطينى أن يخرج فى «رحلة شهادة» نحو القوات الإسرائيلية حيث هى، يَقذفها بالحجارة ويتلقى الرَدّ بالرصاص!

وكانت هذه تجربة فى «القتل» لا تُطاق، وقد وَصَل تأثيرها إلى «أداة القتل» وهى الجيش الإسرائيلى نفسه، إلى درجة أن منظمة العفو الدولية أصدرت تقريراً خاصاً نشرته صُحُف الأحَد البريطانية فى الأسبوع الأخير من شهر يناير الماضى (يوم ٢٦ بالتحديد) وفيه أرقام تستحق الالتفات - وتستحق الاحترام أيضاً - عن مئات من الجنود الإسرائيليين رفضوا الخدمة العسكرية فى قطاع غزة وفى مُدُن الضفة الغربية. ومنهم تسعة على الأقل وُضِعوا فى السجن رَهن المحاكمة، ومنهم أربعون أوقفوا بتهمة عصيان الأوامر. ونشرت جريدة «الأوبزرفر» حديثاً مع جندى إسرائيلى عمره ٢٠ سنة واسمه «إيال روزنبرج» يقول فيه: «إننى أستيقظ كل صباح مُمَزّقاً بين ما هو مطلوب منى وبين ما أعتقد به»! - ثم يستفيض تقرير «الأوبزرفر» (الذى كتبه مراسلها فى القدس «جاسون بيرك»)، ويروى نقلاً عن جندى إسرائيلى آخر (اسمه «لوتان راز») أنه حين تَرَدَّد فى تنفيذ أوامر بالقتل الصريح لمارة يَعبُرون طريقاً أمامه - نَهَرَه قائد وحدته واتهمه بأنه «ليس يهودياً إذا لم يقتل أعداء إسرائيل - وإنما هو جبان وخائن أيضاً». وكان ختام رسالة «الأوبزرفر» نقلاً عن جندى إسرائيلى: «علىّ أن أقتل إنسانيتى حتى أواصل قتل الأطفال العرب.. وذلك لم يَعُد فى طاقتى»!

ولم يكن مأزق السلاح فى سُلطان الضمير وحده، فقد سبقه من قبل سُلطان الخوف، ذلك أن السلاح حين يتمادى ويتجاوز يستفز أمامه أنواعاً من المقاومة لم يَتحَسّب لها (مثلما حَدَثَ فى جنوب لبنان، وقبله فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فى سيناء والجولان، وقبلها فى حرب الاستنزاف عبر قناة السويس.)

● وفى أجواء مُعتمة لا يَلمَع فيها غير ألسنة لَهَب وبُقَع دَم - فشل «باراك» - كما فشل «نتنياهو» - كما فشَلَ غيرهما من قبل - فى الحفاظ على أغلبية فى الكنيست، ورأى «باراك» تعزيزاً لسُلطته وحتى يستطيع مواجهة الاحتمالات القادمة أن يدعو لانتخابات على رئاسة الوزارة - يعود بها أقوى. وكان ظنه أن فرصة نجاحه كبيرة لأن صندوق الاقتراع سوف يضع إسرائيل أمام خيار لا تستطيع أن تهرب منه - وهو الخيار بين النهر والبحر - نهر الدَم الذى أساله هو، أو بحر الدَم الذى سوف يَهيج إذا فاز منافسه «شارون».

وكان تقدير «باراك» أن إسرائيل تَقبَل بالنهر، ولا تَقبَل بالبحر!

وكان تقدير «باراك» أيضاً أن العرب سوف يعتبرونه أهْوَن الضررين، لأنه إذا كان النهر دَماً فإن قارب المسيرة يظل قادراً على الخوض فيه - وأما إذا أصبح الدَم بَحراً هائجاً فإن القارب حطام مع نوعٍ من الغرق شديد البشاعة قبل أن يكون شديد الخطر!

لم يقتنع «شارون» في أي وقت من الأوقات بوجود سلطة وطنية فلسطينية. وهو يعتبرها «اختراعاً من اختراعات حزب العمل.. وتقليعة من تقاليع شيمون بيريز»

لكن الوقائع جاءت على خلاف مع التوقعات:

وهكذا يجيء «شارون» رئيساً لوزراء إسرائيل، وتقترب إسرائيل من «نهاية الطريق» بـ«وضع السلاح» - وليس بـ«وضع السلام»!

وكانت مقدمات مجيء «شارون» تلك التصريحات التي أطلقها حليفه «أفيجدور ليبرمان» رئيس حزب «إسرائيل بيتنا»، وكلها على شكل أسئلة - وفي أثر كل سؤال جواب!

- «مَن هو «عرفات»؟ - إرهابي نستطيع أن نعتقله في غزة أو نطرده منها في أي لحظة نريد».

- «ما هي سوريا ومَن هو رئيسها؟ - نستطيع أن نقصم ظهر سوريا بضربة واحدة قاضية».

- «مَن هي مصر؟ - نستطيع أن نرسل إليها الطوفان بقنبلة نووية واحدة فوق السد العالي، ويصبح المشروع الذي تصوَّرته مصر أمل حياتها - هو نفسه نهاية حياتها!».

ثم قائمة لا تنتهي من الأسماء تنالها التهديدات أو الإهانات: «مبارك» - «القذافي» - «فهد» - «صدام». لا أحد منهم بعيد عن السلاح الإسرائيلي الأقوى!

على أن هذا النوع من «المقدمات» قد لا يكون بالضرورة أسلوب «شارون» من أول ساعة - وإنما الأرجح أن يتخذ لنفسه أسلوب تصاعد يتدرج خطوات متوالية - حركة بعد حركة:

١ - في الحركة الأولى - فإن «شارون» سوف يحاول أن يثبت للعالم أنه رَجُل دولة إلى جانب كونه جنرال جيش!

وكذلك فإنه على استعداد لأن يمد يده للعالم - وللعرب. وهنا فإنه:

- سوف يطلب من الرئيس الأمريكي الجديد «جورج بوش» أن يساعده.

- سوف يطلب أيضاً من اثنين أو ثلاثة من الرؤساء العرب أن يسمعوا منه - ومباشرة إذا أمكن!

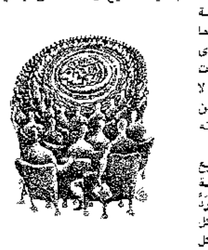
- ثم إنه ليس من المستبعد أن «يتواضع» ويمد يده ليسلِّم على «ياسر عرفات»، وهو ما امتنع عنه حتى الآن (وفاخر به طوال حملته الانتخابية).

- وأخيراً فمن الوارد أن يُبادر بتوجيه رسالة اعتدال لمؤتمر القمة العربية في عمّان يقلل تفويت الفرصة على أي «متشدد» عربي. وبتقدير أن ذلك (في نفس الوقت) يزيد من التشتُّت عندما يتوهَّم بعض العرب (كالعادة) أنه من المناسب «الانتظار عليه»، والتروِّي قبل الحكم «بحيثيات ما قاله في المعارضة لأن المعارضة جموح والحُكم مسئولية» - و«أنه من العقل تذكُّر أن شارون «الجنرال» غير شارون «الوزير» غير شارون «المرشح لرئاسة الوزارة» غير شارون «رئيس الوزراء».

[إلى جانب كلام كثير من هذا النوع سُمع من قبل وأثبتت التجربة جهله قبل أن تثبت خطأه، لأن أي سياسي يحترم نفسه، ملتزم إزاء ناخب أعطاه صوته، ولا بد له أن يرسم خططه في الحكم على أساس برنامجه قبل الصندوق. فضلاً عن أنه ليس في مقدور أي سياسي أن يعيد اختراع نفسه في كل مرحلة من مراحل حياته! - والواقع أن ساسة إسرائيل جميعاً قالوا ولم يكذبوا - لكن الغريب أن الساسة العرب سمعوا ولم يصدِّقوا - أو هكذا تظاهروا - حتى لا تفرض عليهم الحقائق قوانينها!]

والشاهد أن هذه هي الحركة الأولى وتلك أجواؤها، وهي جارية الآن تسبق القمة وتُهيئ لها!

٢ - والحركة التالية - أن لا يكون لدى «شارون» ما يُمكن قبوله، وذلك هو الأقرب إلى المحتمل. فالجنرال القادم لا يستطيع أن يعرض على السلطة الفلسطينية أكثر مما عرضه عليها الجنرال الذي سبقه. وفي نفس الوقت فإن السُلطة الفلسطينية لا تستطيع أن تقبل من «شارون» بأقل مما رفضته لـ«باراك».



وإذن فإنها أسابيع وشهور وتجد المنطقة نفسها أمام تفاقم وتردٍّ في الأوضاع أسوأ من كل ما سبق - ثم يفقد كل الداعين إلى «الحذر» و«الانتظار» و«الفرصة» و«العقل!» حججهم وذرائعهم، ويكون عليهم ولو بالصوت الخافت أن «يقتنعوا»!

٣ - وفي الحركة الثالثة - فإن «شارون» وسجل خدمته في الجيش الإسرائيلي أنه «ضابط عمليات خاصة» وليس «ضابط تخطيط إستراتيجي» - رَجُل بالطبيعة لا يقدر على الانتظار لأنه مثل أي «ضابط عمليات خاصة» مطالب برد فعل سريع وحاسم - فإذا تصوَّر «شارون» أن «عرفات» يعاند في قبول عرض منه تصاعد رده إلى درجة احتجازه في غزة أو منعه عند اللزوم من العودة إليها بعد رحلة من رحلاته خارجها! - وربما تصاعد بالرد إلى درجة أن يفرض على السُلطة رئيساً آخر غير «عرفات» تقبل به بعض عناصر القيادة الفلسطينية أمام ماسورة بندقية - حتى لا يفرضه «شارون» عليها من ماسورة مدفع دبابة.

وعندما لا تنجح هذه الحركة - وهي على وجه اليقين فاشلة - فإن «شارون» قد لا يتردد في إنهاء وجود السُلطة الوطنية - من الأصل في غزة - دون أن يعني ذلك عودة الجيش الإسرائيلي إليها - ويكفيه في هذه الحالة أن يُحاصر القطاع بالنار، وأن ينزله على ركبتيه بالجوع!

والواقع أن «شارون» مُهيأ لهذا النوع من الإجراءات. فهو لم يوافق على اتفاقية «أوسلو». ولم يقتنع في أي وقت من الأوقات بوجود سُلطة وطنية فلسطينية. وهو يعتبر هذه السُلطة - وقد قالها بنفسه أخيراً لشخصية دولية (لست في حل من ذكر اسمها) - وقالها بنبرة باردة خالية من أي حس:

«هذه السُلطة الفلسطينية اختراع من اختراعات حزب العمل.

وعرفات؟ كاد يذهب إلى النسيان لولا اعتراف إسرائيل في أوسلو «بمنظمته الإرهابية»، وتلك تقليعة من تقاليع «شيمون بيريز»».

٤ - يتداعى بعد ذلك - وهذه هي الحركة الرابعة - أن «شارون» قد يحاول نوعاً من العودة إلى «الخيار الأردني»، بحيث تؤول إلى الأردن تلك البقايا التي لا تريدها إسرائيل من فلسطين، ويكون لهذه الدولة وما آل إليها، أن تختار اسمها النهائي فتكون «الأردن» أو تكون «فلسطين» إذا شاءت. وطبقاً لمعلومات أوردها المعلق الإسرائيلي (الأكثر إطلاعاً في إسرائيل) «زيف شيف» فإن عناصر في الأردن «طلبت إلى إسرائيل قبل اجتماعات «طابا» في شهر ديسمبر الأخير - أن لا تسلم منطقة «غور الأردن» للسُلطة الفلسطينية لأن ذلك سوف يُوجد جواراً بين حدود الأردن وحدود الدولة الفلسطينية (الموعودة) - وذلك جوار يريد الأردن أن يتفاداه». لكن الأردن في نفس الوقت «يخشى أن لا يكون بديل عدم إعطاء «غور الأردن» لسُلطة - قيام إسرائيل بضم المنطقة إليها» - ثم كان هناك بعد ذلك اقتراح «بأن يظل مصير المنطقة مُعلقاً لمدة ١٢ سنة على الأقل»!

وهذا الطلب - بصرف النظر عن أصحابه - إشارة موحية بأن هناك عناصر على استعداد للتفكير مرة أخرى - أو أنه مطلوب منها التفكير مرة أخرى - في نوع من الخيار الأردني!

٥ - وأخيراً - وليس آخراً كما يقولون - فإن «شارون» ليس عنده شيء لسوريا - ومع ذلك فهو مُصر على التفاوض معها لعقد اتفاقية «سلام» - وبذلك فهو يريد من سوريا إقراراً لإسرائيل بملكية الجولان - وذلك ما يسميه هو «الأمن في مقابل الأرض» بدلاً من «الأرض في مقابل السلام»!

خمس حركات يمكن التنبؤ بها مُقدماً - وما لا يمكن التنبؤ به بعدها كثير!

تزيد على ذلك حركة أخيرة لا يلتفت كثيرون إلى احتمالاتها بالقدر الذي تستحقه، وتلك هي مسألة العرب الذين بقوا في فلسطين بعد سنة ١٩٤٨ وقبلوا - في سبيل التمسك بالأرض وبالوطن - أن يحملوا جنسية دولة إسرائيل - وتلك قضية بالغة التعقيد:

● فمنذ قيام الدولة سنة ١٩٤٨ - وحتى حرب سنة ١٩٦٧ - كان العرب الذين ارتضوا بالمواطنة الإسرائيلية في سبيل التمسك بالأرض - جماعة معزولة عن الدنيا يتعامل شيوخها مع إسرائيل بالأمر الواقع، بينما شبابها يتأثرون بما يصل إليهم من أصداء الحركة القومية في الخمسينات ومنتصف الستينات.

وبعد سنة ١٩٦٧ فإن هؤلاء «الشباب» أحسوا أن عليهم وحدهم مسئولية مستقبلهم، وهنا بدأ مسعاهم النشيط إلى طلب العلم وطلب التأثير. وكان مخرجهم الوحيد هو ممارسة حق المواطنة في دولة إسرائيل برغم أي شيء وكل شيء!

● ومع مرور السنين من ١٩٦٧ وحتى «أوسلو» سنة ١٩٩٣ - وهي مسافة رُبع قرن تقريباً - زادت ونمت داخل إسرائيل أقلية قومية عربية قادرة ومُهيأة ومستعدة لممارسة كل الحقوق الديمقراطية المسموح بها في الدولة اليهودية.

وكانت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تتابع هذه العملية بمزيج اختلط فيه الارتياح بالتوجُّس:

الارتياح من أن أقلية عربية (حوالي ١٧٠ ألفاً وقتها) تعيش في دولة إسرائيل - وتحترم حدود المواطنة - وذلك عنصر جذب يشهد لها بالديمقراطية!

وفي نفس الوقت فقد كان داعي التوجُّس أن هذه الأقلية قد يهتز ولاؤها للدولة إذا ما طرأ ظرف غير متوقع، وتُصبح «كتلة حرجة» - خطرة على الدولة!

● وفي أكتوبر الأخير - سنة ٢٠٠٠ (وهذه الأقلية قد أصبحت أكثر قليلاً من مليون مواطن) - وقع المحظور، ذلك أنه عندما زاد «القتل»، وشققت سبيلات الدم، وسعت مواكب الشهادة في الانتفاضة الثانية إلى مقاديرها - فإن ذلك الطارق غير المتوقع حصل، لأن الأقلية العربية في إسرائيل وإن انتمت إلى الدولة بالمواطنة لم تقطع انتماءها القومي إلى الشعب الفلسطيني - وإلى الأمة العربية.

وقامت مظاهرات تأييد للانتفاضة في المدن العربية داخل دولة إسرائيل. وإذا الجيش الإسرائيلي المأخوذ بغرائز القتل - ينسى الفارق الذي يُميِّز مواطني دولة إسرائيل (حتى وإن كانوا عرباً)، ويُطلق النار على المتظاهرين - في «أم الفحم» و«الناصرة» - ويقتل ما بين خمسة عشر إلى عشرين مواطناً إسرائيلياً (من العرب).

وكان على إسرائيل اكتشاف أن القتل داخل الدولة غير القتل خارجها، فلئن أن «سلاح الإمبراطورية» يستطيع أن يقتل «أعداءها» - لكنه حين يقتل «مواطنيها» - إذن فهي ممارسة الجريمة وليس حق الدفاع - لأن الدم لم يعد خارج الحدود، وإنما هو داخل الحدود. وهي هذه المرة «حدود الدولة» وليست «حدود الإمبراطورية».

كان لدى العرب طول الوقت اطمئنان إلى أنهم فى نهاية النهاية واصلون إلى صفقة ترضيهم، لأن لديهم من البداية عهداً ـ وعقداً ـ يطلقون هم عليه وصفاً يريحهم وهو وصف «الشرعية الدولية». وهم لا يعرفون أن ذلك العهد والعقد لم يعد فيه الآن نص مقدس!

وهنا فإن «السلاح» يضع الدولة أمام خيارات كلها مُزعجة:

ـ إما أن تكون إسرائيل دولة لليهود وحدهم ـ دون ديمقراطية ـ وتلك دعواها، بل وضمن مُبرِّرات وجودها فى المنطقة طليعة لقِيَم العصر!

ـ وإما أن تكون إسرائيل دولة لكل مواطنيها بالديمقراطية ـ وذلك لا يجعلها دولة «يهودية» ـ فى حين أن «اليهودية» شرعية الدولة عند الأساس.

وفى الحالتين فهو خيار مُستحيل يطرح: إما التخلى عن الديمقراطية (وهى ميزة الدولة) ـ أو التخلى عن اليهودية (وهى شرعية الدولة).

وفى نفس الوقت فإن هذا الخيار المستحيل يُحتِّم على إسرائيل أن تقرر لنفسها: إما أن تكون دولة ممكنة ـ أو إمبراطورية مستحيلة فى الشرق الأوسط:

وقد كان الهَمُّ الأكبر فى المأزق بين «ديمقراطية» الدولة و«يهودية» الدولة ـ أن ما حَدَث بين الأقلية العربية داخل حدود إسرائيل فى أكتوبر ٢٠٠٠ أعاد إلى الوَعى خوفاً كبيراً غاب فى اللاوَعى سنين عديدة، وذلك هو الخوف الكبير من «القنبلة الديموغرافية» ـ أى قنبلة الزيادة فى عَدَد السكان، ذلك أن التقديرات التى جرى التنبُّؤ إليها مرة أخرى عادت لتُذكِّر أنه فى سنة ٢٠٢٠ سوف يزيد عَدَد السكان اليهود فى إسرائيل من ٥ ملايين الآن إلى ٧ ملايين ـ لكنه فى المقابل فإن عَدَد السكان العرب مع الخصوبة الزائدة للأمهات الفلسطينيات سوف يَرتفع من مليون واحد إلى سبعة ملايين ـ هذا دون أن يدخل فى الحساب حوالى سبعة ملايين من الفلسطينيين (فى الضفة والقطاع وشرقى الأردن)، وبذلك يصل تعداد الفلسطينيين إلى ١٤ مليونا. أى أنه فى أقلَّ من عشرين سنة سوف يكون من حول سبعة ملايين يهودى فى إسرائيل ـ أربعة عشر مليوناً من الفلسطينيين (داخل حدود إسرائيل وحولها!).

وتلك كلها علامات فى إسرائيل على «نهاية طريق» ـ لأن ما وَصلَت إليه يأخذها مباشرة إلى طريق آخر يجعلها دولة تمييز عُنصُرى بمثل ما كانت عليه جنوب أفريقيا فى زَمَن تَحَكُّم الأغلبية البيضاء (وهو ما عُرِف بنظام الـ«أبرتهايد») ـ أو دولة بوليسية فى إسرائيل تُكرِّر نموذج جنوب أفريقيا فى التجربة وفى النتيجة ـ وبديل ذلك وهو أصعَب منه أن يَسمَع «شارون» من حُلفائه الذين يدعونه إلى النقل الجماعى للسكان العَرَب Transfer لإخلاء «أرض إسرائيل» عن كل إنسان (وكل جماد) غير إسرائيلى.

(لم يَلتفت أحد بالقدر الكافى إلى تعليمات «شارون» الأولى ـ فقد أمرَ بتنظيف تقاطعات الطرُق ونقاط العبور من «الحجارة» بكل الوسائل بما فيها الجرَّافات ـ حتى لا يجد الأطفال هناك «حجارة» يستعملونها ـ أى أنه بدأ بعملية «نزع سلاح» ـ وقد تكون تلك إشارة رمزية غير مقصودة إلى نزع البشر إذا لم يُجْدِ نزع السلاح!)

«٣»

والولايات المتحدة الأمريكية كذلك!

الولايات المتحدة الأمريكية الآن ـ بدَورها ـ عند «نهاية طريق» ـ رغم أنها الآن المالك والمدير الوحيد لصناعة وتجارة «السلام» فى الشرق الأوسط، وكان ذلك امتيازها حصلت عليه واحتفظت به منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

والمدهش أن المطلب الأمريكى بامتياز الشرق الأوسط وَقَعَ أثناء الحرب العالمية وبعدها، وتصادَف تماماً مع دعوة يهود العالم للولايات المتحدة كى تتبنى «قيادة» الدولة ـ بعد أن أدَّت أوروبا دَورها فى تبنى مشروعها بـ«وعد بلفور» ـ وقد أدت هذه المصادَفة إلى تداخل أصبحت به حركة الاثنين مُتوافقة حتى وإن لم تكن طول الوقت مُتطابقة.

والواقع الذى عَرَضَ نفسه فى أبسط الأشكال ـ صورة كنز حصل عليه رَجُلٌ يعيش بعيداً عنه، ومصلحته أن يجد حارساً مُسَلَّحاً مُؤتَمَناً قريباً من الكنز ويستطيع حمايته، وخصوصاً أن «الناس» من حول الكنز «لم يصلوا بعد إلى سن الرُّشد»، وأمامهم (فى التقدير الأمريكى) زمان طويل حتى يبلغوه (بالمعايير الأمريكية!). وكان أن عَرَضَ المشروع الإسرائيلى نفسه، وتمَّ قبوله ليكون الحارس المسلَّح (تساعده فى ذلك اعتبارات أخرى أكثر تعقيداً فى اتصالها بأحوال العالم ومتغيرات عصورها)!

كانت الحرب العالمية الثانية هى الفرصة التى أتاحت للحلم الإمبراطورى الأمريكى أن يَرث الشرق الأوسط بما فيه البترول ـ وكانت هذه الحرب أيضاً هى الفرصة التى أتاحت للمشروع الصهيونى أن يَتقدَّم لإنشاء دولته اليهودية فى فلسطين ـ ثم إن هذه المشاريع الخطرة حَرَّكت فى العالم العربى ردود فعل تدعو إلى زيادة اليقظة. وكذلك وَقَعَ إنشاء جامعة الدول العربية وفى مقدمة المؤسسين لها مصر والعراق وسوريا. وتلك بالضبط هى قاعدة وادى النيل ووادى الفرات، والشام بين الاثنين جسرٌ واصلٌ وفاعل.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ظنَّت الولايات المتحدة أن الحلَّ الذهبى لأوضاع المنطقة أن يكون لها سبق البداية فى صناعة وتجارة «السلام» بين الأطراف جميعاً: فهى القوة الإمبراطورية الجديدة مالكة الكنز. وإسرائيل حارس مُسَلَّح ومُستعد، وقد أثبتت كفاءته. وجرَّبت الولايات المتحدة أن تكون هى والحارس والكنز مثلثاً واحداً تتماسك أضلاعه وتقوى بصلح بين العرب وإسرائيل، وحاولت وفشلت. جرَّبت مع الملك «فاروق» من ١٩٤٩ حتى ١٩٥٠ ولم تنجح. ثم جرَّبت مع «مصطفى النحاس» من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢ ولم تنجح ـ واتجهت إلى الناحية الأخرى ـ نحو الشرق من إسرائيل ـ وجرَّبت مع «نورى السعيد» فى العراق، و«حسنى الزعيم» فى سوريا، والملك «عبد الله» فى الأردن ـ ولم تتمكن. ثم عادت مرة ثانية إلى وادى النيل تُجرِّب حظوظها مع «جمال عبد الناصر»، وتنوَّعت أساليبها ليناً وشدَّة من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٧٠، واستعصت عليها المداخل سواء فى ذلك باب السياسة، أو باب الاقتصاد، أو باب الضغط، أو باب التآمر ـ ولم تنفتح نافذة أو شرَّاعة! ـ وجرَّبت مع «أنور السادات» من سنة ١٩٧٠ حتى خريف سنة ١٩٧٣، وكان حصاد التجربة فشلاً بلا محصول:

وخلال ذلك كله شهدت المنطقة حرائق نار لا تنطفئ، ونزيفاً لا يلتئم جرحُه ـ موقعة مسلحة بعد موقعة مسلحة: فلسطين ١٩٤٨ ـ السويس ١٩٥٦ ـ سيناء ١٩٦٧ ـ الاستنزاف من ١٩٦٨ ـ أكتوبر ١٩٧٣.

عندما جاءت معركة سنة ١٩٧٣ (وفيها واجَه السلاح الإسرائيلى أكبر تحدٍّ لحماقته) ـ وَقَعَ أن طالب الكنز الراغب فى حيازته، وحارس الكنز الذى يطالب بحصته ـ كلاهما رأى فى احتمالات المستقبل نُذُرَ خطر يلزم احتواؤه مُبكراً.

ثم إن ذلك جرى مع ظرف نَمَت فيه القوة اليهودية (لأسباب كثيرة) فى الولايات المتحدة إلى درجة أصبح معها الدكتور «هنرى كيسنجر» هو «عضو مجلس الإدارة المفوَّض» لتسيير «صناعة وتجارة السلام» الأمريكية (والرَّجُل يهودى مُخلص وإن كان غير مُتديِّن ـ وهو أستاذ علاقات دولية لكنه عاشق قوة!). وكان «كيسنجر» وقتها مستشاراً للأمن القومى للرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون»، ثم آلت إليه وزارة الخارجية (مع تَورُّط الرئيس فى فضيحة «ووترجيت» إلى درجة اليأس).

وفى تلك اللحظة ومع يد واحدة تمسك بالبيت الأبيض وبوزارة الخارجية معاً ـ أصبح «هنرى كيسنجر» قولاً وفعلاً وقراراً ـ مسئولاً بالكامل عن «صناعة وتجارة السلام».

وبحساباته، ومعها تسنيمه لإسرائيل بحصة شريك ـ فإن «سلعة» السلام وبأكثر من أى وقت سبق ـ تَعَيَّن عليها أن تأخذ المواصفات الإسرائيلية فى الاعتبار، ومن الإنتاج وحتى التسويق.

وكان «هنرى كيسنجر» فى البداية (كذلك قال لى بنفسه) يُحاذر من مقاربة أزمة الشرق الأوسط (قبل أن يتورَّط «نيكسون» فى فضيحة «ووترجيت») وخشيته (على حد قوله) «أنه حتى لو حاول أن يكون مُنصفاً فى أى سياسة يقترحها ـ فسوف يسهل اتهامه (من كل العرب ومن بعض الأمريكيين) ـ بأن هواه اليهودى أو عُويته عَوَّقت توصُّله لحلٍّ مقبول من كل الأطراف على فرض أنه كان يقدر عليه».

وقال لى «هنرى كيسنجر» بنفسه فى لقائنا يوم زيارته الأولى إلى مصر (٧ نوفمبر ١٩٧٣) ما نصه (وقد عدتُ لسياقه فى أوراقى): «كنت طول عمرى أحلم بأن ألعب دوراً فى حَلِّ الأزمة بين العرب وإسرائيل ـ وعندما كنت أستاذاً فى «هارفارد» بعثت خطاباً إلى الرئيس «ناصر» أطلب مقابلته

تبقى قمة عمان في الواقع
ترتيبا قبلته معظم الدول العربية على
مضض، وإحساسا بالحرج، والمأزق الحقيقي هو أنهم
يتجهون إلى هناك ـ معظمهم على الأقل ـ مستعدين
لـ«طقس يودى» أكثر من استعدادهم لـ«مهمة ضرورية».

لأني كنت في صدد إعداد دراسة عن احتمالات السلام في المنطقة. ولم أتلق رداً». (سألني: «هل وقع خطابي للرئيس «ناصر» في يدك؟» ـ وأجبت بالنفي، وهو صحيح) ـ ويستطرد «كيسنجر»: «عندما أصبحت مستشاراً للأمن القومي مع الرئيس «ريتشارد نيكسون» كان هو الذي صدّني عن الاقتراب من الأزمة، وذكّرني ـ بصراحة جعلتني أتصوّر أنه يُعايرني ـ بحقيقة أنني يهودي قائلاً لي: «اترك هذه المنطقة لوزارة الخارجية ووزيرها «ويليام روجرز»». ـ أعطاني الرئيس «نيكسون» اختصاص العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ومع أوروبا الغربية ومع الصين، وكلّفني بحلّ أزمة الحرب في فيتنام، لكنه فيما يتعلق بالشرق الأوسط قال لي بنبرة لها معنى «إنني سوف أكون مُتحيّزاً لصالح إسرائيل كيهودي ـ وإذا لم أكن في الواقع مُتحيّزاً فسوف يسهل اتهامي بالتحيّز»، ولذلك فمن الأفضل له ولي أن ابتعد عن الأزمة».

ويُواصل «هنري كيسنجر» كلامه ونحن ليلتها في جناحه بالدور الثاني عشر بفندق «هيلتون» مساء يوم ٧ نوفمبر:

«لا أخفي عليك أنني أظن الآن حتى وإن لم يكن ذلك قصدي بوعي وقتها ـ أنني عرقلت كل محاولة قام بها «المسكين روجرز» («ويليام روجرز» وزير الخارجية) ـ وربما أنني كنت دون وعي (أيضاً) أريد أن تظل الأزمة مُعلّقة في انتظاري حتى تسنح الفرصة وأقوم «أنا» على حلّها».

ويستطرد «كيسنجر»: «لقد أصبحت الأمور أكثر تعقيداً مما كانت قبل حرب يوم الغفران (٦ أكتوبر، وكان يوافق يوم «كيبور» عند اليهود) ـ إنني ألوم نفسي لأنني تأخرت في الاقتراب من الأزمة حتى بعد أن أصبحت وزيراً للخارجية ـ وكنت أظن الأنسب أن أقترب منها على مهل وحين أجد الوقت مُلائماً ـ لكن «السادات» و«الأسد» فاجآني بحرب في الشرق الأوسط على جبهتين، وكذلك فإن الأزمة طرحت نفسها عليّ قبل أن أكون جاهزاً لها!»

عندما وقعت حرب أكتوبر فوجئ «هنري كيسنجر» فعلاً، وكانت مفاجأته الأكبر أن هذه الحرب حققت هدفها في اليوم الأول وهو «كسر نظرية الأمن الإسرائيلي».

....

....

[وكان من حظي أن الرئيس «أنور السادات» طلب مني كتابة التوجيه السياسي بقرار الحرب الذي يُعطيه للفريق «أحمد إسماعيل علي» بتحديد الهدف الإستراتيجي للحرب، وكتبت ذلك التوجيه بعد مناقشات وحوارات مع الاثنين استغرقت ثلاث ساعات يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣، وكان التركيز في التوجيه كله على أهمية «كسر نظرية الأمن الإسرائيلي» بإثبات أن إسرائيل لا تملك أن تفرض أمراً واقعاً مستمراً بالسلاح ـ وبالتالي فإن السلاح العربي مُكلّفٌ بصنع أمر واقع جديد.]

....

....

وقد أدرك «هنري كيسنجر» ـ ذكاء وعلماً ـ ومن اليوم الأول أن القوات المصرية والسورية حققت هدفها الإستراتيجي وهو «كسر نظرية الأمن الإسرائيلي»، بصرف النظر عن أية تطورات جرت في ميادين القتال على الجبهتين في الأسبوع الثاني من الحرب.

واستنتج «كيسنجر» من ذلك ما استنتج، ورتّب عليه ما رتّب!

وعندما توجّهت «جولدا مائير» لمقابلته في واشنطن قبل أن يبدأ في ممارسة دوره في «صناعة وتجارة السلام» في الشرق الأوسط ـ فإن «كيسنجر» لم يتردد في أن يُصارحها بالحقيقة، «على الأقل لتكون عارفة بها كأساس لحُسن تقدير موقفها».



وقد شرح لي بنفسه تجربته مع «جولدا مائير».

«قابلتها صباحاً في وزارة الخارجية وفي البيت الأبيض، وكانت عنيدة مثل «بقرة هندية نامت وسط الطريق وعاقت حركة المرور فيه».

وقابلها بعد ذلك مساءً وقال لها: «القتال انتهى لصالحك ولكن العرب كسبوا إستراتيجياً، وعلينا جميعاً أن نفهم ذلك لكي نتحرك من «هنا» إلى ما يُلائمنا».

«لكنها ظلت طول الليل تُعاند، ومنطقها «أنهم (الجيش الإسرائيلي) استعادوا كل الجولان وأكثر على الجبهة السورية، وأن لهم قوات يقودها الجنرال «شارون» عَبَرَت قناة السويس إلى الشرق «في أفريقيا»». وحاول ساعات متأخرة من الليل أن يشرح لها الفارق بين القتال والحرب، وأنها في تلك الجولة التي انتهت ربحت القتال وخسرت الحرب. لكنها ظلت تُعاند».

ويستطرد «كيسنجر»: «ليلة بأكملها ـ مع امرأة واحدة ـ وامرأة اسمها «جولدا» ـ والرجُل الجالس معها (أي هو «هنري كيسنجر») ـ يبذل جهده ليجعلها تفهم بأدب ورِقّة «أنها لا تملك «الجمال» الذي يمكنها من ترويق الواقع، ثم إن عليها الاعتراف بالواقع ـ حتى تعرف كيف تتعامل معه»».

كان «هنري كيسنجر» صباح يوم لقائنا قد قابل الرئيس «السادات» لأول مرة في قصر «الطاهرة» (الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣). وقد اعترف لي تلك الليلة (في فندق «هيلتون» القاهرة) أنه أخطأ في تقديره لـ«أنور السادات» حين وصفه في محاضرة ألقاها قبل شهور بأنه مجرد «بهلوان سياسي لا يصح أن يؤخذ جداً» ـ ولم يقل ليلتها ماذا كان تقديره الجديد لـ«السادات» بعد اعترافه بالخطأ السابق في حقه».

قبل أن يجيء «هنري كيسنجر» إلى الشرق الأوسط في نوفمبر ١٩٧٣ ـ مديراً مسئولاً عن «صناعة وتجارة السلام» الأمريكي (والإسرائيلي!) ـ حاول (على حد قوله) «أن يُثقّف نفسه لمهمّته» لأنه «رغم طول انتظاره للأزمة حتى تجيء إليه ـ فإن الأزمة نفسها هي التي فاجأته على غير انتظار صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣».

وبصفته وزيراً لخارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومي لرئيسها ـ فإن «كيسنجر» راح يطلب من كل من يعرف من مساعديه (في البيت الأبيض وفي الوزارة)، ومن زملائه السابقين (في الجامعات الأمريكية، وفي مقدمتها «هارفارد» وهي جامعته) ـ أن يمدوه بأوراق تساعد على تناول الأزمة التي فاجأته في «توقيتها هي» وليس في «توقيته هو». وكان لـ«هنري كيسنجر» فيما طلب من الأوراق شرطان:

١ ـ أن تكون الأفكار جديدة.

٢ ـ وأن تكون الأوراق مُختصرة لا تزيد الواحدة منها على صفحة أو صفحة ونصف على أكثر تقدير!

وفي ظرف عدة أيام تلقى «كيسنجر» عشرات من الأوراق اختار منها ثلاثا بقيت معه حتى جاء موعد سفره:

● ورقة كتبها مساعد وزير الخارجية الأمريكي «جوزيف سيسكو».

● وورقة كتبها الأستاذ «روجر فيشر» (أستاذ تسوية وحل الصراعات في «هارفارد»).

● وورقة ثالثة (لم أستطع بيقين معرفة كاتبها، وإن رجحت فيما بعد أنه «ريتشارد هاس»، وكان وقتها شاباً مُلحقاً بالأبحاث في مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، وهو الآن عضو نشط في مجلس الأمن القومي تحت رئاسة «ديك تشيني» نائب الرئيس الأمريكي الجديد «جورج بوش»).

وعندما كان «هنري كيسنجر» يُعد حقيبة أوراقه ليأخذها معه في السفر إلى الشرق الأوسط (وبداية الرحلة يوم ٥ نوفمبر بزيارة للمغرب ولقاء فيها مع الملك «الحسن») ـ حاول أن يُخفّف من تكدس الأوراق في حقيبة يده، وكان يعرف أن مساعديه سوف يأخذون معهم كتلوجرامات بالمئات من التقارير والمذكرات، ولذلك رأى أن لا يحتفظ في حقيبة يده التي ستحملها سكرتيرته ـ إلا بما هو «ألزم اللازم».

والذي حدث أن «كيسنجر» في عملية الفرز الأخير للأوراق أزاح إلى مساعديه ورقة «سيسكو» وورقة «فيشر» ـ ووضع ورقة الباحث (الذي أرجّح أن يكون «ريتشارد هاس») في حقيبة يده وبدأ سفرته.

كانت الورقة مُختصرة: صفحة واحدة.

وكانت في نفس الوقت جديدة: عنوانها «الخيمة والسوق».

كانت الورقة في مُلخّصها (رغم قصرها) تقول لـ«هنري كيسنجر»:

«لا داعي لأن تشغل نفسك ـ في الوقت الراهن ـ بنظريات كثيرة في إدارة وحلّ الصراعات، وفنون التفاوض، ودواعي الأمن.

ما ينفعك الآن هو أن تتذكر «تقليدين» من «ثقافة» الحياة العربية:

«تقليد» «الخيمة» ـ وفيها شيخ يتوسط مجلساً يُحيط به، وإن كانت السلطة عنده وحده، وعندما تدخل عليه فسوف تجد من حوله كثيرين يدخلون ويخرجون ـ ويهمسون في أذنه، ويهزون رؤوسهم، وقد ترى أحدهم يتوجّه أمامك إلى رجُل آخر في الخيمة لينقل إليه شيئاً وهو يتلوّح بإحدى يديه. كل تلك مُؤشّرات شكلية وصوتية. ركّز نظرك على الشيخ وامدحه وبالغ في مدحه، وبمقدار ما تُعطيه مما عندك ـ فسوف يعطيك مما عنده!

■ و«تقليد» «السوق» ـ والتفاوض فيه ليس علماً وإنما هو «فن المساومة» يمارسه أصحابه بـ«مزاج» و«استمتاع»، وهم في العادة يبدءون أي صفقة بسعر مُبالغ فيه. وحين تُراجعهم تعلو أصواتهم ليُقسموا لك أنهم لم يُبالغوا، على أنهم من أجل خاطرك سوف يتهاودون، لكنها كلمتهم الأخيرة سوف يقولونها وأنت حر. وحين تسمعها وتؤكد لهم أنها ما زالت أعلى مما أنت مستعد لدفعه سوف يعودون لك مرة أخرى حالفين (وبالطلاق ربما) أن ذلك

من مضاعفات الأزمة أن فى الخليج ظنونا بأن أمنه لم يتحقق عربيا وإنما تحقق أمريكيا (وفى بعض الأحيان إسرائيليا). وأن لدى المغرب تصورات تهيئ لأصحابها أن المستقبل ليس فى اتجاه الشرق نحو قلب العالم العربى. وإنما هو فى اتجاه الشمال نحو جنوب أوروبا حيث الالتحاق بالسوق الأوروبية. ولو بالشفعة. ممكن!

خارج قُدرتهم لأن قبولهم به خسارة مُحقَّقة. لا تُصَدِّق كلامهم، وتمسك بما تظنه معقولاً وصمِّم عليه. وسوف تجدهم يتنازلون أمامك خطوة بعد خطوة (ولو بدت الخطى متثاقلة!). وعليك وحدك أن تُقدِّر بإحساسك - دون أى دليل يساعدك - إذا كانوا قد وصلوا إلى القاع الذى لا يقدرون بعده على النزول، أو أنه ما زال تحت القاع الظاهر - قاع آخر لم تره من أول نظرة أو من النظرة الثانية!».

كانت هذه الورقة مع «كيسنجر» حينما وصل إلى المغرب يوم ٥ نوفمبر فى طريقه إلى القاهرة يوم ٦ نوفمبر، ولموعده مع الرئيس «السادات» يوم ٧ نوفمبر.

والتقى «هنرى كيسنجر» بالملك «الحسن» على العشاء يوم ٥ نوفمبر بالقصر الملكى على طرف المدينة القديمة فى «فاس».

كان الملك «الحسن» يعرف «هنرى كيسنجر» من أيام سبقت حين زار البيت الأبيض مرات فى السر وفى العلن. كما أن «كيسنجر» زاره فى المغرب مرات مبعوثاً رئاسياً لـ«ريتشارد نيكسون» فى السر وفى العلن أيضاً.

وكما روى لى «كيسنجر» بنفسه فإنه «طلب مشورة الملك الحسن كصديق قديم موثوق به يعرف المنطقة وأحوالها ورجالها، مؤكداً بإخلاص أنه يريد نصيحته لأنه يحمل أوراقاً كثيرة تضاربت فيها التقديرات، وهو يريد رأياً نهائياً من خبير عارف وقدير».

ولم يقل لى «كيسنجر» كيف وصل الحديث بين الملك وبينه إلى ورقة «الشيخ» و«الخيمة»، لكن الحديث - فيما يبدو - وصل إليها.

ويظهر أن الملك «الحسن» أحس بنوع من الفضول والدهشة من هذه الورقة، وقد استغرق فى التفكير لحظة قال بعدها لـ«كيسنجر»:

«سوف تُخطئ خطأ كبيراً إذا تصورت أن فى المشرق حيث أنت ذاهب شيخاً واحداً وخيمة واحدة.

هناك شيخ وخيمة فى القاهرة - لكن هناك شيخ وخيمة فى الرياض.

لا بد أن تعرف أن «السادات» ليس وحده وإنما له شريك، وشريكه ليس «حافظ الأسد» كما قد يخطر ببالك، وإنما «فيصل»!».

ثم كرر الملك «الحسن»:

«فى المشرق شيخان وخيمتان: السادات فى القاهرة - وفيصل فى الرياض».

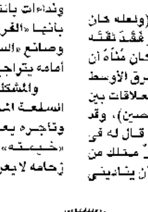
وجاء «كيسنجر» إلى المشرق وزار «الشيخين» وجلس فى «الخيمتين»، ثم زاد على ذلك وقصد لزيارة رجل ثالث فى دمشق لم يعتبره الملك «الحسن» شريكاً حقيقياً، لكن «كيسنجر» بدقة حساباته رآه شريكاً ضرورياً.

[وفيما بعد - وفى لقاء آخر معه سنة ١٩٧٥ - كان تقييم «كيسنجر» النهائى لتجربته فى القاهرة وفى الرياض وفى دمشق قوله ملخصاً وبسرعة:

«أحببت السادات - واحترمت الأسد - ولم أفهم فيصل!»]

وعلى أية حال فقد قام «كيسنجر» بمدح «الشيوخ» جميعاً، وأسرف فى المديح، وأسبغ على محدثيه من الأوصاف دواوين شعر بأكملها - وصدَّق بعضهم، ولم يُصدِّق بعضهم الآخر.

وصدَّق الرئيس «السادات» (ولعله كان يريد أن يُصدِّق لأنه منذ وقت مبكر فقد ثقته فى فاعلية «ويليام روجرز»، وكان مُناه أن يقترب «كيسنجر» من أزمة الشرق الأوسط كما اقترب من أزمات فيتنام - والعلاقات بين القوتين الأعظم - والعلاقات مع الصين)، وقد أسعد «هنرى كيسنجر» حين قال له فى نهاية أول لقاء بينهما: «رجل مثلك من صُنَّاع التاريخ لا يصح له أن يناديني بـ«دكتور كيسنجر» - من الآن أرجوك أن تناديني «هنرى»».



وفيما بعد فإن الطلب تكرر ليس فقط من وزراء خارجية الولايات المتحدة، ولكن أيضاً من رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية، فكان قولهم لنظرائهم العرب: «جلالة الملك - أو سيادة الرئيس - نادنى جيم» (بدلاً من «جيمى كارتر»).

«نادنى جيرى» (بدلاً من «جيرالد فورد»).

«نادنى رون» (بدلاً من «رونالد ريجان»).

وفيما بعد كان هناك «جورج» («جورج بوش» الأب) - ثم «بيل» («بيل كلينتون») - وقريباً سوف تصبح «جورج» مرة أخرى (لـ«جورج بوش» الابن).

والفكرة كلها أن تكون العلاقات حميمة داخل كل «خيمة» - مؤثرة على التعامل داخل كل «سوق»!

ومن المفارقات أن الملوك والرؤساء العرب لا ينادون بعضهم بعضاً بالاسم الأول - بغير كلفة - داخل الاجتماعات، ولا خارجها بالطبع (إلا إذا كان ذلك ضمن مشادات تجرى بينهم أمام العدسات والميكروفونات، أو على صفحات الجرائد - لسبب أو آخر!)

وفى المفاوضات بعد ذلك على اختلاف محطاتها من أسوان إلى كامب دافيد، ومن أوسلو إلى طابا، ومن فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل فى أسوان أوائل شهر يناير ١٩٧٤ - وحتى إعلان شرم الشيخ أواخر يناير ٢٠٠١ - سبعاً وعشرين سنة بالكامل جرت المفاوضات مع العرب على طريقة «الشيخ» و«الخيمة».

● «شيخ» فى مجلس داخل «خيمة» وحوله جمع من الناس، وإشارات وإيماءات، وهمس أسرار وتمتمات خافتة - ثم يقول «الشيخ» كلمته، ويهز الجميع رؤوسهم بالموافقة!

● و«سوق» صاخبة بصراخ وصياح، وأسعار تعلو وتهبط، وأيمان مغلظة تؤكد، ونداءات بالتحذير تقاطع بين فترة وأخرى بأنها «الفرصة الأخيرة وإلا انتهى الكلام»، وصانع «السلام» وتاجره متمسك، والمشترى أمامه يتراجع، و«السوق» بلا قواذين.

والمشكلة أن أحداً لا يعرف بالضبط «قيمة السلعة المعروضة» - صانع «السلام» وتاجره يعرف سقفه - لكن «الشيخ» فى «خيمته» لا يعرف أرضه، و«السوق» فى زحامه لا يعرف قاعه!

وهكذا تتواصل المساومة، وحين يظهر «قاع» عربى - يتبدى وراءه لسوء الحظ! - وبمواصلة الضغط قاع ثان يغرق، لكن الولايات المتحدة ما زالت تظن أنها قادرة (لا أحد يعرف متى؟) على عقد صفقة تراها معقولة - وأن العرب سوف يقبلونها فى النهاية!

ومن المفارقات أن «الشيوخ» العرب كان لديهم طول الوقت اطمئنان إلى أنهم فى نهاية النهاية واصلون إلى قاع عليه صفقة ترضيهم لأن لديهم من البداية عهداً - وعقداً - يطلقون هم عليه وصفاً يريحهم وهو وصف «الشرعية الدولية» - وهم لا يعرفون أن ذلك العهد والعقد لم يعد فيه الآن نص مقدس!

والسر أن الولايات المتحدة الأمريكية - و«الشيوخ» لا يعرفون، ولا «السوق» تعرف - قامت بتأميم «الشرعية الدولية» بأن نقلت ملكيتها أولاً إلى مجلس الأمن، ثم قامت فى بعد ذلك بـ«خصخصة مجلس الأمن» وتحويله إلى ملكيتها الفردية، تتصرف فيه كما يتصرف المالك فيما يملك!

مراعاة للدقة فإن تعبير «خصخصة مجلس الأمن» ليس تعبيرى وإنما هو التعبير الذى توصلت إليه وأقرته حلقة دراسات «بالعمق» فى السياسة العالمية، و«بالغوص» فى القانون الدولى، قامت عليها ورعتها ونشرتها جامعة «ميتشجان» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد خلص الخبراء الذين جمعتهم حلقة «ميتشجان» إلى نتائج محددة - وشديدة الوضوح:

١ - أن اختصاص حفظ السلام كان محصوراً فى مجلس الأمن طبقاً للبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

٢ - وكان هناك إدراك عند كتابة الميثاق بأن القرارات وحدها قد تحتاج (مثلها فى ذلك مثل القانون فى أى بلد) إلى قوة إجبار تفرض احترامها - وكذلك وضع الميثاق فى يد الدول الأعضاء دائمة العضوية وهم خمسة - اختصاص تكوين لجنة عسكرية (مكونة من رؤساء أركان حرب جيوشهم)، ومهمتها أن تنظر فى «الإجراءات» المطلوبة لتنفيذ أى تدخل دولى بالقوة لتنفيذ قرار من مجلس الأمن.

٣ - وترتب على ذلك النص على أن أى تدخل بالقوة لا بد أن يكون تحت إشراف مجلس الأمن (على الأقل أعضائه الخمسة الدائمين)، ورقابته، ومراجعته ابتداء من تواجد قوات الأمم المتحدة فى منطقة أزمة - إلى توزيع أعباء هذا التواجد على الدول الأعضاء - وتحديد درجة فعل هذا التواجد وضبط تدخله عند نطاق متفق عليه - وتوفير ورقابة التكاليف المادية اللازمة للتدخل - ثم تحديد الموعد الذى يتقرر فيه أن المهمة تحققت، وأن التدخل حقق مطلبه، أو أن الضرورة تقتضى إنهاءه!

ثم تتوصل حلقة «ميتشجان» إلى أن «الولايات المتحدة الأمريكية أثناء أزمة الخليج الثانية فى أغسطس ١٩٩٠ (وفى ظروف معقدة) حققت لنفسها حرية عمل فى الشرق الأوسط غير مسبوقة، خصوصاً عندما تأكد لها تراجع القوة السوفيتية وانكفاؤها عن التأثير - وبان أمامها انقسام فى العالم العربى واسع وعميق».

وعندما بحث مجلس الأمن موضوع التدخل بالقوة لإخراج العراق من الكويت، فإن الرئيس السوفيتى («ميخائيل جورباتشوف» وقتها) - اقترح دعوة اللجنة العسكرية لمجلس الأمن، لكن الولايات المتحدة عارضت، وكان لها ما أرادت.

وصدر قرار مجلس الأمن يفوض استعمال القوة بواسطة «الدول المتعاونة مع حكومة الكويت» إذا لم ينفذ العراق كل قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالانسحاب الكامل وقبل يوم ١٥ يناير ١٩٩١ (واعترضت كوبا واليمن - وامتنعت الصين عن التصويت - وكذلك مر القرار).

(وسجلت «ماليزيا» فى محضر المجلس تحذيراً تقول فيه «إن ذلك القرار بتفويض استعمال القوة نيابة عن مجلس الأمن بمثابة شيك على بياض يوقعه المجلس لدولة واحدة من الأعضاء الدائمين فيه»!)

أزمــــة المشــــروع اليهــــودى
أنــــه حـــــاول اختـــــراع ذاكـــــرة
من الأوهـــــام يؤســـــس عليهـــــا مشروع دولة.
أو مشـــــروع إمبراطـــــورية مســـــتحيلة التحقيـــــق
(وإن كانـــت باهظــــة التكاليـــــف بمجــــرد المحـــــاولـة)

وبالفعل جرى التَّدَخُّل العسكرى في الخليج بواسطة ما سُمِّي بقوات «التحالف الدولي للدول المتعاونة مع حكومة الكويت».

ثم كان أن الولايات المتحدة، ومن يومها وحتى الآن، استغنت عن مجلس الأمن بالتفويض الممنوح للتحالف. ثم استغنت عن التحالف بعد أن أخذت أعلامه - ولم تكتف بتحرير الكويت وإنما راحت - وحتى الآن - تمارس تدمير العراق!

وطرأ على ذلك أخيراً أن هناك رئيساً أمريكياً جديداً وصَلَ إلى البيت الأبيض ومعلوماته عن أزمة الشرق الأوسط وغيرها قليلة (وقد سُئِل يوماً عن «طالبان» وكانت إجابته أنه «يظنها فرقة موسيقى جديدة» وحاول بعض مساعديه أن يؤكدوا خبرته بالسياسة الخارجية وكان قولهم «إنه كحاكم لولاية «تكساس» تعامل مع «المكسيك» في قضايا الهجرة غير الشرعية - والحدود - والأمن»!)

يتَّصل بذلك مباشرة أن الرئيس الجديد دخل إلى البيت الأبيض ومعه إدارة يظن البعض في العالم العربي أنهم يعرفونها ويعرفون أولوياتها من أيام حرب الخليج. وقد بدا في استقبالهم لهذه الإدارة نوعٌ من الترحيب الحار بها على أساس أنها عودة - مَرجُوَّة بعد الغياب - إلى ما كان قبل عشر سنوات - وحتى يُكمل بوش «الابن» ما بدأه جورج بوش «الأب»، وكأنها ثارات قبائل - وليست مَطالب إمبراطورية!

الطـــــريـــق إلـــى عَمّــــــان!

■ يوم ٢٧ مارس القادم (٢٠٠١) تتوَجَّه «مَواكب» القمة العربية كي تتقابل، وتتلاقى، على تلال عمّان، ووسط طُرُقها، وداخل قصورها. و«المواكب» - في المناخ السائد اليوم عربياً - قريبة في كل شيء إلى «القوافل» رغم وصول الوفود العربية إلى عمّان راكبة طائرات من أحدث وأكبر طراز!

ومن المفارقات أن الحمولات الثقيلة - تجُرُّها القوافل وراءها أو تسوقها أمامها، أو تطير بها - ليست صناديق تضيق بالملفات والدراسات. وإنما الحمولات رغم ثقلها غير مرئية لأنها حمولات من «هواجس» و«شكوك» تلح على المشاركين في هذه القمّة - التي هي في الواقع ترتيبٌ قبلته معظم الدول العربية على مَضَض وإحساساً بالحرج. وهي أول من يعرف أنه «طقس يُؤَدَّى» أكثر منه «مُهِمَّة ضرورية» - مع العلم أن أحداً لا يَملك هذه اللحظة تَصَوُّراً «لمهمَّة ضرورية» في حين أن الكل مارس ويُمارس كل يوم تجربة «طقس يُؤَدَّى» (تبادل زيارات - قبول دعوات - مُشاركة في مُناسبات)!

وربما أن المأزق الحقيقي الذي يَتَّجه إليه الجميع مُرتحلين إلى عمّان أنهم - معظمهم على الأقل - مُستعدُّون لـ«طقس يُؤَدَّى» أكثر من استعدادهم لـ«مُهمَّة ضرورية»!

■ وابتداء فإن المركز الذي تنعقد فيه القمة (وهو الأردن) مأخوذ بمشاغله، فهو يعيش لحظة انتقال تؤثر على الأسرة المالكة، وعلى الوزارة القائمة، وعلى الأحزاب المعترف بها وغير المعترف بها.

والمركز الأردني من الأصل «خط تماس» - كما كان الملك «حسين» يقول ويُكرِّر القول - وذلك يجعل أوضاعه قلقة حتى في حياة كل يوم، سواء كانت هناك مشاكل انتقال، أو كان السياق مُتَّصلاً لم تعترضه المقادير.

ثم إن التطورات في الإقليم المحيط بالأردن زَحفت عليه بحساسيات بين مُواطني الأردن القدامى في الجنوب، وبين مواطني الأردن الجُدُد الذين جاءوا إليه فرادى أو جماعات من الغرب عندما أسَّس الملك «عبد الله» دولته في عمّان، ثم تدفَّقوا عليه قبل وبعد نشوب المعارك في الأرض المقدسة سنة ١٩٤٨ - حتى وَجَدَ الكل أنفسهم تحت التاج الهاشمي بعد أن ضَمَّ الملك «عبد الله» ما بقى من ضفة الأردن الغربية رسمياً إلى مملكته سنة ١٩٤٩.

والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأردن ثقيلة. والبلد بكل مواطنيه القدامى والجُدُد محصورٌ مع موارد محدودة، وذلك يصنع نوعاً من الضيق يحتاج إلى انفراج واتساع لا يَقْدِر عليه جيران الأردن من أبناء أمّته، وفي نفس الوقت فإن إسرائيل تستغله، وشاهد استغلالها أن أكبر محطَّة للموساد خارج إسرائيل موجودة في عمّان، والمحطّة الثانية في المنطقة بعدها موجودة في استنبول!

● ومثلاً فإن قافلة الخليج تطير وكأنها تجُرُّ أقدامها جَرّاً نحو الأردن، تتمنّى لو أنه لم يكن عليها أن تصعد سلالم الطائرات، وتجلس مُستسلمة على مقاعدها، وتنتظر في مَلَل إقلاعها، وتتحسَّب في ضيق لهبوطها!

ذلك أن قافلة الخليج تشعُر أنها مُعرَّضة في مَواطنها الأصلية لأنواع من التهديد لا تستطيع توصيفها، وتلك ضمن هواجس الغِنى - ومع أن بعضهم يرى ويُقدِّر مقاصد الإستراتيجية العليا لإسرائيل - فإن إستراتيجية الأمن العربي لا تبدو واصلة إليهم. ذلك أنه من مضاعفات الأزمة ظنون بأن أمن الخليج لم يتحقق عربياً وإنما تحقَّق أمريكياً (وفي بعض الأحيان إسرائيلياً - وهذه مسألة تستحق البحث لأن هناك الآن تسرُّباً إسرائيلياً نشيطاً في شبه الجزيرة العربية نفذ إليها من ثغرة الأمن. ثم قام بتوسيع الثغرة كالعادة في أي خطة للاختراق. ثم وَصَل إلى حيث لم يكن في الحسبان أن يصل. وهناك في هذا الشأن كلامٌ كثيرٌ ليس هذا أوانه!)

يضاف إلى ذلك أن القوافل من الخليج تشعر أنها تتعرض لغارات في ذهابها وإيابها إلى الوديان. وهي تُقر بأن بعض الضرائب مُقرَّر ومقبول من واقع أن الوديان هي التي مَكَّنت الصحاري من الثروة - لكنه حين تزيد الضرائب تتحوَّل إلى إتاوات!

هكذا تجُرُّ قوافل الخليج أقدامها جرّاً إلى مطارات السفر، لكنها في مطارات العودة خفيفة الحركة تستعجل الإقلاع قبل أن يُؤخِّرها داعٍ لم تتحسَّب له، أو يقع عطلٌ فني أو غير فني يُؤخِّر مروقها وراء السُحُب عائدة إلى حيث أتت!

● ومثلاً فإن قوافل المغرب لديها حمولات من «أوهام» و«غُيوم» تختلف درجاتها فيما بينها وبين بعضها - وهي تختلف كذلك عن حمولات قوافل الخليج. بين الحمولات تصَوُّرات تُهيئ لأصحابها أن المستقبل ليس في اتجاه الشرق نحو قلب العالم العربي - وإنما هو في اتجاه الشمال نحو جنوب أوروبا حيث الالتحاق بالسوق الأوروبية ولو بالشفعة ممكن!

● ومثلاً فإن قوافل الجنوب تجُرُّ في أذيالها نحو عمّان ذيولاً من الفتن غُشِّيَت حرارة أفريقية توشك أن تتحوّل إلى حريق حروب أهلية!

وراء ذلك، وفي ذيله، فإن هناك قوافل وافدة التحقت بالركب في بداية السبعينات مع الطفرة المفاجئة في أسعار البترول. وتلك قوافل يستحق أمرها معاودة النظر.

[فقد كانت القواعد الحاكمة لانضمام دولة من الدول إلى الجامعة العربية عديدة، والأساس فيها ثلاثة شروط:

- أن تكون اللغة العربية هي لغة ذلك البلد لأن ذلك هو «الوعاء الثقافي المشترك» إلى جانب «التجربة التاريخية المشاع».

- وأن يكون البلد الراغب في الانضمام إلى الجامعة قد تمكن من تحقيق قدر من الاستقلال الوطني يكفل نوعاً من الإرادة المستقلة.

- ثم أن يكون البلد العربي الراغب في الانضمام على اتصال جغرافي بالعالم العربي أو أطرافه.

ثم حدث أوائل السبعينات نسيانٌ - أو تناسٍ للشروط - دخلت به بعض الدول إلى الجامعة، دون أن تكون العربية لغتها - ودون قدر من الاستقلال يسند إرادتها - ودون اتصال جغرافي يفتح معها بالطبيعة اتصالا.

وهكذا دخلت إلى الجامعة العربية في تلك الفترة دُوَلٌ من بينها «جيبوتي» و«جزر القمر» (إلى جانب «الصومال» و«موريتانيا»).

أزمة النظام العربي أنه حاول إقناع نفسه - أو حاول إقناعه آخرون - بتأسيس ذاكرة المستقبل على النسيان - وتلك استحالة أخرى (وإن كانت بدورها باهظة التكاليف بمجرد المحاولة!)

و«جيبوتي» كانت ولا تزال مُستعمَرة فرنسية - و«جُزر القمر» كانت ولا تزال تحت تأثير الكابتن «دينار» وهو مزيج من جندي مُرتزق وقرصان فرنسي - يظهر من البحر ويختفي فيه!

والغريب أن بعض الدُّوَل العربية تحمَّسَت في حينه لانضمام هذه الدُّول الأربعة إلى الجامعة العربية، ودون مراعاة لشرط، وحُجَّتها أنه من المصلحة توسيع نطاق الجامعة مع العلم أن التوسيع في بعض الظروف مرادف للتمويع. ولعل ذلك كان هو المقصود يومها.

والنقطة الشائكة هنا أن بعض الوجود المستغني عن الشروط يُصبح عبئاً على الحوار وضاغطاً على القرار لأسباب بديهية!]

وتلك عُقدة ليس من السهل إيجاد حَلٍّ لها - ولكن معاودة النظر إليها ولو بمراعاة الظروف لازمة!

● وأخيراً تجيء قوافل الوديان (من النيل والفرات وبردى)، وهذه القوافل قصة متداخلة متشابكة - وأحياناً مُتنافرة - ففي القاهرة مَن يرون أنه سلام لا بديل عنه، وفي بغداد مَن يرون أنها حَربٌ لا مَهرَب منها، وفي دمشق حيرة بين سلامٍ مَرغوبٍ فيه وحربٍ غير مطلوبة!

وتلك كلها أحوال غريبة:

قوافل تتحصَّن لنفسها الحماية (العسكرية) أمريكياً (ولو مؤقتاً)..

وقوافل تتحصَّن لنفسها الحماية (الاقتصادية) أوروبياً (ولو كتجربة)..

وقوافل لا يَعرف أحد كيف جاءت؟ (وما الذي تَعرضه - أو ما الذي تَطلبه؟)..

ثم قوافل كبيرة جَرَّارة (تُثير في طريقها غباراً يَحجب وضجيجاً يُغطي!)

وإذن ما الذي تستطيعه القمة العربية في عَمَّان إذا كانت تلك هي الأحوال والحمولات؟

وحتى هذه اللحظة - والقوافل المتَّجهة بحمولاتها نحو عَمَّان، ولقاؤها هناك على وشك أن يَقع - فإن هناك حيرة في شأن الموضوع الذي تكون له الأولوية على جدول أعمال القمة. وهل هو بند «استعادة العراق» كما كانت النيَّة ابتداء عندما تَحدَّد موعد القمة (مارس) - ومكانها (عَمَّان) - أو أن الموضوع الرئيسي في جدول الأعمال لا بد أن يكون «انتفاضة الأقصى» باعتبار أن ذلك هو الموضوع الذي طَرَحَ نفسه سابقاً على أي إعداد؟ - أو أن الأولى بالعناية هذه اللحظة وسابقاً لما كان من أولويات - أن تُركِّز القمة على وصول «شارون» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية، وتبعات وعواقب هذا الوصول؟

والحاصل أن قمة القاهرة الأخيرة (أكتوبر ٢٠٠٠) كانت مُخصَّصة لاستعادة العراق، وكان العراق نفسه هو الذي تنازل عن أولوية قضاياه ليعطي السبق للانتفاضة - ثم يكون موعد العراق مع القمة في عَمَّان في مارس (٢٠٠١). لكن بعض الدول العربية تقول الآن أن انتفاضة الأقصى يزداد إلحاحها على «الضمير العربي» لأن أطفال الحجارة يُقتَل منهم بالرصاص الإسرائيلي واحد أو اثنان كل يوم - وتَرُدُّ عليها دول أخرى بأن أطفال العراق يموت منهم باليورانيوم الأمريكي مائة أو مائتان كل يوم!

في نفس الوقت فإن مجيء «شارون» انقض - دون مفاجأة - على الجميع، ولا بد أن يكون لانقضاضه عليهم مكان الصَّدارة في جدول أعمالهم!

وقد اجتمع وزراء الخارجية العرب فعلاً، تمهيداً لاجتماع رؤسائهم في عَمَّان - ولم يَتَّضح بعد ما استقروا عليه من رأي بشأن الموضوع الأول على جدول الأعمال - والذي تنتسب إليه القمة كالعادة لتكون إما قمة «استعادة العراق» أو قمة «انتفاضة الأقصى» أو قمة «التعامل مع شارون»!



والحقيقة أن ذلك «التسابق» و«التزاحم» على الأولوية والصدارة في جدول أعمال القمة العربية القادم - كلاهما زائد عن الحاجة والاستغناء عنه ممكن - وربما لازم!

لأن البنود الثلاثة «المتسابقة» و«المتزاحمة» على جدول أعمال القمة المقبلة هي في واقع الأمر «مُهمَّة ضرورية» واحدة. وبمعنى آخر:

١ - فإن ترك العراق حيث هو الآن - وحتى بصرف النظر عن قيمته في حَدِّ ذاته كوطن عربي عريق يملك مُقوِّمات التقدُّم ويَقدر على أسباب الحضارة - معناه عزل الشام عن وادي الفرات تماماً - وذلك مطلب الإستراتيجية العليا لإسرائيل في الشرق.

٢ - ثم إن النظر إلى انتفاضة الأقصى باعتبارها مشهداً مأساوياً يستحق العطف - ينسى أنه - بصرف النظر عن جلال الشهادة في صورة الانتفاضة - فإن القصد المطلوب من الشعب الفلسطيني هو الكف عن المقاومة والقبول بأي سلام - وذلك معناه إذا حَدَثَ عزل الشام تماماً عن وادي النيل - وذلك مطلب الإستراتيجية العليا لإسرائيل في الغرب.

٣ - ثم إن مجيء «شارون» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية لا يمكن اعتباره مجرد تغيير آخر في إسرائيل «يَستحق أن يُعطَى الفرصة ليَعرض نفسه»، ثم يكون الرد عليه بما يَستحق - قُصور في رؤية الحقيقة لا يُغتفر، وهو يَعكس عجزاً عن رؤية وفهم مُجمَل التداعيات التي أخذت إسرائيل إلى «نهاية طريق» - سَقَطَت عليه كافة الأحزاب والمؤسسات والتيارات الفكرية والإنسانية التي شاركت في بناء الدولة اليهودية - حتى وَصلَت الأمور إلى هذا المشهَد البادي في إسرائيل اليوم حيث يَتَحكَّم اثنان من الحاخامات في تشكيل الوزارة الإسرائيلية، ويَتنافس اثنان من الجنرالات على رئاستها. والمشهَد بحاخاماته وجنرالاته مجرد إشارة على السطح إلى تفاعلات تحت السطح تُومئ إلى أزمة عميقة في قلب الدولة اليهودية لا تقل خطراً عن أزمة عميقة أخرى في قلب النظام العربي. وإن اختلفت الأسباب والدواعي مع وجود صلة بالتلازم بين الأزمتين:

■ أزمة المشروع اليهودي أنه حاول اختراع ذاكرة من الأوهام يُؤسِّس عليها مشروع دولة - أو مشروع إمبراطورية مستحيلة التحقيق (وإن كانت باهظة التكاليف بمجرد المحاولة).

■ وأزمة النظام العربي أنه حاول إقناع نفسه - أو حاول إقناعه آخرون - بتأسيس ذاكرة المستقبل على النسيان - وتلك استحالة أخرى (وإن كانت بدورها باهظة التكاليف بمجرد المحاولة!)

وإذن - وفي نهاية طواف طويل - حول القريب والبعيد، والظاهر والخَفي - ما العَمَل؟ ما هو المطلوب؟ - ما هو الضروري؟ - ما هو الممكن؟ وفي هذه الظروف؟

وتقتضي الأمانة أن يَعترف كل مُتابع من بعيد لقوافل القمة المتَّجهة إلى عَمَّان ويقول لنفسه وللآخرين «أنه لا يعرف؟».

والسبب أن كل هؤلاء الذين يُتابعون من بعيد ليس لديهم ما يكفيهم للفتوى. وبالتالي فليس أمامهم غير اتِّباع مقولة أنه «من قال لا أدري فقد أفتى».

ذلك أن الأساس المطلوب لأي اجتهاد غائبٌ - لأن الحقائق نفسها غائبة:

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يُقدِّر - من مجرد المتابعة - ما هي «الحقيقة» في حجم الأعباء الاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر في قرار أي بلد عربي؟!

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يصل إلى «الحقيقة» في طبيعة الالتزامات التي تربط أنظمة عربية - في شئون الأمن الداخلي والإقليمي - إزاء أطراف دولية؟

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يحسب «الحقيقة» في الاعتبارات الشخصية، والعائلية، والقبلية، والثقافية، والفكرية، التي تَكمُن في موقع أي قرار عربي في ظل الواقع الراهن؟

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يُحيط بنوع وصفة العلاقات «الحقيقية» بين الملوك والرؤساء العرب في ظروف زادت فيها، ليس فقط «فردية» القرار - وإنما أيضاً «شخصانية» القرار السياسي؟

[وهناك أمرٌ واقعٌ لا مجال للشكِّ فيه مُؤدَّاه أن مُحدِّدات القرار العربي لم تكن - وربما منذ العصور المملوكية - شخصية كما هي الآن، وسرِّية كما هي الآن!]

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يقترح على القمة إجراءات مرحلية أو جزئية تَقدر «حقيقة» على تدارك قضايا لم تَعُد تَقبَل التأجيل - ومثل ذلك مرهون بـ«النوايا» و«المشاعر» و«الرغبات» وحتى بـ«الغرائز» - وكله مُخفي لا يَبين؟!

● ثم أخيراً - وليس آخراً كما يقولون - مَن الذي يستطيع أن يَحلَّ لغزَ شرعية القرار العربي، سواء من ناحية إدراك صاحب القرار لهذه الشرعية - أو من ناحية القبول الشرعي لهذا القرار في ضمير الناس؟!

تلك كلها مُقدِّمات ضرورية قبل المشاركة الفاعلة في البحث عن جواب لسؤال: «ما العَمَل؟» - وبغير هذه المقدِّمات تتنازل المشاركة إلى التسطيح على طريقة أنه «يَجب» وأنه «يَنبَغي» وأنه «لا بُد» - وتلك كلها أكوام قشٍّ أمام هُبوب عاصفة!

ومهما يكن فإن القمم تبدو مُستغنية عن الوديان وعن السفوح - لكن السؤال المعَلَّق في يد المقادير هو:

هل القمم تعرف من الحقائق ما يكفيها حتى تجعل اجتماعها في عَمَّان «مُهِمَّة ضرورية» - وليس «طقساً يُؤدَّى» بحيث يكفيه مجرد الاجتماع، وتكفيه دوريَّة الاجتماع، وتكفيه المراسم، وتكفيه المآدب حتى تَحين ساعة العَودة إلى الأوطان؟!

أم أن القمم لا تعرف، وبناء عليه فإن «المسيرة» - كل «مسيرة» وأي «مسيرة» - مُستمِرَّة ويجب أن تستمر؟

يَبقى مُلاحظة ختامية مُستعارة من قوانين الصراع وضمنها «قانون فعل الأزمات»، ومُؤدَّى الملاحظة أنه «إذا لم تجد أزمة من الأزمات مَن يُديرها - فإن حركتها لا تتوقف، وإنما هي تُواصل دورانها بحَركتها الذاتية مُتجاوزة نهاية الطريق»! ■


تقدم أحدث وأهم إصداراتها
حول العالم في ٢٠٠ يوم
كلام في السياسة
رحلتي إلى عالم الجن والعلاج الروحاني
دار الشروق
وجميع المكتبات الكبرى

«مؤسسة» القمة العربية

أحمد يوسف أحمد

في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر ٢٠٠٠، وفي سياق أعمال القمة العربية غير العادية التي انعقدت بالقاهرة في أعقاب اندلاع انتفاضة الأقصى في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ٢٠٠٠، شهد قادة الدول العربية الذين شاركوا في تلك القمة مراسم توقيع وزراه خارجية الدول الأعضاء على الآلية الخاصة بالانعقاد الدوري للقمة العربية، والتي وافق عليها مجلس جامعة الدول العربية، واضعين بذلك نهاية ناجحة على الصعيد القانوني التنظيمي لجهود حاولت منذ أكثر من ثلث قرن دعم جامعة الدول العربية بمؤسسة للقمة تنعقد دوريًا، أسوة بمنظمات إقليمية أخرى مشابهة، لعل أقربها إلينا جغرافيًا وأكثرها شبهًا بظروفنا هي منظمة الوحدة الأفريقية.

وتحاول الصفحات التالية أن ترصد مسيرة القمم العربية في سعيها إلى «المؤسسية» ضمن إطار النظام العربي عبر ما يزيد على نصف القرن، وأن تفسر ما ألم بهذه المسيرة من تطورات، وتستشرف ما يمكن أن يكون لنهايتها الناجحة - على النحو السابق بيانه - من دلالات بالنسبة للمستقبل العربي.

دورية القمة بين المبدأ والاتجاه

في الواقع أن إمعان النظر في محاضر تأسيس جامعة الدول العربية سواء تلك الخاصة بمناقشة وإقرار بروتوكول الإسكندرية في ١٩٤٤ أو ميثاق الجامعة ذاته في ١٩٤٥، لا يشير من قريب أو بعيد إلى اهتمام المجتمعين بأن تكون للجامعة مؤسسة على مستوى القمة، أو أن يشارك في أعمالها بأي شكل من الأشكال قادة الدول العربية. ويتسق هذا على أية حال مع الاتجاه القوي الذي ساد تلك المناقشات لجعل التعاون السياسي في أضيق نطاق ممكن. ولذلك جاء النص في المادة الثالثة من الميثاق على أن يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة فيها، دونما تحديد لمستوى التمثيل في هذا المجلس، ولئن رأى البعض لاحقًا أن هذا النص العام يسمح بعقد مجلس الجامعة على مستوى القمة إلا أن قراءة الأعمال التحضيرية للميثاق لا تسمح - كما سبقت الإشارة - من قريب أو من بعيد بقبول مثل هذا التفسير، ويلاحظ اتساقًا مع هذا أن أيًا من الدعوات اللاحقة لانعقاد قمم عربية لم تستند إلى تفسير كهذا، مما يؤيد القول بأن الرأي السابق يمثل «إرهاقًا» للنص، أي تحميلاً له بأكثر مما يحتمل.

ومع ذلك فسرعان ما اتضح أن التحديات والتهديدات والمخاطر التي يواجهها النظام العربي، وبالذات في شقها الخارجي، تتطلب عملاً يتجاوز المؤسسات التي نص عليها ميثاق جامعة الدول العربية، وهكذا وجد «ملوك وأمراء ورؤساء دول الجامعة العربية» أنفسهم مضطرين إلى عقد أول قمة عربية في أنشاص بمصر يومي ٢٨ و ٢٩ مايو ١٩٤٦ بعد أكثر قليلاً من سنة على توقيع ميثاق الجامعة، وتظهر قراءة قرارات القمة بما لا يدع مجالاً للشك - وبغض النظر عن أية دوافع أخرى للدعوة إلى عقد القمة أو حضورها - أن تفاقم الخطر الصهيوني على فلسطين كان هو الهاجس الرئيسي لتلك القرارات. وتكررت نفس السابقة بعد أكثر من عقد كامل بانعقاد قمة بيروت يومي ١٣ و ١٤ نوفمبر ١٩٥٦ متزامنة مع انتهاء الأعمال العسكرية في عدوان بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر في ذلك التوقيت، ومظهرة تأييد مصر في مواجهة العدوان.

وفي الحالتين (قمتي أنشاص وبيروت) لم تظهر القرارات أدنى اهتمام بموضوع دورية القمة، وإلى أن تتاح للباحثين قراءة محاضر هاتين القمتين وما بعدهما سوف تبقى التفاصيل الخاصة بإثارة هذا الموضوع من عدمه، والأطراف المؤيدة والمعارضة له، والحجج المحبذة للدورية وتلك الرافضة لها - إن كان قد أثير - في طي الكتمان.

وفي يناير ١٩٦٤ انعقدت للمرة الثالثة قمة عربية لمواجهة خطر داهم على الأمن القومي العربي تمثل في المشروعات الإسرائيلية لتحويل مياه نهر الأردن، وكانت قمة القاهرة تلك هي القمة الأولى التي يمكن القول بأنها انعقدت في إطار جامعة الدول العربية سواء مكانيًا أو مؤسسيًا، فمن الناحية المكانية كانت هي القمة الأولى التي انعقدت بمقر الجامعة بالقاهرة، ومن الناحية المؤسسية كانت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية هي التي وجهت الدعوة لحضور القمة بناء على طلب الخارجية المصرية، كما أن القمة قد عبرت عن نفسها في صدارة قراراتها بأنها «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية في دور انعقاده الأول»، وذلك في مقابل تعبير «نحن ملوك وأمراء ورؤساء دول الجامعة العربية» في قرارات مؤتمر أنشاص، وعدم الإشارة من قريب أو من بعيد إلى الجامعة العربية أو أي إطار عربي آخر في قرارات مؤتمر بيروت.

وبالإضافة إلى ما سبق كانت قمة القاهرة ١٩٦٤ هي أول قمة تقرر مبدأ دورية انعقاد القمة، فقد نص البند السابع والأخير من قراراتها على «أن يجتمع مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية مرة في السنة على الأقل، على أن يكون الاجتماع التالي في شهر أغسطس ١٩٦٤ في الإسكندرية»، أي أن قمة القاهرة فهمت الدورية بمعنى اجتماع يعقد سنويًا على الأقل، وإن لم تحدد توقيتًا ثابتًا له، أو معايير لاختيار مكانه، ويعني هذا أنها تصورت من ناحية إمكان انعقاد أكثر من اجتماع في نفس السنة، بدليل أنها حددت توقيت الاجتماع التالي بعد أقل من ثمانية شهور، وأنها من ناحية أخرى لم تنظم هذا التصور، وإنما ربطته في الغالب بتطور الظروف التي تستدعي انعقاد القمة، حيث إنها لم تهتم مثلاً بأن تجعل توقيت انعقاد القمة تاليًا لانعقاد إحدى دورتي مجلس الجامعة السنويتين.

وقد عقد بالفعل مؤتمر قمة ثان في مدينة

محاضر تأسيس جامعة الدول العربية، لا تشير من قريب أو بعيد إلى اهتمام المجتمعين بأن تكون للجامعة مؤسسة على مستوى القمة

مؤتمرات القمة العربية .. قراراتها وبياناتها (١٩٤٦ - ١٩٨٥)
القاهرة، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٨٧
قرارات مؤتمر القمة العربية (١٩٨٧ - ٢٠٠٠)
مذكرات محمود رياض (١٩٤٨ - ١٩٧٨)
البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط
بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١



الإسكندرية في نفس السنة (١٩٦٤)، وإن كان قد تأخر قليلاً عن التوقيت الذي حددته له قمة يناير ١٩٦٤ (إذ انعقد في سبتمبر بدلاً من أغسطس)، وواصل في قراراته النص على الانعقاد السنوي بترحيبه في البند الحادي عشر من هذه القرارات «بدعوة جلالة الملك الحسن الثاني لعقد الدورة الثالثة لمجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية في شهر سبتمبر ١٩٦٥ بالمملكة المغربية»، وواصل كذلك الفصل بين هذه التطورات وبين الجامعة العربية كمؤسسة بقرارها أن تجتمع لجنة متابعة قرارات القمة مرة «كل أربعة شهور على مستوى رؤساء الوزارات أو نواب الرؤساء في أحد البلاد العربية»، ويكون هذا الاجتماع «هيئة تنفيذية لمجلس الملوك والرؤساء يبت في الأمور العاجلة تمشيًا مع قرارات الملوك والرؤساء العرب، ويتولى مباشرة تنفيذ الخطط المقررة ودفعها، كما يقوم بإعداد المقترحات التي تعرض على مؤتمر الملوك والرؤساء، وله أن يطلب اجتماعًا استثنائيًا للملوك والرؤساء، إذا كانت هناك حالة عاجلة، أو أحداث تستدعي اجتماعًا سريعًا».

وفي سبتمبر ١٩٦٥ عقد «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية» دور انعقاده الثالث في الدار البيضاء في الموعد المحدد سلفًا في قمة الإسكندرية، فواصل التمسك بدورية انعقاد القمة بتلبيته لدعوة الرئيس الجزائري هواري بومدين لعقد الدورة الرابعة للمجلس بالجزائر في سبتمبر ١٩٦٦ لتكون قمة الجزائر المفترض انعقادها في ذلك التوقيت هي أول قمة عربية غائبة، وهو حدث سيتكرر لاحقًا على نحو شكّل ظاهرة -وليس مجرد أحداث منفردة- في النظام العربي، ولتكون تلك القمة الغائبة إشارة مبكرة إلى الصراع بين الرغبة في إضفاء الطابع المؤسسي على القمة العربية وبين العوامل البنيوية التي حالت كثيرًا دون حدوث هذا التطور. وبالإضافة إلى ما سبق أظهرت قمة الدار البيضاء واقعية أكبر تجاه آلية متابعة قرارات القمة على مستوى لجنة تنعقد كل أربعة أشهر على مستوى رؤساء الوزارات أو نواب الرؤساء، فنصت قراراتها في بندها السادس على أن يكون اجتماع «مجلس رؤساء وزارات الدول الأعضاء (أغفلت الإشارة إلى نواب الرؤساء) سنويًا في شهر مارس من كل عام» دونما تحديد لزمن انعقاده في علاقته باجتماع مجلس الجامعة الذي ينعقد في هذا الشهر أيضًا، وكذلك لمكان انعقاده.

وقد فرضت ظروف العدوان الإسرائيلي على مصر وسوريا والأردن في يونيو ١٩٦٧، والعجز العربي الفادح عن التصدي عسكريًا له إلى انعقاد قمة الخرطوم في أغسطس/سبتمبر ١٩٦٧، بعد حوالي سنة كاملة من موعدها المفترض في سبتمبر ١٩٦٦، في تعزيز واضح لفكرة أن القمم العربية تنعقد لمواجهة تحديات وتهديدات ومخاطر خارجية داهمة مصدرها أساسًا الكيان الصهيوني، وعلى الرغم من نجاح قمة الخرطوم في التوصل إلى قرارات عملية سواء فيما يتعلق بالموقف السياسي إزاء إسرائيل، أو الدعم المالي العربي لدول المواجهة معها، فإن القمة سكتت تمامًا لأول مرة منذ انعقادها في ١٩٦٤ عن الإشارة إلى مبدأ دورية الانعقاد، كما يلاحظ أن قراراتها أسقطت الإشارة إلى تسمية «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية»، كأن هذه التسمية كانت علامة على مرحلة من مراحل تطور النظام العربي، ولم تصدر عن مؤتمر القمة العربي الخامس الذي انعقد في الرباط في ٢٣/١٢/١٩٦٩ أية قرارات أصلاً أو حتى بيان ختامي بعد واقعة خروج الرئيس جمال عبد الناصر من قاعة اجتماعاته كاحتجاج صامت على الخلافات داخل المؤتمر بشأن زيادة الدعم المالي لدول المواجهة، وركز مؤتمر القمة الطارئ الذي عقد في القاهرة في سبتمبر ١٩٧٠ على إنهاء الاقتتال بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية.

وهكذا أسقط الحديث عن دورية القمة في سنوات ١٩٦٧ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ليعود من جديد مع الصحوة المؤقتة التي لحقت بالنظام العربي بقيام حرب أكتوبر ١٩٧٣، فانعقدت قمة الجزائر في نوفمبر من تلك السنة بعد حوالي شهر من توقف الأعمال العسكرية الرئيسية في الحرب، لتواجه تبعات إدارة الصراع مع إسرائيل، والذي نجحت الحرب في تحسين موقف العرب فيه، ونصت قرارات القمة في بندها السادس على أن «تعقد اجتماعات دورية لمؤتمر القمة العربي في أبريل من كل عام، كما تعقد دورات استثنائية إذا اقتضت الضرورة ذلك بموافقة أغلبية الدول الأعضاء، وبناء على طلب دولة أو أكثر من الدول الأعضاء أو الأمين العام، وهكذا عادت القمم العربية إلى ما بدأت به في عام ١٩٦٤، ونجحت مرتين فقط في تحقيقه، إحداهما في نفس السنة، والثانية في ١٩٦٥، ويلاحظ أن قمة ١٩٧٣ كانت أكثر تواضعًا في الحديث عن آليات المتابعة، فلم تشر إلى آليات متابعة خاصة بها على مستوى رؤساء الوزارات أو نواب الرؤساء، تجتمع مرة كل أربعة شهور، كما فعلت قمة سبتمبر ١٩٦٤، أو كل سنة كما فعلت قمة سبتمبر ١٩٦٥، وإنما نصت القرارات في بندها السابع على أن يقوم كل من مجلس الجامعة والمجلس الاقتصادي بتنفيذ قرارات القمة ومتابعتها، كل حسب اختصاصه.

وبالفعل عقدت قمة عربية تالية (مؤتمر القمة العربي السابع) في الرباط في أكتوبر ١٩٧٤ بعد أقل من سنة على عقد قمة الجزائر، وإن لم تعقد في شهر أبريل كما نصت القرارات، وكان التأجيل بناء على طلب من الرئيس أنور السادات حتى يتم التوصل إلى اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة السورية، ووافقت قمة الرباط في البند الخامس عشر لقراراتها على تلبية دعوة اللواء محمد سياد بري رئيس مجلس الثورة لجمهورية الصومال لعقد مؤتمر القمة العربي الثامن بالعاصمة الصومالية في يونيو ١٩٧٥، وبالإضافة إلى ذلك وضعت قمة الرباط أقدامها على بداية طريق تعديل ميثاق جامعة الدول العربية الذي سيفضي لاحقًا -بعد أكثر من ربع قرن- إلى تضمين دورية القمة في الميثاق، وذلك بموافقتها على تعديل الميثاق، وتكليف لجنة رباعية من وزراء خارجية سوريا والكويت ومصر والمغرب بمتابعة البحوث والدراسات الخاصة

كانت قمة القاهرة ١٩٦٤ هي أول قمة تقرر مبدأ دورية انعقاد القمة، ولم تحدد توقيتًا ثابتًا له، أو معايير لاختيار مكانه

بالموضوع، وعرضه على مؤتمر القمة العربي الثامن.

ومر عام ١٩٧٥ دون أن تنعقد القمة العربية العادية الثامنة في الصومال كما قررت قمة الرباط، وكان واضحًا أن توجهات النظام الصومالي المتهم أمريكيًا ومن قبل عدد من الدول العربية بأنه جعل من بلاده قاعدة سوفيتية وراء عدم انعقاد المؤتمر في الصومال، ومع ذلك فإن عدم انعقاد المؤتمر في الصومال شيء يمكن أن يبرر على النحو السابق، وعدم انعقاده على الإطلاق في تلك السنة يحتاج إلى تفسير بنيوي أعمق يتعلق بطبيعة العلاقات العربية ذاتها في تلك المرحلة.

ثم داهمت أحداث لبنان في ١٩٧٦ النظام العربي، فانعقد مؤتمر القمة العربي السداسي غير العادي بالرياض أيام ١٦ ـ ١٨ أكتوبر ١٩٧٦، لمعالجة الموقف المتفجر في لبنان، ثم انعقد مؤتمر القمة العربي الثامن بالقاهرة بعده بأيام قليلة (٢٥ ـ ٢٦ أكتوبر) ليصادق على قرارات المؤتمر السداسي غير العادي، وليسقط من جديد الإشارة إلى الدورة الثانية للمؤتمر، خاصة وقد بدا أن الوضع العربي أخذ في التعقد إلى حد بعيد مع مؤشرات لا تخطئها عين المراقب على تطورات جذرية في السياسة المصرية تجاه الصراع مع إسرائيل.

ولذلك كان طبيعيًا أن يمر عام ١٩٧٧ دون انعقاد قمة عربية، خاصة وقد تزامنت نهايته مع مبادرة الرئيس أنور السادات بزيارة إسرائيل في نوفمبر من ذلك العام، والتي كانت من حيث تداعياتها سببًا في دعوة العراق لقمة بغداد التي انعقدت في نوفمبر ١٩٧٨ لرفضه اتفاقيتي كامب ديفيد اللتين تم التوصل إليهما بين مصر وإسرائيل في سبتمبر ١٩٧٨، وبلورة سياسة عربية مشتركة إزاءهما، وقد أكدت قمة بغداد ١٩٧٨ في قراراتها قرار القمة العربية العادية السادسة بالجزائر بضرورة عقد اجتماعات دورية سنوية لمؤتمر القمة العربي في نوفمبر من كل عام، وعقد دورات استثنائية إذا اقتضت الضرورة بموافقة أغلبية الأعضاء وبناءً على طلب دولة أو أكثر من الدول الأعضاء.

وبالفعل عقدت القمة العربية العاشرة في تونس في نوفمبر ١٩٧٩، وأكدت في قرارها السادس نفس قرار قمة بغداد، وإن زادت عليه أن يكون اختيار المكان حسب الترتيب الهجائي للدول الأعضاء، كما عقدت الأمور بعض الشيء بالنص على «أن تتنازل الدول التي سبق أن عقد فيها مؤتمر القمة، وتلك التي لا تسمح ظروفها بعقد المؤتمر فيها لمن يليها في الترتيب، على أن تكون الدورة القادمة بالمملكة الأردنية الهاشمية (أي دورة ١٩٨٠) والتي تليها عام ١٩٨١ بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ثم يتبع ذلك الترتيب الهجائي لأسماء الدول في عقد دورات القمة». كما قررت قمة تونس «الإسراع بتعديل ميثاق الجامعة العربية في

القمم العربية ودورية الانعقاد
(١٩٤٦ ـ ٢٠٠٠)

مكان القمة وتاريخها	الموقف من دورية انعقاد القمة	التنفيذ
أنشاص ـ مايو ١٩٤٦	لا يوجد	-
بيروت ـ نوفمبر ١٩٥٦	لا يوجد	-
القاهرة ـ يناير ١٩٦٤	مرة سنويًا، ويعقد الاجتماع التالي في أغسطس ١٩٦٤	✓
الإسكندرية ـ سبتمبر ١٩٦٤	تعقد القمة التالية في المغرب في سبتمبر ١٩٦٥	✓
الدار البيضاء ـ سبتمبر ١٩٦٥	تعقد القمة التالية في الجزائر في سبتمبر ١٩٦٦	×
الخرطوم ـ أغسطس ١٩٦٧	لا يوجد	-
الدار البيضاء ـ ديسمبر ١٩٦٩	لا يوجد	-
القاهرة ـ سبتمبر ١٩٧٠	لا يوجد	-
الجزائر ـ نوفمبر ١٩٧٣	تعقد في أبريل من كل عام	×
الرباط ـ أكتوبر ١٩٧٤	تعقد في يونيو ١٩٧٥ بالصومال	×
القاهرة ـ أكتوبر ١٩٧٦	لا يوجد	-
بغداد ـ نوفمبر ١٩٧٨	تعقد في نوفمبر من كل عام	✓
تونس ـ نوفمبر ١٩٧٩	تعقد في نوفمبر من كل عام والقمة التالية في عمان	✓
عمان ـ نوفمبر ١٩٨٠	تعقد في نوفمبر من كل عام	✓
فاس ـ نوفمبر ١٩٨١	لا يوجد	-
فاس ـ سبتمبر ١٩٨٢	تعقد في نوفمبر ١٩٨٣ بالرياض	×
الرباط ـ أغسطس ١٩٨٥	لا يوجد	-
عمان ـ نوفمبر ١٩٨٧	تعقد في نوفمبر من كل عام	×
الجزائر ـ يونيو ١٩٨٨	لا يوجد	-
الدار البيضاء ـ مايو ١٩٨٩	لا يوجد	-
بغداد ـ مايو ١٩٩٠	تعقد في نوفمبر من كل عام والقمة التالية في القاهرة	×
القاهرة ـ أغسطس ١٩٩٠	لا يوجد	-
القاهرة ـ يونيو ١٩٩٦	تعقد بالتشاور بين الرئيس مبارك والقادة العرب والأمين العام للجامعة	✓
القاهرة ـ أكتوبر ٢٠٠٠	تعقد في مارس من كل عام والقمة القادمة في عمان	٭

اتجاه تقوية العمل العربي المشترك، والعمل على إعادة بناء أجهزتها على أسس جديدة تكفل الفاعلية، والقدرة على التحرك بما يخدم تنمية القدرة العربية الذاتية، ويؤول إلى تحقيق الوحدة العربية».

وفي نوفمبر ١٩٨٠ عقدت القمة العربية الحادية عشرة في عمان وفق مقررات قمة تونس ١٩٧٩، واهتمت القمة في قرارها الرابع على نحو تفصيلي بمسألة دورية القمة، فأكدت التمسك بالمبدأ، وبينت مزاياه، وأضافت التأكيد على «تحييد مسألة انعقاد مؤتمرات القمة، لتكون في منأى عن الخلافات التي من شأنها إضعاف هذه المؤسسة وعرقلة أعمالها» (وإن لم تهتم ببيان كيف يمكن لهذا التحييد أن يتم)، وأعادت القرارات النص على أن يكون شهر نوفمبر من كل عام هو التوقيت المحدد لانعقاد القمة، مع إمكانية عقد مؤتمرات قمة طارئة وفق أحكام ميثاق الجامعة، على أن تعقد الدورات العادية في الدول الأعضاء وفق الترتيب الهجائي، وفي حالة وجود ما يحول دون ذلك ينعقد المؤتمر في الدولة التي تليها أو في مقر الجامعة، على أن يُتفق قبل انفضاض كل مؤتمر على مكان انعقاده التالي. كذلك نصت القرارات على أن يكون تمثيل الدول الأعضاء في مؤتمرات القمة على مستوى رئيس الدولة أو الشخص الثاني فيها أو رئيس الوزراء، ولا يجوز أن تشارك أية دولة عضو بتمثيل يقل عن هذا المستوى، وحدد المؤتمر موعد دورته التالية بالأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٨١.

هكذا أسقط الحديث عن
دورية القمة فى سنوات ١٩٦٧ و١٩٦٩ و١٩٧٠
ليعود من جديد مع الصحوة المؤقتة
التى لحقت بالنظام العربى
بقيام حرب أكتوبر ١٩٧٣

وقد حدث ذلك بالفعل، إذ انعقد مؤتمر القمة الثاني عشر في فاس بالمغرب يوم ٢٥/ ١١/ ١٩٨١، ولكنه انفض دون قرارات ليعاود انعقاده في سبتمبر ١٩٨٢ في نفس المكان، ويقرر من ناحية انعقاد مؤتمر القمة العربي الثالث عشر بالرياض في نوفمبر ١٩٨٣، ومن ناحية أخرى تشكيل لجنة وزارية سداسية من وزراء خارجية تونس والجزائر والسعودية وسوريا والعراق والمغرب لدراسة مشروع تعديل الميثاق، ومن المعروف أن هذا المشروع قد تضمن إضافة مؤتمر القمة كأعلى سلطة في الجامعة، ونص على طريقة تشكيله، ودورية انعقاده سنويًا أو في دورات استثنائية، وأماكن انعقاده، والدول التي تتولى رئاسته، وفق قواعد لا تختلف كثيرًا عما استقرت عليه قرارات القمم التي سبقت الإشارة إليها.

ولم تنعقد قمة الرياض في موعدها، وبدلاً عنها انعقدت بعد أقل من سنتين على الموعد المحدد لها (ثلاث سنوات منذ انعقاد قمة فاس) قمة غير عادية في الرباط في أغسطس ١٩٨٥ بدعوة من الملك الحسن الثاني، يظهر إمعان النظر في قراراتها كيف تفاقمت الخلافات العربية ـ العربية، حيث تضمنت هذه القرارات تشكيل لجان وساطة في أربعة نزاعات عربية ـ عربية، وهذا فضلاً عن تطورات الحرب العراقية ـ الإيرانية إضافة إلى تعقيدات الصراع العربي ـ الإسرائيلي بطبيعة الحال، ولم تتضمن قرارات قمة الرباط ١٩٨٥ أية إشارة إلى تعديل الميثاق، أو انعقاد القمة التالية.

وفي نوفمبر ١٩٨٧ نجح الملك حسين في الدعوة إلى قمة عربية غير عادية جديدة عقدت في عمان لمواجهة تفاقم الحرب العراقية ـ الإيرانية وانعكاساتها على دول الخليج العربية، وأكد المؤتمر في قراراته على ضرورة عقد اجتماعات دورية لمؤتمر القمة العربي خلال شهر نوفمبر من كل عام، وأن يكون تمثيل الدول الأعضاء على مستوى رئيس الدولة، وفي حالات خاصة الشخص الثاني أو رئيس

لن يفيدنا كثيرًا مجرد اجتماع القمم العربية بانتظام لتصدر قرارات لا تجد طريقها إلى التأثير على الواقع العربي

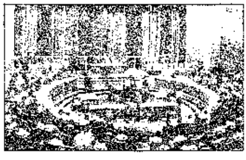
الوزراء، ومع ذلك لم يحدد المؤتمر مكان انعقاد المؤتمر القادم في إشارة واضحة لتعقيدات الوضع العربي في حينه.

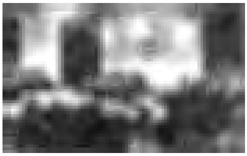
ثم فرضت الانتفاضة الفلسطينية التي تفجرت في أعقاب قمة عمان ١٩٨٧ - وربما بسببها - نفسها على النظام العربي، فعقدت في يونيو ١٩٨٨، وقبل مرور سنة على قمة عمان غير العادية قمة غير عادية أخرى في الجزائر، لم تشر من قريب أو من بعيد إلى دورية القمة، وتكرر نفس الأمر بانعقاد القمة غير العادية في الدار البيضاء في مايو ١٩٨٩، فعلى الرغم من أن تلك القمة وضعت اللمسة الأخيرة في عملية عودة مصر للنظام العربي على الصعيد المؤسسي - أي استئناف عضويتها في الجامعة العربية ومنظمات العمل العربي المشترك - بعد أن أتاحت قمة عمان ١٩٨٧ عودة العلاقات الدبلوماسية المصرية - العربية على الصعيد الثنائي، إلا أن البيان الختامي للقمة لم يتناول موضوع دورية اجتماعات القمة ولم يحدد موعدًا لمؤتمر القمة التالي.

ومع ذلك فقد انعقدت القمة التالية - غير العادية أيضًا - بعد عام بالتمام والكمال من انعقاد قمة الدار البيضاء، وذلك في مايو ١٩٩٠ في العاصمة العراقية بغداد بدعوة من الرئيس العراقي صدام حسين، وكان واضحًا أنها وإن ركزت بصفة خاصة على مخاطر هجرة اليهود السوفييت المتزايدة على نحو مقلق لإسرائيل إلا أنها بلورت موقفًا شاملاً إزاء ما يواجهه النظام العربي من تحديات ومخاطر من داخله وخارجه، ولذلك لم يكن غريبًا أن تتضمن قرارات المؤتمر التأكيد على دورية انعقاد القمة العربية في نوفمبر من كل عام وفقًا لقرارات سابقة، والنص على عقد القمة التالية في القاهرة في نوفمبر من نفس السنة، أي عام ١٩٩٠.

وبالفعل عقدت القمة العربية التالية في القاهرة، وإن لم يكن في نوفمبر ١٩٩٠ وفقًا لقرارات قمة بغداد، وإنما بعد أقل من ثلاثة شهور على انعقاد تلك القمة، كذلك لم تكن قمة القاهرة قمة عادية كما تصورت قمة بغداد، وإنما كانت بدورها قمة طارئة أخرى انعقدت لمناقشة ذلك الحدث المأساوي المتمثل في غزو العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠، والذي وجه ضربة شبه قاصمة للنظام العربي في حينه، وقد اقتصرت قرارات قمة القاهرة الطارئة في أغسطس ١٩٩٠ على مواجهة تداعيات ذلك الحدث، وكان واضحًا أن الأهوال التي شهدتها القمة لم تجعل أحدًا يفكر في تحديد أي موعد لقمة تالية تتابع القرارات التي تم اتخاذها على الأقل، فكلف الأمين العام لجامعة الدول العربية بعملية المتابعة، ورفع تقرير عنها إلى مجلس الجامعة في خلال خمسة عشر يومًا لاتخاذ ما يراد في هذا الشأن.

وتطلب الأمر ست سنوات كاملة، ويروق











التحدي الذي مثلته الحكومة اليمينية الجديدة في إسرائيل لعملية تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي لكي تنعقد قمة القاهرة في يونيو ١٩٩٦، والتي بلورت موقفًا أكثر عملية تجاه موضوع دورية انعقاد القمة، حيث اتفق المشاركون فيها على قيام الرئيس حسني مبارك باعتباره رئيس قمة القاهرة بإجراء الاتصالات والمشاورات اللازمة مع القادة العرب والأمين العام لجامعة الدول العربية للمتابعة والاتفاق بالنسبة لانعقاد القمة التالية. وهو ما حدث بالفعل بانعقاد قمة القاهرة غير العادية في أكتوبر ٢٠٠٠ بالقاهرة كاستجابة لتطورات الخطيرة المتعلقة بانتفاضة الأقصى، التي وافقت - أي قمة القاهرة - على الآلية الخاصة بالانعقاد الدوري المنتظم للقمة العربية. على أن يكون الملحق المتعلق بها مكملاً لميثاق جامعة الدول العربية.

وقد قضت هذه الآلية بانعقاد مجلس الجامعة على مستوى القمة بصفة دورية مرة في السنة في شهر مارس، وعند الضرورة أو بروز مستجدات تتعلق بالأمن القومي العربي، إذا تقدمت إحدى الدول الأعضاء أو الأمين العام بطلب ذلك، ووافق على عقدها ثلثا الأعضاء. وعلى أن تنعقد الدورات العادية في مقر الجامعة، ويتناوب الأعضاء على الرئاسة حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول الأعضاء، وأجازت الآلية انعقاد الدورات غير العادية لمجلس القمة خارج مقر الجامعة بموافقة الدول الأعضاء، على أن تكون الرئاسة للدولة التي ترأس القمة العادية، واشترطت الآلية أن تقتصر الرئاسة على ملوك ورؤساء الدول العربية.

محاولة للتفسير واستشراف المستقبل:

سار النظام العربي إذن طريقًا طويلاً لمدة زادت على نصف القرن (من ١٩٤٦ إلى ٢٠٠٠) لكي يجعل من القمة العربية مؤسسة ضمن تنظيم الجامعة العربية تجتمع في أدوار انعقاد سنوية عادية، وفي تلك المدة انعقدت أربع وعشرون قمة (بحساب أن القمة العربية في فاس في نوفمبر ١٩٨١ وسبتمبر ١٩٨٢ قمتان وليستا قمة واحدة كما تحسبان رسميًا).

ويظهر الجدول التالي أن ثلاث عشرة فقط من القمم الأربع والعشرين - أي أكثر من النصف بقليل - اهتمت بالنص على دورية القمة، ومن هذه المرات الثلاث عشرة تم الالتزام بدورية القمة في ست منها فقط، وظهر العجز عن ذلك في ست أخرى، بينما بقيت المرة الأخيرة تحت الاختبار حتى كتابة هذه السطور، وإن كانت كل المؤشرات تفيد حتى الآن أن قمة عمان سوف تنعقد في موعدها المقرر في مارس ٢٠٠١.

ويعني هذا أن نسبة التزام القمم العربية في السابق بمبدأ الدورية متدنية (حوالي الربع)، وحتى إذا أضفنا لعدد مرات النجاح هاتين المرتين اللتين انعقدت فيهما القمة بعد أقل من عام، وإن يكن خلافًا لقرار القمة السابقة عليها (كما هو الحال في قمة الرباط التي انعقدت في أكتوبر ١٩٧٤ بعد قمة الجزائر في نوفمبر ١٩٧٣، وليس في أبريل ١٩٧٤ حسب قرار قمة الجزائر، وكذلك قمة الجزائر التي انعقدت في يونيو ١٩٨٨ قبل موعدها الذي قررته قمة عمان السابقة عليها، والذي حدد بنوفمبر ١٩٨٨)، كذلك أضفنا قمة عمان في مارس ٢٠٠١ تفاؤلاً بما سيكون فإن النسبة سوف تتجاوز الثلث بقليل (تسع مرات من أربع وعشرين)، وهي نسبة تبقى قليلة.

وتشير المؤشرات الكمية السابقة إلى حقيقة بنيوية في النظام العربي مؤداها أن انعقاد القمم كان يتم عادة استجابة لظروف تحديات أو تهديدات غير عادية للنظام، الغالبية العظمى منها خارجية ومرتبطة بالصراع العربي - الإسرائيلي، وفي الواقع أنه باستثناء القمم الثلاثة غير العادية التي انعقدت في سبتمبر ١٩٧٠ لاحتواء الصدام المسلح بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية، وأكتوبر ١٩٧٦ لمواجهة تداعيات الحرب الأهلية في لبنان، وأغسطس ١٩٩٠ في أعقاب الغزو العراقي للكويت. يمكن القول بأن جميع القمم العربية الأخرى قد عقدت لمواجهة تحديات ومخاطر خارجية خطيرة، كما أنه باستثناء قمة عمان غير العادية في ١٩٨٧ انصبت بقية القمم العربية ذات الصلة بالتهديد الخارجي مباشرة على الصراع العربي - الإسرائيلي، فضلاً عن أن قمة عمان ١٩٨٧ ذاتها قد اهتمت به أيضًا، وإن يكن في مرتبة تالية لاهتمامها الأكبر بتطورات الحرب العراقية - الإيرانية.

وإذا كان انعقاد القمم العربية قد ارتبط على نحو مباشر في الأغلب الأعم بتطورات الصراع العربي - الإسرائيلي فإنه يمكن القول بأن هذه التطورات قد تركت بصمتها واضحة - وليس أي نزعة مؤسسية في النظام العربي - على انعقاد القمم العربية، فعندما بدا التهديد فادحًا اضطر القادة العرب للاجتماع حيثًا لمواجهة تطورات سلبية محتملة، كما في قمة ١٩٦٤ بالقاهرة (الخطط الإسرائيلية لتحويل نهر الأردن) وقمة عمان ١٩٨٧ (تطورات الحرب العراقية - الإيرانية) وقمة القاهرة ١٩٩٦ (تحدي الحكومة اليمينية الجديدة في إسرائيل لعملية التسوية السلمية)، أو تطورات سلبية وقعت بالفعل كما في قمة بيروت ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي على مصر) وقمة الخرطوم ١٩٦٧ (مخلفات عدوان يونيو ١٩٦٧) وقمة القاهرة ١٩٧٠ (الاقتتال بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية) وقمة القاهرة ١٩٧٦ (الحرب الأهلية في لبنان) وقمة بغداد ١٩٧٨ (توقيع اتفاقيتي كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل) وقمة فاس ١٩٨٢ (الغزو الإسرائيلي للبنان)، أو

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

جماعة سرية. دينية وسياسية وفلسفية شيعية أو إسماعيلية باطنية. عاش أعضاؤها بالبصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، يذكر منهم: محمد بن مشير البستي الملقب بالمقدسي وأبوالحسن علي بن هارون الزنجاني ومحمد ابن أحمد النهرجوري وزيد بن رفاعة، وقد تآلف هؤلاء الأشخاص وتصادقوا ووضعوا مذهبًا زعموا أنه يؤدي إلى الفوز برضوان الله. لذلك سموا بإخوان الصفاء وخلان الوفاء. وجمعوا معارف عصرهم العلمية والفلسفية والدينية في رسائل تزيد على الخمسين، وتقع رسائلهم في ٤ أقسام في الرياضيات وفي الجسمانيات (الطبيعيات) وفي النفسيات (العقليات) وقسم في الناموسيات (الإلهيات).

١ ـ في أن أصل صناعة الموسيقى للحكماء

اعلم يا أخي، أيّدك اللّه وإيّانا بروح منه بأن الصنائع كلها استخرجتها الحكماء بحكمتها، ثم تعلّمها الناس منهم، وبعضهم من بعض، وصارت وراثة من الحكماء للعامة، ومن العلماء للمتعلمين، ومن الأساتذة للتلامذة. فصناعة الموسيقى استخرجتها الحكماء بحكمتها، وتعلمها الناس منهم، واستعملوها كسائر الصنائع في أعمالهم ومتصرفاتهم بحسب أغراضهم المختلفة. فأمّا استعمال أصحاب النواميس الإلهية لها في الهياكل وبيوت العبادات وعند القراءة في الصلوات، وعند القرابين والدعاء والتضرع والبكاء، كما كان يفعل داود النبي، عليه السلام، عند قراءة مزاميره، وكما يفعل النصارى في كنائسهم، والمسلمون في مساجدهم من طيب النغمة ولحن القراءة، فإن كل ذلك لرقة القلوب، وخضوع النفس وخشوعها، والانقياد لأوامر اللّه تعالى ونواهيه.

على الدوام، كانت القمم العربية تنعقد لمواجهة تحديات وتهديدات ومخاطر خارجية داهمة مصدرها أساسًا الكيان الصهيوني

لترتيب الأوضاع وبلورة موقف عربي مشترك بعد تطورات مهمة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي تحمل مضمونًا إيجابيًا من وجهة النظر العربية كما في قمة الجزائر ١٩٧٣ (في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقمة الجزائر أيضًا ١٩٨٨ (في أعقاب الانتفاضة الفلسطينية) وقمة القاهرة ٢٠٠٠ (في أعقاب انتفاضة الأقصى).

وتبدو التفاصيل غائبة في ظل عدم الاطلاع على المحاضر الرسمية للقمم العربية بخصوص موضوع دورية القمم العربية ومؤسسيتها، ومن المرجح أن القمم التي لم تنص في قراراتها على مبدأ الدورية إما أنها لم تتصور أن تتفاقم المخاطر التي تواجه النظام العربي إلى الحد الذي يستدعي ذلك المبدأ (كما في حالة قمتي أنشاص ١٩٤٦ وبيروت ١٩٥٦ بافتراض أن النوايا فيهما كانت خالصة)، أو أنها وجدت نفسها في موقف شاك من منظور الأوضاع العربية تصبح دعوتها فيه لدورية القمة نوعًا من الهزل (كما في قمة الدار البيضاء ١٩٦٩ التي انتهت أصلاً دون التوصل إلى قرارات، وكذلك قمة فاس ١٩٨١ التي انفضت فيما سمي بدورتها الأولى دون التوصل إلى قرارات أيضًا، أو قمة القاهرة ١٩٧٠ التي ركزت على وقف الاقتتال الفلسطيني ـ الأردني).

أو قمة الرباط ١٩٨٥ التي وجدت نفسها في خضم خلافات عربية ـ عربية تشابكت خيوطها على نحو بالغ، أو قمة ١٩٩٠ التي كانت قمة خارقة على صعيد الصراعات العربية ـ العربية.

غير أن السؤال يبقى واردًا ـ إن لم يكن ملحًا ـ حول القمم التي لم تشر إلى مبدأ الدورية على الرغم من أنها حققت إنجازًا طيبًا في ذاتها، وكانت تواجه أوضاعًا بالغة الخطورة، وتبرز قمة الخرطوم ١٩٦٧ واضحة في هذا الخصوص، وهي التي نجحت في ترتيب الأوضاع العربية لمواجهة نتائج عدوان يونيو ١٩٦٧، وقمة القاهرة ١٩٧٦ التي يفترض أنها بلورت موقفًا عربيًا للتعامل مع الحرب الأهلية في لبنان، وقمة الدار البيضاء ١٩٨٩ التي وضعت اللمسات الأخيرة على عملية استعادة وحدة الصف العربي باستئناف مصر لدورها في الجامعة العربية ومنظومة العمل العربي المشترك.

أما القمم التي أقرت مبدأ الدورية ثم وقع بعدها عجز عن الالتزام به فتشير الشواهد إلى أن هذا العجز يمكن أن يرد إلى السمة الصراعية السائدة للعلاقات العربية ـ العربية، كما يتضح مما وقع بعد قمة الدار البيضاء في سبتمبر ١٩٦٥ من استئناف للحرب الباردة ـ بل والساخنة ـ العربية إذا جاز التعبير، وما وقع بعد قمة الرباط في أكتوبر ١٩٧٤ من اعتراض دول عربية مؤثرة على انعقاد القمة بالصومال في موعدها المقرر بسبب التهم التي وجهت لنظام سياد بري بالتبعية للاتحاد السوفيتي، وما وقع بعد قمة فاس في سبتمبر ١٩٨٢ من تعقد بالغ للأوضاع العربية وتشابكاتها الإقليمية سواء في الصراع العربي ـ الإسرائيلي أو الحرب مع إيران، وما وقع بعد قمة بغداد في مايو ١٩٩٠ من غزو عراقي للكويت.

ويلاحظ من ناحية أخرى أن التزام القمم العربية بمبدأ الدورية قد وقع في سنوات المد القومي والقيادة المصرية للنظام العربي (قمتا الإسكندرية ١٩٦٤ والدار البيضاء ١٩٦٥) غير أنه لا هذا المد ولا هذه القيادة قد ضمنت ـ أو حتى رغبت ـ في استمرار الالتزام به إزاء استمرار التحدي الذي مثلته القوى العربية المحافظة في تلك المرحلة مدعومة بالولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الغربي عمومًا، كذلك وقع هذا الالتزام بمبدأ الدورية في سنوات التوحد العربي ضد نهج السلام المصري مع إسرائيل (قمم تونس ١٩٨٩ وعمان ١٩٨٠ وفاس ١٩٨١/١٩٨٢)، لكن التحلل منه بدأ عندما أخذت دماء هذا النهج تسري في عروق النظام العربي.

ويعني التحليل السابق أنه بقدر سعادتنا للإنجاز السياسي والقانوني الذي تم بموافقة الدول العربية في قمة القاهرة غير العادية في أكتوبر ٢٠٠٠ على دورية القمة، وكذلك على أن يكون الملحق المنظم لهذه الدورية جزءًا مكملاً للميثاق، يجب أن يكون حذرنا من توقع آثار بالغة الإيجابية لهذه الخطوة في حد ذاتها. صحيح أن خبرة جامعة الدول العربية على مدار أكثر من نصف القرن تظهر التزامًا صارمًا بانعقاد مجلس الجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية في دورتين سنويتين وفقًا للميثاق، ومن ثم فإننا نتوقع ـ أو نتمنى ـ أن تنسحب هذه الخبرة الإيجابية على القمة العربية بعد إقرار دوريتها في ملحق مكمل لميثاق الجامعة، لكن الخبرة علمتنا أيضًا أن انتظام شمل مجلس الجامعة وقدرته على إصدار قرارات لم يفضيا بالضرورة إلى تنفيذ هذه القرارات، وعلمتنا كذلك أن نفس الأمر قد انسحب للأسف على قرارات بالغة الأهمية للقمم العربية، سواء فيما يتعلق بالأمن القومي العربي أو التكامل الاقتصادي العربي، ذلك أن بعضًا ـ إن لم يكن كثيرًا ـ من الدول العربية يوافق على القرارات من باب درء الحرج، ثم يماطل أو حتى يمتنع عن التنفيذ بعد ذلك، وعليه فلن يفيدنا كثيرًا مجرد اجتماع القمم العربية بانتظام لتصدر قرارات لا تجد طريقها إلى التأثير على الواقع العربي، وإنما سوف يكون النهج المطلوب هو أن نعمل جميعًا، وفي الصدارة منا مؤسسة القمة العربية إن أمكن ـ على إعادة بناء النظام العربي بما يكفل أن يكون التطور المؤسسي المهم الذي لحق بهذا النظام في أكتوبر ٢٠٠٠، والذي أصبحت القمة العربية بموجبه مؤسسة من مؤسساته، تطورًا معبرًا عن واقع حقيقي، ومن ثم مفضيًا إلى تغيير دائم ومستمر لهذا الواقع إلى الأفضل، وليس تطورًا شكليًا سرعان ما يصطدم بإشكاليات الواقع العربي، فيتضاءل أثره ـ إن لم ينعدم ـ ويتحول ـ لا قدر الله ـ إلى مصدر لإحباط جديد. ■

حقيقة «نابليون إسرائيل الصغير»



بـــاراك

آفـــي شـــلايم

أدى اندلاع انتفاضة الأقصى في أعقاب زيارة آرييل شارون المستفزة للحرم الإسلامي المقدس في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر الماضي إلى إعادة فتح مسألة قدرة اتفاق أوسلو على إيجاد تسوية عملية وناجحة للصراع القائم بين إسرائيل والفلسطينيين. فهذا الاتفاق موضع جدل وخلاف منذ توقيع ياسر عرفات وإسحاق رابين عليه في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣ في حديقة البيت الأبيض بأيد مرتعشة ومترددة.

وفي الشهر التالي نشرت مجلة London Review of Books مقالتين حول الاتفاق، إحداهما تعارضه والأخرى مؤيدة له. في الأولى رفض إدوارد سعيد الاتفاق ووصفه بأنه «أداة للاستسلام الفلسطيني، وفرساي فلسطينية». وقال إن عرفات ألغى بتوقيعه للاتفاق ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، وتجاهل كل قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة فيما عدا قراري ٢٤٢ و٣٣٨، وتنازل عن الحقوق القومية الأساسية للشعب الفلسطيني. وأكد إدوارد سعيد أن الاتفاق لم يطرح مسألة تقرير المصير الفلسطيني، لأن تقرير المصير يستلزم الحرية والسيادة والمساواة.

أما أنا فقد أيدت الاتفاق في المقال الذي كتبته. فرغم أنه كان من الواضح أن الاتفاق أقل بكثير مما يطمح إليه الفلسطينيون من استقلال تام وقيام دولة، إلا أنه من ناحية أخرى، لم يقدم على أنه معاهدة سلام شاملة، بل كان أقل تواضعاً من ذلك بكثير، باعتباره إعلان نوايا للحكم الذاتي الفلسطيني الذي يبدأ العمل به كبداية في غزة وأريحا. وقلت إنه رغم كل القيود والغموض، فإن الاتفاق يمثل نجاحاً كبيراً في الصراع الطويل والمرير على فلسطين. وما كان يهم هو أن كلاً من الطرفين اعترف بالآخر، وقبل مبدأ التقسيم، ووافق على قطع مرحلة تلو الأخرى نحو التسوية النهائية. كما أنني كنت أعتقد أن الاتفاق سوف يؤدي إلى عملية انسحاب تدريجية لا رجعة فيها من الأراضي المحتلة، وأنه سوف يؤدي بعد الفترة الانتقالية، ومدتها خمس سنوات، إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة على معظم الضفة الغربية وغزة.

وطوال السنوات السبع الماضية كان عقلي يعود مراراً إلى ذلك الجدال المبكر. من الذي استطاع أن يقرأ الأمور قراءة صحيحة: هل هو إدوارد سعيد أم أنا؟ فتارة كنت أشعر بأن الأمور تسير حسبما رآها هو؛ وتارة أخرى كنت أراها تسير كما رأيتها أنا؛ وثالثة كنت أعود فأراها تسير حسبما رآها هو. وربما ينطبق تعليق شواين لاي الشهير، بأنه لم يحن الوقت بعد للتحدث عن أثر الثورة الفرنسية، على أثر اتفاق أوسلو. واختار إدوارد سعيد «نهاية عملية السلام» عنواناً لأحدث كتبه، وهو حكم أراه سابقاً لأوانه. إذ يكفي أن ما بدأ في أوسلو لا يزال ينبض بالحياة. ولم تتعطل عملية السلام لأن الاتفاق بطبيعته غير قابل للتطبيق، بل لأن إسرائيل لم تلتزم بالشق الخاص بها في الاتفاق.

ولم يعد اتفاق أوسلو بدولة فلسطينية مستقلة في نهاية الفترة الانتقالية، إذ ترك الخيارات مفتوحة. كما أنه لم يذكر شيئاً عن القضايا التي هي صلب النزاع، مثل القدس والمستوطنات والحدود واللاجئين. فقد أرجئت كل هذه القضايا إلى محادثات الوضع النهائي المقرر إجراؤها في العامين الأخيرين من الفترة الانتقالية. وكان الاتفاق مع الفلسطينيين مقامرة، وهو ما كان رابين أدرى به من أي إنسان آخر. وقد كشفت لغة جسمه في حفل توقيع الاتفاق ما قاله لمعاونيه بكلمات كثيرة: وهو أنه يشعر بمنتهى الانزعاج. وفي الحقيقة أن ماكان يخيفه هو طابع المناسبة ذاته، وليس احتمال قيام دولة فلسطينية. فمادام أمن إسرائيل مصوناً، فهو على استعداد للمضي في الشراكة السلمية مع عدوه السابق. مثلما وقع اتفاقية أوسلو ٢ في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٩٥، إلا أنه اغتيل بعد ذلك بخمسة أسابيع، وأصيبت عملية أوسلو بأول نكسة خطيرة لها.

أما النكسة الكبرى الثانية فكانت فوز بنيامين نتانياهو على شيمون بيرس في انتخابات مايو ١٩٩٦. وكان نتانياهو عدواً لدوداً لاتفاقيات أوسلو، حيث كان يراها غير متوافقة مع أمن إسرائيل ومع حقها التاريخي في الوطن التوراتي. إلا أنه كان يعلم أن ثلثي الشعب الإسرائيلي يؤيد الاتفاقيات وسياسة الانسحاب المشروط من الأراضي المحتلة (التي تم الاتفاق عليها بعد ذلك)، ولأنه انتهازي على الدوام، فقد بدأ في مسايرة الرأي العام، حيث وعد باحترام التزامات إسرائيل الدولية. ولكن ما أن انتخب نتانياهو حتى مضى في طريقته المتسمة بقصر النظر الشديد وعدم الأمانة الجلي في التملص من التزامات إسرائيل وهدم الأسس التي وضعها من سبقوه من قيادات حزب العمل من أجل السلام مع الفلسطينيين. لقد ظل يتحدث عن المعاملة بالمثل، في الوقت الذي يقوم فيه من جانب واحد بتدمير منازل العرب وشق نفق في مدينة القدس القديمة، وفرض حظر التجوال، ومصادرة أراضي العرب وبناء المستوطنات اليهودية الجديدة في الضفة الغربية. وتحت ضغط شديد من أمريكا، وقع نتانياهو مذكرة واي ريفر في أكتوبر ١٩٩٨، حيث وعد بتسليم ١١٪ أخرى من الضفة الغربية للسلطة الفلسطينية. وكعادته، لم يف بما وعد به في هذا الاتفاق. ومن المفارقات أن المعارضة ليست هي من أسقط حكومته، بل إن شركاءه القوميين والدينيين في الائتلاف هم الذين اعتبروا أنه تراخى مع الفلسطينيين وأنه فرّط في سلامة الوطن التاريخي.

وفي انتخابات رئاسة الوزراء المباشرة التي أجريت في السابع عشر من مايو سنة ١٩٩٩ فاز إيهود باراك بخمسة وستين بالمئة من الأصوات، مقابل أربعة وأربعين لنتانياهو - وهو انتصار ساحق بالمعايير الإسرائيلية، وتفويض لاستئناف الكفاح من أجل السلام الشامل بين إسرائيل وجاراتها. وكان هناك إحساس قوي بأنه الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب. وكنت واحداً من الإسرائيليين الذين علقوا آمالهم على القائد الجديد. وفي استهلال لكتابي «الجدار الحديدي: إسرائيل والعالم العربي» قلت إن انتخاب باراك كان أكثر من زلزال سياسي: «لقد كان شروق الشمس بعد ثلاث سنوات مظلمة ومرعبة خضعت فيها إسرائيل لقيادة مؤيدي الجدار الحديدي المتسمين بالجمود». وفي عدد ١٦ سبتمبر ١٩٩٩ من مجلة London Review of Books عاودت الكرة بمقال عن «الظهور المبشر بالخير لنابليون إسرائيل الصغير». وكان ذلك أكبر أخطائي.

فما غاب عن ناظري في ذلك الوقت هو أن الجنرال باراك لم يكن سوى أحدث مؤيد لاستراتيجية الجدار الحديدي التي قادت الحركة الصهيونية منذ أقدم مراحل الكفاح في فلسطين. وجوهر هذه الاستراتيجية - كما أعلنها زئيف جابوتنسكي مؤسس الصهيونية التعديلية سنة ١٩٢٣ - هو أنه لايمكن التعامل مع العرب إلا من موقع القوة التي لا سبيل إلى التصدي لها. وعندما يتوافر لإسرائيل الأمن الكافي، يمكن التفاوض مع الفلسطينيين وغيرهم من الجيران العرب على تسوية مُرضية. وقد اتخذ مناحم بيجن، زعيم الليكود وأحد تلاميذ جابوتنسكي، الخطوة الأولى من المرحلة الثانية بإبرامه معاهدة سلام مع مصر سنة ١٩٧٩. واتخذ رابين زعيم حزب العمل الخطوة الثانية شديدة الأهمية بالتفاوض على اتفاق أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية. وعاد نتانياهو بإسرائيل إلى المرحلة الأولى من استراتيجية الجدار الحديدي، وهو تحاشى الحلول الوسط والاعتماد على القوة بدلاً من الدبلوماسية في التعامل مع العرب.

وأثناء الحملة الانتخابية، قدم باراك نفسه على أنه تلميذ رابين، وأنه الجندي الذي اتجه في مرحلة متأخرة من حياته إلى صنع السلام، ووعد بأن يسير على خطى معلمه في طريق أوسلو. وقد صدّق معظم المراقبين، وأنا منهم، مقولته. وكان السؤال الواقعي هو: هل يمكنه، وهو أكثر من حصل من الجنود على النياشين والأوسمة، أن ينجح في صنع السلام مع العرب مثلما نجح في قتلهم؟ إن سجله كرئيس للوزراء يبين بجلاء أنه لم ينجح في ذلك. فربما كان يرتدي الملابس المدنية، إلا أنه يظل جندياً في المقام الأول. وهو كذلك ما يعرف في اللغة العبرية بـ«بيتخونيست» - أي الذي يفزع إلى الأمن. فكل التطورات التي شهدتها المنطقة، ومن بينها عملية السلام، ترى من خلال المنظور الضيق لاحتياجات إسرائيل الأمنية، وهي الاحتياجات التي يتم تضخيمها بطريقة غير معقولة - إن لم تكن نهمة لا تشبع. ولا يعدو الأمر كونه مبالغة بسيطة أن نقول إن باراك يقارب الدبلوماسية وكأنها امتداد للحرب بوسائل أخرى.

لقد أبد انشغال رئيس الوزراء الجديد بالقوة العسكرية تلك المقابلة المطولة التي أجرتها معه صحيفة «هاارتس» (١٨ يونيو ١٩٩٩) التي أبد فيها السعي إلى التوصل إلى اتفاق مع سوريا أولاً، على أساس أنها قوة عسكرية خطيرة، بينما الفلسطينيون ليسوا كذلك. كما قال: «إن الفلسطينيين هم مصدر الشرعية لاستمرارية الصراع، إلا أنهم أضعف الخصوم كافة. وهم كقوة عسكرية غير جديرين بالاهتمام». وهكذا نصل إلى الحقيقة: فالفلسطينيون ليست لديهم

لم تتعطل عملية السلام لأن اتفاق أوسلو بطبيعته غير قابل للتطبيق، بل لأن إسرائيل لم تلتزم بالشق الخاص بها في الاتفاق

القوة العسكرية ولا يشكلون تهديداً لأمن إسرائيل، وبذلك يمكن وضعهم بكل أمان في موضع قليل الأهمية. وما أوحى به باراك هو أن الاتفاق مع سوريا سوف يضعف الفلسطينيين ويعزلهم، وبذلك يزداد احتمال قبولهم أية شروط تقدمها لهم إسرائيل على سبيل التسوية النهائية. وكان باراك يركز بشكل يكاد يكون تاماً في الثمانية شهور الأولى من رئاسته للوزارة على المسار السوري، إلا أن مساعيه باءت بالفشل.

ولم يكن بالإمكان تحاشي المسار الفلسطيني تماماً، على الأقل بسبب الالتزامات المكتوبة التي كان من سبقوا باراك أطرافاً فيها. وكانت تحفظاته على الاتفاقات معروفة على نطاق واسع. وعندما كان رئيساً للأركان سنة ١٩٩٣ لم يبلغه أحد بالمفاوضات السرية مع منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة النرويجية، وقد انتقد الاتفاق الذي تم التوصل إليه هناك انتقاداً شديداً. وفي سنة ١٩٩٥ كان وزيراً للداخلية وامتنع عن التصويت في مجلس الوزراء على أوسلو ٢، وكان اعتراضه الأساسي على عملية أوسلو هو أنها تفرض عبئاً على إسرائيل بتجريدها على مراحل مما في حوزتها من أراض، دون أن تؤدي بالضرورة إلى حل محدد للصراع مع الفلسطينيين. وكان ذلك اعتراضاً مستغرباً، لأن النزعة التدريجية ومبدأ الأرض مقابل السلام يقعان في صلب أوسلو. واللافت للانتباه أن أول عرض قدمه باراك لعرفات كان تجاهل ما تم الاتفاق عليه في مذكرة واي ريفر من إعادة نشر القوات على نطاق صغير والمضي إلى اتفاق كبير. إلا أن عرفات أصر على ضرورة الوفاء بكل الالتزامات السابقة قبل الدخول في مفاوضات الوضع النهائي.

وفي المفاوضات اللاحقة، مارس باراك ضغطاً مكثفاً على الفلسطينيين. وقد وصفوا منهجه الدبلوماسي بأنه سلام بالتهديد. وكانت النتيجة اتفاقاً جرى توقيعه في شرم الشيخ في ٤ سبتمبر ١٩٩٩. وسمح الاتفاق الجديد – المعروف باسم واي ٢ – بمزيد من الوقت لتنفيذ إعادة نشر القوات المتفق عليه في واي ووضع جدولاً جديداً لمحادثات الوضع النهائي. إذ اتفقت إسرائيل والسلطة الفلسطينية على بذل «جهد صادق» للتوصل إلى «اتفاق إطار» بشأن قضايا الوضع النهائي بحلول شهر فبراير والتوقيع على معاهدة سلام شاملة بحلول سبتمبر من عام ٢٠٠٠ وكشأن كل الاتفاقات الإسرائيلية الفلسطينية السابقة، كان واي ٢ يعكس ميزان القوى بين الطرفين. فقد استغلت إسرائيل وضعها التفاوضي القوي في التفاوض بشأن الاتفاقات المتعاقبة، بل كانت تعدل الاتفاقات بعد التوصل إليها. وكانت لنتانياهو تحفظاته بشأن اتفاقيات أوسلو، وبالتالي عدلها بالصورة التي يراها، وكانت النتيجة مذكرة واي ريفر. وكانت لباراك هو الآخر تحفظاته بشأن المذكرة، وبناء على ذلك عدلها بالصورة التي يراها وكانت النتيجة واي ٢. فكيف كان الفلسطينيون ينظرون إلى هذا كله؟ الإجابة الضمنية عن ذلك هي أن الشحاتين ليس لهم الحق في الاختيار.

ولم تتحقق كل المواعيد النهائية التي نُص عليها في اتفاقية شرم الشيخ. ويبدو أن باراك عازم على الإيهام بحدوث تقدم، في حين يتحاشى اتخاذ أية خطوات مهمة. وقد ذكر مراراً أن إسرائيل ستبذل كل ما في وسعها للتوصل إلى تسوية. إلا أن كلماته بدت جوفاء إلى حد ما على تلك الخلفية من انتهاكات إسرائيل المستمرة لاتفاقيات أوسلو. كما أنه لم ينفذ ثالث إعادة نشر خاص للقوات ينص عليه اتفاق واي. ولم تُسلَّم القرى العربية المحيطة بالقدس للسلطة الفلسطينية، وهو ما وُعد به من قبل. ولم يُفتح الممر الآمن بين غزة والضفة الغربية. ولم يُفرج عن المسجونين الفلسطينيين المحتجزين في السجون الإسرائيلية. وأسوأ ما في الأمر أن السياسة الصهيونية القديمة الخاصة بخلق الحقائق على الأرض مضت بأسرع ما يمكن. فقد صودر المزيد من الأراضي العربية في الضفة الغربية، وأقيمت مستوطنات جديدة على ذرا التلال، وجرى توسيع المستوطنات القائمة، وشُق المزيد من الطرق التي يقتصر استخدامها على المستوطنات اليهودية. والواقع أن اتفاق أوسلو لم ينص صراحة على منع النشاط الاستيطاني. والواقع كذلك أن بعض النشاط الاستيطاني كان قد تم في عهد رؤساء وزراء سابقين. إلا أن بناء المستوطنات في عهد باراك مضى بسرعة مخيفة وبتجاهل تام لروح أوسلو. ويبدو أن باراك قد عقد العزم على إحكام السيطرة الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية. وكانت فكرة التعايش القائمة على المساواة بعيدة كل البعد عن تفكيره.

كان أحد أوضح الأمثلة على إيمان باراك بقدرته على فرض شروطه على الفلسطينيين هو القمة التي عقدت في كامب ديفيد بولاية ميريلاند الأمريكية في يوليو من العام الماضي. وقد عقدت القمة بطلب من باراك – حيث عقدها بيل كلينتون، «آخر الصهاينة» كما وصفته صحيفة إسرائيلية، خدمة له. وفي القمة عرض باراك صفقة متكاملة غطت كل قضايا الوضع النهائي، بما في ذلك اقتراح لتقسيم القدس الشرقية. وأعلن المتحدثون باسمه أنه فاق أي رئيس وزراء سبقه في تلبيته للمطالب الفلسطينية. كان ذلك صحيحاً، ولكنه لم يكن يعني الكثير، لأن كل رؤساء الوزراء السابقين تملصوا من المسألة. فقد جرت العادة أن يردد كل رؤساء وزراء إسرائيل منذ ١٩٦٧، من العمل والليكود على السواء، شعار أن القدس الموحدة هي العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل. وما لم يذكره المتحدثون الرسميون هو أن زعيمهم يصر على أن تتخلى السلطة الفلسطينية عن مطالبة دولة إسرائيل بأي شيء آخر، بما في ذلك حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة، مقابل التنازلات المتواضعة التي عرضها. وكانت غلطة باراك الكبرى هي إصراره على أن يصدر عرفات بياناً صريحاً بشأن إنهاء الصراع، ذلك أنه حتى في حال توقيعه لمثل هذا الإعلان فإن هذا لن ينهي الصراع. وحقيقة الأمر أن عرفات كان يتعرض لضغط شديد من بعض الدول العربية، وخاصة مصر والسعودية، لكي لا يوقع. فقد ذكروه بأن للعالم الإسلامي قاطبة له نصيب في القدس، وليس الفلسطينيون وحدهم. وفي نهاية الأمر، وبعد أسبوعين من المحادثات، رفض الصفقة المتكاملة وعاد إلى بلاده ليستقبل استقبال الأبطال.

وقد ولّد انهيار قمة كامب ديفيد إحباطاً فلسطينياً وعمّق الشكوك في قبول الإسرائيليين في يوم من الأيام طواعية لتسوية تنطوي ولو على القدر اليسير من العدل. وكان هناك اقتناع كامل بأن إسرائيل لا تفهم سوى لغة القوة. وبعد ذلك، وفي الثامن والعشرين من سبتمبر، قام أرييل شارون بزيارته التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة للحرم الشريف. وكان باراك قد وافق على الزيارة رغم نصيحة كبار رجال الأمن في حكومته. وزعم شارون نفسه أنه يحمل رسالة سلام. ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا احتاج إلى ألف رجل أمن لمصاحبته؟ إن شارون هو أكثر من يندد به في العالم العربي. وقد أثارت زيارته للحرم الشريف ردود فعل غاضبة سرعان ما تجمعت في هيئة انتفاضة شاملة – هي انتفاضة الأقصى. وأدى التحول من الحجارة إلى البنادق على الجانب الفلسطيني، واللجوء إلى القناصة والدبابات والصواريخ وهجمات الهليكوبتر من جانب الإسرائيليين، إلى تزايد الخسائر في الأرواح بطريقة يصعب وقفها. ففي الشهور الثلاثة الأولى من الاشتباكات التي تكاد تكون يومية، قتل ٢٩٨ فلسطينياً و١٣ من عرب إسرائيل و٤٣ إسرائيلياً آخرين. وتوقفت عملية السلام توقفاً تاماً وأعلن البعض موتها.

أغلقت إسرائيل الحدود مع الضفة الغربية وقطاع غزة، لتودع ٢,٣ مليون شخص سجناً مفتوحاً. كما أن هناك حوالي ١١٠ آلاف من الفلسطينيين العاملين في إسرائيل بلا عمل. وارتفع معدل البطالة إلى ٤٠٪ نتيجة للحصار. وكانت العقوبة الاقتصادية التي فرضتها قوات الاحتلال الإسرائيلي وحشية. فقد جرّف الجيش الإسرائيلي هكتارات من بيارات الزيتون والأراضي الزراعية. وخسر الاقتصاد الفلسطيني ما يزيد على ٣٤٥ مليون دولار في الستين يوماً الأولى من الأزمة. كما محيت ثلاث سنوات من التقدم خلال شهرين من الصراع.

إلا أن أثر الصراع على الجبهة الدبلوماسية كان ضد إسرائيل وفي مصلحة الفلسطينيين. فقد أدينت الوحشية التي حاولت بها إسرائيل إخماد الانتفاضة الشعبية على نطاق واسع. وفي الأيام الأخيرة للرئيس الأمريكي في البيت الأبيض، طرح مبادرة نشطة لرعاية اتفاق سلام نهائي. ومقارنة بمقترحات رأب الصدع الأمريكية التي نوقشت في كامب ديفيد، تحولت خطته للسلام تحولاً كبيراً لمصلحة الفلسطينيين بشأن مسائل القدس وحدود الدولة الجديدة واللاجئين. وطبقاً لهذه الخطة، تتنازل إسرائيل عن معظم القدس الشرقية (ما عدا الحي اليهودي في المدينة القديمة وممر يؤدي إليه)، وفي المقابل يتنازل الفلسطينيون عن حق عودة ٣,٧ مليون لاجئ الذي تؤيده الأمم المتحدة. وعلى رأس ذلك كله يحصل الفلسطينيون على دولة لهم على ٩٥ بالمائة من أرض الضفة الغربية وكل قطاع غزة.

وقبل باراك خطة كلينتون أساساً للمفاوضات، ربما على افتراض أن يرفضها عرفات، فيحقق هو بذلك انتصاراً دعائياً. ولكن عرفات أربك حساباته بقبوله الخطة الأمريكية على ما فيها من شروط. كما أن الاعتبارات الخاصة بالانتخابات دفعت باراك إلى تغيير اتجاهه وأخذ يبدو أكثر تشدداً وأكثر تشاؤماً بشأن احتمالات الاتفاق الذي ترعاه الولايات المتحدة. حيث كانت استطلاعات الرأي تدل على تقدم شارون بحوالي ٢٠ نقطة. وفي الوقت الذي حاول فيه شارون المتشدد التخفيف من حدة صورته لاجتذاب أصوات الوسط، تبنى باراك خطاب الصقور أملاً في استعادة الوسط. كما ذكر أنه لن يذهب إلى واشنطن لمناقشة السلام قبل أن يوقف الفلسطينيون أعمال العنف. وحذر كذلك من أن الانتفاضة قد تتحول إلى مواجهة إقليمية شاملة، وأثار احتمال قيام إسرائيل من جانب واحد بضم أجزاء كبيرة من الضفة الغربية. ومرة أخرى، وكما حدث مراراً فيما مضى، تسقط عملية السلام رهينة أهواء السياسة الداخلية الإسرائيلية.

ولم تفشل اتفاقيات أوسلو، بل إن إيهود باراك هو الذي قضى عليها، سيراً على خطى من سبقوه. وبينما تتعلق الاتفاقات بتحديد المصالح العامة ورعايتها، فلم يفعل باراك شيئاً سوى القضاء على إيمان الفلسطينيين بإمكانية التعاون والتعايش مع إسرائيل. وما يتعرض للخطر في هذا الصراع ليس هو أمن إسرائيل، ناهيك عن وجودها، بل فتوحاتها الاستعمارية التي تمت في عام ١٩٦٧. وفي ظل قيادة الجنرال باراك، يشن الجيش الإسرائيلي حرباً استعمارية ضد الشعب الفلسطيني. وهي، كشأن سائر الحروب الاستعمارية، حرب شرسة لا معنى لها وموجهة في المقام الأول ضد السكان المدنيين الذين طالت معاناتهم. والمستغرب أن عدداً متزايداً من مجندي جيش الدفاع الإسرائيلي يرفض الخدمة في الأراضي المحتلة.

إن تحرر الفلسطينيين من وهم ما يسمى عملية السلام أكثر انتشاراً ويزداد عمقاً. وعندما شرع الفلسطينيون في هذه العملية سنة ١٩٩٣ اختاروا خياراً استراتيجياً: فقد افترضوا أن بإمكانهم التقدم في اتجاه دولة لهم عن طريق الدبلوماسية وحدها، وليس العنف. أما الآن فليسوا على يقين من ذلك. ويبدو أن انتفاضة الأقصى تبين أنهم لكي يحدثوا أثراً لدى إسرائيل الجنرال باراك، فلا بد أن يدعم الدبلوماسية العنف والتهديد بالعنف. بعبارة أخرى، فقد تعلم الفلسطينيون من التجربة المريرة أن اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل هي لغة القوة. فمنذ توقيع اتفاق أوسلو الأول وعرفات ينادي بسلام الشجعان. وبعد مضي سبع سنوات، يواجهه خصم يبدو أنه عاقد العزم على فرض سلام البلطجية. إلا أن البلطجة لا يمكنها على المدى الطويل أن تحل المشكلة الفلسطينية. والطريقة الوحيدة لوقف الصراع هي إنهاء الاحتلال. بل إن إسرائيل بإنهائها الاحتلال ستؤدي لنفسها خدمة جليلة. فكما أوضح ماركس منذ زمن بعيد، لا يمكن للأمة التي تضطهد أمة سواها أن تظل هي نفسها حرة.

بترتيب خاص مع:
London Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

ثلاثـــة رجـــال

كعادته دائمًا كل ٤ سنوات، تغيّر المشهد السياسى الأمريكي جلده إلا قليلا. ومع مفتتح العام الحالى، انتقلت إدارة جمهورية إلى البيت الأبيض بعد ٨ سنوات من حكم الديمقراطيين. كما باتت الغلبية للحزب الجمهورى فى مجلس النواب، بينما انقسم مجلس الشيوخ بالتساوى بين الحزبين الكبيرين (٥٠/٥٠). وامتد التغيير إلى المشهد الاقتصادى الذى تدل المؤشرات على وجود تباطؤ ربما يفضى إلى ركود بعد نمو وازدهار غير مسبوقين طيلة سنوات الديمقراطيين.

وإذا كان لكل عصر رجاله (أو نساؤه) يغيرون الأذواق والألوان والتوجهات وربما الأفكار، فإن الشواهد تشير إلى أن أبطال العقد الأول من القرن الحادى والعشرين فى الولايات المتحدة، وبالتالى فى العالم، هم ٣ رجال وامرأة سيطبعون هذا العقد، على الأقل سياسيًا واقتصاديًا، بصماتهم وستكون لهم لمساتهم التى ستؤثر داخليًا وخارجيًا. ولا يعنى ذلك أن المسرح السياسى سيضيق عن استقبال آخرين. فالولايات المتحدة بحكم نظامها السياسى والاقتصادى وتركيبتها الثقافية والاجتماعية لديها من الكفاءات والقدرات البشرية ما من شأنه امتلاء المسرح وربما مسارح أخرى بشخصيات تتراوح أدوارها بين البطولة المطلقة والسنيد والكومبارس.

لكن الأبطال الأربعة الذين يتناولهم هذا الموضوع، مختلفون إلى حد كبير عن الآخرين الموجودين على المسرح السياسى الأمريكى سواء من حيث قدراتهم أو المتوقع منهم. إن جميعهم يشتركون فى أنهم لم يعتلوا خشبة المسرح عند مفتتح العام الحالى، فبعضهم موجود عليه منذ عقود وبعضهم منذ فترة أقل من ذلك. ثم إنهم يشتركون فى أن كلا منهم ترك بصمة لا تخطئها العين، الأمر الذى يؤهلهم لترك بصمات أخرى فى المستقبل، إنهم رجال أو -حتى لا نتهم بالتمييز- «ناس المستقبل» فى كل الأحوال.

ولأن قواعد البروتوكول الغربى تقول: السيدات أولاً، فقد يحسن البدء بهيلارى كلينتون التى تركت لتوها البيت الأبيض مع زوجها بيل كلينتون، لتصبح أول سيدة أولى سابقة فى التاريخ الأمريكى تدخل مجلس الشيوخ ولتصبح السيناتور هيلارى. ولن نقول جديدًا عن الدور غير العادى الذى لعبته فى إيصال زوجها للبيت الأبيض والدور غير العادى أيضًا الذى مارسته من البيت الأبيض، ومع ذلك فإن المستقبل على ما يبدو، مازال يدخر لها الكثير. ومع اختفاء زوجها من الساحة السياسية وهزيمة آل جور فى الانتخابات الرئاسية تبرز هيلارى كأهم شخصية فى الحزب الديمقراطى. ولو تحفظنا قليلاً لقلنا إنها ستكون، على الأقل، النجم اللامع بين الأعضاء المائة فى مجلس الشيوخ. أما إذا نحينا التحفظ جانبًا فيمكن القول حينئذ إن البيت

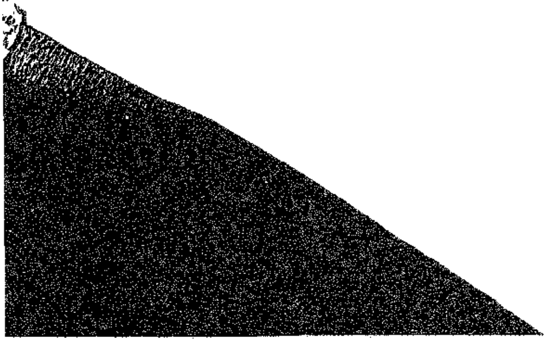


ديك تشينى

كولن باول

آلان جرينسبان

محمد السطوحى



هيلارى

... وامـــرأة

الأبيض هو هدف هيلاري، وفي تلك المرة لن تكون زوجة الرئيس، بل الرئيس نفسه.

أما ديك تشيني نائب الرئيس فيتوقع له المراقبون أن يصبح أكثر نواب الرؤساء فعالية في التاريخ الأمريكي. ولأسباب كثيرة بينها طبيعة الرئيس جورج بوش الابن وقدراته، فمن المتوقع أن يصبح تشيني بمثابة رئيس الوزراء الذي يمارس المهام الفعلية في إدارة بوش، وسيكتفي الرئيس على الأرجح بتحديد الأهداف العامة واتخاذ القرارات النهائية.

على المسرح أيضًا، الجنرال كولن باول، وهو نجم «سوبر» اعتبره الأمريكيون بطلهم بعد حرب الخليج التي كان خلالها رئيسًا للأركان، ولأنه أسود البشرة، فقد عُيّن أخيرًا وزيرًا للخارجية، في سابقة هي الأولى من نوعها بفضل هاتين الصفتين للرجل. أي باول- الذي يروق للكثيرين أن يشبهوه بالرئيس الراحل دوايت أيزنهاور، وعندما سألت شبكة «سي إن إن» باول عما إذا كان سيقتفي خطى وزير الخارجية الأشهر هنري كيسنجر أو وزير الخارجية «الرمادي» وارين كريستوفر أو وزيرة الخارجية «الحديدية» مادلين أولبرايت، رد بالقول سأكون كولن باول مع احترامي لكل هؤلاء.

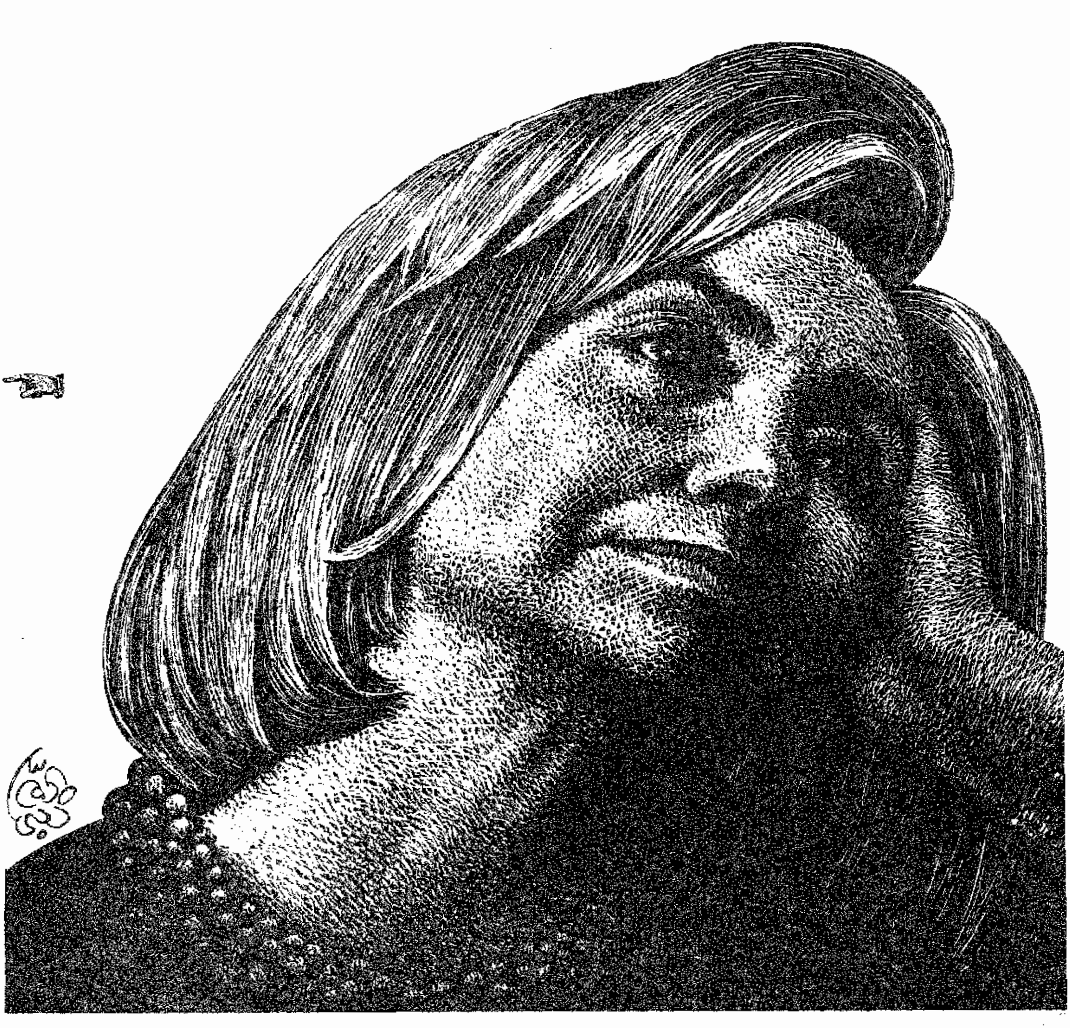
وإذا كان النجاح له أكثر من أب، فليس مستغربًا أن يزعم كثيرون أن لهم الفضل فيما حققه الاقتصاد الأمريكي من ازدهار، لكن شخصًا واحدًا لا ينازعه أحد دوره المحوري في تلك الطفرة، إنه آلان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي (البنك المركزي الأمريكي) الذي فضلنا أن نقدمه من خلال قراءة لكتاب الصحفي الأمريكي الشهير بوب وودوورد عن جرينسبان أو «المايسترو» كما فضل أن يسميه. ورغم أن جرينسبان تولى منصبه المهم عام ١٩٨٧ وحتى الآن، فإن المستقبل يوفر له دورًا مهمًا، حيث يخوض حاليًا معركة حاسمة لتفادي خطر الكساد الاقتصادي في الولايات المتحدة، وهي معركة يترقب العالم كله ما ستسفر عنه من نتائج.

هي شخصيات أربعة لا تبحث عن أدوار، بل لديها أدوارها بالفعل وتتطلع إلى المزيد.

1. Shadow: Five Presidents and the Legacy of Watergate 1974-1999
(الظل: خمسة رؤساء وتراث ووترجيت ١٩٧٤-١٩٩٩)
Bob Woodward
Simon & Schuster, 1999, 295PP.

2. Blood Sport : The President and His Adversaries
(لعبة دموية)
James B. Stewart
Touchstone Books, 1997, 464PP.

3. Maestro : Alan Greenspan's Fed and the American Economic Boom
(المايسترو)
Bob Woodward
Simon & Schuster, 2000, 464PP.



هيلاري: «السيناتور».. حاليا



بعد فوز الرئيس السابق بيل كلينتون في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٢، انتشرت حكاية تقول إنه كان يقود سيارته في إحدى مدن ولاية أركنصو التي ينتمي إليها، مع قرينته السيدة الأولى الجديدة هيلاري رودام كلينتون، حيث دخلا محطة بنزين لتموين السيارة. كان عامل المحطة يبدو في حالة سيئة بملابس رثة وأسنان متساقطة. وفجأة نظر إلى قرينة الرئيس وقال لها كمن يعرفها جيدا: أهلا! واكتشف كلينتون أن هذا العامل كان صديقا لزوجته في الماضي، وأنها كانت تعتزم الزواج منه. فلما غادرا محطة البنزين قال لها بلهجة تنم عن بعض الخيلاء: لو كنت تزوجته لما أصبحت السيدة الأولى. لكنها ردت عليه بحسم: لو كنت تزوجته لأصبح هو الرئيس الجديد!!

لم يأخذ الكثيرون هذه الحكاية على أنها أكثر من دعابة، غير أن انتشارها في ذلك الوقت كان يعبر عن الدور الكبير وغير التقليدي الذي لعبته هيلاري كلينتون في حياة زوجها، منذ أن فضلت ترك العروض المغرية للعمل في المؤسسات القانونية العريقة بواشنطن، لتسانده في معاركه السياسية بأركنصو، التي أصبح أصغر حاكم لها، إلى أن فاز بعد ذلك بالبيت الأبيض.

وكثيرا ماتداولت الأوساط الفكرية والسياسية بواشنطن الخلفية الدينية لكل من هيلاري وكلينتون باعتبارها مفتاحا لتفسير العلاقة بينهما. فهيلاري مسيحية ميثودية (Methodist)، لما بيل فمعمداني (Baptist) وهناك قول ذائع بأن الميثودي يشعر دائما بأنه صاحب رسالة، أو أنه يبحث عنها. أما المعمداني فيعتقد أنه هو الرسالة ذاتها.

وبهذا المعنى فإن كلينتون كان هو الرسالة التي سعت هيلاري إلى احتضانها والدفاع عنها ودفعها للأمام إلى أن تولى أعلى منصب في البلاد. غير أن هذه الرحلة وصلت إلى قمتها سريعا، وهما لايزالان في منتصف الأربعينيات، لذلك كان عليها أن تبحث عن رسالة جديدة، أو - ولم لا - أن تتحول صاحبة الرسالة بدورها، لتصبح هي الرسالة ذاتها.

وكان أن بدأت هيلاري كلينتون في ممارسة دور غير مسبوق لأي سيدة أولى، فكانت تحضر الاجتماعات المهمة، وتشارك في رسم سياسات الإدارة الجديدة، بل وخصص لها مكتب في الجناح الغربي للبيت الأبيض، وهو مالم يحدث من قبل. وعندما تم توزيع الأدوار والمهام، كان على نائب الرئيس آل جور أن يقبل بالإشراف على برامج أقل أهمية وبريقا، مثل التنظيم الإداري للحكومة الفيدرالية، ليترك أهم برامج الإدارة الجديدة، وهو الرعاية الصحية، للسيدة الأولى.

كانت الضجة كبيرة حول هذا المشروع، لذلك كان الفشل فادحا. فقد عجزت هيلاري عن إقناع الكونجرس بخطتها، رغم أن الديمقراطيين كانوا يملكون الأغلبية في ذلك الوقت. ومن الطريف أن هيلاري كلينتون تم تعيينها مؤخرا في عضوية لجنة الرعاية الصحية بمجلس الشيوخ، وذلك بعد فوزها الكبير بمقعد في المجلس عن ولاية نيويورك، في انتخابات السابع من نوفمبر الماضي - وهي أول مرة ترشح فيها سيدة أولى نفسها وتفوز في انتخابات للكونجرس. إن هذا الإنجاز لا يمكن تفسيره فقط بالمنافسة القوية التي واجهتها في الولاية، ولكن أساسا بالتحديات والظروف التي مرت بها خلال السنوات الثماني التي قضتها في البيت الأبيض.

وهذه الظروف - كما يقول جيمس ب ستيوارت في كتابه «لعبة دموية» (Blood Sport) تكشف عن طبيعة الثقافة والقيم والتفاعلات السياسية الأمريكية، بقدر ماتكشف عن شخصية الرئيس السابق وقرينته، ويمكننا أن نضيف أنها تلقي الضوء إلى حد بعيد، على الأسلوب الذي ستؤدي به واجبات منصبها الجديد في مجلس الشيوخ أو إمكانية أن ترشح نفسها للرئاسة، كما يتوقع الكثيرون عام ٢٠٠٤، لقد أمضت هيلاري كلينتون أغلب سنواتها في البيت الأبيض وسط جيش من المحامين، وخبراء العلاقات العامة المتخصصين في كيفية التعامل مع الفضائح. فقد تفاقمت أحداث قضية وايت ووتر الخاصة باستثمار عقاري في ولاية أركنصو شاركت فيه مع زوجها عندما كان حاكما للولاية، لكن الاستثمار فشل وتعرض بعض المسئولين فيه للمحاكمة والسجن لمخالفاتهم المالية والضرائبية.

وفي سابقة هي أيضا الأولى من نوعها، تم استدعاء السيدة الأولى للشهادة أمام هيئة محلفي الادعاء في يناير عام ستة وتسعين. ويذكر هنا أن دافيد كاندال المحامي المسئول عن القضية عرض عليها أن تذهب خفية إلى المحكمة حتى لاتصورها كاميرات التليفزيون في هذا الوضع المهين. لكنها رفضت أن تتسلل مثل المشبوهين، وذهبت إلى المحكمة مرفوعة الرأس بابتسامة عريضة.

كانت هذه إحدى المرات القليلة التي اتجهت فيها هيلاري بغريزتها السياسية إلى الاتجاه الصحيح، لكن التحليل النهائي لأسلوب إدارتها للأزمة لم يكن في صالحها، فقد كانت تدلي بالتصريحات ثم تعود وتضطر لسحبها، حتى أن كاتبا مثل وليام سافاير وصفها في مقالة بصحيفة النيويورك تايمز بأنها «كذابة بالفطرة». كذلك كان أصدقاؤها ومن يعملون معها يستدعون للشهادة في الكونجرس حيث يتعرضون للإهانة والأسئلة العنيفة، دون أن تحرك السيدة الأولى ساكنا.

ولو أخذنا برواية الكاتب المعروف بوب وودوورد في كتابه (الشبح: خمسة رؤساء أمريكيين، وتراث الووترجيت) (Shadow: five presidents and the legacy of watergate) فإن صمت السيدة الأولى كان عجزا، غير أن صورتها التي انطبعت لدى الناس كانت لامرأة متحجرة، قاسية القلب، تقبل بمعاناة المقربين منها، حماية لنفسها.

كيف إذن تحول الرأي العام تجاهها لتصبح، كما هي الآن، أكثر النساء شعبية وموضعا للإعجاب لدى الأمريكيين حسب استطلاع أخير أجرته مؤسسة جالوب.

هنا أعود قليلا لكتاب بوب وودوورد الذي أورد بعض نصائح المستشار السياسي المخضرم ديك موريس للسيدة الأولى. فقد كان يحثها دائما على أن ترفق عن صورتها الجافة، وتلين من مظهرها الصارم، بأن تبدو أكثر ضعفا. وكان يقول لها إن الشخصيات العامة تكون أكثر جاذبية لدى الناس عندما يتحدثون عن نقاط ضعفهم، وضرب لها مثلا بالرئيس الأسبق رونالد ريجان الذي كان يتندر بضعف ذاكرته. لكنها كانت ترد عليه دائما بأنها لاتعرف شيئا معينا يمكنها الحديث عنه، فهي ببساطة لاتجيد هذا الأسلوب.

لكن الأحداث التالية حققت لها - ربما رغم إرادتها - ما كانت تبحث عنه. فقد تفجرت فضيحة مونيكا لوينسكي، واعترف زوجها بعد إنكار طويل بأنه كان على علاقة «غير لائقة» بها. ويروي المتحدث الأسبق باسم البيت الأبيض مايك مكاري، الذي كان صديقا مقربا من هيلاري، كيف أنها وقفت تتساءل في حسرة عما تحس به: هل أنا غاضبة؟ هل أشعر بالخيانة.. بالألم، بالوحدة أم بالإهانة؟ وقد وصفت الكاتبة مورين داود هيلاري في ذلك الوقت بأنها أكثر امرأة تعرضت للإهانة في التاريخ!! لماذا إذن تمسكت هيلاري بزواجها ولم تنفصل عن الرجل الذي أهانها؟

من يكرهونها يقولون إنها تعشق السلطة، لذلك أرادت الاستمرار كسيدة أولى تبحث عن مستقبلها السياسي. أما الفريق الآخر فيتحدث عن مشاعرها الدينية العميقة، وحبها لزوجها، وثقتها في أن علاقاته النسائية ليست أكثر من نزوات لاتنفي حبه لها وارتباطه بها، كما أن تركها له في هذه الظروف كان سيعرضه لخطر الإقالة من منصبه.

أيا كانت الأسباب، فقد ساد تعاطف عام مع هذه السيدة التي قاست مع زوجها نزواته وهفواته.

نعم.. إنها الآن المرأة الضعيفة التي كان يبحث عنها ديك موريس، ومن هذا الضعف برزت هيلاري كلينتون أكثر قوة وأرفع مكانة. كانت هذه هي الخلفية التي انطلقت منها قرينة الرئيس، عندما رشحت نفسها عن الحزب الديمقراطي لشغل مقعد ولاية نيويورك في مجلس الشيوخ، الذي خلا بتقاعد العضو المخضرم دانيال باتريك موينهان.

ورغم أن مهمتها أصبحت أكثر سهولة بعد انسحاب المرشح الجمهوري عمدة مدينة نيويورك رودي جولياني بسبب إصابته بالسرطان، وترشيح عضو مجلس النواب الأقل خبرة ريك لازيو لينافسها بدلا منه، إلا أنها كان عليها أن تثبت انتماءها لتلك الولاية المعقدة، بينما هي لم تعش فيها من قبل. وهو ما تمكنت من تحقيقه بجدارة. لكنها في سبيل الفوز اتبعت الأسلوب الأكثر سهولة وإغراء لأي مرشح في نيويورك، وهو أن تثبت - على حد تعبير بعض السياسيين المخضرمين في المدينة - أنها «أكثر يهودية» من منافسها! واليهود في تلك الولاية يمثلون نحو ١٢٪ من سكانها، إلا أن نفوذهم فيها يفوق نسبتهم بمراحل من خلال سيطرتهم على الكثير من مؤسسات المال والأعمال في وول ستريت، وكذلك الكثير من الصحف المهمة وأبرزها النيويورك تايمز.

كانت هيلاري حتى ذلك الوقت تحظى بمكانة خاصة لدى الجالية العربية والمسلمة في الولايات المتحدة، نظرا لدعوتها السابقة لإنشاء دولة فلسطينية مستقلة، ولأنها واظبت على دعوة بعض أبناء الجالية ومنظماتها إلى البيت الأبيض لمشاركتهم الاحتفال بعيد الفطر. وقد حضرت أحد هذه الاحتفالات ورأيت بنفسي الدفء والاحترام المتبادل في تلك العلاقة. لكن المرشحة هيلاري كلينتون أصبحت فجأة من المتحمسين لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، كما أن السيدة الأولى التي خالفت السياسة المعلنة لبلدها وزوجها، وطالبت بإعلان الدولة الفلسطينية، عادت وخالفت تلك السياسة ولكن هذه المرة لتدين امتناع واشنطن عن استخدام حق الفيتو في مجلس الأمن ضد قرار بإدانة استخدام القوة المفرطة ضد الفلسطينيين. الذين طالبت بمنع المساعدات الأمريكية عنهم إذا أعلنت السلطة الفلسطينية إنشاء دولتها من جانب واحد. وتنكرت هيلاري أيضا لعلاقتها مع الجالية الأمريكية المسلمة، وأعادت للدكتور عبد الرحمن العمودي المدير السابق للمجلس الإسلامي الأمريكي بواشنطن، مبلغ ألف دولار كان قد تبرع بها لحملتها الانتخابية. وعندما هاجم منافسها الجمهوري ريك لازيو علاقتها بالفلسطينيين، رد عليه البيت الأبيض بأن سرب للصحافة صورته وهو يصافح الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات!!

وقد فازت هيلاري في النهاية على لازيو بفارق كبير، لكن كان عليها أن تثبت مرة أخرى أنها كعضوة في مجلس الشيوخ لن «تقل يهودية» عنها كمرشحة. وكان أن أصدر الرئيس كلينتون - قبل انتهاء فترة رئاسته بساعات - قرارا بالعفو عن ثلاثة يهود في نيويورك كانوا قد أدينوا بالاحتيال على الحكومة الفيدرالية للحصول على ملايين الدولارات لدعم مدارس وهمية لتعليم الديانة اليهودية، وكانت الرائحة تزكم الأنوف حتى أن صحيفة الواشنطن بوست ربطت في افتتاحيتها قرار العفو بالسيناتور هيلاري

كلينتون - مثيرة لأهمية الجالية اليهودية بالنسبة لها في نيويورك.

كيف إذن سيكون دور ومكانة السيدة الأولى السابقة في موقعها الجديد بمجلس الشيوخ؟

يقول المؤرخ الشهير مايكل بيشلوس إنها تشبه السناتور الأسبق روبرت كيندي الذي دخل مجلس الشيوخ في الستينيات ليمثل أيضا ولاية نيويورك، لكنه كان يتحدث منذ اللحظة الأولى باعتباره الرئيس القادم.

صحيح أن هيلاري تنفي الآن أنها تفكر في الترشيح للرئاسة عام ٢٠٠٤، لكن ليس من المتوقع أن تقول غير ذلك، بينما الاحتفالات لم تهدأ بعد بنصرها الأخير. مع ملاحظة أن أربع سنوات في السياسة الأمريكية تمثل دهرا كاملا، سوف تجري فيه مياه كثيرة. ومع اختفاء زوجها عن الساحة، بشكل رسمي على الأقل، وهزيمة آل جور في انتخابات الرئاسة، تبرز هيلاري كلينتون الآن كأهم شخصية في الحزب الديمقراطي. وقد أزعجت الأضواء التي تلاحقها في مجلس الشيوخ الكثير من الأعضاء الجمهوريين، حتى إن زعيم الأغلبية الجمهورية ترنت لوت قال بلغة تفتقر للياقة إنه إذا لم تحدث صاعقة وقدر لهيلاري أن تدخل المجلس فإنها ستكون مجرد عضو واحد ضمن مائة عضو آخرين. غير أن غضب الجمهوريين وغيرة بعض الديمقراطيين لن تغير من حقيقة أن هيلاري كلينتون ستكون النجم اللامع بين الأعضاء المائة، وسيكون لمواقفها تأثير أكبر نتيجة تركيز وسائل الإعلام عليها.

كيف ستستفيد هيلاري إذن من تلك المكانة لخدمة القضايا التي تدافع عنها، وتضع نفسها من خلالها على الخريطة السياسية انتظارا لقرارها بشأن انتخابات الرئاسة القادمة؟

لو أخذنا بتوجهاتها السابقة من خلال مشروعها الفاشل للرعاية الصحية، أو بعض كتاباتها في قضايا المرأة والطفل والتعليم والضمانات الاجتماعية وغيرها، فإنها بدون شك تتبنى أفكارا ليبرالية واضحة، وهذا قد يساعدها على الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي لها للرئاسة إذا ما قررت دخول السباق إلى البيت الأبيض. لكنها ستواجه حينئذ المشاكل التي يواجهها أغلب المرشحين الديمقراطيين في الانتخابات العامة، حيث سيتعين عليها أن تتجه للوسط لاجتذاب المستقلين.

إن هذا ما نجح فيه زوجها بعبقرية في انتخابات عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٦ حيث شارك في إنشاء ورئاسة جماعة الديمقراطيين الجدد ذات الأفكار الوسطية المعتدلة. وسوف يكون على السناتور هيلاري كلينتون أن توضح للناس ما إذا كانت ستتبع خطى زوجها ومواقفه بشأن العديد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية، ومن المؤكد أن المواجهات المتوقعة مع الجمهوريين سوف تضعها سريعا أمام أكثر من اختبار.

أما بالنسبة لقضايا الشرق الأوسط، فلا أظن الأمر يحتاج إلى الكثير من الاختبارات. إن المرشحة لمجلس الشيوخ هيلاري رودام كلينتون حاولت قدر المستطاع أن تثبت أنها «أكثر يهودية» من السيدة الأولى السابقة. أما عضو المجلس والمرشحة المحتملة للرئاسة فسوف يتعين عليها أن تكون «أكثر يهودية» من الاثنتين. ■

تشيني: رئيس الوزراء الأمريكي

■ عندما سئل عضو مجلس الشيوخ جون مكين عما إذا كان يقبل الترشيح لمنصب نائب الرئيس مع جورج بوش مقابل إنهاء الصراع بينهما في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري، كان رده مباشرا وحاسما: «إن لنائب الرئيس مهمتين أساسيتين، الأولى أن يطمئن صباح كل يوم على صحة الرئيس، والثانية أن يحضر جنازات الحكام الديكتاتوريين في دول العالم الثالث، وأنا لا أريد أيا منهما». ربما كان في كلمات مكين قدر لايخفى من المبالغة، لكنها تعكس بلاشك بعض الحقيقة فيما يتعلق بطبيعة عمل ودور نائب الرئيس.

صحيح أنه ينتخب مع الرئيس بوضع اسميهما معا على بطاقة انتخابية واحدة، كما أنه يتولى مهام الرئاسة في حالة موت الرئيس أو عجزه عن العمل، أو إقالته من منصبه، إلا أنه فيما عدا ذلك لم يقم أغلب نواب الرؤساء الأمريكيين بما هو أكثر من المهام التشريفية.

فعندما اختار دوايت أيزنهاور ريتشارد نيكسون كنائب له، لم يستشره حتى في اختيار أعضاء حكومته. وعندما حان دور نيكسون لاختيار نائبه، لم يجد أفضل من سبيرو أجنيو Spiro Agne. يومها وصفت مجلة «الإيكونوميست» ذلك الاختيار بأنه يشبه قيام بنات الهوى في عصر النهضة بباريس، بحمل القرود فوق أكتافهن، لإثبات جمالهن بالمقارنة. أما دان كويل فقد عجز حتى عن تحسين صورة الرئيس الأسبق جورج بوش، وكان من أسباب خسارته لانتخابات الرئاسة عام اثنين وتسعين.

ورغم نجاح آل جور - إلى حد ما - في تعزيز دور ومكانة نائب الرئيس خلال الأعوام الثماني الماضية، حيث سمح له بيل كلينتون بتولي العديد من المهام الداخلية والخارجية، حتى أصبح يشار إلى جور باعتباره أكثر نواب الرؤساء فعالية في التاريخ الأمريكي. إلا أن من يتابع مهام و أعمال نائب الرئيس الحالي ريتشارد تشيني، ربما يخيل إليه أن آل جور لم يكن لديه مايفعله. فقد كان تشيني هو المسئول عن عملية نقل السلطة إلى الإدارة الجديدة. وكان دوره أساسيا في اختيار أعضاء الحكومة، وبصفة خاصة وزيرا الدفاع والخزانة. ولم يكد بوش يتسلم مقاليد الأمور حتى أوكل إلى تشيني الإشراف على القضية الداخلية الأكثر إلحاحا، وهي أزمة الطاقة التي بدأت تلوح في الأفق، ويستشعرها المواطن الأمريكي. أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، فتكفي الإشارة إلى مانشرته مجلة النيوزويك مؤخرا من أن وزير الخارجية كولين باول اشترط على الرئيس بوش أن يكون المسئول الأول عن تصريف شئونها، وذلك لتخوفه من هيمنة نائب الرئيس. ومع هذا فإن تشيني يترأس اجتماعات اللجنة المسئولة عن وضع توصيات السياسة الخارجية، وتضم نواب وزراء الدفاع والخارجية ومستشار الأمن القومي، أي أنه يشرف على وضع التوصيات التي سيشارك بعد ذلك في قرار الأخذ بها. لذلك ليس من المستغرب أن يقول لويس ليبي رئيس هيئة موظفي نائب الرئيس، إنه عندما تطرح أي قضية، فإن السؤال الذي يتبادر لأي شخص في البيت الأبيض هو: كيف يفكر تشيني في هذا الأمر؟

ويزيد من أهمية دور تشيني، أنه بحكم منصبه يرأس مجلس الشيوخ، وفي الظروف العادية يعد ذلك من المهام التشريفية لنائب الرئيس، لكن المجلس ينقسم الآن بالتساوي بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي (خمسون مقعدا لكل منهما).. فإذا التزم كل عضو بالخط الحزبي في عملية التصويت، يكون نائب الرئيس هو صاحب الصوت الفاصل لصالح أي منهما، لذلك يتوقع أن يمضي تشيني وقتا غير قليل في الكونجرس.

إلا أن دور ومكانة نائب الرئيس لا تتمثل فقط في عدد اللجان التي يرأسها، أو المهام التي يشرف على تنفيذها، فقوته الفعلية تأتي من حقيقة أنه - بشكل أو بآخر - يعوض جوانب النقص في شخصية الرئيس بوش

نائب الرئيس عمره الآن ستون عاما، وسبقت إصابته بأربع نوبات قلبية، كان آخرها في شهر نوفمبر الماضي بعد الانتخابات. وهو بهذه المواصفات ليست لديه طموحات شخصية لترشيح نفسه للرئاسة



وأهمها خبرته المحدودة، فقد تولى الرئيس الأمريكي أول مناصبه العامة كحاكم لولاية تكساس منذ ست سنوات فقط، كما أنه يفتقر للعلاقات الشخصية الوثيقة مع شخصيات واشنطن المهمة، التي يحتاج إليها في تنفيذ برامجه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهنا يأتي ريتشارد تشيني بسجله الحافل، فقد شغل منصب رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض للرئيس الأسبق فورد، عام ١٩٧٥ بينما كان عمره لايتجاوز الرابعة والثلاثين. وكان العضو الوحيد في مجلس النواب عن ولاية وايومينج لمدى اثنى عشر عاما، إلى أن اختاره الرئيس الأسبق بوش (الأب) عام تسعة وثمانين ليشغل منصب وزير الدفاع، حيث أشرف باقتدار على إدارة المجهود الحربي الأمريكي في عاصفة الصحراء، رغم افتقاره لخلفية العسكرية.

وتمتد خبرة تشيني أيضا إلى مجال الأعمال، حيث ترأس شركة هاليبرتون (Halliburton) العملاقة لمعدات الطاقة والإنشاءات منذ عام ١٩٩٥، حتى استقالته منها في العام الماضي.

فهو إذن شخصية متعددة الجوانب، وتشمل خبرته العملية المجالات التنفيذية والتشريعية وقطاع الأعمال. وقد سمح له ذلك بتوثيق علاقاته مع أصحاب النفوذ بواشنطن، من أمثال زعيم الأغلبية الجمهورية بمجلس الشيوخ ترنت لوت، ورئيس مجلس النواب دينيس هاسترت، ورئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي الآن جرينسبان، صاحب السطوة في تشكيل السياسات الاقتصادية والنقدية.

ومن المدهش أن أضعف الجوانب في ريتشارد تشيني أصبح يحسب لصالحه، وتحول إلى ميزة سمحت له بالاستحواذ على ثقة الرئيس بوش. فنائب الرئيس عمره الآن ستون عاما، وسبقت إصابته بأربع نوبات قلبية، كان آخرها في شهر نوفمبر الماضي بعد الانتخابات. وهو بهذه المواصفات ليست لديه طموحات شخصية لترشيح نفسه للرئاسة بعد ثماني سنوات، على اعتبار أن بوش سيكون هو المرشح الجمهوري في الانتخابات القادمة. هذه الأمور كلها تنفي عن تشيني شبهة عدم الولاء لبوش، كما تمنع التشكيك في وجود دوافع خفية لمواقفه. وقد انعكس ذلك الوضع على الموظفين العاملين لدى نائب الرئيس، حيث اختلطوا بسهولة مع موظفي البيت الأبيض، ولم تظهر بينهم المشاكل والمنافسات التقليدية التي تشوب العلاقات بين موظفي الرئيس ونائبه. بل إن خبيرة سياسية مثل ماري ماتلين، تعمل كمستشارة للرئيس ونائب الرئيس في نفس الوقت.

ويميل تشيني عادة إلى العمل من خلف الستار، وهو بشخصيته الهادئة والمتحفظة لايبدو مرتاحا أو متلهفا بتركيز الأضواء عليه. وكان الرئيس الأسبق فورد قد تحدث عن خبرته مع تشيني الذي عمل لديه كرئيس لهيئة موظفي البيت

الأبيض. فأشاد كثيرا بدابه واجتهاده. إلا أن مايلفت النظر حقا هو قوله: إن تشيني لم يكن يفعل ذلك لكي تنشر صورته أو اسمه في الصحف.

ومن الحكايات الطريفة التي تروى عن نائب الرئيس أنه عندما زار موسكو في الثمانينيات، أمضى بعض وقت فراغه في الإجابة عن بعض الأسئلة النفسية التي تحدد له طبيعة الوظيفة التي تناسب شخصيته، وكانت النتيجة هي: مدير مراسم الجنازات. هذه المواصفات الشخصية أثارت شكوك البعض في البداية حول مدى صواب ترشيحه لمنصب نائب الرئيس، في عصر التليفزيون. حيث كان يبدو فاترا، عزوفا، وغير قادر على التفاعل مع الجماهير أثناء الحملة الانتخابية. لكن الانتخابات انتهت، ومايبدو من تشيني الآن هو الجانب القوي من شخصيته، بخبرته العريضة، وقدرته الإدارية المشهود لها، واستيعابه الدقيق لتفاصيل القضايا المطروحة. لذلك لم يكن غريبا أن يصعد نجمه مؤخرا، وأن تركز عليه الأضواء بشكل جعله يطغى أحيانا على الرئيس بوش شخصيا.

هذه العلاقة المقلوبة أصبحت بدورها مادة جذابة لبعض البرامج الكوميدية في التليفزيون الأمريكي. وفي أحد هذه البرامج ظهر ممثل متخصص في تقليد بوش، وهو يشكو متباكيا من صعوبة العمل مع رئيسه العنيف ديك تشيني. وعندما سئل الرئيس بوش عن ذلك لم يجب بشيء، وضحك بطريقة تنم عن عدم ارتياحه. أما المعلقون السياسيون فقد رددوا كثيرا أن تشيني حول النظام الرئاسي الأمريكي إلى مايشبه النظام البرلماني، حيث يمارس هو مهام رئيس الوزراء صاحب السلطة الفعلية، بينما يكتفي الرئيس (بوش) بالمهام التشريفية باعتباره رمزا للدولة. ورغم انتشار هذه المقولة مؤخرا، إلا أنني أعتقد أن بها قدرا كبيرا من المبالغة والظلم للرجلين، وأميل أكثر للأخذ بالتشبيه الذي نشرته صحيفة الواشنطن بوست نقلا عن بعض أصدقاء تشيني والعاملين معه.. وهو أن بوش يعمل مثل رئيس مجلس إدارة المؤسسة الاقتصادية الذي يضع الأهداف العامة ويتخذ القرارات النهائية، بينما يتولى تشيني منصب المدير التنفيذي، الذي يشرف على تحقيق هذه الأهداف وتنفيذ هذه القرارات. مع الاعتراف بأن تشيني يشارك أيضا في تحديد الأهداف واتخاذ القرارات. وهذا الوصف يتفق كثيرا مع طبيعة شخصية الرجلين. فبوش يكتفي عادة باستعراض الخطوط العريضة للقضايا المطروحة، بينما عرف عن تشيني اهتمامه الشديد بالتفاصيل الدقيقة. وهو مايجعل كلا منهما يكمل الآخر.

ويقول العاملون مع تشيني إنه في إدارته «لمؤسسة الرئاسة»، سيتبع أسلوبه البراجماتي الذي تميز به، فهو لا يعبأ بالوسائل قدر اهتمامه بالنتائج، بما قد يجعله ميكيافيليا. كما أنه يفرض أسلوب التسلسل القيادي بشكل صارم، يخلو من العواطف أو المشاعر الشخصية. فهو لا ينظر إلى فريق العاملين معه باعتبارهم أسرة، ولكن كمجموعة من الزملاء، تحكمهم الدقة في الأداء، والسعي معا لتحقيق الأهداف المطلوبة، وبالتالي فالخطأ أو الفشل هو آخر مايتمناه شخص يعمل مع تشيني. وقد رأى العالم لمحة من ذلك أثناء فترة الإعداد لحرب الخليج الثانية. فلم يتردد تشيني، الذي كان وقتها وزيرا للدفاع، في إقالة رئيس أركان القوات الجوية الجنرال مايكل دوجان (Dugan) لأنه تحدث للصحفيين عن بعض أهداف العمليات الجوية لقوات التحالف ضد العراق. غير أن تلك الصرامة الإدارية، تواكبها مرونة أيديولوجية ملحوظة في مواقفه، رغم أن سجله التشريعي في مجلس النواب يضعه على يمين التيار المحافظ في الحزب الجمهوري.

وتبدو تلك النزعة البراجماتية لتشيني في موقفه من فرض العقوبات الاقتصادية ضد إيران، فقد انتقدها كثيرا عندما كان رئيسا لشركة هاليبرتون، التي سعى لعقد بعض الصفقات التجارية مع آيات الله. أما الآن فإنه كنائب للرئيس يؤيد موقف بوش باستمرار تلك العقوبات. ومن المنتظر أن يحكم ذلك الأسلوب مواقف تشيني بشأن القضايا الداخلية والخارجية، بما فيها قضية الشرق الأوسط. فهو يميل للتوازن، وإجراء الحسابات الهادئة والباردة لمجموعة العوامل المؤثرة في أي موقف.

أياً ماكان الأمر فسيظل من المثير متابعة ديناميكية العلاقة بين الثلاثة الكبار: تشيني، كولين باول، ودونالد رمسفيلد (وزير الدفاع)، وما إذا كانت مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس سيكون لها صوت عندما يجتمع ثلاثتهم في نفس الحجرة.

أما الرئيس جورج بوش فسوف نرى إن كان سيستطيع جمعهم معا، أم أنهم سيمزقونه فيما بينهم.

يقول العاملون مع تشيني
إنه في إدارته «لمؤسسة الرئاسة»
سيتبع أسلوبه البراجماتي الذي تميز به: فهو
لا يعبأ بالوسائل قدر اهتمامه بالنتائج، بما قد
يجعله ميكيافيليا. كما أنه يفرض أسلوب
التسلسل القيادي بشكل صارم..

جرينسبان: المايسترو

كانت أنظار العالم تتجه نحو قصر حاكم ولاية أركنصو بمدينة ليتل روك، في تلك الأيام الأولى من شهر ديسمبر عام اثنين وتسعين. حيث يقوم الرئيس المنتخب بيل كلينتون بتشكيل حكومته الجديدة استعدادا لتولي السلطة في واشنطن بعد أسابيع قليلة.

كان الأعضاء البارزون في الحزب الديمقراطي يأتون ويذهبون، سعيا للحصول على منصب ما في الإدارة الجديدة. ولكن في الثالث من شهر ديسمبر جاء إلى القصر شخص أمضى أغلب سني حياته منتميا للحزب الجمهوري، إنه آلان جرينسبان، رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي.

كان كلينتون يريد التقرب من تلك الشخصية القوية، على رأس البنك المركزي الأمريكي، الذي يحظى باستقلالية في إدارة أموره. كما أن جرينسبان نفسه كان حريصا على أن تربطه علاقة جيدة مع الرئيس الجديد. لذلك فإنه سارع بالاستجابة لدعوة كلينتون، وقدم من واشنطن على متن طائرة تجارية في رحلة استغرقت خمس ساعات. لم تكن هيئة الرجل تدعو للانشراح، بوجهه المتجهم ونظارته السميكة والانحناءة البسيطة في ظهره. لكنه سرعان ماأخذ بشخصية الرئيس الجديد وقدرته على التناول العميق للقضايا.

كان جرينسبان يبلغ السادسة والستين من عمره في ذلك الوقت. أمضى منها خمس سنوات في رئاسة الاحتياطي الفيدرالي، بعد أن اختاره الرئيس الأسبق رونالد ريجان لهذا المنصب عام ١٩٨٧. وقد أعاد الرئيس جورج بوش (الأب) تعيينه عام ١٩٩١، رغم كثرة النزاع بينه وبين المستشارين الاقتصاديين لبوش. وكان جرينسبان يريد أن يتحدث مع كلينتون عن حالة الاقتصاد الأمريكي، الذي كان لايزال يعاني من الآثار طويلة المدى للتضخم الذي تجاوز العشرة في المائة في أواخر السبعينيات، وماصحبه من عجز متزايد في الميزانية أثناء حكم ريجان. بسبب الفجوة بين نفقات الحكومة، ودخلها من الضرائب. كانت المؤشرات تدل على أن الاقتصاد بدأ يتحسن وينهض من حالة الكساد البسيطة التي عانى منها، لكنه أيضا معرض لخطر الانهيار. أما روشتة العلاج لدى جرينسبان فكانت: إنهاء العجز في الميزانية. وأوضح رؤيته للرئيس المنتخب بأن يشمل العلاج تخفيض معدلات الفائدة على القروض طويلة المدى، لزيادة الإنفاق الاستهلاكي بما يساعد على توسيع الأنشطة الاقتصادية.

وكانت النتيجة أن حقق الاقتصاد في عهد كلينتون أطول فترة نمو وازدهار في التاريخ الأمريكي، مع أقل نسبة للبطالة منذ عقود، ودون انفلات معدل التضخم. والآن.. بعد ثماني سنوات، يتولى جورج دبليو بوش (الابن) الرئاسة، بينما نحن لا نزال نعيش في «عصر جرينسبان».

غير أن هذه الإنجازات تتعرض الآن للخطر. والقرار الأخير لبنك الاحتياطي الفيدرالي بتخفيض معدلات الفائدة كان اعترافا بأن المنحنى الصاعد للاقتصاد الأمريكي، بدأ يسير في اتجاه عكسي، مع تزايد القلق من أن محاولات الهبوط التدريجي يمكن أن تفلت وتؤدي إلى حدوث ارتطام مدمر.

وهنا يلتفت العالم كله باهتمام إلى جرينسبان، ليرى ما إذا كان سيتمكن من تفادي الكساد الذي سيؤثر بشكل هائل على الاقتصاد العالمي أم لا.

إذن.. من هو هذا الرجل؟

ولد جرينسبان عام ١٩٢٦ في مدينة نيويورك. وكان الطفل الوحيد لأبوين يهوديين، انفصلا عندما كان في الثالثة من عمره، وعاش مع والدته (روز) شمال منطقة مانهاتن، وعمل في محل لبيع المفروشات. واتجه للعبة البيسبول التي أجاد حساباتها. وكان يتمنى أن يصبح لاعبا. وفي عام ١٩٣٥ ألف والده (هربرت) - الذي علم نفسه بنفسه، وكان يعمل كمحلل للأسواق المالية - ألف كتابا تنبأ فيه بتحسن الأوضاع الاقتصادية في العام التالي، وهو ماتحقق بالفعل عام ١٩٣٦، إلا أن السوق عادت للانهيار عام ١٩٣٧. وفي هذا الكتاب كان الإهداء لابنه، متمنيا أن يكمل ما بدأ الأب. وحمل آلان رسالة والده، لكنه تعلم منها شيئا آخر: هو إضفاء الغموض على الكلمات، فهو يمكنه الحديث الآن بعبارات طويلة، لكنه يستطيع عند الضرورة أن يجد مخرجا من كل كلمة نطق بها.

كان جرينسبان متواضع المستوى كطالب في أغلب المواد الدراسية باستثناء الرياضيات التي عشقها. وحاول دراسة الموسيقى، وانضم لإحدى فرق نيويورك حيث كان يعزف الساكسفون وأحيانا الكلارينيت أو الفلوت. لكنه كان يفتقد القدرة على الإبداع، لذلك فشل أيضا في محاولة التأليف الموسيقي. لكنه أعاد اكتشاف مهارته مع الأرقام. واتجه لدراسة الاقتصاد في جامعة نيويورك، ثم أكمل الماجستير والدكتوراه بجامعة كولومبيا. حيث عرف بمهارته التكنيكية، وبتشكيكه في إمكانية معرفة شيء على وجه اليقين.

وقد ساعدته مهارته على العمل كمستشار في أكبر المؤسسات الاقتصادية الأمريكية، إلى أن عينه الرئيس ريتشارد نيكسون كرئيس لمجلس المستشارين الاقتصاديين. واستمر في منصبه هذا بعد استقالة نيكسون، وتولي جيرالد فورد

إذا كان النجاح له أكثر
من أب، فليس مستغربا أن
يزعم كثيرون أن لهم الفضل
فيما حققه الاقتصاد الأمريكي
من ازدهار. لكن شخصا واحدا لا
ينازعه أحد دوره المحوري في تلك
المعجزة: إنه جرينسبان رئيس
بنك الاحتياطي الفيدرالي
(البنك المركزي الأمريكي)

وقواعد اللعبة

الرئاسة عام ١٩٧٤. وتمكن جرينسبان من توثيق علاقته مع الرئيس الجديد على المستويين الشخصي والعملي، بشكل أثار حفيظة بعض مسئولي البيت الأبيض، الذين رأوا فيه شخصية تآمرية. لكنه تمكن أيضا من توثيق علاقاته مع العديد من الشخصيات السياسية المهمة بواشنطن، وأثبتت تلك العلاقات قيمتها بعد عقد من الزمان، حين تم تعيينه كرئيس لبنك الاحتياطي الفيدرالي عام ١٩٨٧، لكنه لم يلبث أن واجه أول اختبار عسير له.

ففي يوم الاثنين ١٩ أكتوبر من نفس العام، كان جرينسبان متجها من واشنطن إلى تكساس لإلقاء كلمة أمام جمعية رجال البنوك في اليوم التالي. كانت حركة الاقتصاد متسارعة، مما أدى إلى ارتفاع مؤشرات الأسواق المالية على مدى أسابيع بشكل لايمكن استمراره. ومع إقلاع طائرة جرينسبان صباح ذلك اليوم كانت الهواجس تنذر بيوم عصيب في الأسواق المالية. وعندما هبطت الطائرة في تكساس، اكتشفت أن السوق خسرت ٥٠٨ نقاط، وأغلقت بخسارة تصل إلى تريليون (ألف مليار) دولار، أي نحو ٢٢.٦٪ من قيمتها. وهو رقم قياسي لم يحدث من قبل.

أدرك جرينسبان على الفور حجم الكارثة التي دمرت جزءا هائلا من ثروة البلاد، وتلقى مكالمة من جيرالد كوريجان رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي بنيويورك، يخبره فيها بأن شركات وول ستريت في حاجة ماسة لاعتمادات مالية تغطي بها خسائرها الفادحة، وقال له مشفقا: إن المسئولية كلها تقع الآن على عاتقك.

كان جرينسبان يعرف جيدا كيف تعمل تلك المؤسسات المالية، وأن أي خطأ أو مجرد تأخير في دفع المستحقات أثناء وجود مثل هذه الأزمة، سيثير ردود أفعال قد تؤدي إلى تجمد النظام أو حتى انفجاره. لكنه قال لنفسه: الآن سوف أعرف من أي معدن أنا.

كان السؤال الأول: هل سيتمكن من النوم؟



ولدهشته نام في الفندق خمس ساعات، إلى أن استيقظ على رنين التليفون وكان المتحدث هوارد بيكر رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض، يدعوه بانزعاج للعودة فورا إلى واشنطن. لكن جرينسبان أراد الاستمرار في تكساس حتى تبدو الأمور طبيعية. وكان السؤال الملح الذي يواجهه هو: من الذي سيقدم الاعتمادات أو الأموال للمؤسسات التي تحتاج إليها. وبنك الاحتياطي الفيدرالي يعطي عادة مئات الملايين من الدولارات في شكل قروض روتينية لليلة واحدة، ولكن الآن ماهي حدود مايعطيه البنك؟ وإذا ما فتح مجال الإقراض، هل سيؤدي ذلك إلى ضغوط غير محتملة عليه؟

وتشاور جرينسبان مع مساعديه، ثم أصدر بيانا من جملة واحدة يقول فيه: «إن بنك الاحتياطي الفيدرالي، عملا بمسئوليته كبنك مركزي للبلاد، يؤكد اليوم استعداده لأن يكون مصدرا للسيولة، من أجل دعم النظام المالي والاقتصادي». وفي طريق عودته إلى واشنطن استعرض جرينسبان كل خياراته. كان مستعدا لعقد صفقات غير قانونية إذا اقتضى الأمر لإنقاذ الموقف، وأن يقدم قروضا للمؤسسات التي تحتاج إليها على أن تنفذ مايريده منها الاحتياطي الفيدرالي.

في الحادية عشرة والنصف صباحا، توقفت حركة البيع والشراء لسهم شركة آي بي إم للكمبيوتر، وتبعته عشرات الشركات الأخرى. وبدأ المسئولون في الأسواق المالية بنيويورك وشيكاجو يصرخون هلعا أمام انهيار الأسواق. بينما هم عاجزون عن عمل شيء. في هذه الأثناء كان يأتيهم صوت جرينسبان هادئا يدعوهم لعدم الانزعاج، بينما كان يخطط سرا لتقديم ضمانات للتعاملات المالية لشركات السمسرة في تلك الأسواق، كملجأ أخير، لعلمه أن تلك الشركات والبنوك يمكن أن تستخدم هذه الضمانات بدلا من أموالها. وفي الثانية عشرة والنصف، ظهرت أولى العلامات المشجعة، حيث دخلت مجموعة من الشركات الكبرى لشراء بعض أسهمها بأسعارها المنخفضة، مما أعطى رسالة ثقة للمتعاملين. وفي خلال نصف الساعة سجلت بعض المؤشرات أعلى نسبة ارتفاع لها في التاريخ، وأغلق مؤشر داو جونز يومها بارتفاع ١٠٢ نقطة.

وعندما يتذكر هوارد بيكر تلك الأيام العصيبة، فإنه يؤكد أن العامل الحاسم في إنقاذ الموقف كان بيان الجملة الواحدة، الذي أصدره جرينسبان، فلم يكن هناك ما يعوضه من إجراءات يقوم بها الرئيس أو الكونجرس أو أي جهة أخرى. إن أحدا لايعرف حتى الآن حقيقة ما حدث في تلك الأيام، فربما كانت نوعا من المضاربات غير المشروعة، أو معاملات قام بها أصحابها بناء على معرفة وتخطيط، أو جيل ويأس. أو ربما كان هذا هو القاع الذي هبطت إليه السوق، ثم نهضت منه مرة أخرى بشكل تلقائي.

أيا كانت الأسباب فإن ما أدركه جرينسبان هو أنه لم تكن لديهم معرفة بما يمكنهم عمله. فهناك مساحة غامضة بين الأسواق الحرة الرأسمالية، وبين النظم الحكومية، تمثل أرضا مجهولة. وكان هذا هو الدرس الأول الذي تعلمه جرينسبان، ولم يكن مضى عليه في رئاسة بنك الاحتياطي الفيدرالي أكثر من ٧٢ يوما.

باول: جنرال في ثياب مدنية



يروق للكثيرين
أن يشبهوا كولين باول،
والذي حقق شعبية كبيرة
بعد الانتصار في حرب الخليج
بالرئيس الأسبق دوايت أيزنهاور
الذي بنى أحلامه السياسية
على إنجازه الرائع في قيادة
قوات الحلفاء أثناء الحرب
العالمية الثانية

عندما كان كولين باول ضابطا صاعدا في الجيش الأمريكي، سئل أحد زملائه الضباط عما إذا كان لون بشرة باول الأسود سوف يساعده، أم سيكون عقبة في طريقه؟ فأجاب: إن باول سيحقق النجاح حتى لو كان لونه أخضر!! ومرت السنوات وأصبح كولين باول نائبا لوزير الدفاع، ثم نائبا، فمستشارا لشئون الأمن القومي، ليتولى بعد ذلك رئاسة هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية. ثم كان قرار تعيينه مؤخرا كوزير الخارجية ليكون بذلك أول أسود يشغل هذا المنصب.

ويروق للكثيرين أن يشبهوا كولين باول، والذي حقق شعبية كبيرة بعد الانتصار في حرب الخليج بالرئيس الأسبق دوايت أيزنهاور الذي بنى أحلامه السياسية على إنجازه الرائع في قيادة قوات الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، إلا أن باول في الواقع لم يشأ ترشيح نفسه للرئاسة، لأسباب ربما تتعلق باستعداده الشخصي والأسري، أو ربما كذلك - حسب رأى البعض - لشعوره بصعوبة الحصول على ترشيح الحزب الجمهوري له للرئاسة، نظرا لأفكاره الليبرالية الواضحة في حزب يشغل فيه المحافظون نفوذ ساسية. كما كان قد رفض عرضا من المرشح الجمهوري والرئيس الحالي بوش، فيترشح لنفسه معه كنائب للرئيس، وذلك قبل أن يقبل دعوته إدارة بوش الجديدة كوزير للخارجية.

ورغم أن الحديث عن اللون والأصول العرقية يعد شائعا في بلد لايعترف كثيرا بالأصول العائلية، إلا أن قضية اللون بالنسبة لباول لم تحظ بتركيز كبير، ربما لانتمائه للحزب الجمهوري في مجتمع لايزال ينظر إلى الحزب الديمقراطي باعتباره المكان الطبيعي للملونين.

وتركز الجدل بدلا من ذلك، وكما كان متوقعا، على آراء باول السياسية، وانعكاساتها على أدائه كمسئول عن رسم السياسة الخارجية الأمريكية. وبات واضحا أن الجدل الذي أحاط بأفكار الجنرال القديم وأسلوبه في العمل طوال سنوات خدمته الطويلة في مواقع متعددة، لم يفقه بعد. بل لعله صار أكثر سخونة. خاصة فيما يتعلق بما عرف بـ «مبدأ باول» في استخدام القوة، والذي يقول بعدم التدخل العسكري إلا للدفاع عن مصالح حيوية، على أن يكون الاستعداد كاملا، والتدخل حاسما، والنصر ساحقا.

وفي حين يتفق الكثيرون في الرأي مع التحفظات التي يثيرها المحلل السياسي **لورنس كابلان** في مقال أخير نشرته له مجلة (New Republic) تنشر ترجمة له بجانب هذا المقال، فإن هناك من لا ينفي شعوره بالارتياح للتحفظ المتوقع من الإدارة الجديدة في استخدام القوة العسكرية، حيث تضاعفت مهام القوات الأمريكية خلال السنوات الماضية بينما لم يواكب ذلك زيادة مشابهة في الموارد المخصصة لها.

ورغم أن هناك تفاؤلا لدى البعض بأن يساعد «مبدأ باول» على تصحيح هذا الوضع، إلا أن الواضح أن التزام الإدارة الجديدة به حرفيا، سوف يقيد - بدون شك - من حريتها في الحركة. كما أنه سيحد من الخيارات المطروحة أمامها في استخدام أدوات السياسة الخارجية. كما أننا لايمكن أن نتجاهل مانسبته صحيفة الواشنطن بوست أخيرا لمسئول في الخارجية الأمريكية لم تذكر اسمه، من: «أن مبدأ باول لم يعد مناسبا.. وهو قد يغير رأيه بعد توليه منصبه الجديد». وكانت وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت قد «تعمدت» الإشارة إلى خطأ «مبدأ باول» قبل أن تترك منصبها بأيام، حيث ذكرت أن نجاح العمليات العسكرية في البلقان يؤكد «إمكانية استخدام القوة» بشكل محدود، لتحقيق أهداف معينة في بعض المناطق من العالم.

وربما لا يحتاج باول إلى من يذكره برأي أولبرايت هذا، فكثيرا ما وقعت المواجهات بينهما عندما كانت أولبرايت سفيرة لدى الأمم المتحدة، وكانت

تتزعم جهود المدنيين في إدارة كلينتون المؤيدين للتدخل العسكري في البوسنة، وقد صرخت فيه مرة متسائلة: ماهي فائدة القوة العسكرية إذا لم تستخدم في مثل هذه المواقف؟

أيا ما كان الأمر فإن السؤال الحقيقي هو: هل سيظل باول وفيا لمبدئه هذا؟ وإلى أي مدى؟

الحقيقة أن من شاركني جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ للتصديق على تعيين باول كوزير للخارجية، لاحظ، كما لاحظت أنه أبدى بالفعل استعدادا لتغيير بعض آرائه السابقة بشأن عدد من القضايا. فهو الآن يتحدث عن إحياء نظام العقوبات ضد العراق، بينما كان من قبل يشك في جدواها. كما ذكر أنه يؤيد استمرار فرض الحصار على كوبا، بعكس مواقفه التقليدية السابقة. كما أنه أيضا أكثر حماسا الآن لنشر أنظمة الصواريخ الدفاعية. فضلاً عن أنه ضد معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية.

وكلها مواقف جديدة عليه، وتجعله أكثر انسجاما مع سياسات الإدارة الجديدة. كما أنها تنفي إلى حد ما مقولة كابلان عن أنه «سيفرض آراءه في رسم السياسة الخارجية الأمريكية».

كابلان أشار أيضا إلى تحدي باول لريتشارد تشيني في اختيار من يشغل منصب وزير الدفاع، وهذا حقيقي، فقد سعى باول بقوة لتعيين صديقه حاكم ولاية بنسلفانيا توم ريدج في هذا المنصب. كذلك فإن دان كوتس الذي كان يتصدر المرشحين لرئاسة البنتاجون سأل بوش صراحة عما إذا كان سيتحول إلى مجرد ديكور، أمام الهيمنة المتوقعة لكولين باول.

لكن إذا كانت العبرة بالنهاية، فإن ريدج لم يتم تعيينه، وتغلب رأي نائب الرئيس ديك تشيني حيث وقع الاختيار على دونالد رمزفيلد، بكل بتاريخه الحافل، ليشغل هذا المنصب. وهناك اتفاق على أن حكومة بها تشيني ورمزفيلد لايمكن أن تنقاد لرغبات شخص واحد، مهما كانت شعبيته أو مايملكه من كاريزما.

أما القول بأن خلفية باول العسكرية ستحكم تفكيره في الخارجية، فهذا ممكن ولكن ليس بدون حدود. فخبرة باول في واشنطن شغلت أغلب سنوات عمله في الجيش الأمريكي، كما أنه سبق له العمل كنائب وكمستشار لشئون الأمن القومي في عهد الرئيس الأسبق رونالد ريجان، وهو

رجل الماضي .. سياسة باول الخارجية

عندما كان كولين باول رئيسا لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية، كان يحتفظ في مكتبه في البنتاجون بحكمة للفيلسوف الإغريقي ثوسيديديز Thucydidez تقول: «إن ضبط النفس هو أكثر مظاهر القوة تأثيرا في الرجال».

وقد أصبحت هذه العبارة بالفعل شعارا للفريق المحيط بالرئيس بوش. في اختلاف جوهري مع أسلوب إدارة الرئيس السابق كلينتون التي نشطت في استخدام القوة العسكرية بشكل عشوائي.

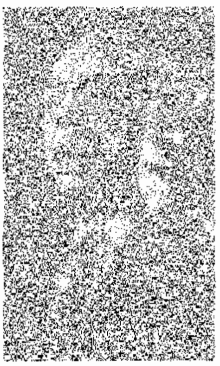
وكولين باول هو تجسيد لهذه العبارة. أما رأيه في القوة العسكرية فهو ببساطة: لاتستخدمها. وهو يفسر ضبط النفس بأنه نتيجة خلفيته كجندي يعرف حجم الخسائر البشرية للحرب، غير أن آراءه هي محصلة لتجربة حرب فيتنام التي تركت بصماتها على جيل كامل من العسكريين، وأصبحت لديهم - كما يقول الخبير الاستراتيجي إليوت كوهين - رمزا للكوارث التي تنجم عن تطفل المدنيين، ورعونة العسكريين. ويشرح كولين باول ذلك في سيرته الذاتية قائلا: «إن كثيرا من أبناء جيلي من الضباط الذين شاركوا في حرب فيتنام، تعهدوا بأنه عندما يحين دورنا في القيادة واتخاذ القرارات، ألا يقبلوا صامتين بدخول الحرب، باستعدادات غير كاملة، أو مبررات غير مقنعة، ولا يفهمها الشعب الأمريكي».

ومن هذه العبارة يمكننا أن نستكشف ثلاثة أشياء تشكل في مجملها رؤية كولين باول للعالم: أولا: أن العسكريين يجب ألا يذعنوا صامتين لقرارات رؤسائهم المدنيين بشأن استخدام القوة. ثانيا: الإصرار على أن أي عملية عسكرية محتملة يجب أن تتوافر لها القوة الساحقة، وإلا لاتشن الحرب على الإطلاق. وهذا ما أصبح يعرف «بمبدأ باول». غير أن هذا المبدأ لايتوقف عند كيفية شن الحرب، بل يمتد ليشمل العنصر الثالث وهو: متى نخوض الحرب. فمن وجهة نظره أن الحرب يجب أن تكون لأسباب تتعلق «بالمصالح الحيوية» وليس بدون مبررات قوية، مثل عمليات «بناء الدول» أو لأسباب إنسانية.

وهذا الكلام يبدو منطقيا، لكنه لا يناسب العالم الذي تتعامل معه إدارة بوش، كما ثبت عدم جدواه في توضيح كيفية استخدام القوة في عصر مابعد الحرب الباردة. فلو كان كولين باول وزيرا للخارجية خلال السنوات الماضية، لكانت الولايات المتحدة قد أغمضت عينيها عما قام به الصرب في البوسنة، والتطهير العرقي في كوسوفو، بل لكانت تجاهلت الغزو العراقي للكويت، حيث سبق لكولين باول أن عارض شن حرب «عاصفة الصحراء».

والمفارقة هنا هي أن مكانة باول كبطل قد تحققت له من أدائه أثناء حرب الخليج، ومن خلال المؤتمرات الصحفية، حيث تذكر له عبارته الشهيرة: «إننا سوف نقطع الإمدادات عن الجيش العراقي، ثم نقوم بالقضاء عليه». وهذا الكلام بدا غريبا لأنه جاء مناقضا لكل آرائه منذ بدء الأزمة العراقية. فقد تجاهل تقارير المخابرات عن إمكانية وقوع الغزو العراقي للكويت، كما عارض إرسال قوة بحرية إلى المنطقة كإشارة إنذار للعراق لمنعه من الإقدام على عملية الغزو. بل حتى عندما وقع الغزو بالفعل قال باول: إننا لايمكننا أن نبرر خسارة الأرواح من أجل الكويت. وقد استمر موقفه على ذلك النحو بعد بدء العمليات العسكرية، حيث ألح على إنهاء الحرب بعد يوم واحد من الهجوم البري، وهو ما أمكنه تحقيقه بعد أربعة أيام، رغم أن الوحدات الأمريكية لم تكن قد أنهت حصارها للقوات العراقية. وقد عادت تلك القوات بعد ذلك لارتكاب المذابح ضد المدنيين الذين كانت الولايات المتحدة قد شجعتهم على الثورة، إلا أن باول أصر ونجح في منع التدخل لوقف تلك الهجمات حيث كان من رأيه أن الإبقاء على نظام صدام حسين سيساعد على تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط. والنتيجة أننا بعد تسع سنوات، لانزال نعيش مع ثمار تلك الحكمة.

وبعد مايقرب من عام على انهيار المعارضة العراقية، حدثت المجاعة في الصومال. ومرة أخرى تعثر كولين باول، فقد اعترض على الجزء الذي نجح من العملية وهو إرسال قوات أمريكية إلى الصومال في مهمة إنسانية واسعة النطاق. لكنه يتحمل قسطا كبيرا من المسئولية عن الفشل الذي حدث وأدى إلى مصرع ثمانية عشر جنديا أمريكيا. وقد زعم باول أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ أنه تردد كثيرا في إرسال قوات عملية رانجرز (Rangers) التي حاولت اعتقال الجنرال الصومالي محمد فرح عيديد.



وهذا غير حقيقي. فقد ذكر وزير الدفاع الراحل ليس أسبن (Les Aspen) أنه تلقى مكالمة هاتفية من باول حثه فيها على إرسال قوات الكوماندوز لاعتقال عيديد. وهذا ماأكده أيضا الرئيس (السابق) كلينتون الذي نقل عن باول أنه قال له «يجب أن يقوم أحد باعتقال عيديد، ونحن الوحيدون الذين يملكون القدرة على ذلك». وتقاعد باول، ثم فشلت العملية، لكنه ترك أسبن يتحمل المسئولية بمفرده.

وفي البلقان، ارتكب باول خطأ جديدا في تقييمه الاستراتيجي. فقد اعترض على استخدام القوة ضد الصرب خشية توسع العمليات، وشكك في جدوى الضربات الجوية مؤكدا عدم وجود «مصالح حيوية» للولايات المتحدة في البلقان. وسايرته إدارة بوش (الأب) في ذلك. وعندما تولى الحكم الرئيس كلينتون اضطر مساعدوه للخضوع لرأي باول إدراكا منهم لمكانته. وكان على الولايات المتحدة أن تنتظر لحين تقاعده، قبل أن تضع حدا لعمليات القتل في البوسنة.

إن جاذبية «مبدأ باول» تكمن في بساطته. وكثيرا ما كان يردد أثناء الجدل بشأن البوسنة أنه: «عندما يقول لي أحد إنها عمليات عسكرية محدودة، فهذا يعني أنه لايهمه ماإذا كنت قادرا، أم لا، على تحقيق الهدف». غير أن الحرب المحدودة نجحت في البوسنة، وبعد ذلك في كوسوفو، في تحقيق النتيجة التي كان باول قد أعلن أنها غير ممكنة. لقد كان يفخر أثناء عمله في البنتاجون قائلا: «إننا كنا قادرين على إخضاع القرارات السياسية لما يمكننا عمله عسكريا»، غير أن هذا قلب للأمور. فالأهداف السياسية هي التي ينبغي أن تحدد الوسائل العسكرية، ولكن عندما تقلب الأوضاع، كما حدث في حرب الخليج - فإن النتيجة يمكن أن تكون انتصارا عسكريا مبهرا من الناحية الشكلية، ولكن مصحوبا بهزيمة سياسية. وعلى النقيض من ذلك، فإن الانتصار

ماجعله « أكثر الجنـــرالات حنكة سياسيا منذ الرئيس الأسبق أيزنهاور» على حد تعبير الخبير الاستراتيجي إليوت كوهين.

وإذا كان مبدأ باول يتفادى استخدام القوة العـسكرية ، فليس هناك بديل لهـا سـوى استخدام الدبلوماسية ، وهذا هو التحدى الجديد لرئيس الأركان المشتركة السابق: فنجاح مهمته في الخارجية هو الضمان الوحيد لعدم إرسال زملائه القدامى لخوض معارك لايريدها.

إن القـرن الماضي شـهـد تولي اثنين من العسكريين لشئون الخارجية الأمريكية: الأول هـو جورج مارشال الذي نجح باقتدار، وارتبط اسمه بالمشروع التاريخي لإعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

أما الثاني فهو الكساندر هيج الذي فشل في تحقيق التحول المطلوب ، والنمو خارج إطار تجربته العسكرية السابقة على حد تعبير المؤرخ العسكري ريتشاردكون.

ترى إلى أي نموذج منهما سيتجه كولين باول؟

إن خبرته السياسية الطويلة ، وشخصيته الثرية متنوعة الأبعاد ، تجعلني أميل بقوة للقول: إنه سيتجه للنموذج الأول. ■

عفى عليها الزمن

العسكري في البلقان بدا أقل إبهارا، لكنه حرك نسقا من الأحداث المتتابعة التي أدت إلى تخلص صـربيـا من سلوبودان ميلوسوفيتش، بينما لايزال صدام حسين يحكم في بغداد بعد مرور عقد من الزمان على حرب الخليج.

إن مـبدأ باول لايصلح لمواجهة تلك النوعية من الصراعات في الصومال والبوسنة وكوسوفو، فهي صراعات غير تقليدية لاينفع معها أسلوب (مالا يدرك كله.. يترك كله) وتطبيق هذا المبدأ يعني أنه لن تكون هناك عمليات إنسانية، أو لحفظ السلام، أو هجمات جوية عقابية. ووزير الخارجية الجديد لايعترف بمفهوم «بناء الدولة» لأنه يذكره بحرب فيتنام، كما أن الحرب يجب أن ندخلها فقط بناء على حسابات باردة تتعلق بالمصالح الحيوية. غير أن تعريفه للمصالح الحيوية يشمل فقط الخطوط البحرية والقنوات، وآبار البترول ، وهو مايعني تخلي الولايات المتحدة عن دورها القيادي . ومسئولياتها العالمية. كما أن بعض المشاكل ، مثل أزمة البوسنة ،كان يمكن أن تتفاقم سريعا لتهدد المصالح الحيوية الأمريكية واستقرار حلف الأطلسي.

وأخيرا فإن «واقعية باول» لم تعد تلائم المزاج الأمريكي العام، وتتجاهل تأثير تكنولوجيا المعلومات وعامل شبكة تليفزيون سي إن إن CNN حيث تؤدي صور الجوعى والتعذيب والمعاناة لخلق رأي عام يطالب بعمل شيء، وهو ما أجبر كولين باول نفسه على التدخل في الصومال. غير أن الخطر الحقيقي لايكمن فقط في أفكار باول الحمقاء. ولكن أيضا في عدم وجود من يمكنه معارضته.

صحيح أنه وبوش يقدمان رؤية متشابهة، إلا أنهما يختلفان بشأن قضايا رئيسية مثل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، التي يعارضها بوش. كما أن باول يبدو أقل قلقا بشأن العراق من بوش وبعض المحيطين به. الذين تحدث عدد منهم عن فصل جزء عن العراق.

وهنا تظهر صفة أخرى لباول: إنها تردده في قبول الرأي المخالف. فعندما اختلف مع معاوني الرئيس الأسبق بوش حول حشد القوات الأمريكية في الخليج، كان على وزير الدفاع ريتشارد تشيني أن يذكره أكثر من مرة -بدون جدوى- بأن يهتم فقط بالشئون العسكرية. وعندما جاء كلينتون، فإن باول - كما يقول الخبير الاستراتيجي إدوارد لاتواك - Edward Luttwak فرض آراءه بازدراء على الرئيس الجديد، سواء في الميزانية العسكرية، أو رفض خدمة الشواذ جنسيا في الجيش ، أو العمليات العسكرية في البوسنة.

أما الآن.. فمن يمكنه أن يقف في طريق باول.. كوندوليزا رايس (مستشارة الأمن القومي)؟ إن باول يتجاوزها كثيرا في المكانة والمستوى الفكري. ريتشارد تشيني؟ إن باول لم يكد يعين وزيرا للخارجية ، حتى بدأ يتحدى نائب الرئيس في اختيار شخصية وزير الدفاع.

ماذا إذن عن بوش نفسه؟ إن باول الذي جادل كثيرا في قرارات بوش الأب ، رغم خبرته الكبيرة في السياسة الخارجية ، ليس من المتوقع أن يهتم كثيرا بابنه الأقل معرفة.

ومن الغريب أن عائلة بوش التي تقدر الولاء كثيرا، يمكن أن تكافئ شخصا يفتقر إليه. لقد تم تعيين باول لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية وليس الخارجية، وهذه مشكلة كبيرة، فلن يمر وقت طويل قبل أن يتبين فريق المحيطين ببوش، ليس فقط أن باول لايعمل طبقا لقواعدهم ، بل أيضا أن العالم لايعمل طبقا لقواعده. ■

لورنس كابلان
بترتيب خاص من
New Republic Magazine»

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٢ - في امتزاج الأصوات وتنافرها

اعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن أصوات الأوتار المتساوية الغلظ والطول والخرق إذا نُقرت نقرةً واحدة كانت متساويةً . وإن كانت متساويةً في الطول مختلفةً في الغلظ ، كانت أصوات الغليظ أغلظ وأصوات الدقيق أحدَّ ، وإن كانت متساويةً في الطول والغلظ ، مختلفةَ الخرق ، كانت أصوات المخروقة حادةً ، وأصوات المسترخية غليظةً ، وإن كانت متساوية في الغلظ والطول والخرق ، مختلفة في النقر ، كان أشدها نقراً أعلاها صوتًا .

واعلم . بأن الأصوات الحادة والغليظة متضادان . ولكن إذا كانت على نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت واتحدت ، وصارت لحنًا موزونًا ، واستلذتها المسامع ، وفرحت بها الأرواح ، وسُرّت بها النفوس . وإن كانت على غير النسبة تنافرت وتباينت ، ولم تأتلف ولم تستلذها المسامع ، بل تنفر عنها ، وتشمئزُّ منها النفوس ، وتكرهُها الأرواح . والأصوات الحادة حارةٌ تُسخنُ مزاج أخلاط الكيموسات (كلمة يونانية ومعناها الطعام الذي يفرز بعد فعل المعدة) الغليظة وتلطفها والأصوات الغليظة باردة ترطب مزاج أخلاط الكيموسات الحارة اليابسة . والأصوات المعتدلة بين الحادة والغليظة تحفظ مزاج أخلاط الكيموس المعتدل على حالته كيلا يخرجَ عن الاعتدال . والأصوات العظيمة الهائلة غير المتناسبة إذا وردت على المسامع دفعة واحدة مفاجئة أفسدت المزاج وأخرجته عن الاعتدال وتحدث موت الفجاءة ، ولها آلة صناعية كان اليونانيون يستعملونها عند الحروب ، ويُفزعون بها نفوس الأعداء ويسدُّ النافخون فيها آذانهم عند استعمالها وتحريكها .

حول إصدار قانون للاحتكار فى مصر

محاربة الاحتكار..

حازم الببلاوى

يجرى حاليًا التفكير فى إصدار قانون للاحتكار فى مصر. ومن الطبيعى أن مناقشة مثل هذا القانون تتطلب الإحاطة بأهم الاعتبارات الاقتصادية التى يثيرها الاحتكار. وقد كان الاحتكار دائمًا أحد أهم فصول كتب الاقتصاد. ومع ذلك فإن التطورات الحديثة فى العلاقات الدولية خاصة فى جوانب التكنولوجيا أضافت إلى هذا الموضوع أبعادًا جديدة. والغرض من هذا المقال ليس طرح رؤية جديدة بقدر ما هو عرض وتبسيط أهم الاعتبارات التى يثيرها موضوع الاحتكار.

الاحتكار (Monopoly) هو تعبير اقتصادى يقصد به سيطرة منتج (فرد أو شركة أو مجموعة ترتيبات) على إنتاج سلعة معينة وبما يمكنه من السيطرة على حجم المعروض منها وبالتالى التأثير فى أثمانها. وقد نظر دائمًا إلى «الاحتكار» نظرة ريبة وتخوف باعتباره مظهرًا من مظاهر السيطرة الاقتصادية وبالتالى الاستغلال. ومن ثم وجب وضع القيود والضوابط على مختلف مظاهر الاحتكار سواء بتحريمه فى أحوال معينة أو بوضع ضوابط على سلوكه فى أحوال أخرى.

ومع ذلك فقد أبرزت التجربة أن فكرة الاحتكار ليست دائمًا واضحة ومتميزة بل إن الأغلب من الأحوال أن تتعايش عناصر من الاحتكار مع عناصر المنافسة فضلاً عن أنه فى أحوال أخرى فإن ظروف الإنتاج تفرض أشكالاً من الاحتكار بما يمكن من تحقيق أفضل النتائج الاقتصادية فيما يعرف بالاحتكار الطبيعى، وأخيرًا فإن مظاهر الاحتكار كثيراً ما تتداخل مع فكرة الإنتاج الكبير وما يحققه من مزايا اقتصادية وبذلك تصبح محاربة الاحتكار محاربة للإنتاج الكبير، ومن ثم تفويت المزايا الاقتصادية لهذا الإنتاج الكبير.

ولكل هذه الاعتبارات فإن مفهوم الاحتكار مفهوم مركب يتطلب قدرًا كبيرًا من المرونة وحسن التقدير، بما يسمح بمحاصرة النتائج السلبية للاحتكار والسيطرة والاستغلال من ناحية، مع عدم تفويت مزايا الإنتاج الكبير والتقدم التكنولوجى من ناحية أخرى.

ولفهم فكرة «الاحتكار» نبدأ بالتعريف بفكرة «المنافسة الكاملة» حيث إن هذه المنافسة تمثل - من وجهة نظر معينة - نقيض الاحتكار، فضلاً عن أنها كانت دائمًا النموذج المثالى لعمل اقتصاد السوق وبالتالى فإن أى انحراف عن أوضاع هذه المنافسة الكاملة يمثل من حيث المبدأ خللاً فى كفاءة نظام السوق.

المنافسة والاحتكار

جرت العادة بين الاقتصاديين على تعريف الوضع الأمثل لاقتصاد السوق بأنه الوضع الذى تسود فيه المنافسة الكاملة «Perfect Competition» ويقال عادة أننا نكون بصدد منافسة كاملة وأن المشروع يعتبر فى ظل هذه المنافسة الكاملة إذا كان يمثل نسبة يسيرة غير محسوسة من الناتج المعروض فى السوق وبحيث لا يستطيع منتج منفرد أن يؤثر فى أوضاع السوق فهو ذرة فى محيط. فالتأثير فى سوق السلعة لا يخضع لمنتج منفرد بل يحدث فقط نتيجة مجموع أفعال المنتجين. فالمشروع فى ظل المنافسة الكاملة هو ذرة فى محيط لا تأثير لعمله المنفرد على الأسعار السائدة. فهو خاضع لهذه الأسعار «Price Taker» يتعامل معها كمعطاة ويوفق أوضاعه فى ضوئها سواء من حيث تكاليف الإنتاج أو من حيث كميات البيع. ويضع الاقتصاديون عدة شروط لتوافر المنافسة الكاملة أهمها:

- تعدد البائعين والمشترين.
- تجانس السلعة.
- حرية الدخول والخروج من الصناعة وإليها.
- توافر العلم التام.

وتتضمن هذه الشروط ألا يتمكن منتج واحد بفعله المنفرد من التأثير فى الأسعار. فالتعدد يفيد أن فعل البائع بزيادة أو إنقاص عرضه للسلعة يمثل نسبة ضئيلة وغير محسوسة من العرض الكلى وبالتالى دون أثر على الأسعار. كذلك فإن تجانس السلعة يعنى أن المعروض من السلع من البائعين الآخرين هو بديل كامل وبالتالى فإن سلعة لا تمثل أية ذاتية أو خصائص خاصة لها زبائن مخلصون. أما حرية الدخول إلى الصناعة فهى تعنى أنه لا توجد عقبات قانونية أو مادية تحول دون اجتذاب مستثمرين جدد إلى هذه الصناعة وبالتالى فتح الباب أمام المنافسة الكامنة «Potential Competition» فالعبرة ليست فقط بمنافسة المشروعات القائمة فى نفس الصناعة وإنما أيضًا بإتاحة الفرصة لدخول منافسين جدد إذا كانت الصناعة مربحة، لذلك فإن أية قيود تحول دون دخول منافسين جدد بحجة حماية الصناعة القائمة تمثل اعتداء على حرية السوق وخروجًا على فكرة المنافسة الكاملة. وأخيرًا فإن توافر العلم الكامل عن السلعة وخصائصها وعن البائعين الآخرين يحول دون تمتع أى منتج بوضع خاص متميز نتيجة الجهل بأوضاع السوق.

ويعتقد الاقتصاديون أن توافر شروط المنافسة الكاملة على هذا النحو يؤدى إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية بتخفيض الأسعار على المستهلك والحث على تقليل تكاليف الإنتاج وبالتالى تحقيق مزايا الإنتاجية وجذب الاستثمارات إلى القطاعات التى تتفق مع أذواق المستهلكين. فالمنتج فى ظل هذه الأوضاع لا يستطيع أن يرفع الأسعار وعليه أن يوفق أوضاعه فى ضوئها وبالتالى فإنه لا يتمكن من زيادة أرباحه إلا عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج الأمر الذى يعود على المجتمع بالخير. كذلك فإن منافسة الآخرين له تقنعه بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مزيد من الأرباح إنما تتحقق بزيادة مبيعاته وزيادة حصته من السوق نظرًا لعدم قدرته فى التأثير على الأسعار. وهكذا يؤدى تنافس المنتجين إلى الاكتفاء بالحد الأدنى للأرباح وعدم المبالغة فيها. فأى رفع للأسعار عن المستوى السائد يعنى تحول المشترى عنه وبالتالى فقده لحصته فى السوق.

وأخيرًا فإن توافر أرباح عالية فى قطاع معين مع حرية الدخول إلى الصناعة سوف يغرى المستثمرين إلى دخول الصناعة للإفادة من فرص الربح، الأمر الذى يؤدى فى النهاية مع زيادة العرض إلى اختفاء الأرباح العالية فى هذا القطاع.

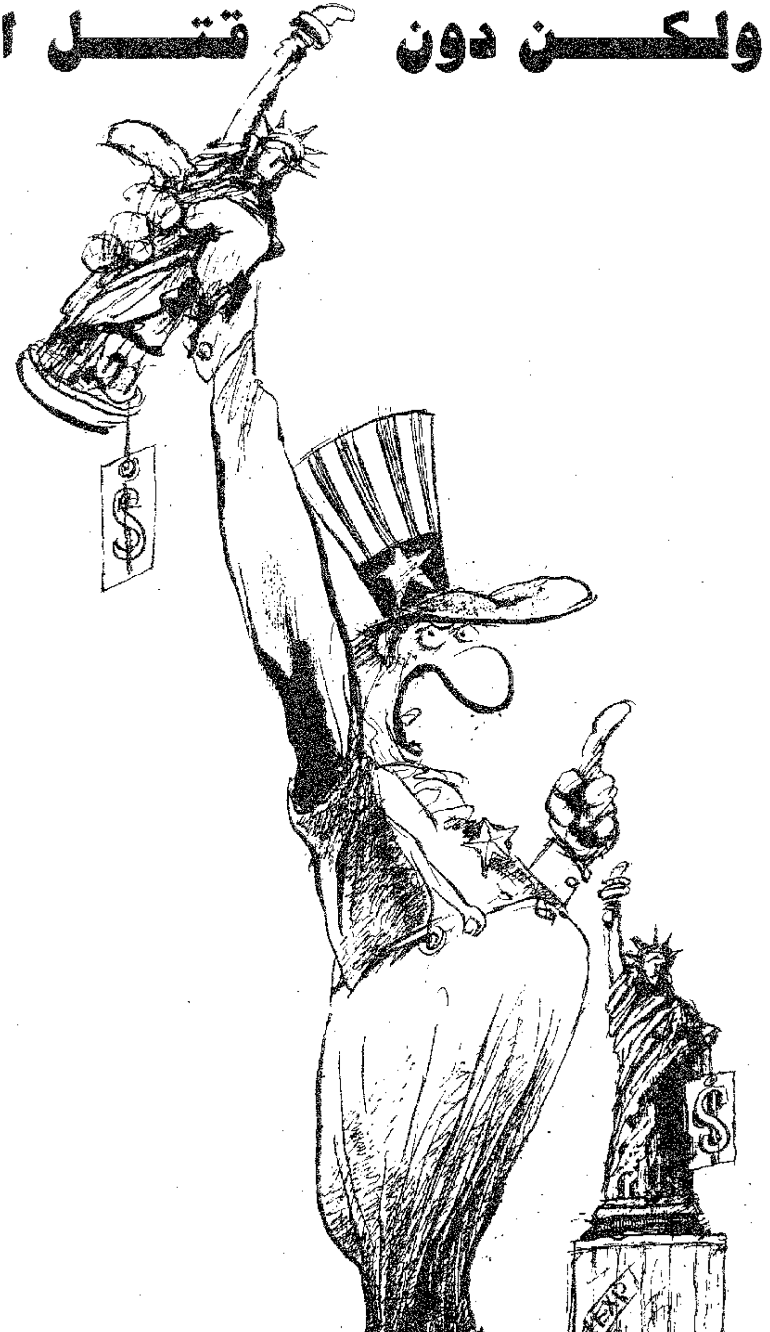
وهكذا يرى الاقتصاديون أن أوضاع المنافسة الكاملة تحقق أفضل النتائج الاقتصادية من حيث حماية المستهلك بحصوله على السلعة بأقل التكاليف ومن حيث الإنتاجية حيث إن فرص زيادة الأرباح لا تتحقق عن طريق رفع الأسعار وإنما فقط عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة الإنتاجية، وأخيرًا فإنها تسمح بتوزيع الاستثمارات بين القطاعات المختلفة على نحو متفق مع رغبات المستهلكين فحيث يزيد الطلب فى قطاع معين وتتحقق أرباح عالية تجذب الاستثمارات إلى هذا القطاع للإفادة من فرص الربح فيه.

ما تقدم يمثل النموذج النظرى الذى بنيت عليه فكرة اقتصاد السوق وهو - كما لا يخفى - يمثل حالة مثالية قل أن تتحقق فى الواقع باستثناء عدد قليل من الأسواق - مثل السلع الزراعية العالمية (القمح والقطن وما شابه) أما الواقع فهو يتضمن عادة خروجًا فى جانب أو آخر من هذا النموذج النظرى. ويمثل «الاحتكار» الصورة المقابلة للمنافسة الكاملة وحيث لا يوجد إلا منتج واحد فى الصناعة وهنا يختلط المشروع بالصناعة. فالصناعة فى هذه الحالة هى المشروع والمشروع هو الصناعة. ومعنى ذلك أن المحتكر يسيطر وحده على إنتاج السلعة وهو بذلك لا يخضع لأية تأثيرات أخرى أو منافسة من منتجين آخرين.

وهو من هذه الناحية يمكن أن يقترب من وضع المنتج فى المنافسة الكاملة فى أن كلا منهما لا يعبأ بما يفعله غيره من المنتجين. ويتحقق ذلك فى حالة المنافسة الكاملة لأنه يدرك أن أيًا من المنافسين ليس له - منفردًا - أى تأثير على السوق، ولذلك فإنه لا ينظر إلا إلى السعر السائد فى السوق، وفى حالة الاحتكار فإن المنتج لا يعبأ - أيضًا - بالآخرين لأنه وحده فى السوق وبالتالى فلا منافس آخر يشغله. ولكن المحتكر يختلف عن المنتج فى المنافسة الكاملة فى أنه يسيطر على السعر السائد فهو ليس خاضعًا للثمن «Price Tacker» - كما هو الحال فى المنافسة الكاملة وإنما هو صانع الثمن «Price Maker» وهذا هو أهم ما يميز سلوك المحتكر فهو يحدد الثمن عن طريق تحديد حجم إنتاجه، فهو يتعامل مع متغيرين يستطيع أن يؤثر فيهما وبما يحقق له أفضل الأوضاع (الثمن والكمية). فالمحتكر يؤثر فى الكمية المعروضة من السلعة فى السوق وبالتالى فى الثمن السائد. فيستطيع المحتكر أن يرفع الأسعار عن طريق تخفيض العرض كما يستطيع زيادة المبيعات عند تخفيض الثمن. وليس الأمر كذلك فى حالة المنتج فى المنافسة الكاملة حيث لا تأثير له على الثمن الذى يتحدد استقلالاً عن فعله المنفرد لأنه ذرة فى محيط، وهذه هى الخاصية الأساسية التى تميز المحتكر عن المنتج فى المنافسة الكاملة أحدهما صانع ومحدد

مفهوم الاحتكار مفهوم مركب يتطلب قدرا كبيرا من المرونة وحسن التقدير، بما يسمح بمحاصرة النتائج السلبية للاحتكار والسيطرة والاستغلال من ناحية، مع عدم تفويت مزايا الإنتاج الكبير والتقدم التكنولوجى من ناحية أخرى

ولكن دون قتل المريض !



للأسعار Price Maker والآخر خاضع لها Price Taker، فالمحتكر مسيطر على السلعة وسوقها، يحدد الكمية المعروضة والسعر السائد معًا.

ومع ذلك فإن هناك حدودًا والأمر ليس مطلقًا، فالقول بأنه يسيطر على السلعة يعني أنه لابديل عنها وهو أمر نسبي في نهاية الأمر، فهناك درجات من الإحلال بين السلع، وعندما ترتفع الأسعار فإن الأفراد يتحولون إلى سلع أخرى - تعتبر بديلاً - لإشباع نفس الحاجة رغم أنه في الظروف العادية قد لا تعتبر سلعًا بديلة. فالدجاج قد يصبح بديلاً عن اللحم، والسمك قد يصبح بديلاً عنهما، والإضاءة بالغاز قد تصبح بديلاً عن الإضاءة بالكهرباء، والانتقال بالمواصلات العامة يصبح بديلاً عن السيارات الخاصة.. وهكذا، لذلك فليس هناك محتكر مطلق.

وأول نتيجة تترتب على سيطرة المحتكر على السوق هي أنه لا يستطيع زيادة مبيعاته في ضوء إمكانياته الفنية دون أن يترتب على ذلك انخفاض في أسعار البيع، وبالتالي فإن المحتكر عليه أن يوفق بين رغبته في زيادة مبيعاته من ناحية أو عدم انخفاض أسعار البيع من ناحية أخرى. وهو بذلك يبحث عن الوضع الذي يحقق له أفضل أرباح وإن ترتب على ذلك تخفيض المبيعات عن إمكانياته الفنية للإنتاج. فقد تكون مصلحة المحتكر - حماية للأسعار من الانخفاض - الاكتفاء بالإنتاج عند مستوى دون استخدام جميع الطاقات الإنتاجية المتاحة له خوفًا من انهيار الأسعار أو انخفاض الأرباح. وفي هذا ولاشك إضرار بالاقتصاد القومي حيث تتعارض مصلحة المحتكر في تحقيق أقصى أرباح مع المصلحة العامة في استخدام كافة الطاقات الإنتاجية المتاحة، وهو أمر لا يقوم في حالة المنافسة الكاملة. فالمنتج في هذه الحالة الأخيرة يمكن - نتيجة لضآلة تأثيره على السوق - أن يزيد مبيعاته باستخدام كافة الطاقات المتاحة له دون أن تتغير أو تتأثر أرباحه، وبذلك تتفق المصالح الخاصة في زيادة المبيعات والأرباح للمشروع مع المصلحة العامة في الإنتاج باستخدام كافة الطاقات الإنتاجية في حالة المنافسة الكاملة الأمر الذي لا يتحقق بالضرورة في حالة الاحتكار.

كذلك فإن المحتكر يستطيع - بعكس المنتج - في ظل المنافسة الكاملة أن يزيد أرباحه عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج أو رفع الأسعار. فالمنتج في ظل المنافسة الكاملة - بعجزه عن التأثير في الأسعار - ليس أمامه إلا تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة الإنتاجية لزيادة الأرباح، أما المحتكر فإنه يستطيع زيادة أرباحه بزيادة الأسعار دون حاجة إلى تخفيض تكاليف الإنتاج. وهكذا يرى الكثيرون أن

المحتكر وهو لا يتعرض لضغط من المنافسين الآخرين يجد سهولة أكبر في زيادة أرباحه عن طريق رفع ـ الأسعار ـ بدلاً من تخفيض التكاليف ـ وبالتالي يفتقد الاحتكار الحافز على زيادة الإنتاجية كما كان الحال عليه مع المنافسة الكاملة.

وإذا كان الاحتكار يتضمن سيطرة مشروع واحد على الصناعة وعدم وجود بدائل قريبة من السلعة التي ينتجها، فكثيرًا ما يؤدي ذلك إلى تحقيق أرباح غير عادية في هذه الصناعة تفوق الأرباح المحققة في الصناعات الأخرى، لذلك فإنه من الطبيعي أن نتوقع أن تحاول المشروعات الأخرى الاتجاه إلى هذا النشاط الذي يعرف أرباحًا غير عادية ولكن الاحتكار يحول دون ذلك، فالاحتكار يتضمن وجود عوائق وموانع للدخول إلى الصناعة، لذلك فإن حرية الدخول إلى الصناعة بدون عوائق اصطناعية تعتبر من أهم وسائل محاربة الاحتكار.

منافسة القلة والمنافسة الاحتكارية:

الحديث عن المنافسة الكاملة والاحتكار هو حديث عن الحالات القصوى والتي قل أن تتحقق في العمل. فكما أن المنافسة الكاملة تمثل نموذجًا نظريًا قل أن يتحقق في الواقع، فإن الاحتكار بدوره يمثل حالة استثنائية.. فقل أن يحتكر منتج واحد صناعة بأكملها، والأغلب هو أن تقوم حالات وسيطة تجمع بين عناصر من المنافسة وبين الاحتكار ويطلق عادة على مثل هذه الحالات تعبير المنافسة الاحتكارية، بالإضافة إلى أحوال منافسة القلة التي تمثل حالة بعض الأسواق. أما أوضاع منافسة القلة فهي تعبر عن الوضع الذي يسود الصناعة فيه عدد محدود من المشروعات كما هو الحال في عدد من الصناعات العالمية الكبرى مثل صناعة السيارات، صناعة الأدوية، صناعة الطائرات، صناعة مكونات الكمبيوتر.. أما أحوال المنافسة الاحتكارية وهي تمثل الحالات الغالبة ـ فإنها تجمع عادة بين تعدد في المشروعات مع تميز كل مشروع ببعض الخصائص المميزة للإنتاج بما يحول دون التجانس الكامل بين السلع.

ويؤدي هذا إلى ظهور «الماركات» المختلفة لكل سلعة، كل منها بديل شبه كامل عن الأخرى، ولكن هناك أيضًا بعض التمايز في خصائص كل منها، وسواء كان هذا التمايز راجعًا إلى صفات حقيقية في السلعة أو إلى انطباعات وهمية أو مبالغ فيها نتيجة الجهود التسويقية لكل منتج. فكل منتج يحاول أن يبرز منتجه على أنه يتميز ببعض الخصائص والمزايا الخاصة التي تميزه عن غيره بين المنتجين للسلعة. فالأسماء التجارية لمختلف السلع إنما تحاول تأكيد التمايز بين السلع بحسب المنتج وصفة التجانس التي يفترضها نموذج المنافسة الكاملة يصعب تحقيقها في العمل. فهناك دائمًا اختلاف وفروق تميز بين السلع التي يعرضها المنتجون، وإن كانت بدائل عن بعضها البعض إلى حد بعيد. وبالتالي يمكن تصور وجود فروق في الأسعار بالنظر إلى هذا التمايز، ولكنها فروق لا يمكن أن تجاوز حدودًا معينة، وينبغي أن نلاحظ أن فكرة المنافسة بين المنتجين إنما تتحقق في العمل بشكل واضح في حالة المنافسة الاحتكارية Monopolsiec Competition ربما بأكثر مما تظهر في حالة المنافسة الكاملة. ففي هذه الحالة الأخيرة هناك تجانس كامل بين السلع وتعدد كبير من المنتجين، وبالتالي فإن أي مشروع لا يكاد يعبأ بمنافسة الآخرين فهو يعرف أنه لا يستطيع أن يدعي تمايزًا أو اختلافًا عن الآخرين، لذلك فإنه يركز جهوده على تخفيض تكلفة الإنتاج لزيادة أرباحه. أما في حالة المنافسة الاحتكارية فكل مشروع يدعي أن سلعته أفضل من السلع المنافسة وهو لذلك ينفق الكثير في سبيل إبراز مزاياه على الآخرين. ومن هنا نجد أن مصاريف الدعاية والإعلان تزداد في الحالات التي يتعدد فيها البائعون وكل منهم يدعي أن سلعته أفضل من منافسه، فالمنافسة الحقيقية إنما تظهر بشكلها المعروف في حالة المنافسة الاحتكارية وهي تختفي في حالة الاحتكار وتكاد تختفي في حالة المنافسة الكاملة على ما رأينا.

وإذا كانت المنافسة الحقيقية تزداد في حالة المنافسة الاحتكارية التي تتميز بكثرة المشروعات مع عدم التجانس الكامل في المنتج فإن حالات تنافس القلة تثير احتمالاً آخر غير التنافس Competition بين المشروعات وهو التعاون Co-Operation فيما بينها أو الاتفاق، وسواء أكان هذا التعاون أو الاتفاق صريحًا أو ضمنيًا، الأمر الذي يثير قضايا الاتفاقات الاحتكارية أو ما يطلق عليه اسم الكارتل Cartel. فمع كثرة المشروعات في حالة المنافسة الاحتكارية فإن هذه الكثرة تجعل فعل كل مشروع قليل التأثير على المشروعات الأخرى فضلاً عن صعوبة الاتفاق بين عدد كبير من المشروعات.

أما إذا كان عدد المشروعات العاملة في الصناعة قليلاً كما هو الحال في تنافس القلة Oligopoly حيث يكون تأثير كل مشروع محسوسًا على المشروعات الأخرى العاملة في نفس الصناعة وسواء كان المنتج متجانسًا بشكل كامل أم لا. فأهم ما يميز سلوك المشروعات في تنافس القلة هو أهمية ردود أفعال المشروعات الأخرى المنافسة. ففي حالة الاحتكار يقف المحتكر وحده في السوق، لذلك فإنه لا يعبأ إلا باستراتيجيته الخاصة في التوفيق بين حجم المبيعات وأسعار السوق التي توفر له أكبر أرباح ممكنة، وليس الأمر كذلك في حالة منافسة القلة حيث تستطيع المشروعات المنافسة أن تفسد استراتيجية المنتج إذا أخذت بسياسة مخالفة. فقد يعتقد مشروع أن أفضل استراتيجية له هي تقييد حجم المعروض من السلعة لرفع الأسعار، وتحقيق مزيد من الأرباح في حين يرى مشروع آخر منافس له أن أفضل استراتيجية هي على العكس زيادة حصته من السوق، لذا تنخفض الأسعار، وهكذا تتحدد سياسات المشروعات في ظل تنافس القلة في ضوء ما يعتقده كل مشروع عن ردود أفعال المشروعات الأخرى.

وإذا لم تكن هذه المشروعات متساوية من حيث الحجم بأن كان مشروع أكبر حجمًا فالعادة أن يصبح هذا المشروع قائدًا يحدد السياسات الواجبة وما على المشروعات الأخرى سوى الرضوخ ومتابعته في سياسته وإلا تعرضت لحروب المنافسة مع هذا المنافس القوي، لذلك كثيرًا ما كانت علاقات تنافس القلة هي علاقات قائد وتابعين، أما إذا كانت المشروعات من أحجام متماثلة أو متقاربة فالغالب أنها تصل مباشرة أو بعد فترة من الصراع إلى نوع من التعايش والتفاهم الصريح أو الضمني على تحديد الأسعار وتوزيع الأسواق، وتمثل هذه الاتفاقيات الاحتكارية أهم أمثلة لتدخل التشريعات ضد فكرة الاحتكار.



يمثل «الاحتكار» الصورة المقابلة للمنافسة الكاملة وحيث لا يوجد إلا منتج واحد في الصناعة وهنا يختلط المشروع بالصناعة. فالصناعة في هذه الحالة هي المشروع والمشروع هو الصناعة. ومعنى ذلك أن المحتكر يسيطر وحده على إنتاج السلعة وهو بذلك لا يخضع لأية تأثيرات أخرى أو منافسة من منتجين آخرين

مقتضيات التقدم التكنولوجي وتركز الإنتاج:

يرى كثير من الاقتصاديين أن نماذج المنافسة الكاملة كما تبرزها كتب مبادىء الاقتصاد إنما تمثل مرحلة الرأسمالية الناشئة في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، وحيث كان عصب الإنتاج هو المشروعات الصغيرة والمتوسطة وحيث كانت التكنولوجيا السائدة متاحة إلى حد بعيد، فضلاً عن أنها كانت بطبيعتها قابلة للاستخدام في هذه المشروعات الصغيرة والمتوسطة، أما الاقتصاديات الحديثة فإنها تواجه ظروفًا تكنولوجية مختلفة تمامًا وتحتاج بالضرورة إلى المشروعات الكبرى وبالتالي تركز المشروعات الإنتاجية حتى يمكن الإفادة الكاملة من مزايا هذه التكنولوجيات الحديثة. فهناك أولاً مزايا الإنتاج الكبير، أي التكنولوجيات التي تتطلب لاستنفاد مزاياها حدًا أدنى من الحجم، فهي لا تصلح للانقسام والتجزئة، وبالتالي تحابي تركز الإنتاج والمشروعات الكبرى. وهناك ثانيًا علاقة المشروعات بإنتاج التكنولوجيا، فالمشروعات ليست فقط مستخدمة للتكنولوجيا، وإنما هي في معظم الأحيان منتجة لها، وبالتالي فإن التقدم التكنولوجي أصبح رهنًا بتوافر المشروعات الكبرى.

ونتناول هذين الأمرين على التوالي..

ونبدأ بمزايا الإنتاج الكبير. يحتاج الإنتاج كما هو معروف إلى تضافر عناصر مختلفة للإنتاج من عمل، ورأس مال، وإدارة، ويقوم الإنتاج باستخدام وسائل إنتاجية مختلفة هي ما يعرف بالتكنولوجيا المتاحة. وهناك من عناصر الإنتاج ما لا يقبل الانقسام والتجزئة إلى ما لا نهاية، فهناك ـ عادة ـ حد أدنى لا يمكن دونه القيام بالإنتاج، وهو ما يحدد الحد الأدنى للإنتاج. وفي كثير من الأحيان تزداد الكفاءة مع زيادة حجم الإنتاج، الأمر المعروف بمزايا الإنتاج الكبير. ومع غلبة الإنتاج الرأسمالي وتقدم الصناعة، أصبح استخدام رأس المال ضروريًا، وقد أبرزت التجربة أن الاستخدام المتزايد لرأس المال تترتب عليه زيادة أكبر في الإنتاج. فالإنتاج الصناعي الحديث ـ هو إلى حد كبير ـ إنتاج رأسمالي، يعتمد بشكل متزايد على مدى كثافة رأس المال ـ من آلات وأجهزة، الأمر الذي لا يتحقق إلا مع زيادة حجم المشروعات.

ولا يقتصر الأمر على الجوانب الرأسمالية للمشروع، بل إن الإدارة أصبحت تتطلب هي الأخرى حجمًا متزايدًا حتى يمكن الإفادة الكاملة من أساليب الإدارة الحديثة سواء في النواحي الفنية، أو التسويقية، أو التمويلية.

ومن هنا فإن المشروع الكبير يحقق عادة مزايا إنتاجية لا تتوافر للمشروع الصغير أو المتوسط. وهناك صناعات لا تقوى على المنافسة والإنتاج بتكلفة مقبولة ما لم يصل الإنتاج فيها إلى حد معين، تعتبر دونه غير اقتصادية، وبالتالي فإن كفاءة الإنتاج تعتمد في كثير من الأحيان على حجم المشروعات، وما لم يتوافر الحد الأدنى اللازم

لهذه المشروعات فإنها لا تتمكن من البقاء والمنافسة. لذلك قيل بأن اتساع السوق، وبالتالي إمكان قيام المشروعات الكبيرة هو أحد أهم مقومات الصناعة الحديثة.

وعادة ما يتطلب ذلك أجهزة إدارية متقدمة في مسائل إدارة الإنتاج وتطويره، وفي بحوث الأسواق ومتابعتها وتنميتها، وفي توفير أشكال التمويل اللازم وحماية الاستقرار المالي للمشروع. وهي أمور لا يمكن أن تتوافر للمشروعات الصغيرة أو المتوسطة. لذلك لم يكن غريبًا أن كان النمو الصناعي في معظم الدول المتقدمة مرادفًا لظهور عدد محدود من المشروعات العملاقة التي كثيرًا ما لا تكتفي بالسوق المحلية فتفتح آفاقها للأسواق العالمية. وهذه هي ظاهرة الشركات متعددة أو متعدية الجنسيات التي تستقطب أحدث التكنولوجيات في الإنتاج وتستخدم أفضل أساليب الإدارة والتسويق والتمويل حتى تتمكن من المنافسة والتوسع المستمر. ومن الطبيعي أن تمارس مثل هذه المشروعات شكلاً من أشكال الاحتكار أو بالأحرى المنافسة الاحتكارية. فطبيعة الإنتاج في مثل هذه الفروع تتطلب أحجامًا كبيرة ولا تتفق مع منطق التعدد والانتشار بين أعداد كبيرة من المشروعات في شكل من أشكال المنافسة.

ويصل الأمر أحيانًا إلى أن يصبح الاحتكار هو الوسيلة الوحيدة، أو الوسيلة الأكثر كفاءة لتوفير الإنتاج، الأمر الذي يعرف أحيانًا باسم الاحتكار الطبيعي Natural Monopoly. ويطلق اصطلاح الاحتكار الطبيعي عادة على تلك المشروعات التي تنخفض فيها تكلفة الإنتاج مع زيادة التوسع في حجم الإنتاج. فالمألوف عادة هو أن لكل مشروع حجمًا أمثل Optimume Size تبدأ بعده تكاليف الإنتاج في الزيادة، ومن ثم فليس من مصلحة المشروع التوسع فيما جاوز هذا الحجم الأمثل. ومع ذلك فهناك حالات يكاد يكون الوضع الطبيعي هو أن تستمر تكاليف الإنتاج في الانخفاض كلما زاد حجم الإنتاج. وفي مثل هذه الأحوال فإن أفضل النتائج تتحقق إذا قام بالإنتاج مشروع واحد قادر على استيفاء كافة مزايا الإنتاج وتخفيض تكاليف الإنتاج مع التوسع المستمر في حجم المشروع. وهذه هي الأحوال التي يكون فيها احتكار إنتاج السلعة أو الخدمة هو الوسيلة الأكثر كفاءة لتخفيض تكاليف الإنتاج. وهذا الأمر له تطبيقات كثيرة خاصة في ميادين المرافق العامة مثل الكهرباء والتليفونات وتوزيع المياه. فهذه مشروعات تتطلب أحجامًا كبيرة بطبيعتها وتنخفض تكاليف الإنتاج مع زيادة الحجم. لذلك فإنها تتجه عادة لتأخذ شكلاً من أشكال الاحتكار.

ونظرًا لأن مثل هذه الحالات تفرض تعارضًا بين مقتضيات الكفاءة الإنتاجية وما تتطلبه من مراكز احتكارية من ناحية، وبين مقتضيات حماية الأفراد والمستهلكين من استغلال المحتكر من ناحية أخرى، فإن الدول تلجأ عادة إلى تنظيم الإنتاج في هذه الأحوال لظروف الاحتكار الطبيعي. فهي تسمح بوجود هذه الأشكال الاحتكارية لكنها تضع رقابة كافية على التسعير ونوع الخدمات وأشكال التطور بما لا يلحق الضرر بالأفراد والمستهلكين. فإذا كانت الدولة لا توفر هذه الخدمات عن الطريق العام، فإنها تضع ضوابط لضمان عدم استغلال القطاع الخاص لمثل هذه الأوضاع الاحتكارية، وقد يأخذ ذلك شكل منح الالتزام لشركة أو شركات لفترات محدودة، مع وضع الضوابط اللازمة للتوفيق بين مصالح الشركة وبين حماية حقوق المستهلكين.

وهناك أحيانًا ظروف طبيعية تفرض

الاحتكار



مصاريف الدعاية والإعلان تزداد في الحالات التي يتعدد فيها البائعون وكل منهم يدعي أن سلعته أفضل من منافسه. فالمنافسة الحقيقية إنما تظهر بشكلها المعروف في حالة المنافسة الاحتكارية وهي تختفي في حالة الاحتكار وتكاد تختفي في حالة المنافسة الكاملة

نوعًا من الاحتكار الطبيعي، كأن يستخدم المشروع مزايا خاصة تتوافر في موقع معين بعينه، كقناة السويس مثلاً، وهي ممر مائي لا يمكن أن يكون محل منافسة. فهو يتمتع بمزايا لا يمكن تكرارها، وبالتالي يمثل بالضرورة نوعًا من الاحتكار الطبيعي. وقل مثل ذلك بالنسبة للمناطق السياحية أو الأثرية التي تتميز بطابع خاص غير متكرر. فهذه الأحوال وغيرها تتمتع بنوع من «الريع» الذي لا يمكن تكراره، وبالتالي يصعب إخضاعها لقواعد المنافسة المتعارف عليها. وبذلك فإن التدخل لتنظيم استغلال مثل هذه الأوضاع لا يعتبر إخلالاً بمبدأ الحرية أو تدخلاً في قواعد المنافسة بل لعل العكس هو الصحيح، فتركها دون تنظيم يعتبر إخلالاً بفكرة المنافسة.

تحدثنا فيما تقدم عن المقتضيات التكنولوجية والتي تتطلب أحجامًا كبيرة للمشروعات تحقيقًا لكفاءة الإنتاج مع قد تترتب عليه أوضاع احتكارية، وفي هذا كنا نتحدث باعتبار المشروعات مستخدمة للتكنولوجيات المتاحة - ولكن الجديد هو أن المشروعات - خاصة الصناعية - ليست مجرد مستخدم للتكنولوجيا، بقدر ما أصبحت - خاصة في العصر الحديث - منتجة لهذه التكنولوجية. فالتطور التكنولوجي الحديث لم يعد أمرًا مستقلاً بقدر ما أصبح إنتاجًا تابعًا By Product للمشروعات الصناعية الكبرى. فهذه المشروعات لم تعد فقط مشروعات لتوفير السلع والخدمات بل أصبحت أيضًا مراكز للبحث والتطوير للتقدم التكنولوجي.

وقد جاءت الترتيبات الدولية الأخيرة، خاصة فيما يتعلق بحماية الملكية الفكرية، مؤكدة لهذا الاتجاه. فقد اكتشفت هذه الشركات أن بقاءها واستمرار نجاحها رهن بقدرتها على تطوير منتجات جديدة أو اكتشاف وسائل مختلفة لتخفيض تكاليف الإنتاج.

ومع الاعتراف بحقوق الملكية الفكرية وتزايد الحماية لها، فقد أصبحت هذه الاكتشافات - متمثلة في براءة الاختراع - مصدر أرباح هائلة لهذه الشركات. لذلك فإنها تتجه بشكل متزايد لتوجيه مواردها نحو ميادين البحث والتطوير. لذلك فإن القدرة على الاستمرار في المنافسة أصبحت مرتبطة بقدرة المشروعات على متابعة الاكتشافات الجديدة وتطويرها وتطويعها، الأمر الذي يتطلب موارد ضخمة لا تملكها سوى الشركات الكبرى، فصناعة الدواء والاتصالات والحواسب وغيرها تتقدم بقدر ما تستطيع أن تواكب التطورات التكنولوجية الحديثة وبقدر ما تستطيع أن تساهم فيها، وهو أمر غير متاح للمشروعات الصغيرة والمتوسطة.

وهكذا نجد أن العديد من الدول الصناعية المتقدمة لا ينظر إلى المشروعات الصناعية باعتبارها مجرد مشروعات خاصة بقدر ما تمثله من رأس مال قومي للمشاركة في التقدم التكنولوجي، وهو أمر لا تقتصر منافعه على الشركة وحدها بل يعود بالفائدة على دولتها. فالشركات الصناعية فيما تقوم به من استثمارات في البحث والتطوير تحقق - إلى جانب مصلحتها الذاتية - المصلحة القومية في دفع التطور والتقدم الاقتصادي. ومن ثم فإن النظر إلى المشروعات الكبيرة لم يعد فقط تعاملاً مع شركات احتكارية يمكن أن تهدد مصالح المستهلكين، وإنما تعتبر في نفس الوقت معملاً لتفريخ التطوير التكنولوجي والتقدم الفني.

الاحتكارات في عالم مفتوح

يتجه العالم حاليًا - في ظل ما يعرف باسم العولمة - إلى فتح الأبواب وتخفيض الحواجز بين الدول. فالحدود السياسية لم تعد مانعًا أمام انسياب السلع والأموال التي أصبحت تجد في العالم سوقًا واسعًا أمام تحركاتها. لذلك فإن مسائل المنافسة والاحتكار لم تعد دائمًا قضايا محلية، بل أصبح يلازمها - في معظم الأحوال - عناصر دولية وخارجية.

ويمكن القول بصفة عامة بأن فتح الأسواق أمام المنافسة الأجنبية وبعدد هذه المشروعات يقلل من إمكانيات احتكار الأسواق المحلية. فتعدد الإنتاج الأجنبي لا يساعد في ظل فتح الحدود إلى تمكن عدد محدود من المشروعات بالاستئثار بالسوق المحلية.

ومن الملاحظ أنه حتى في الدول التي تضع قيودًا وضوابط على الممارسات الاحتكارية، فإن ذلك يقتصر في الغالب على ممارستها الاحتكارية داخل الدولة الأم - أما ممارستها في العالم الخارجي فإنها لا تلقى - من الدولة الأم - أية ضغوط. بل كثيرًا ما تشجعها في توسعها الخارجي باعتباره مظهرًا من مظاهر القوة الاقتصادية.

كذلك فإنه من الملاحظ أن عددًا من الدول النامية قد بدأت هي الأخرى تشجع إنشاء شركات وطنية كبيرة - متعدية الجنسيات - لكي تساعدها في فتح الأسواق في الخارج، فهي تعتبرها أداة لكسب الأسواق الخارجية والمنافسة مع الشركات الأجنبية وليست مظهرًا من مظاهر الاحتكار. ويتوقف الأمر في النهاية على نوع نشاطها فمادام جوهر نشاطها هو فتح الأسواق الخارجية وليس استغلال المستهلك المحلي، فإن صفة الاحتكار لا تلحقها حيث إنها تقابل منافسة عالية من الشركات الأجنبية حتى ولو كان حجمها - بالمعايير المحلية - كبيرًا، فمثل هذه الشركات ينبغي أن ينظر إليه في إطار عالمي مادامت تعمل في السوق الدولية. وكثيرًا ما لجأت الشركات الكبيرة في الدول الصغيرة إلى استخدام السوق المحلية دعمًا لنشاطها في الخارج. فهذه الشركات في سبيل دعم مراكزها التنافسية في الأسواق الخارجية تلجأ إلى سياسات الإغراق Dumping والمقصود بذلك دعم أسعار صادراتها الخارجية بالبيع بسعر أو دون سعر التكلفة وتحميل الأسواق المحلية بفارق هذه الأسعار. وهي ممارسات معروفة في نظرية الاحتكار حيث يستطيع المحتكر أن يميز في أسعاره بين الأسواق، فيرفع الأسعار في أسواقه الاحتكارية ويخفضها في أسواق المنافسة. ورغم أن هذه الممارسات قد أصبحت غير مقبولة في ظل اتفاقية منظمة التجارة العالمية فلازالت الشركات تجد وسائل للتحايل حماية لأسواقها الخارجية. وكثيرًا ما تلجأ شركات الدول النامية الصناعية إلى مثل هذه الممارسات، وفي هذه الحالة فإن حكومات هذه الدول تجد نفسها إزاء مصالح عامة متعارضة هناك من ناحية استغلال السوق المحلية والمستهلك، الأمر الذي يتطلب التدخل لحمايتهما. وهناك من ناحية أخرى فتح الأسواق الخارجية واكتساب موضع قدم في هذه الأسواق في ظل المنافسة العالمية مما يتطلب التشجيع لما فيه من دعم للاقتصاد القومي وموازين المدفوعات.

وهكذا يتضح أن قضايا الاحتكار تتغير بطبيعتها

اعتبارات متعددة مما يقتضي حسن التقدير والملاءمة.

ويتضح مما تقدم أن سياسات فتح الأبواب والتحرير الاقتصادي أمام المشروعات والمنتجات الأجنبية يقلل من مخاطر الاحتكار المحلي بالنظر إلى شدة المنافسة بين المشروعات الأجنبية، ولكنه بنفس الدرجة يعرض الإنتاج المحلي لمنافسة خارجية قد تهدد إمكانيات نمو الصناعة الوطنية الوليدة.

وكذلك تتعارض الاعتبارات المترتبة على سياسات التحرير فهي تضعف إمكانيات تكوين الاحتكارات المحلية مما يعود بالفائدة على المستهلك، ولكنها قد تضعف أيضاً إمكانيات الصناعة المحلية للتركز مما قد يعود بالضرر على الإنتاج المحلي. وهنا أيضًا يتطلب الأمر ملاءمة بين هذه الاعتبارات وحسن التقدير في الترجيح بين هذه الاعتبارات

وإذا كانت اعتبارات الموازنة والترجيح بين مزايا وعيوب الاحتكار وحماية الصناعة الوطنية من المنافسة الخارجية تتطلب الكثير من الحصافة وحسن التقدير، فإنه لا يوجد على العكس أي مبرر لإعطاء شركات أجنبية أية ميزة على شركات أجنبية أخرى، الأمر الذي يتفق مع متطلبات منظمة التجارة العالمية التي تتطلب عدم التمييز في المعاملة بشكل عام. وإنما يجدر هنا التأكيد على أن التمييز في المعاملة بين الأجانب وإعطاء مزايا لدولة على حساب دولة أخرى يؤدي إلى الإضرار بالمصالح الوطنية. ويستثنى من ذلك بطبيعة الأحوال، ظروف بناء تكتلات اقتصادية إقليمية بغرض إنشاء سوق إقليمية واسعة، كما هو الحال بالنسبة للسوق العربية على سبيل المثال.



ملاحظات ختامية:

يتضح مما تقدم أن «الاحتكار» ظاهرة اقتصادية معقدة.. وبشكل عام فإن الاحتكار يمثل ظاهرة سلبية تؤدي إلى السيطرة الاقتصادية والاستغلال، يعاني منها المستهلك والاقتصاد القومي على السواء. فالاحتكار قد يؤدي إلى ارتفاع الأسعار والإقتصاد دون الاستخدام الكلي للطاقات الإنتاجية، ومع تحقيق أرباح غير عادية للمحتكر، فكثيرًا ما يؤدي الاحتكار إلى نقص الحوافز على التجديد والابتكار.

ومع ذلك فقد أشرنا إلى أن الإنتاج الحديث يعتمد على المشروعات الكبرى وبالتالي نوع من تركز الإنتاج، وبذلك تتداخل اعتبارات الاحتكار مع اعتبارات الإنتاج الكبير. والإنتاج الكبير كما هو إحدى نتائج التقدم التكنولوجي الحديث فهو أيضًا أحد محركات هذا التقدم التكنولوجي. لذلك فإنه عند التعامل مع الاحتكار لابد من مراعاة احتياجات التكنولوجيا في الإنتاج الكبير والقدرة على المنافسة. وبعبارة أخرى فإذا كان من الواجب محاربة الاحتكار كأحد أمراض الاقتصاد فلا ينبغي أن يؤدي ذلك إلى قتل المريض والقضاء على النشاط الاقتصادي بحرمانه من القدرة على الاستمرار والمنافسة.

لذلك فإن التعامل مع الاحتكار قد يتطلب في حالات المنع الكامل. وفي حالات أخرى فقد يكتفي بوضع القيود والضوابط. وقد تكون هذه الضوابط في شكل تحديد للأسعار أو الالتزام بالإنفاق على البحث والتطوير، أو بضرورة تخصيص نسبة من الأرباح لإعادة الاستثمار أو غير ذلك مما يعود بالفائدة على تطوير القدرة التنافسية.

وإذا كانت الاحتياجات التكنولوجية للقدرة على الاستمرار والمنافسة تتطلب معاملة مرنة، فإن أحوال «الاحتكار الطبيعي» وأوضاع «احتكارات الريع» تتطلب مزيدًا من الرقابة، حيث إن المحتكر يتمتع بمركز متميز لأسباب بعيدة عن الاحتياجات التكنولوجية. ومن هنا الحاجة إلى تحقيق أكبر قدر من المساواة بفتح الباب للمنافسين للتقدم للإفادة من هذه «الاحتكارات» الطبيعية، وتوقيت هذه الاستخدامات مع فرض قيود على التسعير.

كذلك ينبغي التذكر بأن رقابة وتنظيم نشاط الاحتكارات لا يتوقفان فقط على التعامل مع المشروعات العاملة بل يتطلبان أيضًا فتح الباب للمنافسة المحتملة Potential. فالمحتكر لا يخشى فقط المنافسة القائمة بل بدرجة أكبر المنافسة المحتملة من مشروعات جديدة، ومن هنا أهمية عدم وضع العقبات أمام دخول مشروعات جديدة إلى النشاط الاقتصادي. وقد سبق أن أشرنا إلى أن أحد أهم شروط المنافسة هي حرية الدخول. وكثيرًا ما تلجأ المشروعات الاحتكارية إلى تأكيد وضعها الاحتكاري بوضع القيود والعقبات أمام دخول مشروعات جديدة إلى مجالها الإنتاجي. وكثيرًا ما تنساق الأجهزة الحكومية إلى المعاونة في هذا الاتجاه. وقد تكون هذه العقبات قانونية مثل اشتراط الحصول على تراخيص وموافقات يصعب الحصول عليها. كما قد تكون هذه العقبات مالية باشتراط رؤوس أموال مبالغ فيها لدخول هذا النشاط، أو غير ذلك من العقبات التي تحول دون فتح الباب أمام الاستثمارات الجديدة في هذه الميادين.

وأخيرًا فإن أي تنظيم للاحتكار يتطلب عدم الإغراق في التفاصيل ومراعاة التوازن بين الاعتبارات المختلفة، وتظل أهم الوسائل هي إخضاع مثل هذه الأنشطة لدرجة أعلى من الشفافية في معاملاتها المالية. ■

حـــديث الحفـــريات الأثـــرية

فلســـطين لـــم تـكـــن وطنــــا لبنى إسرائيل

عفيــــف البهنــــسي

تبين بعـد أبحـاث طويلة خـلال القـرن العشـرين، أن التـوراة لم تتنـاول أحـداث التـاريخ القـديم إلا ضمـن الحـدود التي تخدم التاريخ اليهـودي أو الأسـاطير اليهودية، وأن هـذا التـاريخ المحـدود لا ينطبـق تمـاما مع المكتشفات من حيث الوقائع والأسـماء أو من حيث التاريخ وتسلسله

اجتمعت الوفود العربية مع وفد إسرائيل لأول مرة في مؤتمر السلام في مدريد، تنفيذا لقرارات الأمم المتحدة التي أوجبت حل قضية الاحتلال الاسرائيلي عن طريق السلم، والتي اعترفت بالحقوق الأصلية العربية في أستيرداد الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧.

وعلى الرغم من النوايا الطيبة التي دفعت العرب للمشاركة في مؤتمر السلام، وعلى الرغم من ضمانات الدولتين الراعيتين للمؤتمر، أمريكا وروسيا. فإن أول تصريح أعلنه زعماء إسرائيل، هو أن السلام ممكن، ولكن الأرض هي ملك إسرائيل تاريخياً.

إن قيام دولة إسرائيل على أساس وعد بلفور بعودة اليهود إلى فلسطين، وعلى أساس مؤتمر بال وصدور بروتوكولات حكماء صهيون، يجعل السلام - حتى ولو استرجعت الدول العربية أراضيها المحتلة - مجرد هدنة مؤقتة، فالشعار المرسوم على العملة الإسرائيلية والمتمثل بخارطة إسرائيل من النيل إلى الفرات، والمكتوب في الكنيست الإسرائيلي ضمن العبارة التوراتية التي يعدهم فيها ربهم (يَهْوَه) بهذه الأرض، لا تجعل مجالا للشك أن إسرائيل ستمضي بالمطالبة بهذا الحق الإلهي، طالما كان التاريخ التوراتي مصدّقاً.

وخلال الحفريات الأثرية المكثفة في فلسطين والأردن وسورية، بحثاً عن شواهد تؤكد ما ورد في التوراة، تبيّن للعلماء أن التوراة تاريخ ديني، وأن علم الآثار تاريخ موضوعي، وليس من علاقة بين أحداث التوراة الدينية وأحداث التاريخ الحقيقية التي تؤكدها وتكشف عنها حتى اليوم الحفريات الأثرية، تمّ ذلك بجهود علماء الآثار العالميين، ولم يستطع علماء الآثار الإسرائيليون ومنهم سياسيون، تقديم أي دليل يؤكد التاريخ التوراتي.

واعقب هذا الانتصار الأثري التاريخي، ظهور دراسات تبيّن أن تاريخ التوراة حدث خارج إسرائيل، وحجة هذا الرأي أن حركة التاريخ التوراتي لا تنسجم مع جغرافية المنطقة من العراق إلى الشام وحتى مصر.

ولكن وقبل إعلان انتصار علم الآثار على يد الأثاريين العلمانيين، كان الغرب أكثر يقينا بحق اليهود بالأرض الموعودة من اليهود أنفسهم، فمنذ عهد لوثر، أصبحت التوراة الخلفية الفكرية والتاريخية للعهد الجديد أي الإنجيل، كذلك كان المسلمون يعتمدون على أحداث التوراة في تفسير التاريخ القديم. ولكن تدخل علماء الآثار في أمريكا وأوربا واستراليا في البحث الأثري، وعدم مصداقية الأحداث التوراتية أمام المكتشفات الأثرية، خفف وسيخفف كثيرا من دور التوراة في تثبيت الحق الإلهي المزعوم، ويجعل السياسة الاستيطانية الاستعمارية وحيدة في ميدان الصراع العربي - الإسرائيلي، وتصبح الأساس في تفسير قيام دولة مؤلفة من شعب غريب محتل بقوة المدفع، على أرض تخص العرب منذ بداية وجودها.

في هذا البحث عرضنا مبررات القول، إن إسرائيل أصبحت خارج التاريخ والجغرافيا، نتيجة البحث والتنقيب الأثري، وعرضنا فشل المحاولات السياسية لدعم وجود إسرائيل بالوعد الديني والحق المزعوم، وكشفنا عن إمكان استرجاع العرب حقوقهم إذا هم استطاعوا الاعتماد على انتصار علم الآثار (الاركيولوجيا).

التـــوراة والتــــاريــخ

التوراة أو العهد القديم كتاب مقدس اعتبر مصدراً التاريخ إلا أنه في حقيقته تاريخ بني إسرائيل. بل تاريخ فلسطين وبعض المناطق التي كانت على علاقة بفلسطين أو باليهود الذين أقاموا في أجزاء من فلسطين أو في أماكن هُجِّروا إليها في أرض المنفى.

والتوراة في حقيقتها كتاب خطه الأحبار خلال الفترة بين ٥٨١ - ٥٣٩ق.م وتابع كتابته اللاحقون لهم. ففي أرض المنفى قرب بابل قام مجموعة من الأحبار بكتابة فصول التوراة الأولى باللغة الآرامية وبقلم مربع آرامي. وقد استفادوا من العقائد والآداب السائدة في بلاد الرافدين، فانتشلوا منها عقيدتهم في الخلق. كما انتحلوا نسباً لإبراهيم الخليل باعتباره النبي الأول الذي طور مفاهيم العقائد الرافدية القديمة ونادى بها، مؤمنا بالرب إل، رب السماوات والأرض الذي كان معبودا من بعض الأقوام القديمة. والأسفار الأولى التي كتبت في التوراة كانت متأخرة ١٣٠٠ عام عن إبراهيم و٧٠٠ عام عن موسى، فهي بهذا غريبة عن مفهوم التوحيد الإبراهيمي وغريبة عن وصايا موسى الأصلية، كما يؤكد الآثاريون. ويتألف العهد القديم من ثلاثة أقسام: البنتاتيك - النبييم - والكتوبيم. القسم الأول وهو الأكثر أهمية مؤلف من خمسة أسفار (التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية).

ويتحدث سفر التكوين عن قصة خلق الوجود والإنسان. وقد استوحى ميكل أنجلو هذه القصة في رسم سقف كنيسة السكستين. أما سفر الخروج فيتحدث عن قصة موسى وخروجه من مصر مع بعض المصريين الذين أطلق عليهم اسم بني إسرائيل. ويتضمن هذا السفر الوصايا العشر التي نزلت على موسى.

ويختص سفر اللاويين بعرض طقوس الكهنة. أما السفران الأخيران فقد عرضا قصة الاستيلاء على فلسطين (بلاد كنعان) وتوزيع أراضيها على جماعة يشوع. وقد نسب هذا القسم بأسفاره الخمسة إلى موسى، وهذا أمر يتناقض مع ما ورد فيه من حديث عن موت موسى ومقارنته مع الأنبياء والتابعين له. وهذا يؤكد أن التوراة كتبت بعد عهد موسى بوقت طويل، وأن الوصايا العشر أدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر، وهي مختلفة عما جاء به موسى.

القسم الثاني خاص بالحديث عن الأنبياء في ١٤ سفراً منها سفر أشعيا وإرميا وحزقيال وعاموس وغيرهم.

أما القسم الثالث فيحوي في ١٢ سفرا الكتابات والأشعار، مثل مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الإنشاد ومراثي أرميا وغيرها.

ولقد أبانت المكتشفات الأثرية أن سفر التكوين شديد الشبه بالأفكار البابلية القديمة التي وردت في أساطير اينوما إيليش عن نشأة الكون. وبهذا تتضمن التوراة عرضاً تاريخياً للعقائد الدينية التي كانت سارية قبلها.

بيد أن مفهوم الرب في التوراة لا يوضح المعنى الوجداني فيه ولا يؤكد عالمية السلطة الإلهية، بل إن (يهوه) هو رب بني إسرائيل فقط. ولم تعترف التوراة بالإله (إل) رب العالمين الذي كان معبود سكان المنطقة من الرافدين إلى سيناء، بل كفّر داود إذ عبده ذات يوم.

لقد جرى اعتبار التوراة مصدرا للتاريخ القديم، واعتبرت هذه المنطقة مقدسة لأنها كانت مسرح أحداث التوراة، وتهافت الآثاريون للبحث عن التاريخ القديم من خلال التوراة، أو لتأكيد التوراة من خلال البحث الأثري. ولكن تهافتهم لم يحقق هدفاً، فقد تبين بعد أبحاث طويلة خلال القرن العشرين، أن التوراة لم تتناول أحداث التاريخ القديم إلا ضمن الحدود

صورة على لوح معدني، تمثل القدس عام ١٨٧٢، محفوظة في متحف التاريخ في القدس



فلسطين لم تكن وطناً لبني إسرائيل

إن عدداً من الارسـاليين ماز الوا يتابعون مهماتهم ضمن نطاق المعاهد والبعثات التوراتية المعروفة لدينا، ومازالت أبحاثهم التي تنشر في مجلات توراتية خاصة صريحة في أهدافها الإرسالية التي كثيرا ما تتعارض مع الواقع التاريخي المكتشف

حفريات بأريحا:



التي تخدم التاريخ اليهودي أو الأساطير اليهودية، وأن هذا التاريخ المحدود لا ينطبق تماما مع المكتشفات من حيث الوقائع والأسماء أو من حيث التاريخ وتسلسله.

كتب اليهود التوراة خلال فترة طويلة لكي يثبتوا فيها مطامعهم ومقاصدهم العنصرية. ولم يكن ذلك خافياً، فلقد كشفت حقائقهم أقلام المحققين كما تصدت لهم المسيحية وندد بهم القرآن الكريم:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(البقرة ٧٩).

واستطاع اليهود أن يضفوا على تاريخهم التوراتي قدسية، مصير من لا يصدقها العقاب في الدنيا والآخرة.

وكان هم مدوني التوراة أن يجعلوا أحداث التوراة هي أحداث الإنسان في بداية التاريخ. وجعلوا من إبراهيم الخليل (أبو الأمم) بداية الوجود المتحضر، وربطوا وجودهم بهذا التاريخ مركزين على علاقة أصحاب الدين الجديد (اليهودية) بإبراهيم الخليل نسبا وعقيدة. ولأن آل إبراهيم أطلق عليهم اسم بني إسرائيل، فإن اليهود يسردون تاريخهم من خلال ربط المهاجرين إلى مصر مع يوسف، بالقادمين مع موسى بعد خمسة قرون. ويستمرون في سرد هذا التاريخ حتى العهود الرومانية وأحداثها، ولكن السرد لم يكن موضوعياً ولم يكن متسلسلا، ولقد اختلطت فيه القصص الشخصية العارضة بالأحداث التاريخية.

لقد كانت التوراة مصدراً تاريخياً وحيداً عن العهد القديم عندما كانت المكتشفات الأثرية معدومة. وكان الاعتقاد أن ما ورد في التوراة من أزمنة وأمكنة إنما يعود إلى فجر التاريخ الذي كان محصورا في هذه المنطقة من الرافدين إلى النيل، المنطقة التي كانت تشكل رقعة العهد القديم. ومع أن هذه الرقعة اشتملت على أقدم الحضارات وكانت مسرحاً لأحداث تاريخية لا حصر لها. فإن التوراة لم تتناول هذه الحضارات وهذه الأحداث بل ركزت على أحداث شخصية ضيقة أو عارضة لا قيمة تاريخية لها.

وقد قدمت المكتشفات الأثرية أعداداً ضخمة من الرقم المسمارية والأختام والشواهد التي عرفتنا بتاريخ طويل وحضارات متعددة ظهرت في بلاد الرافدين ومصر وسورية. ولأن معرفتنا هذه ترتكز على شواهد ووثائق أصلية، فإنها معرفة علمية لا مجال للطعن بها، على عكس أخبار التوراة فهي سردية متأخرة عن تاريخها اختلط فيها الوهم والغرض، فلم يعد بالإمكان اعتبارها علمية موثقة.

كان عالم الآثار أحد رجلين، إما عالم يبحث عن الحقيقة التاريخية من خلال البحث والكشف، أو إرسالي يحاول تأويل المكتشفات لمطابقتها مع التوراة ولابد من القول، إن عدداً من الإرساليين مازالوا يتابعون مهماتهم ضمن نطاق المعاهد والبعثات التوراتية المعروفة لدينا، ومازالت أبحاثهم التي تنشر في مجلات توراتية خاصة صريحة في أهدافها الإرسالية التي كثيرا ما تتعارض مع الواقع التاريخي المكتشف. ولكن لابد من القول أيضاً إن الكشوف الأثرية على دقتها وصحتها ليست كاملة وليست نهائية، فما زلنا ننتظر المزيد من الكشوف التي تلقي ضوءاً جديداً على الماضي البعيد، ورغم هذا فإن حجم المعرفة التوراتية لم يصل بعد إلى أوليات المعرفة التاريخية العلمية الراهنة.

لقد عاصر مدونو التوراة فترة محددة من التاريخ تعود إلى عهد السبي، فكتبوا عن الأحداث والوقائع القريبة منهم والتي تعود إلى العهد الأشوري والتاريخ الكلداني. ثم نلاحظ انقطاعا في تتابع الأحداث، لكي نقرأ شيئاً من تاريخ اليونان في الشرق في إصحاحي المكابيين كليا في فترة المكابيين ١٦٧/٣٧ ق.م باللغة اليونانية أصلا. ولكن المؤرخين لا يستطيعون الاعتماد كليا على ما ورد في هذا التاريخ، فكثير من الأحداث الواردة فيه لا تطابق الواقع المكتشف.

أما الأحداث الأخرى فهي روائية مستمدة من مصادر مختلفة، وقد حملت طابعاً أسطوريا عندما كانت أصولها تعود إلى أساطير قديمة، أو طابعا قدسيا عندما كانت تتحدث عن أشخاص ترفعهم أفعالهم وحتى أخطاؤهم إلى مرتبة النبوة، فهم محميون للشعب الإسرائيلي المقدس.

وإذا تجاوزنا القسم الأول البنتاتيك إلى القسمين الآخرين النبييم والكتوبييم، فإننا نقرأ أخبارا لا أهمية تاريخية لها، بل هي عرض لأخبار شخصيات يهودية، أو هي كتابات شاعرية تحوي كثيرا من الصور الفاضحة.

البحث عن أرض بني إسرائيل:

تبدأ قصة بني إسرائيل بظهور إبراهيم عليه السلام الذي ولد في أور في أرض شنعار ولم تكن أور كلدانية كما ذكرت التوراة لأن الكلدان ظهروا بعد ألف عام من ظهور إبراهيم، تقول التوراة: «خرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران واجتاز إبرام إلى مكان شكيم (نابلس) وظهر الرب وقال لإبرام لنسلك أعطي هذه الأرض» تك ح ١٢.

وهكذا فإن إبراهيم الخليل عاش شبابه في حران (منطقة فدان آرام) وكان آرامي النشأة واللسان ثم جاء إلى نابلس وهناك وعده الرب بهذه الأرض!!.

وتتابع التوراة الحديث عن قصة إبراهيم فتعرض قصة هذه الأسرة من خلال أخطاء ارتكبوها، وهي أخطاء جسيمة لأنها تمس الكرامة والشرف، وكثيرا ما حاسب العرق اليهودي بقسوة مرتكبيها. ومع ذلك فإنها تعرض هنا وكأنها كرامات وأفعال خارقة ميزت أصحابها عن غيرهم من الناس العاديين.

تقول التوراة: «وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها».

«وانتقل إبراهيم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور. وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة ... وفي الغد قال أبيمالك لإبراهيم: (ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة؟)».

«وافتقد الرب سارة وفعل الرب لسارة كما تكلم، فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنا في شيخوخته، ودعا إبراهيم ابنه المولود له الذي ولدته سارة إسحق. وكان إبراهيم ابن مئة سنة».

«وشاخ إبراهيم وبارك الرب إبراهيم في كل شيء» «وقال إبراهيم لعبده أستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحق».

ومضى العبد إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور، وهناك خطب رفقة الآرامية بنت بتوئيل وجاء بها إلى إسحق فتزوجها وأنجبت له عيسو ويعقوب وكانت أمهما تفضل يعقوب على عكس والدهما الذي كان يفضل عيسو.

ولما شاخ إسحق وكل بصره قال لعيسو:

«اذهب إلى الصيد واصنع لي أطعمة حتى تباركك نفسي قبل أن أموت».

فسمعت رفقة ما قاله زوجها فهرعت إلى ولدها المفضل يعقوب ودفعته أن يسبق أخاه إلى البركة، فدخل إلى أبيه مع صيده وطعامه وادعى أنه عيسو، فقبّله الأب وباركه وقال: «فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمرة. ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. لتكن سيدًا لإخوتك». وعندما عاد عيسو اكتشف الخديعة ولكنه لم يستطع أن يصلح الأمر، فحقد على أخيه وقرر قتله، فدفعته أمه أن يمضي مؤقتًا إلى حران حيث يقيم أخوها لابان وأمره والده أن يتزوج من ابنة لابان. فتزوج يعقوب راحيل ابنة لابان الآرامي الصغرى.

أما راحيل فقد ولدت متأخرة يوسف الذي جابه إخوة كثيرين يكنون له العداء ورموا به في الجب وادعوا أن ذئبا أكله، ثم جاء قوم من مدين فأنقذوه وأخذوه إلى مصر فباعوه إلى رئيس شرطة فرعون. ورحل يعقوب وأولاده الاثني عشر إلى حران، بأمر من الرب أن جاء د في أرض كنعان، وفي مكان سمي بيت إل، وظهر الله ليعقوب في بيت إيل وقال له: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل (أي عبد الإله إل).

وذهب يعقوب وأولاده ونساؤهم إلى مصر. وتتحدث التوراة عن عدد هؤلاء وعن حرارة اللقاء مع يوسف الذي استقبلهم وأعطاهم ملكا في مصر أرض رعمسيس كما أمر فرعون. وهنا يتضح أن أرض بني إسرائيل ليست هي بلاد كنعان، بل إنهم استمروا غرباء، فهي أرض غربة أما أرضهم الأصلية فهي فدان آرام - حران ومنها اختاروا زوجات لهم.

بل إن أبناء إسرائيل أو (يعقوب) الاثني عشر إنما ولدوا خارج الأرض المقدسة فلسطين، وهم بنو إسرائيل المعنيون في التوراة، فلقد عاش يعقوب في حران عشرين عاما وفيها ولدت ذريته، كما أن ولدي يوسف إنما ولدا في مصر من أم مصرية.

فهل تعتبر أرض كنعان أرض بني إسرائيل من نسل إبراهيم وكيف أصبحت أرضاً لقوم موسى؟ يحاول مدونو التوراة ربط قوم موسى ببني إسرائيل لتحقيق الوعد الإلهي بملكية الأرض. على الرغم من المفارقات التالية:

- إن رحيل موسى وقومه إلى بلاد كنعان كان خروجا ولم يكن عودة ثم أصبح غزوة مصرية كباقي الغزوات.

- إن يوسف المتمتع لأهله أرض رعمسيس علما أن الرعامسة ظهروا بعد خمسة قرون من تاريخ يوسف.

إن قوم موسى كانوا أعداء الساميين الأصليين وهم الكنعانيون.

ولقد رددت التوراة أكثر من مرة خروج الكنعانيين عن الساميين وألحقهم بالحاميين بينما ألحق بالساميين قوماً غرباء كانوا حلفاء قوم موسى فيما بعد. ومن هنا يتضح أن قوم موسى لم يكونوا من بني إسرائيل. وإن قصة بني إسرائيل - أي آل إبراهيم - كما وردت في التوراة لا تكرم أصحابها.

وإذا اتخذنا التوراة مصدرا أساسياً لتاريخ إبراهيم الخليل، فإننا نراه يقول (تك ١٤) «فقال لإبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم، فيذلونهم أربعمئة سنة، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة. وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام، وتدفن بشيبة صالحة».

إن اعتبار التوراة النبي إبراهيم ونسله غرباء عن فلسطين، ثم إن فشل تأكيد التاريخ التوراتي في فلسطين ذاتها، دفع إلى التساؤل عن أرض التوراة. ويرى كمال صليبي أن أرض التوراة لم تكن في فلسطين وحجته أن الحشمونيين وقد دانوا باليهودية، اعتبروا أنفسهم ورثة بني إسرائيل (كما هو شأن اليهود اليوم) وأقاموا دولة يهودية (١٤٢ق.م - ٦٣ م)، وعملوا على تثبيت الأسماء الجغرافية التوراتية على أرض فلسطين. ثم جاء يوسفوس المؤرخ اليهودي لكي يتحدث في عام ٧٠م عن تاريخ اليهود من خلال الواقع الجغرافي الذي صوره الحشمونيون، وسار المؤرخون بعده على طريقته، وكان المؤرخ ابن إسحاق أول من نقل عن التوراة. ويأخذ ابن النديم عنه، كما أخذ عنه الطبري وابن الأثير.

إن كتاب (التوراة جاءت من جزيرة العرب) - لكمال صليبي شكك بالجغرافيا التوراتية في فلسطين. ويرى أن تلك الممالك لم تكن أكثر من قرى أو مضارب للبدو، وأن الملوك ما كانوا أكثر من رؤساء عشائر في منطقة محدودة هي عسير حسب اعتقاد المؤلف. ذلك أن هذه الأسماء لم تجد لها محلاً على امتداد الأرض من الفرات إلى النيل.

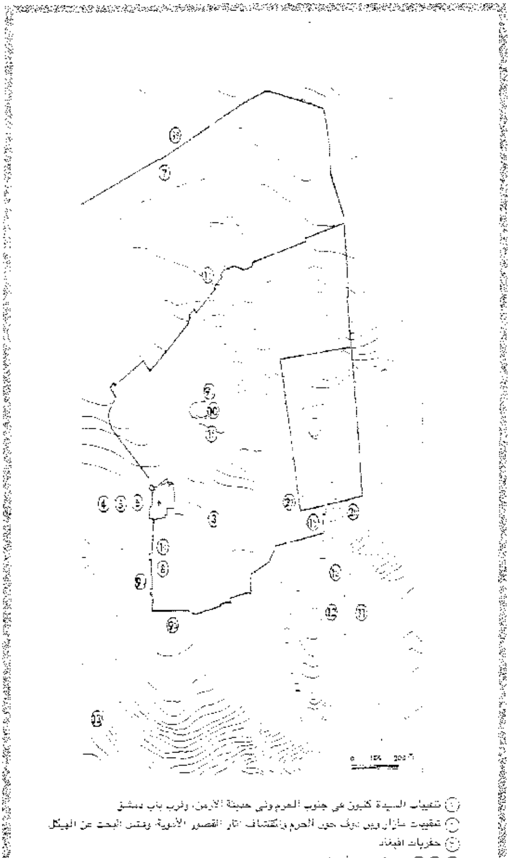
بين التوحيدية وعبادة يهوه

يؤكد فرويد في كتابه (موسى والتوحيد) المعتمد على كتاب يوسفوس، أن النبي موسى كان في بدايته قائداً مصريا، وكان من أتباع أخناتون فرعون مصر الذي تبنى الديانة التوحيدية، وهي ديانة تؤمن بإله واحد (آتون) يقع فيما وراء الشمس، فهو خالق الشمس (آمون) وخالق الكون كله وهو رب العالمين وليس إله مصر وحدها، ثم هو إله موجود في كل مكان وزمان، وليس له صورة فهو لا يرى ولا يمس. وتقوم العبادة الأخناتونية على السلم والإخاء الإنساني. وعلى رسالة إنسانية تبنى نشرها الملك أمنحوتب الرابع الذي أطلق على نفسه اسم (آخن آتون) أي عبد الله، فنفى عن نفسه الألوهية التي كان يتمتع بها الملوك الفراعنة، وضحى بجميع ميزاته لكي يؤدي رسالة التوحيد، فكان بذلك أشبه بالنبي، فلقد ألغى الآلهة السابقة مثل آمون وأيزيس وحتحور... لكي ينادي بإله واحد.

وبعد أن مات أخناتون، خلفه توت عنخ آمون الذي حارب الكهنة من أتباع آمون، فنقض العقيدة التوحيدية، وأعاد البلاد إلى العقيدة الآمونية ونقل العاصمة من تل العمارنة إلى طيبة.

وامتدت موجة الاضطهاد ضد المؤمنين بالتوحيد الأخناتوني، وكان موسى منهم، فهاجر إلى سيناء جامعاً بعض المضطهدين الذين آمنوا بالتوحيد، ولكنهم وقد أنهكهم التيه في سيناء عادوا إلى عبادتهم السابقة وخذلوا موسى وقتلوه وتولى يشوع بعد ذلك قيادتهم للتغلغل والتسرب إلى فلسطين.

لم يكن لهذا الشعب الغريب أي حضور ثقافي أو سياسي أو ديني، فلقد اندمجوا بالشعب الكنعاني وتكلموا لغته وانصاعوا لقياداته. ولم تنتشر العقيدة اليهودية التوراتية إلا من خلال التوراة التي بدئ بكتابتها أثناء وبعد النفي ٥٣٩ق.م. وليس من علاقة بين قوم موسى ويشوع الذين دخلوا فلسطين عام ١٣٥٠ق.م تقريباً، وبين المنفيين إلى بابل عام ٥٨٦ق.م. فرغم القرون الثمانية الممتدة بينهما، فإن كتبة التوراة أرادوا الربط بينهم وبين النبي موسى، الذي نسبوه إلى آل إبراهيم (أبو الأمم) وقصدهم أن يجعلوا دينهم قديما عريقًا.



تنقيبات السيدة كنيون في جنوب الحرم وفي حديقة الأرمن وقرب باب دمشق
تنقيبات مازار وبن دوف حول الحرم واكتشاف آثار القصور الأموية وفتش البحث عن الهيكل
حفريات افيغاد
(٤)(٥)(٦) حفريات روث أميران وبروسجي
(٨) حفريات بروسجي في حديقة الأرمن
حفريات بروسجي على أعتاب الأسوار
موقع عمليات البحث عن الهيكل التي قام به باركاي
حفريات بإشراف إيغال شيلوح

ولم يفطن كتبة التوراة إلى التقارب القائم بين التوحيدية التي آمن بها إبراهيم الخليل، والتي دمج فيها رب السماء في بلاد الرافدين مع رب الأرض في إله واحد، وبين التوحيدية المصرية التي تقوم على إله هو الخالق لآمون (الشمس) ولجميع الكائنات الصغرى، وهو إله غير متشخص ولا شبيه له، ويعبر عنه بهالة الشمس. أما التوراة فقد جعلت يهوه إلهاً خاصاً واعتبر هو نفسه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب (إسرائيل) وموسى، باعتبار هؤلاء جميعًا هم أصول اليهودية، ونادوا بأنفسهم أبناء إسرائيل.

ويهوه كان إلهاً إقليمياً آمن به قوم مؤاب، وتزوج موسى من ابنة كاهن هذا الإله فجعل اليهود منه إلهاً لموسى ومن حيث لا يدري. وأصبح هذا الإله في التوراة هو رب اليهود فقط، وهو رب عات ينادي بالاستيلاء على أرض الآخرين، وبقتل أبنائهم وحرق أرضهم، ولم يكن أبداً هو الرب الذي دعا إليه موسى، فلم يكن إله الناس جميعاً كما هو الدين الأخناتوني، ولم يكن كذلك إله إبراهيم الذي آمن برب العالمين.

موقف علماء الآثار

يقول العالم والمؤرخ ويلز Wells: «لا أحد يؤكد أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين اليهود، لا قبل النفي ولا بعده، وفي عهد الملوك فإن الملك سليمان لم يكن أكثر من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته هشة انهارت بعد موته ولم يكن سليمان يهودياً ولا عبرياً، بل كان كنعانياً بلغته وعقيدته. ولم يترك منشآت وحضارة، وليست المبالغة التوراتية عن عهده إلا وهماً وتمويهاً. لقد كان سليمان ضعيفاً أمام غيره، فكان مجرد مساعد للملك الفينيقي أحيرام الصوري الذي بنى له (الهيكل)، وكان على ما يبدو بناء بسيطا لم يبق له أثر، كما أن عهد الملوك لم يتأكد أثريًا».

ويقول العالم مندنهول: «إن عهد الملوك كان كنعانياً وثنياً وانهارت دولته بسرعة وتعزو التوراة هذا الانهيار لغضب يهوه على سليمان»، إلا أنه لم

تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها» (ل ١ ـ ١٣) وحتى قبيل النفي لم تكن العقيدة اليهودية واضحة ولم تكن التوراة قد كتبت بعد».

ففي فترة النفي في بابل ٥٨٦ ـ ٥٣٩ ق.م تكونت الديانة اليهودية التي تقوم بوضوح على إدانة الإيمان بالإله العالمي الذي آمن به موسى فعلاً أو الإله الذي عبده سليمان، والإيمان بإله آخر نسب إلى موسى وهو يهود، وجعلوا إبراهيم جسرا بين ادبيات المنطقة الرافدية التي نشأ فيها، وبين تاريخ الأرض المقدسة التي انتقل إليها. وربطوا بين دينهم وبين إبراهيم على الرغم من اختلاف الآلهة. وفي التوراة نداء إلهي لموسى: «يقول لبني إسرائيل، يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق ويعقوب أرسلني إليكم».

ومن الواضح أن يهوه لم يكن رب العالمين ولم يكن رب إبراهيم بل كان إلهًا خاصاً بشعب، ولم تعرف المنطقة المقدسة هذا الإله بل كان (إل) هو رب السموات والأرض. وجميع الأسماء التي تنتهي باسم (إل) مثل ميكائل إسماعيل إسرائل حزائل... تؤكد هذا الانتماء ولقد ظهرت هذه الأسماء منذ الألف الثالث واستمرت حتى اليوم.

لقد ظهرت اليهودية في القرن الخامس ق.م. وكان نبوخذ نصر قد نفاهم عن أرضهم كغيرهم من المنفيين بعد احتلاله مناطق واسعة. وكان لابد لهذه الزمرة من البحث عن أرض بعد أن أطلق سراحهم قورش الأخميني سنة ٥٣٩ ق.م فادخلوا في توراتهم قصة الوعد الذي قطعه يهوه بالأرض من النيل إلى الفرات. ولعل المنفيين في بابل لم يرجعوا جميعا، وقلة منهم خرجت عن بلاد الرافدين وانتشرت في انحاء مختلفة ومنها فلسطين، ولكنهم لم يستطيعوا إقامة دولة فيها، ولعلهم مارسوا عباداتهم وليس من أثر يؤكد وجودهم فيها إلا كمجموعة دينية كانت كثيراً ما تتعرض للاضطهاد، وبخاصة خلال حكم الروماني هيرودوس الذي يقال أنه بنى لهم هيكلاً.

وحاول الآثاريون التوراتيون مثل (أولبرايت ودوفو) تحديد تاريخ وجود إبراهيم الخليل في القرن ١٩ق.م. وذلك بالمقارنة والاستقراء. كذلك تم تحديد تاريخ وجود موسى بعد عهد أخناتون أي في عام ١٣٥٠ق.م تقريبا. ولقد تأكد لجميع الآثاريين العلمانيين أنه لا علاقة البتة بين أعقاب إبراهيم وبخاصة يوسف الذي استقر في مصر وبين موسى، وكذلك أجمعوا على نفي العلاقة النسبية بين موسى وبين داود وسليمان. كما تبينوا الفرق بين مفهوم التوحيد عند كل من هؤلاء الانبياء، والفرق البيّن بين العقيدة التوحيدية وبين عقيدة اليهود أو عقيدة يهوه.

فليس اليهود من أعقاب إسرائيل (يعقوب) وليس ربهم هو رب إبراهيم أو رب موسى، ولم تبين البرديات التي تضمنت تاريخ مصر القديم أي وجود لبني إسرائيل أو لليهود على أرض مصر.

إن هذه الحقيقة العلمية تتأكد بقوة، نتيجة الأبحاث التاريخية والتنقيبات الأثرية التي تقام في فلسطين المحتلة بقيادة علماء من العالم ومن إسرائيل ذاتها. ولقد كان دافع الإسرائيليين في التنقيب الأثري هو تأكيد وجودهم على الأرض المحتلة، وتثبيت ما ورد من تاريخ إسرائيل ومن أساطير ومطامع تتركز في ما أورده كتاب التوراة في سفر الرؤيا من نبوءة بظهور المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الرب في الأرض والتي ستدوم ألف عام، ومن الوعد الذي قطعه الرب يهوه لإبراهيم بمنحه الأرض من النيل إلى الفرات، وذلك لتبرير قيامهم دولة إسرائيل لتدوم ألف عام على أرض تقع بين النيل والفرات.

وسنرى أن جميع الحفريات الأثرية التي اجريت في المنطقة كلها وبخاصة في سورية والأردن ثم في إسرائيل، لم تقدم أي دليل على الوجود الإسرائيلي تاريخيا أو على اعتبار هذه المنطقة الجغرافية هي أرض إسرائيل، أما الحجر المؤابي، و هو نصب حجري عليه نقش نص ملك مؤاب ميشع، يتحدث فيه عن حروبه مع إسرائيل، وعن طرد سكانها خارج مؤاب. فلقد شكك العلماء بنص هذا النقش للتأويل والإضافة التي تمت فيه بسبب زوال كثير من الكلمات.

البحث عن تاريخ إسرائيل:

قبل الخمسينيات لم يكن أمام الآثاريين الذين يبحثون في تاريخ الشرق القديم من مصادر إلا ما روته التوراة، وكان أكثر المتحمسين للمصادر التوراتية، الآثاريون والمؤرخون من أمثال: أوليرايت و أهاروني وغلوك الذين اعتمدوا التصنيف على هدى الأحداث التوراتية، فعندما اكتشفوا تحصينات في القدس نسبوها إلى داود. وكذلك نسبوا موقعا في تل المتسلم اعتبروه إسطبلات سليمان... على أن جميع هذه التأويلات الوهمية التي صفق لها التوراتيون بحماسة، لم تلبث أن تراجعت أمام دراسات علماء الآثار بعد عام ١٩٥٢.

كان المنقبون يعتمدون على ما ورد في سفر الخروج وسفر يشوع (الأصحاح ٧ ـ ٩ ـ ١٠)، وفيه أن العبرانيين خرجوا من مصر بقيادة موسى، ثم تاهوا في سيناء، وعند مرورهم من شرقي الأردن (كما في سفر العدد) احتل موسى والقبائل الاثنتا عشرة جزءاً من أراضي مؤاب، وبعد مقتل موسى من جماعته في موقع يسمى نبو، تولى القيادة يشوع ابن نون فقطع نهر الأردن إلى أريحا. ويخبرنا سفر يشوع أن أريحا كانت مدينة كنعانية مسوّرة ومنيعة، وأن العبرانيين لم يتمكنوا من اختراق أسوارها إلا بمعجزة من يهوه الذي هدم الأسوار أمام العبرانيين الذين طوّفوا حول الأسوار سبعة أيام وهم ينفخون بالأبواق احتفالاً. ثم دخلوا أريحا فهدموها كلها وقتلوا سكانها.

على هدى هذه الأخبار التي فرضت على الآثاريين باعتبارها توراتية مقدسة، فإن الآثاري غارستانغ Garstang خلال حفرياته عام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٦ في أريحا، قد أعلن أنه عثر على شواهد تؤكد تدمير أريحا زمن يشوع، إذ اعتقد أنها كانت محصنة بسور كان الإله يهوه قد هدمه أيام يشوع. كما تقول التوراة.

ولكن السيدة كاتلين كينيون Kenion قامت في أريحا ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨ بحفريات مهمة كانت سببا في هزيمة جميع الأفكار والاستنتاجات السابقة، وكانت السبب في إعادة النظر في كل ما كان يعتبر من المسلّمات، وأثبتت أن سور أريحا المكتشف يعود إلى العصر البرونزي القديم وأن أريحا لم تكن مسورة خلال العصر البرونزي الأخير. أي زمن يشوع، وأنه لا صحة ولا حجة من أن العبرانيين احتلوا أريحا. بخاصة أن سفر القضاة يتحدث عن معاركهم وأنه لا يوضح أنهم احتلوا كل فلسطين، بل هم الخبيرو الذين كانوا طبقة من المحاربين المرتزقة ذوي أصول حضارية ولغوية مختلفة كما يرى ميك.

لقد بدأت الحفريات الأثرية في القدس منذ عام ١٨٦٧ بعد إنشاء صندوق الاستكشاف الفلسطيني، وكانت بإشراف السيرووارن بحثاً عن مدينة سالم في عهد اليبوسيين. ثم قامت بعثة بريطانية سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١١ بإجراء تحريات عن الهيكل والقصر في عهد سليمان. وتابع الأب فانسنت الحفريات بحثاً عن نفق يؤدي إلى خارج الأسوار، وادعى أن الجدار الجنوبي من سور الأقصى يعود إلى عهد سليمان. وفي سنة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ تم اكتشاف سور وبرج نسب إلى داود، وفي كل مرة كان المنقبون يربطون مكتشفاتهم بالتاريخ التوراتي، دون الاعتماد على تاريخ الفخار.

وفي عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ استمرت السيدة كينيون العالمة البريطانية بالتنقيب في القدس وأريحا معتمدة على تاريخ الفخار المكتشف، وكان هذا تحولا مهماً في تاريخ البحث الأثري، إذ نستطيع تحديد تاريخ الفخار أو أي جسم عضوي عن طريق فحص نيدو أشعة الفحم ١٤ فيه، وخلال الخمسة آلاف عام.

لقد استطاعت هذه العالمة الجريئة أن تنقض جميع الفرضيات التي قامت على المدلول التوراتي غير العلمي بتكلرها. ولم يلبث جميع الذين خالفوها في البداية أن أعلنوا صواب وموضوعية اكتشافاتها. وآخر تقاريرها يؤكد أن ما حسبه المنقبون من أسوار وأبراج تعود إلى عهد داود، أو من قوس اعتقد روبنسون أنه يعود إلى عهد داود أيضا، هو خطأ، بل إن جميع هذه المنشآت تعود إلى

فلسطين

يؤكد فرويد في كتابه (موسى والتوحيد) المعتمد على كتاب يوسفوس، أن النبي موسى كان في بدايته قائداً مصريا، وكان من أتباع أخناتون فرعون مصر الذي تبنى الديانة التوحيدية، وهي ديانة تؤمن بإله واحد (آتون) يقع فيما وراء الشمس، فهو خالق الشمس (آمون) وخالق الكون كله وهو رب العالمين وليس إله مصر وحدها

موقع قمران وأماكن العثور على اللفائف



القرن الثاني الميلادي، أي إلى العصر الروماني، ونفت أن تكون الأحجار من بقايا الهيكل.

لقد استاء الإسرائيليون من هذه النتائج، وقرروا استئناف التنقيب في المنطقة المتاخمة لجدار الحرم الشريف، في الزاوية الجنوبية الغربية، وكان ذلك بعد احتلال القدس سنة ١٩٦٧، وتولى التنقيب العالم الإسرائيلي مازار ومساعده بن دوف، وكانت المفاجأة باكتشاف آثار ثلاثة قصور ومسجد من العصر الأموي، وأعلنا أن هذه القصور قد استمرت عامرة خلال العصر الأموي والعباسي والفاطمي.

لقد حضر هذا الاكتشاف وزير الدفاع آنذاك موشيه دايان المشجع والمتابع لعمليات الكشف عن الهيكل، فأعلن استياءه وطلب نقض هذه الآثار للبحث تحتها عن سويات قد تكشف عن الهيكل، وتابع المنقبون عملهم ولكنهم تأكدوا أن أقدم ما يمكن العثور عليه يعود إلى عصر هيرودوس في بداية الميلاد. وليس من بين البقايا ما يعود إلى هيكل هيرودوس، حتى تاج العمود المنسوب إليه فهو يتسم بطابع مصري.

وتابعت جميع الحفريات التي تمت في فلسطين بعد حفريات السيدة كينيون انتصاراتها على الروايات التوراتية، ولم يستطع الآثاريون بمن فيهم الإسرائيليون، تقديم أي دليل أثري على مرويات التوراة، بل لقد أثبتت هذه الحفريات أن ما ذكره المنقبون من تصورات تتعلق بما سمي قلعة شاؤول في تل الفسول، وما يسمى بتحصينات داود في القدس، أو اسطبلات سليمان في تل المتسلم، هي كلها تصورات وهمية قام الآثاريون بافتراضها، ولم تكن هناك ثمة آثار تعود إلى عهد داود أو سليمان، وأن برج داود يعود إلى الفترة الهلنستية وأنه لا وجود لاسطبلات تعود لزمن داود.

صحيح إن فقدان المصادر المكتوبة فيما عدا التوراة، جعل الآثاريين قبل عام ١٩٥٢ يعتمدون على مراحله التاريخية، ولكن علم الآثار في تقسيماته الشائعة يعتمد على ما يثبت من اكتشافات حضارية. وجميع المكتشفات التي تمت في فلسطين والأردن لم تقدم لنا أي إثبات على حضارة عبرانية، بل هي الحضارة الكنعانية التي كانت سائدة وزاهرة، وأن العبرانيين الذين سكنوا فلسطين كانوا أقلية عاشوا في بيوت بدائية واستعملوا الأساليب التي تعود إلى العصر البرونزي الحديث.

فشل البحث عن الهيكل وعن مدينة داود

تذكر التوراة أنه في طرف على جبل موريا في مدينة القدس، كانت مدينة صهيون التي عرفت باسم مدينة داود، وفيها نشأت أورشليم ضمن مساحة صغيرة بنى عليها الملك سليمان سنة ١٠١٣ق.م هيكلا، تم ذلك بمساعدة ملك صور أحيرام، ولقد أطنبت التوراة بوصف هذا الهيكل الذي هدم سنة ٥٨٨ق.م من نبوخذ نصر، ويذكر أن هذا الهيكل أعيد بناؤه بشكل متواضع سنة ٥١٦ق.م. وفي عصر هيرودوس الذي نصبه الرومان ملكا، أعاد بناء الهيكل، وقد بالغ العالم دوفوغيه بوصف تفاصيل هذا الهيكل استناداً إلى التوراة وإلى الوصف الذي أورده المؤرخ يوسيفوس. ولقد هدم الرومان هذا الهيكل بأمر تيتوس سنة ٧٠م فأين هي آثار هذه الهياكل؟

إن هذه الأعمدة والتيجان والسواكف والواجهات الحجرية الضخمة التي وصفت، لم يعثر على أي منها رغم التنقيب الكثيف، مع أن الأحداث التي تلت لا تبرر أبداً فقدان أي أثر للهيكل القديم الذي يعود إلى سليمان أو الهيكل الذي يعود إلى عهد هيرودوس. لقد يئس المنقبون من العثور على آثار الهيكلين، وتساءلوا ما إذا كانا قد بنيا من الطين والآجر، أو لعله لم يكن من هيكل بل مجرد مذبح، أو أن أحجارهما قد أعيد استعمالها في أبنية محدثة؟

استمر هاجس البحث عن الهيكل يشغل وزارة الأديان ومصلحة الآثار في إسرائيل، وكثيراً ما حاول الإسرائيليون التنقيب تحت الحرم الشريف مما يؤثر على بناء قبة الصخرة والأبنية الإسلامية الأخرى في الحرم الشريف. ولم تستطع أعمال التنديد وقرارات الشجب والمنع التي وجهتها منظمة الأمم المتحدة، أن توقف أعمال البحث عن الهيكل في منطقة الحرم.

إن العثور على آثار تعود إلى عصر الحديد ولا تنتسب إلى التاريخ التوراتي، أصبح يفزع إسرائيل، ويدفعها إلى التعتيم على نتائج التنقيب الفاشلة. فالفشل في العثور على أثر الهيكل، يعني أن مدينة داود لم تكن حقيقة وأن عدم اكتشاف هيكل هيرودوس يعني أن اليهود لم يتمتعوا بعهده باعتراف السلطة الرومانية، بل إن التوراة تذكر أن هيرودوس كان أكثر الحكام بطشا باليهود، وهذا يتناقض مع القول بتشييد هيكل لهم لا نظير له. لم يعثر على أي أثر لهذا الهيكل.

ومع ذلك فإن النشاط الأثري الصهيوني لم يكف عن البحث عن تاريخ اليهود في فلسطين. فمنذ عام ١٩٢٥ اهتمت الجامعة العبرية بالتنقيب الأثري. وكان سوكنيك Sukenik أول من نقب عن الآثار، وهو والد إيغال يادين. وبعد أن يئس من بحثه التوراتي، اتجه للبحث عن القبور اليهودية في العصر الروماني الميلادي أي في القرن الثاني والثالث. ثم قام يادين نفسه بحفريات في حازور (قرب الحوله) بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٨.

فلسطين

الملك سليمان لم يكن أكثر
من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة،
وكانت دولته هشة انهارت بعد موته ولم يكن
سليمان يهودياً ولا عبرياً، بل كان كنعانيـًا بلغته
وعقيدته. ولم يترك منشآت وحضارة.
وليست المبالغة التوراتية
عن عهده إلا وهما وكبرياء

منطقة التنقيب التي أشرف عليها أيغال شيلوح



وفي دراسة موسعة شاملة أصدرتها دورية فرنسية مشهورة هي «الملفات الأثرية Les dossiersd ,archeolagic. paris» -NO-165-166. خصصتها لمدينة القدس تاريخيا وأثريا، اعتمدت على الآثاريين الإسرائيليين أنفسهم، وعلى نتائج تنقيباتهم في مواقع مختلفة، ولقد عرضت المجلة مجموعة مهمة من الصور التي تمثل مواقع التنقيب ونتائجها. وليس في هذه الدراسات والصور ما يشير أو يثبت الوجود الإسرائيلي والتاريخ الإسرائيلي في هذه المنطقة. وفيما يلي عرض لأهم ما ورد في هذه الحولية.

يعترف الآثاري الإسرائيلي بروسحي، أن التنقيب الأثري قبل حرب ١٩٦٧، كان مرتبطا بالسلطة الأردنية، وكان الآثاريون ينقبون موضوعياً. وبعد ذلك التاريخ يعترف أن السلطة الإسرائيلية وجهت التنقيب الأثري نحو مدينة القدس وحصراً في ما يسمى بمدينة داود وفي المنطقة التي يعتقدون أن الهيكل أنشئ عليها، مع البحث في الأحياء اليهودية القديمة، ويقدم هذا الآثاري ثبتا بالتنقيبات المتعاقبة التي تمت في هذه المناطق مبتدئاً بأعمال ١٩٦٠ التي قامت بها السيدة كينيون في جنوب الحرم في بساتين الأرمن، وقرب بوابة دمشق، وفي منطقة المرستان.

وقام الآثاري الإسرائيلي أفيغاد بالتنقيب في الحي اليهودي بالقدس القديمة وفي القلعة. ثم قام بروسحي نفسه بمتابعة التنقيب في بساتين الأرمن وفي سفوح الأسوار الخارجية. وهناك أعمال وحفريات أخرى قام بها آثاريون إسرائيليون من أمثال شيلوح وبركاي، اهتمت بالمدافن الأقل قدماً.

ويعترف بروسحي بعدم العثور على آثار محددة، بل حتى على أحجار منحوتة يمكن أن تنسب إلى سور أو هيكل أو قصر. ويعزو ذلك إلى كثافة المباني اللاحقة، وبخاصة تلك التي تعود إلى العهود الإسلامية.

ويقول: «لم يعثر أبداً على أي أثر أو شاهد للهيكل أو القصر، وإنما هي مساكن شعبية».

ويتحدث عن قوس روبنسون الذي ادعاه مازار، فنفى أن يكون هذا القوس قنطرة للعبور فوق الوادي باتجاه الهيكل. ولم يعثر فيما عدا هذا على أي أثر لمنشآت أقيمت في عهد هيرودس، بل عثر في منطقة المدافن على كتابات آرامية لا تدل أبدا على علاقة بالعبريين، وهي تعود إلى عام ٤٠م.

ويتحدث الآثاري المشهور مازار، عن تنقيباته الطويلة الأمد حول الحرم والتي لم تقدم له أي سند توراتي، مما دفعه للعودة إلى الرسائل التي ظهرت في تل العمارنة سنة ١٨٨٧ فيقول: «منذ القرن الخامس عشر ق.م. كانت بلاد كنعان جزءا من الإمبراطورية المصرية، ويثبت ذلك ما تضمنته وثائق قصر أخناتون في تل العمارنة والتي تعود إلى القرن الرابع ق.م وقد أوردت اسم «عبد خيبا» ملكا على القدس، وهو اسم لأسرة حورية جاءت إلى المنطقة في ذلك الزمن».

ولكن رسائل تل العمارنة التي

استمر هاجس البحث عن الهيكل يشغل إسرائيل، وكثيراً ما حاول الإسرائيليون التنقيب تحت الحرم الشريف مما يؤثر على بناء قبة الصخرة والأبنية الإسلامية الأخرى في الحرم الشريف. ولم تستطع أعمال التنديد وقرارات الأمم المتحدة، أن توقف أعمال البحث عن الهيكل

وردت من الشام إلى مصر كانت مكتوبة بالكتابة المسمارية وباللغة الأكادية، مما يؤكد أن السلطة في القدس كانت سورية حسب مازار الذي يتابع قوله: «وكانت حدود سلطان هذا الملك (عبد هيبا) ليست القدس الحالية فقط، بل الجبل حتى حدود رام الله في الشمال، وبيت لحم في الجنوب. وموضوع رسائل تل العمارنة يتضمن الحرب التي شنها عبد هيبا على الخبيرو، ومساعدة المصريين له بعد أن زار فرعون، واستقر حكم هذا الملك بعد قلق وتراجع، ويقول مازار: «على الرغم من وضوح هذه المصادر، فإن السيدة كينيون في تنقيباتها في الستينيات لم تعثر على ما يطابق رسائل تل العمارنة وكذلك كان نصيب الآثاري شيلوح». ويذكر مازار:

«في بداية عصر الحديد ١٢٠٠ - ١٠٠٠ق.م (عصر الملوك)، تتحدث التوراة في سفر التكوين أن النبي إبراهيم باركه مليك صادق ملك سالم وكان الإله العلي (إل أيليون)، وسالم كان اسم القدس.. وتذكر التوراة أيضاً اسم أدونيت صادق كملك على القدس. ولكن التوراة تنظر إلى القدس على أنها مدينة أجنبية مسكونة من اليبوسيين حتى عصر داود». ونحن نعرف جيداً من خلال أسمائهم ولغتهم أن اليبوسيين هم من الكنعانيين العرب، ولم يستطع الآثاريون، وحتى الأمريكي المشهور أولبرايت أن يكتشف شيئاً يؤكد هذه المرحلة، على الرغم من عثوره على كثير من الآثار التي تعود فعلاً لعصر الحديد، ولكنها لا ترتبط بأحداث التوراة.

والمثير للانتباه، أن التوراة لم تتحدث عن معبد إله اليهود (يهوه) إلا باكتراث قليل بل ذكر أن سليمان لم يكن قلبه مع الرب كما كان أبوه داود، وأنه بنى على الجبل تجاه أورشليم، معبداً لإله المؤابيين وآخر لإله العمونيين، واستمرت هذه المعابد أكثر من ٣٥٠ عاماً. (مل ١١: ١ - ٨) مما يدعو إلى الاعتقاد أن الهيكل لم ينشأ للعقيدة اليهودية. إذ أن سليمان أنكر عبادة يهوه وعاد لعبادة الإله العلي، والهيكل لم يكن لعبادة يهود. ثم إن بناءه وحسب أوصاف التوراة، يشابه الأبنية والمعابد السورية في عوزانا (تل حلف) وحماتا (في حماة) وأوغاريت (في اللاذقية) وشمال (زنجرلي) والساحل الفينيقي. ولقد تأكد للمؤرخين أن أحيرام ملك صور أمر ببناء الهيكل وأرسل لذلك عماله، وأطلق عليه اسم هيكال وهي كلمة فينيقية، وكان لصور سلطان ونفوذ على سليمان.

ويتحدث الآثاريون عن الأسوار التي تحدد مساحة المدن الفلسطينية من القرن السابع والخامس ق.م. فيرون أن القدس ذاتها لم تكن مساحتها أكثر من ١٦ هكتاراً، وأن مدن إسرائيل ويهودا لم تتجاوز مساحتها ٦ - ١٠ هكتارات، بينما كانت مساحة المدن المعاصرة في آشور أكبر بكثير، فهي تصل إلى ٧٢٠ هكتاراً في نينوى، و٣٦٠ هكتاراً في كلح، وكذلك المدن الآرامية مثل حماة وحلب، أو الحثية مثل قرقميش، ولذلك فإن الأسوار الفلسطينية كانت محدودة.

وتتحدث التوراة عن عودة اليهود من المنفى في بابل، بمساعدة قورش ملك الفرس بعد نصف قرن من السبي الأول، ويتساءل الآثاري رولي خاريش قائلاً: «إن الحفر الأثري في القدس، أبان أن عدد السكان خلال فترة المنفى لم يتناقص، فهل هذا يعني أن المنفى لم يكن صحيحاً، أم أن المنفيين كانوا قلة وليس كما ورد في التوراة؟».

ويقول هذا الآثاري: «إننا لم نعثر على أثر لإسكان جديد خلال عصر الحديد وفي فترة ما يسمى بالعودة، وبقيت المنطقة المسماة مدينة داود وحدها المسكونة على صغر مساحتها».

وجميع الحفريات التي تهدف الكشف عن عصر الاحتلال الفارسي والحكم الهلنستي، لم تكشف عن آثار مهمة، بل نراها من خلال جرار عليها كتابات رودية واختام باللغة الآرامية، وهي أقدم أختام رسمية وجدت في القدس. أما المباني الرومانية فهي أكثر وضوحاً، ولقد أطلق عليها العامة أسماء توراتية خطأ.

ويقول أفيغاد: «إن الحفريات الراهنة في الحي اليهودي في القدس، أغنت معرفتنا عن حضارة المدينة خلال عهد أسرة هيرودس من ٨٧ق.م - ٧٠م أي خلال مائة وخمسين عاماً كانت فيها القدس زاهرة العمران واكتشفت بعض الدور المزخرفة بالفسيفساء والفريسك وهي رومانية الطابع. ولم يكتشف أي أثر للهيكل أو لوجود يهودي».

ويقول الآثاري زافرير: «إن القدس في عام ٧٠م، أصبحت تحت حكم تيتوس الروماني الذي أحرق المعبد وهدم المدينة، ولم يبق منها إلا بعض الأسوار في منطقة الجنوب حيث تستفيد منها لحماية جنوده». في ذلك الوقت حملت القدس اسم ايليا كابيتولينا ثم احتل البيزنطيون الشرق، وفي عام ٣٢٦م جاء قسطنطين مع أمه هيلينا لزيارة القدس، وفيها أنشأ الكنائس الأولى وأصبحت القدس منذ ذلك الوقت مركز النشاط المسيحي مع بيت لحم مهد المسيح، ولكن العاصمة كانت قيسارة، ولم تكن القدس أكثر من مدينة مقدسة تعرضت لاجتياح الفرس وتهجير أهلها، ثم تراجعت مكانتها حتى الفتح العربي سنة ٦٣٨م، حيث ابتدأت تستعيد هويتها العربية القديمة التي كانت عليها أيام اليبوسيين، وازدهرت معمارياً، وتعترف الآثارية الإسرائيلية مريام روزن أيليون، أن كل ما تراه ضمن الأسوار يعود إلى الفترة الإسلامية، وتمثل المباني القائمة جميع العهود التي تعاقبت على القدس في العهد الإسلامي. ولقد تمت حفريات خارج أسوار الحرم من جهة الجنوب، وكان القصد منها اكتشاف آثار الهيكل، ولكن الآثار كانت أموية هي قصور ومسجد أنشئت في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، حتى جدار المبكى المقدس عند اليهود، فلقد أكدت لجنة البراق الدولية أنه يعود إلى عهود إسلامية.

وثائق إيبلا وقمران:

لم تستفد جميع الدراسات الأثرية من أخبار التوراة ولم تؤكد أبداً ما ورد في أي حدث من أحداث التوراة، ونستطيع القول إن علم الآثار خلال الثمانينيات قد تخلى بوضوح عن السند التوراتي، ثم ذلك بعد الصدمة القوية التي أصيب بها بعد اكتشاف إيبلا ووثائقها الضخمة عام ١٩٧٥، وكانت حملة التوراتيين بقيادة جماعة (بناي بريث) شديدة. ففي عام ١٩٧٥ امتدت مطامح التوراتيين إلى سورية بعد اكتشاف وثائق إيبلا في ادلب جنوب حلب، فقد هبت الصحافة التوراتية ومن ورائها جماعة (بناي بريث) الصهيونية، لكي تعتبر هذا الاكتشاف هو ثورة في علم الآثار ثم صدرت كتب وقصص خيالية، تحاول أن تجعل هذا الاكتشاف لصلحة التوراة، ولقد وصل الوهم والتحريف إلى حد القول أن لغة إيبلا هي اللغة العبرية، وأن إيبلا هي ذاتها أورشليم، وأن إبراهيم وآباءه عاشوا فيها سنة (٢٣٦٠ق.م)، بل إن الإله اليهودي (يهوه) كان معبوداً هناك.

ولقد أحدثت هذه الادعاءات اهتزازاً، مما دفعنا في سورية إلى إنقاذ الوثائق من الاستغلال الصحفي والصهيوني، وتسليمها إلى هيئة دولية من علماء اللغات القديمة لدراسة الوثائق بموضوعية، وعرض نتائج دراساتهم في المؤتمرات الأثرية، وكانت النتيجة كشف التحريف والاستغلال السياسي الصهيوني. وانتصر علم الآثار وتفاقم الشك بالتاريخ التوراتي، وأصبحت وثائق إيبلا مصدراً مهماً للتعرف على تاريخ هذه المنطقة وعلى حضارتها وآدابها.

وفي عام ١٩٤٧ ومع ظهور دولة إسرائيل، فوجيء الآثاريون في العالم كما فوجئ السياسيون الإسرائيليون العاملون في الحقل الأثري لإثبات التوراة باكتشاف لفائف قديمة في شواطئ البحر الميت، كان عرب التعامرة، قد اكتشفوها مصادفة في قمران وغيرها، ولقد تبين أن مضمون هذه اللفائف أسفار توراتية أصلية، تختلف عن التوراة المتداولة، كما عثر على لفائف نحاسية تبين أنها تحوي معلومات عن أمكنة وجود كنوز ذهبية وفضية، تقدر كميتها عن ٨ - ١٧٤ طناً. ومع أن هذه اللفائف تعود إلى السلطة الأردنية التي كانت مشرفة على الضفة، وكانت محفوظة في متاحفها، إلا أن إسرائيل قامت بالاستيلاء عليها بعد عام ١٩٦٧ وجعلتها سرية في بيت الكتاب في متحف القدس، ومنعت نشرها وحاسبت من يُسرِّب الأخبار عنها. ويقول عالم الآثار الشهير بيرو: «إن عدم نشر وثائق قمران يشكل فضيحة، هي الأكثر إثارة في القرن العشرين».

ومن الواضح أن نشر هذه الوثائق سيؤدي إلى المسّ بحقيقة النص التوراتي المتداول، وفي نشأة المسيحية أيضاً، إذ أن الفاتيكان يؤيد كتمان هذه الوثائق.

والفضيحة الأخلاقية التي اكتشفت في عام ١٩٩٥ هي عمليات السلب التي تقوم بها الفرق الإسرائيلية السرية بحثاً عن الكنوز المحددة أماكنها في اللفائف النحاسية في منطقة أريحا، ولا يستبعد المراقبون في الصحافة الأثرية، أن تكون إسرائيل قد حصلت على بعض هذه الكنوز، كما ذكرت «الملفات الأثرية الفرنسية».

الأخبار التوراتية

تنحصر القصص التوراتية في منطقة صغيرة جداً من جغرافية فلسطين، ولم تشكل الأحداث منعطفات مهمة في تاريخ هذه المنطقة، ورواة هذه الأحداث يخلطون بين الأحقاب والشعوب والأمم، وهم رواة متعاقبون، إذا ابتدؤوا منذ السبي الأول ٥٩٧ق.م. فإنهم لم ينتهوا حتى بداية الميلاد. ولذلك فإن هذه الأحداث ليست تاريخية صحيحة، وإنما هي لتمجيد بني إسرائيل والأحبار الذين كتبوا التوراة، والذين أعطوا أنفسهم حقوقاً مقدسة لأرض ليست لهم من إلههم يهوه، وهو غير الإله العلي إله إبراهيم.

وحتى تاريخ الأنبياء وتسلسل الأمم، لم يستطع علم الآثار الإسرائيلي تأكيده وإثباته، بل تنافى مع الاكتشافات والكتابات التي حددت هوية الأقوام بصورة علمية، فالكنعانيون حسب التوراة ليسوا ساميين بل هم أعداء الساميين. وهو أمر خطير يجعل الثقة بمفهوم الأمم التوراتي معدومة. فالكنعانيون هم أصل سكان هذه المنطقة، ولغتهم هي لغة سامية أصلية تختلف عن الحورية والحثية التي ربطتها التوراة بالكنعانية برباط عرقي واحد.

إن إعادة كتابة تاريخ فلسطين على أساس المكتشفات الأثرية التي قام بها العلماء من إسرائيل ومن أنحاء العالم، يجعل هذا التاريخ مغايراً تماماً لما ورد في التوراة. وجميع الاكتشافات التي تمت في فلسطين على هدى علم الآثار، أبانت أنها تتعارض مع الأحداث التوراتية. ولهذا اتجه أكثر الآثاريين إلى الفصل بين التوراة والتاريخ، ومن أبرز هؤلاء، فرانكن ولاب ودوفو وديفروماتيه.

ويبدأ هذا الاتجاه عند ديفر Dever تحت غطاء الحرص على أزلية التوراة، فجوهر التوراة، كما يقول أزلي مرتبط بالإيمان، أما علم الآثار فهو علمي يتبع منهج البحث النسبية، وإثبات حقائق الإيمان بمعارف زمنية يسيء إلى التوراة إذ يرفع مستوى النشاط الأثري إلى مستوى القدسية.

ويلح العلامة اللغوي فنكلشتاين Finkelstien على ضرورة فصل علم الآثار عن الدراسات التوراتية، على أساس أن التناقض يكمن في اختلاف الطريقة.



الحرم الشريف في القدس - وفي الزاوية الجنوبية الغربية تم اكتشاف آثار قصور أموية

ويطالب العالم نوت Noth ومدرسته الأوربية بإلحاح، بفصل مماثل وبضرورة فصل الآثار السورية الفلسطينية عن التاريخ التوراتي.

أما العالم دوفو de veux فيقول بجلاء إن حقيقة الكتاب المقدس أمر ديني من حيث الأساس، ولا يستطيع علم الآثار البرهنة على تلك الحقيقة أو نفيها، ذلك أن نصوص الكتاب المقدس تتضمن تأويلاً دينيًا للتاريخ.

لقد بدا ماتيه Mathae مؤخراً أكثر وضوحاً في الدعوة إلى الفصل، بعد أن تعرضت مكتشفاته في إيبلا إلى التأويل والابتزاز التوراتي والصهيوني، فهو يقول: «تفترض الأحداث التوراتية من حيث الأساس أنها تعاقب زمني طويل تتخلله أحداث أسطورية مهدت السبيل إلى ظهور الوحي الإلهي، أي أن شعوب هذه الأزمنة التوراتية وحضاراتها لم يكن لها بعد تاريخي بل هي مجرد خلفية للأحداث التوراتية المقدسة، ولا يستطيع علم الآثار أن يؤكد أو يثبت صحة ما جاءت به التوراة من أحداث ومواقع. إن مهمة علم الآثار أن يحقق موضوعياً دراسة ميدانية لوثائق تاريخية تكشف عن حضارة ما بخصائصها البنيوية وبتأثيراتها المتبادلة خلال الفترة الزمنية التي عاصرتها تلك الحضارة».

دخول التوراة إلى العقيدة الأوروبية:

إن حكاية هذا الحق المقدس لليهود في فلسطين مازالت تروى بجدية وقناعة بتأثير التوراة، ولكن كيف أصبحت التوراة ناموس العقيدة المسيحية في أوربا، وكيف أصبحت السياسة الأوروبية نصيرا في مرحلة ما للصهيونية؟

تختلف التوراة عن الإنجيل، لقد اعتمد المسيحيون في العالم ومنذ قسطنطين الأول ٣١٠م على الإنجيل فقط، ولم تكن التوراة مصدرا من مصادر العقيدة المسيحية في أوروبا، ولكن الإصلاح الديني الذي دعا إليه مارتن لوثر في القرن السادس عشر أفسح المجال للاهتمام بالعهد القديم، ولقي ذلك معارضة مما دفع إلى وصم لوثر باليهودية، ولقد عرف باسم (الراعي اليهودي) لمعاداته الطقوس المسيحية، ولأنه نشر كتابا بعنوان: (عيسى ولد يهوديا). ونادى بحسن التعامل مع اليهود (وعدم اضطهادهم وعدم معاملتهم كالكلاب). ولكن عندما وجد لوثر أن اليهود ابتدأوا يستغلون هذا الموقف ويجمعون أنصارهم ضد المسيحية، تنكر لهم وأصدر كتابا عام ١٥٤٤ موضوعه (اليهود وأكاذيبهم). ولذلك انقلبت الأمور عليه فكان أول من اتهم باللاسامية من اليهود العنصريين، ولا يزال كذلك في تقديرهم حتى اليوم. على أن أتباعه من البروتستان رضخوا إلى مهادنة اليهودية ودعوا إلى دراسة التوراة واعتمادها. وأصبحت التوراة جزءا من طقوسهم الكنسية. مما أعطى الفرصة لليهود في أوربا أن يعلنوا منذ القرن السادس عشر عن شخصيتهم كاملة، وأن يتعاونوا مع البروتستان لإعلان أساطيرهم الثلاثة: الشعب المختار، والبعث اليهودي للمسيح، وأرض الميعاد.

وسار أتباع (كالفن) في إنكلترا في طريق موازية، بل إن التوراة أصبحت (أبديتهم الوحيد)، ومرشدهم وفيلسوفهم، وأصبح أطفال البوريتان (أتباع كالفن) يسمون بأسماء توراتية عوضا عن الأسماء الإنجيلية.

وشهدت إنكلترا في القرن التاسع عشر عودة إلى المفاهيم البوريتانية التي جعلت من أساطير سفر الرؤيا أساسا لفلسفة لا تقوم على العقل والمنطق. وفي بداية القرن العشرين كان المبشرون الإنجيليون قد سلموا نهائياً (بحقوق الشعب القديم) وكانوا هم أصحاب الشعار الذي اعتمدته الصهيونية (وطن بدون شعب لشعب بدون وطن).

ويبدو واضحاً أن هذه المواقف لم تتضمن احتراما كاملا لليهود، بل هي محاولة للخلاص منهم وليس لخلاص أنفسهم، فكان الرأي السائد أنهم (متعجرفون، سود القلوب، منغمسون في الانحطاط الخلقي والعناد والجهل بالإنجيل).

ومع ذلك مازال هناك حتى اليوم من يعتقد أن عودة اليهود كاملة إلى فلسطين، هي بشرى الألف عام السعيدة، التي وردت في سفر الرؤيا، لكن الشرط المهم لتحقيق ذلك هو تحول اليهود للمسيحية، ويعتقد أصحاب هذا المذهب أن عودة اليهود إلى فلسطين هي مقدمة لعودة المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الله في الأرض والتي ستدوم ألف عام.

ومع أن أوغسطين وضع حداً لهذا الزعم في كتابه (مدينة الرب) إذ اعتبر فترة العصر الألفي السعيد مجازاً، وهي حالة روحية تحققت في عهد الكنيسة أي بعد موت المسيح وبعثه، إلا أن ذلك الاعتقاد مازال معتمدا





صهيونيًا، فما تضمنته بروتوكولات حكماء صهيون في بازل عام ١٨٩٧ عن مبادئ الصهيونية، لم يكن أكثر من تثبيت للأساطير التوراتية الثلاثة وهي: أسطورة الشعب المختار أي أنهم أمة منفصلة عن الآخرين، وأسطورة الميثاق التي ترتكز على الارتباط السرمدي الدائم بين الشعب المختار والأرض المقدسة كما وعد ربهم يهوه، والأسطورة الثالثة هي أسطورة عودة المسيح المرتقب.

لقد ضللت هذه الأساطير التي صنعتها الصهيونية المسيحية والإسلام، فالمسيحية مازالت تنتظر مجدها بالعودة إلى موطن المسيح (Decivitate Dei) الذي سيعود بعد تشرد طويل، ومازال خافياً على الفقهاء المسلمين أن الرب في التوراة ليس هو رب العالمين. ومنذ أن ترجمت التوراة إلى اللغات الأوروبية أصبح تاريخ المنطقة العربية لا يعرف إلا من خلال الأساطير والقصص التاريخية والخرافات الواردة في العهد القديم، ولم تؤخذ على حقيقتها بل قبلت دونما تمحيص عقلي.

وكان هذا التحريف التاريخي بدعة كرسها الإصلاح الديني، ومع ذلك فلقد كانت فكرة ترحيل اليهود من أوربا إلى فلسطين مقبولة لديهم، على الأقل لأمر واحد كما كان يقول مارتن لوثر: «إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون لرحلتهم، لا لشيء إلا للتخلص منهم، إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا».

وفي القرن الثامن عشر كان فولتير ينتقد بشكل لاذع تقديس التاريخ اليهودي واعتبار الشعب اليهودي أقدم شعب عرفه الإنسان، ولكن الدعوى الصهيونية استمرت شاغل اليهود المنتشرين في أنحاء أوربا، وكانت دعوتهم ونشرهم لأخبار التوراة في كل مناسبة تتم بالاستعانة برجال الدين وبالعلمانيين الذين افسحوا في المجال لأساطير العهد القديم كي تحل محل الأساطير الإغريقية ـ الرومانية. تم ذلك في الأدب والشعر كما تم في الفن تصويرًا ونحتًا.

ولم تكن الأهداف الصهيونية طارئة، بل هي أهداف قديمة تقوم على نزعة السيطرة والاستنزاف المادي.

إن العنصرية القومية التي كونت العداء بين الصهيونية وباقي الشعوب، رافقتها دائما عنصرية دينية كونت العداء بين اليهودية وباقي الأديان. وإذا كان من جملة أهداف أوروبا أن تبعد اليهودية عنها باحثة لها عن وطن آخر، فإن تحديد هذا الوطن بفلسطين قلب البلاد العربية يعني زرع شعب غريب اللسان والعقيدة والتاريخ والأهداف على أرض العرب المقدسة، لكي يحول هذه القدسية لغير أهليها. ولكي يجعلها قاعدة لبث عمليات التخريب القومي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في أجزاء الوطن العربي، وبذلك تكون الإمبريالية قد حققت هدفًا مزدوجًا.

لقد أعلن رئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٠٢، وهو كامبل باترمان قائلاً: «ثمة قوم يسيطرون على أرض واسعة زاخرة بالخيرات الظاهرة والباطنة، وتسيطر هذه الأرض على مفترق طرق العالم، وهي مهد الحضارات الإنسانية والأديان، ويجمع هؤلاء القوم دين واحد ولغة واحدة وتاريخ واحد وآمال واحدة. لا يعزل بينهم أي حاجز طبيعي يحول دون الاتصال والاتحاد ولو تم ذلك، أي لو اتحدت هذه الأمة في دولة واحدة في يوم من الأيام، لتحكمت في مصير العالم، ولعزلت أوربا عنه. لذلك يجب زرع جسم غريب في قلب هذه الأمة يكون عازلا من التقاء جناحيها، ويشتت قواها في حروب مستمرة، ورأس جسر ينفذ إليه الغرب لتحقيق طموحاته».

علم الآثار بمجابهة الكيان الإسرائيلي:

على ضوء النتائج العلمية أصبح واضحاً أن فلسطين لم تكن لبني إسرائيل، بل كانوا غرباء فيها، واستمر وجودهم قلقا ومحدودا زمنا قصيراً. إذا كان منهم من استمر مقيما خلال الفترة الرومانية والمسيحية وحتى الإسلامية، فهذا لا يعني أنهم أصحاب هذه الأرض، فاليهود في قزوين وفي أي جزء من العالم، كانوا أكثر عددا منهم في فلسطين، ولكن الحق العربي يبدو واضحاً في مرحلتين. المرحلة الأولى أيام اليبوسيين وهم من الكنعانيين أجداد العرب ومنهم الآراميون أيضاً. والمرحلة الثانية تبدأ منذ العهد الإسلامي واستقرت متنامية بتصاعد وتكريم وتقديس خلال أربعة عشر قرنا. ولكن عندما كان اليهود يبحثون عن وطن في أوغندا أو في أمريكا اللاتينية أو موزمبيق، صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ ليجعل فلسطين وطنًا قومياً لليهود.

ولكن علم الآثار أصبح أقوى فاعلية من أي وعد أو أية قوة أو أي قرار يصدر عن الأمم المتحدة بإنشاء دولة غريبة على أرض عربية وبدعم وجودها وبدعم الاحتلال المتعاقب فيها.

إن هذا العلم وحده قادر على كشف وتعرية المطالب الإسرائيلية وعلى تأكيد الصفة الاحتلالية، وعلى نفي التاريخ الإسرائيلي كله، ونفي الأحداث الإسرائيلية وجعلها أسطورة وخرافة. ولعلنا استطعنا من موقعنا كمشرف مسؤول على عمليات التنقيب في سورية، أن ندفع بالعلم الأثري أشواطا في مجال إيضاح هويتنا القومية التاريخية على هذه الأرض الواسعة، وفي مجال الطعن بجميع الأساطير التي خلقت حقوقاً مقدسة أدت إلى إيجاد دولة إسرائيل التي تهدد الوجود العربي في الحرب وفي السلم.

وإذا أصبح علم الآثار أكثر تحدياً لمبادئ الصهيونية، بات لازماً أن تعتمد المجابهة الحدية مع الوجود الإسرائيلي على هذا العلم الذي يتحدث بلغة موضوعية، تبقى أكثر قبولاً في محافل السياسة الدولية، عن الأساطير التي عششت طويلاً في العقائد الشعبية وكانت سبباً في قيام دولة استعمارية غاشمة تطمع بأرض يحدها الفرات والنيل. ■

نافذة على الآداب العالمية

اليونان الأخرى في

نعيم عطية

■ يدعو الترحيب الذي لقيه عطاء الشاعر اليوناني الكبير يانيس ريتسوس في أوروبا حتى بعد وفاته في ١١ نوفمبر ١٩٩٠ إلى تأمل مصير العمل الأدبي خارج الإطار الضيق لحدود وطنه الأصلي. والذي حدث في أغلب الأحوال بالنسبة لما ترجم من الأدب اليوناني الحديث إلى لغات أوروبية أنه استقبل على أنه لا يتضمن غير ترديد لوجهات النظر الأوروبية دون أن يعثر القارئ خارج اليونان فيما ترجم من آداب هذا البلد الحديثة على جديد يستحق الوقوف عنده والاحتفاء به كثيرًا. ولكن كان لهذه الظاهرة بعض الاستثناءات الجديرة بالاعتبار مثل كافافيس (١٨٦٣ - ١٩٣٣)، الذي قدر له أن يتجاوز الحدود المحلية ليرقى إلى مصاف الأدب العالمي. فقد وجد القارئ غير اليوناني في عطاء هذا الشاعر على الأخص صورة للإنسان غير تلك الصورة البطولية التي عودتنا عليها «الكلاسيكية». أما سفيريس (١٩٠٠ - ١٩٧١) الذي لم يعترف به إلا متأخرًا، فقد أيقظ - بلا عواطف كاذبة - الحنين إلى حضارات ترقد في بطون السنين نائمة. على أن إعادة التلاقي بين اليونان وأوروبا تتحقق بالأخص في أعمال كازنتزاكي (١٨٨٢ - ١٩٥٧). فقد اكتشف مثقفو أوروبا علاقة وثيقة بين «زوربا» وبين «الإنسان الطبيعي» الذي تحدث عنه الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو صاحب «العقد الاجتماعي» المتوفى عام ١٧٧٨ داعيًا به إلى خلاص الإنسان من أغلال المدنية التي تكبله وتكبت بداخله بترة التلقائية. ولكن الآثار التي حققها لفت كازنتزاكي وسفيريس لأنظار الأوروبيين والأمريكيين إلى اليونان ما لبث أن تحولت إلى آثار سياحية على الأخص. فقد بدت اليونان، بالنسبة لأهل غرب أوروبا الذين انتعشت أحوالهم الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية، بلدًا رخيص التكاليف صالحًا لقضاء العطلات بين ربوعه السابحة في ضياء الشمس وزرقة السماوات والبحر. ولهذا كان الدور الذي أدته أعمال ريتسوس عندما ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية مختلفًا. فقد كان ريتسوس يتحدث عن الإنسان الآخر، الإنسان المثخن بالجراح والمكبل بالأغلال، ولم تكن اليونان في قصائد هذا البلد الساجي المستكين في حضن الشمس والجبل، بل كانت البلد القلق المعذب، وكان ذلك دعوة إلى أوروبا لأن ترى الوجه الحقيقي لليونان المعاصرة، أو بعبارة أدق أن ترى «اليونان الأخرى».

لم يعرف القارئ الأوروبي يانيس ريتسوس شاعرًا حق المعرفة إلا في مارس عام ١٩٥٦ عندما نشر لوي أراجون في مجلة «الآداب الفرنسية» أول تعريف بالشاعر اليوناني الذي وصفه بأنه «ارتجافة جديدة في الشعر الحديث» وستتأكد هذه المعرفة بما سيترجم له فيما بعد من أعمال مثل «ملاحظات على مجرى الأحداث» و«تدريبات» و«النافذة» و«الجسر» و«الوداع» و«الشواهد»

ولم يعرف القارئ الأوروبي يانيس ريتسوس شاعرًا حق المعرفة إلا في مارس عام ١٩٥٦ عندما نشر لوي أراجون في مجلة «الآداب الفرنسية» أول تعريف بالشاعر اليوناني الذي وصفه بأنه «ارتجافة جديدة في الشعر الحديث» وستتأكد هذه المعرفة بما سيترجم له فيما بعد من أعمال مثل «ملاحظات على مجرى الأحداث» و«تدريبات» و«النافذة» و«الجسر» و«الوداع» و«الشواهد».

وتعتبر قصيدته «حادث ليلي» إحدى «شواهده»، وهي تشكل إلى جوار «شواهد» أخرى عالمًا يواكب العالم الواقعي، عالم كل يوم، حيث يتقاتل الناس وتتصادم المصالح إلى ما لا نهاية، ويطلق على هذا التقاتل، وذلك التصادم بين المصالح، في بعض الأحيان «سياسة» وهي عملية ضارية، وقد أودت بالشاعر إلى المعتقلات والسجون أكثر من مرة، حيث عانى من أجل معتقداته صنوفًا من البلاء زاد من طينها بلة مرضه الصدري الذي عانى منه طويلاً. ولنستمع إلى قصيدة «الحادث الليلي» حيث يقول ريتسوس:

«سمر المسمار في الحائط.

لم يكن لديه ما يعلقه عليه..

راح ينظر إليه جالسًا قبالته في المقعد القديم.

لم يكن بقادر أن يفكر في شيء، أو أن يتذكر شيئًا.

نهض وغطى المسمار بمنديله.

وفجأة، رأى يده مخضبة بلون أزرق. دهنها به القمر الذي كان يقف عند النافذة.

كان القاتل قد رقد في سريره.

ساقاه عاريتان وطيدتان ممدودتان خارج الغطاء.

تتعانق الشعيرات عليهما في وله.

وأظافره متسقة، وإن برز من أصبعه الصغير ورم خشن ضئيل.

هكذا تنام التماثيل على الدوام بعيون مفتوحة.

وما عاد أي حلم أو قول يثير الخوف.

لقد توفر لك الشاهد الصادق الأمين الكتوم.

لأن التماثيل - وأنت تعرف ذلك - لا تخون.

وإنما هي تفصح فحسب وتبين.

ولكن أيًا ما كانت أرض الواقع، فإن أرض الشعر يجب أن تبنى على نسق آخر، فهي تبنى من ظلمات وظلال ونور ولهب يحيل حتى الروث إلى ذهب مصفى. ولنستمع إلى ريتسوس في قصيدة من قصائده تشبه قصيدة «الحادث الليلي»، وهي قصيدة «العجوز الطيب». لنستمع إليه يقول:

«كان ينظر إلى الشاطئ الآخر ويقول لا أميز الألوان، والأصوات، والأعلام.

ربما كان هناك احتفال، أو ربما كان هناك جناز.

أنا لا أبصر. ويريحني الضباب.

كان كوزماس قليل الكلام، ويعجبني فيه قلة الكلام.

أذكر بيتًا قديمًا في الغاية بلون الورد، مغلق النوافذ.

وكم من كلام بددنا بلا جدوى، ربما لأننا كنا نخاف أن يدركنا يومًا - يدركنا الصمت.

وكان الغراب يتجلى على الدوام مسمرًا على السحب فوق الصناديق الخشبية المتروكة من قديم أمام مدخل المخزن المهدم.

هناك تتجمع القطط وتتوالد.

وهناك على أحد الصناديق أجلس، شبه مغمض العينين، منتظرًا أن يمر أحد قيراني».

ويمضي ريتسوس في «شواهده» على العصر، فيدين غياب الحرية، وعدم الاكتراث بالأحداث الجارية عن كثب، وأيضًا الوهم بأن الخطر إنما يأتي فحسب من بعيد. بينما هو قد يكون أقرب من حبل الوريد، فلا تجدي في اكتشافه ودرئه في الوقت المناسب المناظير المكبرة للرؤية عن بعد. ويقول الشاعر في قصيدته «أبنية ذاتية»..

«أخرج من الصندوق المنظار المكبر والقميص الداخلي.

كان قد أغلق النوافذ.

الذبابة تحط الآن على الكوب. لم يهشها.

بسط على الأرض الورقة. تناول مقصًا.

وقص القبعة والسيف والحزام.

ثبت ذلك كله في حذر بدبابيس أكثر مما يلزم لتثبيتها عادة. انتصبت واقفة.

وضع المنظار المكبر جانبًا، وراح ينتظر.

عندما دقوا جرس الباب لم يفتح. كان المنظار المكبر للرؤية عن بعد».

والتي كتبت في أحلك الساعات من حياة الشاعر، وتحكي عن الأعيب الحكمة والحماقة بأسلوب حيادي - وقف القراء كما لو كانوا يقفون عند حدود «منطقة محظورة».

وفي إحدى قصائده من ديوانه «الحائط في المرآة» يقول ريتسوس:

«وبعد ذلك:

لم يعد لديه ما يضيف. من الواضح أنه كان يتحاشى بحذر شديد أن يتفوه بكلمة «موت»».

وسوف يلاحظ القارئ في هذه الأبيات أن ريتسوس يرفض التفوه بكلمة «موت»، وهنا الرفض يبين كم هو شاعر إيجابي، لا يعترف بالهزيمة والاستسلام والعدم التي هي كلها

ما الذي فعله ريتسوس كي يبني فنه على ما تجلى في قصائده «الحادث الليلي» و«العجوز الطيب»، و«أبنية ذاتية» وغيرها من «الشواهد»؟

إنه رفض بادئ ذي بدء التردي في العاطفية التي فات أوانها. ومثل سفيريس عمد ريتسوس إلى فن تقل فيه - إن لم تنعدم - النزعة العاطفية التي استنفدت أغراضها من قبل في شعر «المدرسة الأثينية الجديدة» وتلامذة بالاماس (١٨٥٩ - ١٩٤٣) ومقتفي أثره. كما رفض ريتسوس الانجراف إلى «شعر فولكلوري سطحي». صحيح أنه مثل سفيريس وجيل الثلاثينيات، الذي هو منه أيضًا، عمد إلى استنباط روح الأغنية الشعبية، وجوهرها، فمضى النبض الشعبي - على الأخص في قصائده الأولى - كامنًا في قصائده دون أن تدخل في عداد التقليد الحرفي الأعمى للأغاني الشعبية أو كل ما هو فولكلوري. وبعد ذلك لجأ ريتسوس إلى بناء قصائد عصرية تمامًا، ومن سمات هذه العصرية، عدم اكتراثه بأن تكون القصيدة أداة تواصل مباشر مع القارئ، واختار طريق التعبير غير المباشر، فامتلأت قصائده بالإيماءات والرموز والدلالات دون أن تكون مقصودة لذاتها. وبدت من أجل ذلك على قصائد ريتسوس حيادية تامة، فلا هي تنحاز أو تفسر أو تتحمس، بل هي ترصد وتومئ فحسب. ولم تتضمن أعماله لذلك حلولاً جاهزة ولا جيشانًا عاطفيًا ولا إدانات مما كان يمكن أن يتردى فيه شاعر لم يتنبه إلى المعنى الحق لكل من الأصالة والمعاصرة. واحتفظ فن ريتسوس في النهاية بنضارة كل ما هو حي، ويعمق كل ما هو تليد، بل وأيضًا بغرابة كل ما هو مؤرق ومحير. ولنقرأ الآن قصيدة لريتسوس بعنوان «رقصة امرأة ليست شابة»:

«لا تخبرني، دعني أخمن. قالت أعرف كيف أخمن.

أقفز من شرفة إلى شرفة، وأنا أحرك إحدى ذراعي.

أنزع الستار الأبيض. ألقي به على كتفي.

أنتبه إلى أنني حافية القدمين، يحفزني ذلك على أن أرقص.

أخطر في الهواء. أنظر. قدمي اليسرى أكثر رشاقة، واليمنى أكثر حنكة!

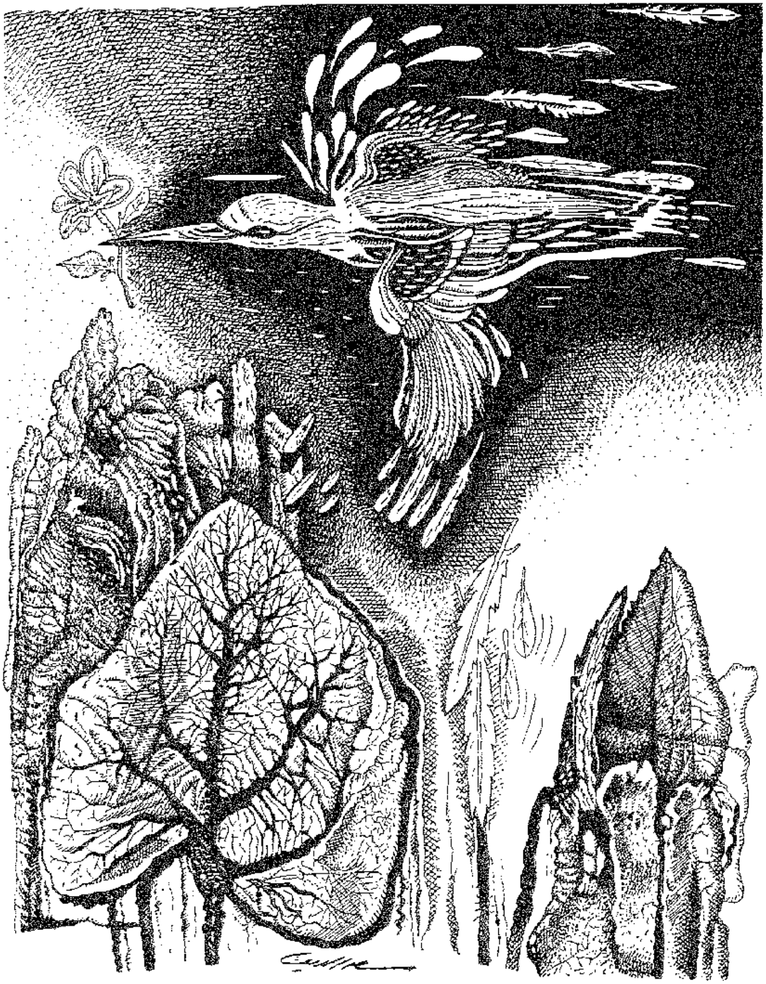
فلنواصل الحديث. أنظر. هذه أنا.

كل حبل، حتى لا ينفرط خيطه، هناك، على الدوام، في نهايته، عند طرفه القصي، عقدة محكمة.

أليس هذا مما لا نتوقع على الدوام، وفي النهاية تكون المفاجأة؟

وددت أن أعلم أحدًا هذه الرقصة».

وقد وقف القراء إزاء قصائد ريتسوس المجازية المقتضبة، المحتمة لأكثر من معنى،



شعر يانيس ريتسوس

مرادفات للموت. وكم حاول الوحوش أعداء الإنسان أن يضيقوا الخناق عليه، وأن يحطموه. إن تلك البساطة التي عرض بها ريتسوس دقائق المواقف الإنسانية العصيبة، تصب على أرواحنا طوفانًا من التأثير العميق، وتبث فينا قدرة أقوى على الصمود. وقد تواصل عطاء ريتسوس من القصائد المجازية المركزة منذ عام ١٩٦٧.

وتطلبت هذه القصائد من القارىء إلمامًا بحقائق ومعارف في مجالات أخرى غير الشعر. وبعبارة أخرى أوصلت هذه القصائد إلى نوعية أخرى من التذوق الشعري. وربما ظل القارئ، الذي ينتظر عطاء تقليديًا يحس بالغربة إزاء هذه القصائد الحديثة لريتسوس، فقد كانت مقومات تذوق هذه القصائد خارجة عن مجرد نطاق النص الشعري، ويحتاج إلى إلمامة مسبقة على الأخص بمجرى أحداث اليونان المعاصرة.

ولئن كانت ستظل هناك فجوة بين قصائد ريتسوس هذه وبين جماهير القراء العريضة، إلا أن ذلك إن دل فعلى السمة الطليعية المستقبلية في شعر ريتسوس. وإذا كان الأمر قد احتاج إلى عشرين سنة كي يتبين القراء أن القصاص التشكيلي الكبير فرانز كافكا كان يصور في قصصه غير المفهومة إبان حياته الناس في عصره من خلال استبداد البيروقراطية ومعسكرات الاحتجاز، فإن قصائد ريتسوس منذ عام ١٩٦٧ قد احتاجت بدورها إلى زمن كي يجد فيها القارىء تصويرًا فنيًا صادقًا لكثير من أسرار الحياة في عصره، على الرغم من إغفالها الإشارة إلى أية أحداث بعينها. بل إن ريتسوس يقتلع الناس والأشياء والأماكن من واقعها المحدود، ويصفيها من شوائبها اليومية، فتبدو في علاقات جديدة، كما يحدث في الأحلام، ويحتفظ بها في قصائده للمستقبل طلية لا يدركها تلف أو زوال. ويبدو ذلك جليًا في قصيدته «خاتمة المطاف» حيث يقول:

«ينحرف في سيره، يدير أنظاره، إلى الناحية الأخرى. يحاول أن يفلت من الشيء الذي يتعقبه تعقبًا مثل التصاق سترته بظهره.

لا يمكنه أن يخلع ملابسه، فالجو بارد، وعلى الأخص عند تقاطع الطريق. حيث ينظر أصحاب المتاجر، من وراء الواجهات الزجاجية، أو وقوفًا بالخارج على الأرصفة، نظرات حوارية إلى كل مار.

ويحس هو بنظراتهم في جيوبه، بل وفيما هو أعمق من جيوبه.

ويمضي على هذا الحال إلى أن يصل إلى الميدان المقفر الذي كنسته رياح اللاجدوى. هناك لا توجد سوى قواعد تماثيل أبطال مجهولين.

تماثيل خطفتها ذات ليلة عاصفة نساء غاضبات. أخذتها بين أحضانهن، ورحلت بالقطار».

وتدفع صنعة ريتسوس في قصيدة مثل «الحادث الليلي» تدفع القارىء إلى أن يبدأ، ولحسابه، من جديد صعود الدرب الذي شقته القصيدة، دون أن تفرض عليه مسارًا لا حيدة عنه. فلا شيء مفروض في قصائد ريتسوس، بل هناك ما هو مفترض فحسب، ويشبه ريتسوس في ذلك المصور بيكاسو الذي بتمزيقه وتقطيعه صورة الشخص يدعو المتفرج إلى أن يعيد ترتيب المزق، فيتجلى له الوجه على حقيقته من جديد.

وبين فن ريتسوس الشعري وفن بيكاسو التشكيلي وجه شبه آخر، يتمثل في انكباب كل منهما على طرق الموضوع الواحد العديد من المرات من زوايا متعددة. وإذ يحاول ريتسوس أن يشرك القارىء معه في إعادة بناء القصيدة وسبر أغوارها، فإنه أيضًا يحاول أن يوفق بين الإفصاح والإضمار. وينجح في محاولته تلك من خلال الاقتصار على التحكم في إخراج القصيدة، أما بعد ذلك فكل شيء يترك لتقدير القارىء. وإليك هذه القصيدة لريتسوس، وهي بعنوان «قبيل الفجر»:

«عندما يوغل الليل، وتقل الحركة في الشوارع، ويترك عساكر المرور مواقعهم، لا يعرف هو ماذا يفعل.

يطل من الشباك على الواجهة الزجاجية لمقهى الكبير، المعتمة بضباب الأرق، يرى أشباح الجرسونات يتجولون وراء الخزينة، ينظر إلى السماء بثقوبها البيضاء الرحيبة، ويرى من خلالها عجلات الأوتوبيس الأخيرة.

ثم يسمع هذا القول من جرسونات المقهى «أي خدمة، أي خدمة أخرى».

ثم إجابة من يقول «لا شيء، لا شيء...».

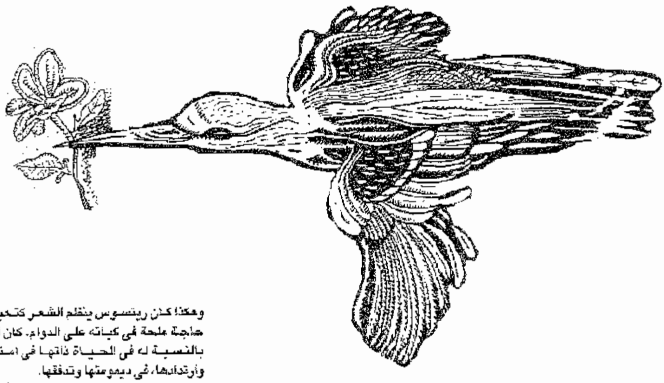
يدخل الغرفة العارية، يسند جبينه إلى كتف تمثاله (وهو أعلى من القوام الطبيعي) شاعرًا ببرودة الصباح على الرخام. بينما تحت في الفناء ذي البلاط المكسور يجمع الحراس الخيوط المقطعة من أغلال المنفيين».

«من أين يجيء هذا الشعر؟ من أين تجيء هذه الارتجافة، حيث تلعب الأشياء - على ما هي عليه - دور الأشباح.

إن هاملت اليوناني ما عاد يواجه الملوك القدامى، وأوديب الجديد لا يلتقي بالهولة، بل بالأوضاع المعاصرة اللئيمة؟».

بهذه الكلمات قدم الشاعر الكبير لوي أراجون لقصيدة «سوناتا ضوء القمر» ليانيس ريتسوس، في مجلة «الآداب الفرنسية» بعددها الصادر في ٢٨/٢/١٩٥٧ عندما ترجمت هذه القصيدة إلى

شعر يانيس ريتسوس



لجأ ريتسوس إلى بناء قصائد عصرية تمامًا، ومن سمات هذه العصرية، عدم اكتراثه بأن تكون القصيدة أداة تواصل مباشر مع القارئ، واختار طريق التعبير غير المباشر، فامتلأت قصائده بالإيماءات والرموز والدلالات دون أن تكون مقصودة لذاتها. وبدت من أجل ذلك قصائد ريتسوس حيادية تامة. فلا هي تنحاز أو تفسر أو تتحمس، بل هي ترصد وتومىء فحسب

الفرنسية. وقد ظلت التساؤلات التي انطوت عليها كلمات أراجون دون إجابة، وذلك شأن الشعر الجيد على الدوام. يثير في القلوب الدهشة. ويحفز على التنقيب في أرجاء القصيدة تقصيًا عن الإجابات. ومثل الصانع الماهر الأريب الذي يخفي أدق أسرار صنعته وراء مظهر يبدو للعيان بسيطًا ساذجًا، يحقق ريتسوس إبداعاته الشعرية المدهشة بزهد مفرط في الكلمات ومن خلال الحديث عن أشياء مألوفة للغاية. ويحيي ريتسوس في شعره تقليدًا موغلاً في القدم، هو ذلك التقليد الذي يمضي فيه الشاعر عبر قصيدته دون أن يقول «أنا» بل يترك الناس والأشياء تتحدث بنفسها عن نفسها. وبهذا «الانمحاء» يترك الشاعر للوجود فرصة أن يزيح اللثام عن وجهه. ويقول ريتسوس أنه بدأ هذه الطريقة من الكتابة التي يسميها «الشواهد» منذ أن عرف تقلم الشعر أي منذ سن الثامنة. ويقصد الشاعر بذلك أنه إنما عنى منذ البداية أن يكون شعره نوعًا من «الشهادة».

ومنذ أن وجدت الأمواج والشطآن والصخور، لا تكف الأمواج عن التكسر على صخور الشاطئ، في حركة مد وجزر دائمة.

وهكذا كان ريتسوس ينظم الشعر كتعبير عن حاجة ملحة في كيانه على الدوام. كان الشعر بالنسبة له في الحياة ذاتها في امتدادها وارتدادها، في ديمومتها وتدفقها.

«قيل لي إنك تكتب بغزارة.. حسنًا فلنفكر في عدد ما كتبه هوميروس من أبيات، وعدد ما كتبه أسخيلوس وسوفوكليس من مسرحيات! حقًا، إني أعمل كثيرًا. وأعتبر أن العمل سمة من سمات الطبع اليوناني، وليس بوسع المرء أن يكون يونانيًا وكسولاً في آن واحد، لقد سيطر الإغريق على الطبيعة والتاريخ من خلال العمل......».

ولكن الشعر ليس بالنسبة لريتسوس معادلاً موضوعيًا للحياة والعمل فحسب، بل هو حالة من الوجد والتبتل والعبادة:

«لم أعرف كيف أجني ثروة من أشعاري ولكن أينتظر الكائن الإنساني مكافأة عندما يتوصل إلى الله؟ وإني أكتب الشعر في الحقيقة كما لو كنت أصلي. وإذا كنت أرفض استخدام الآلة الكاتبة في الكتابة فلأنني لا أريد شيئًا وسيطًا بين أصابعي وصفحة الورق.. إنني أحتاج إلى تحسس ملمسها كما أتحسس مادة حية...».

وتلقي ذكريات ريتسوس وأحاديثه عن كتاباته وأفكاره وفلسفته في الحياة والفن أضواء ساطعة عليه كإنسان وأديب، وهو في هذا المقام يقول:

«لم يكن لدي ناشر أول الأمر، فكان عليّ أن أمول مؤلفاتي بنفسي.. وكنت ما أن أستعيد جزءًا من التكاليف، بعد بيع كتاب، حتى أدفع الثاني إلى المطبعة.

ولم يتسن لي الحصول على شروط عمل ملائمة إلا عند بلوغي التاسعة والأربعين من عمري. أما قبل ذلك فقد عملت مجرد مراجع في إحدى دور النشر، ولكن ذلك أفادني كثيرًا، فقد قرأت وأعدت قراءة دوستويفسكي وغيره من الأعلام. وفي وقت سابق عملت في المسرح، وكانت مهنة شاقة، وفوق ذلك كان عليّ أن أهتم بأسرتي، كنت أحتاج إلى نوم عميق، لكنني في تلك الفترة لم أستطع ذلك حتى نشرت «سوناتا ضوء القمر». ونلت الجائزة الوطنية للشعر، فتحسنت أحوالي. وفي بداية عام ١٩٥٦ وقعت عقدًا مع دار «كيدروس» التي رغم ظروف عديدة لم أتخل عنها قط. إن الإخلاص خصلة مهمة في نظري».

وقد كانت السياسة نسيج حياة ريتسوس أيضًا، كالشعر، وقد اكتوى بنارها مرارًا، دخل السجون، وزج به في المعتقلات، وعانى من تحديد الإقامة بسبب آرائه السياسية، لاسيما في ظل نظام الكولونيلات، وهو في هذا يقول:

«لا تقل السياسة أهمية في حياتي عن الشعر. إن أصل أسطورة ريتسوس – إن كان هناك مثل هذه الأسطورة – لا تكمن في أشعاري فحسب، بل وفي حياتي كمناضل سياسي».

ولكن ريتسوس ما استخدم الشعر يومًا كتابع ذليل للسياسة، ولا سخره لخدمة أغراض خارج فن الشعر ذاته، ولنضرب مثلاً على ذلك ببعض قصائده، فتشير في هذا المقام أول ما نشير إلى قصيدته «الآن فحسب» وتجري أبيات القصيدة بالآتي:

«الآن، وما عاد لديك شيء تقوله، أو تطلع الآخرين عليه، أو تقترحه أو تدافع به عن نفسك. الآن، وقد ضاع كل شيء (وليس ذلك بالنسبة لك أنت فحسب) الآن بالضبط يمكنك أن تتكلم، وأنت تتجول بين أدوات التعذيب، وتدير بخنصرك التروس الحمقاء للساعات التالفة، أو العجلة المعلقة التي استخرجوها توًا من السفينة الغارقة.

الآن، بالضبط، والحبال تتدلى من البكرات المثبتة في السقف ويتردد صخبها من مواضع غير محدودة فوقك، مثل النجوم في تلك الليلة، عندما عدنا من الريف، فوجدناهم قد وضعوا في الفناء الرخامي بنظام صارم كرسيين من الخشب أسودين عاليين، وفي الوسط نعش الملك المقفل الذهبي، بلا أعلام، بلا تاج، بلا سيف».

كانت البساطة تنساب كالموسيقى في حياة ريتسوس وشعره، ويصف أحد أصدقائه بيته قائلاً:

«في بيته كانت الغرفة التي يشغلها مكتبه متواضعة جدًا: منضدة مثقلة بالكتب والأقلام، مروحة ومصباح تغطي بلون أزرق، أريكة، ومكتبة صغيرة رتبت على رفوفها قطع من الحجارة وأصص ورد. وفي الأرجاء تناثرت لوحات وتماثيل ومنحوتات يمكن أن تملأ صالة عرض صغيرة».

تنطوي قصائد ريتسوس على محاورات درامية في مسرح يتخذ له من عتبات الدنيا خشبة، تتلاقى عليه أشد الشخصيات تباينًا، تتبادل الإيماءات من قصيدة إلى أخرى. ولنذكر في هذا المقام على سبيل المثال العجائز في قصيدة «البيت الميت»، والأم الكليمة في «الجنائز»، والبناءون والمهرجون والنكرات من عابري السبيل وغيرهم من الشخصيات في قصائده النابضة بالحياة، يتحدث إلينا كل من هؤلاء بإصرار ويقين عن «الإنسانية التي هي ملك للناس أجمعين».

ولسوف يستوقفنا في شعر ريتسوس على الأخص تلك الرصانة في التعبير، والقناعة البلاغية مع ثراء المحتوى الشيئي فقد حفلت قصائده بالعديد من الجمادات مثل النوافذ والأبواب والمرايا والثياب وشتى الأدوات، وقد نفخ في هذه الماديات الصغيرة، التي لا تستغني عنها حياة البشر العادية، من روح الشعر، ما ارتقى بها إلى مستوى يجعل منها شركاء في مأساة لا تعنيها، فبالنسبة لها «لا شيء يحدث» بينما كل شيء في هذا «اللاحدوث» يحدث حقًا.

وفي قصيدته «مقابلة» يقول ريتسوس:

«لا شيء بالطبع يأتي من تلقاء نفسه تمامًا، لابد أن تتقب أنت أيضًا لتجد.

في الأصبيحة، تدخل الشمس من النافذة الشرقية. فيصير المقعدان الأرجوانيان باهتي اللون. تظل الشمس قليلًا، ثم تنسحب، تاركة وراءها إيحاء بالنعومة التي يخلفها الانطفاء الوئيد.

والزهور على السجادة، التي وطأتها الأقدام من قبل، تلصق آذانها بالأرض، وهي محقة فيما تفعل، إذ تنصت إلى الإيقاع الرتيب الصاعد من سنابك أحصنة تدق الأرض بالطابق السفلي، ثم تدخل المرأة الصموت. إنها تتحاشى - كما ترى - أن تطأ بقدميها تلك الزهور.

إن «غير المدرك» ربما أمكن أن يشارك في تحمله اثنان، وإن كان لا يتجلى في الحقيقة إلا لواحد على الدوام فحسب».

ويمضي ريتسوس في قصيدته «شكل الأشياء الغائبة» فيتحدث عن عالم الأشياء التي توجد في حياتنا وتتحالف مصائرها بمصائرنا، دون أن نعير وجودها التفاتًا. فيقول في مقاطع من هذه القصيدة:

« كل ما رحل انتشب جذوره هنا، في المكان ذاته، حزينًا صامتًا، مثل إناء زهر كبير كان في البيت تم بيع في أوقات عصيبة.

وفي ركن الغرفة، هناك، حيث كان الإناء قائمًا، ظل الفراغ مكثفًا على هيئة الإناء الذي لا يمكن عزله عن المكان. ويلمع بوضوح في الضوء بين الحين والحين عندما يفتح الشباك.

وفي الإناء ذاته الذي تغير جوهره عما كان عليه البلور الخاوي، ظل ذلك الفراغ على ما كان عليه.

كل ما هنالك أن زاد الإثم في أصداء الرنين.

من خلف الإناء يبين لون الحائط، وقد زاد إظلامًا وقتامة وإيحاء بالأحلام، كما لو كان الإناء مرتسمًا على مومياء.

وفي بعض الأحيان بالليل في ساعة سكون، بل وبالنهار أيضًا في خضم الأحاديث المتبادلة بين الحاضرين، تسمع في أعماقك صدى حادًا، مريرًا، كثير الذبذبات، كما لو كان ثمة أصبع خفي أرتطم بذلك الإناء البلوري الخجول، بذلك الجماد الذي لا يعرف الإشفاق.

... صارت هذه الغرفة بئرًا عميقة.

المصباح نجم مسمر على صفحة الماء، وسرير أيام الصبا في مكانه القديم، بينما فوق عاليًا، عند سطح الماء تسقط الساعات مثل عشب جاف، بطيئة وبلا ثقل، فتشق الماء بدوائر خفية.

هنا، ما من أحد يتكلم، وحتى إذا كان يتكلم فما من أحد يسمعه، وإذا مال كوب وسقط، فهو يسقط بلا صوت في راحة الصمت، ولا ينكسر.

صرخة الفراق القديمة، وقد ذابت في الماء تجعل وحدها البئر تبدو أكثر إظلامًا وعمقًا.

... في بعض الأحيان، تخيم على الغرف سكينة عميقة غريبة، كما لو كانت رفعت المرساة الكبيرة وضاعة من الأعماق، وصارت الحدود غير محدودة بين هنا وهناك.

عندئذ، أنت لم ترحل، بل نحن فقط تعدينا الحدود، شاعرين خلفنا دون أن نلتفت وراءنا، بخطواتنا المستريحة، بينما يمتد أمامنا الشط المترامي في الضوء الساجي عاويًا.

وعلى الرمال الناعمة المبتلة، ارتسمت آلاف الصلبان الصغيرة من مخالب الطيور البحرية التي كانت تسير هنا، ومرت إلى الجانب المقابل، دون أن تطير».

وقد ربطت بين ريتسوس وبين الناس علاقة حب. ولكن الحب أيضًا كان رباطًا يصل بينه وبين الكون والأشياء.

«لقد عرمت وما زلت أكتب القصائد الغزلية، عندما يعيش الكائن الإنساني حتى يشيخ، يشكل مع الأرض والكون وحدة متكاملة».

ومن قصائد ريتسوس الغزلية القصيدة الآتية:

أغمض جفني،
في الليل الساجي،
وأسمع مئات النجوم
تغني
عندما تنساب أناملك البيضاء على جسدي
أنا سماء الصيف المرصعة بالنجوم،
بحبك
أصبحت عميقًا ووسيعًا للغاية.
أصبحت كبيرًا ورحيبًا
أصبحت أكبر من أن تأخذيني بين ذراعيك وتضميني إليك.
يا حبيبتي
تعالي: نقتسم الهدايا التي جنيتها لي.
هاهي الغابة تنحني أغصانها مثقلة بزهورها البيضاء».

والشيخوخة في نظر ريتسوس تجعل الإنسان لا ينظر إلى ما حوله بعين الحدث اليومي، بل بكل تجارب الماضي.

وعن علاقة القصيدة بكل من الإبداع والالتزام يقول ريتسوس:

«بالنسبة إليّ ليست هناك قصيدة ملتزمة وأخرى غير ملتزمة. توجد القصيدة أو لا توجد أبدًا. لا ينبع عالم الشاعر من الأيديولوجيا، ولا يمكن أن تكون المسألة في الشعر حدود الالتزام...».

لم تكن البساطة عنوان حياة ريتسوس وحسب، بل كانت أيضًا عنوان شعره، وفي قصيدته «معنى البساطة» يقول:

«خلف الكلمات البسيطة أختبيء، حتى تعثروا عليّ.

فإن لم تجدوني فسوف تعثرون على الأشياء.

سوف تلمسون تلك التي لامستها يداي.

وبصمات أصابعنا على أديمها سوف تتحد...».

لم يكن ريتسوس في يوم من الأيام يائسًا، فلا مكان لليأس - كما يقول - في الشعر. ويمضي مقررًا أنه عرف دائمًا كيف ينتصر على الخوف، وكانت القصيدة عنده ملاذًا ونهرًا للحرية يعرف كيف يحفر مجراه العميق، وكيف يجرف في تياره ما يعوق سيره:

«إن القصيدة تعرف كيف تنتقم من جميع الطغاة»...

يقول ريتسوس في قصيدته «تشويهات محتملة»:

«وضعوا المرآة في الصندوق.
وبحذر غطوا الصندوق.
بإمكانهم الآن أن يتحركوا بحرية،
أن يسعلوا ويركعوا، أن يأتوا بإيماءات،
أن يلقوا ماء بإصرار إلى الزهور الورقية الكليمة في الإناء.

ومع ذلك، فقد ظلوا من جديد صامتين، وجلين، يخيم عليهم الحزن، لا يتحركون، خوفًا من أن تكون المرآة قد ظلت تعكس صورهم بمبالغة مهولة، وهي تلتقطهم من أسفل إلى أعلى،

فيبدون بأقدام ضخمة، وبلا رؤوس على الإطلاق».

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٢- في التناسب

اعلم أن التناسب هو اتفاق أقدار الأعداد بعضها من بعض، والعددان لا يتناسبان. أقل النسبة من ثلاثة أعداد، وأقل الأعداد المتناسبة بثلاثة أعداد المتناسبة إذا كانت ثلاثة. فإنّ قدر أولها من ثانيها كقدر ثانيها من ثالثها، وكذلك بالعكس، كل ثلاثة أعداد متناسبة، فإن مضروب أولها في ثالثها كمضروب ثانيها في نفسه وهذا مثال ذلك: «٤٦٩»، كل ثلاثة أعداد متناسبة إذا كانت حاشيتاها معلومتين والواسطة مجهولة. أعني بالحاشيتين الأول والثالث، فإذا ضُربت إحدى الحاشيتين في الأخرى، وأخذ جذر المجتمع كان ذلك هو الواسطة المجهولة. فإن كانت إحدى الحاشيتين معلومة، والواسطة معلومة، ضُربت الواسطة في مثلها، وقسم المبلغ على الحاشية المعلومة، فما خرج من القسمة فهو الحاشية المجهولة. الأعداد المتناسبة، إذا كانت أربعة فإن نسبتها على نوعين أحدهما نسبة التوالي، والآخر غير التوالي، فأمّا الأعداد المتناسبة المتوالية على نسبتها إذا كانت أربعة، فإن قدر أولها من ثانيها كقدر ثانيها من ثالثها، وثانيها من ثالثها كثالثها من رابعها مثال ذلك: «ب د ح يو» إذا كانت أعدادًا متناسبة غير متوالية، كان قدر أولها من ثانيها كقدر ثالثها من رابعها، ولم يكن قدر ثانيها من ثالثها كقدر ثالثها من رابعها، مثل هذه الصورة: «ح و ج يو» وكل أربعة أعداد متناسبة متوالية كانت أو غير متوالية، فإن مضروب أولها في رابعها مثل مضروب ثانيها في ثالثها. وإذا ضربت إحدى الواسطتين في الأخرى، وقسم المبلغ على الحاشية المعلومة، فما خرج فهو الحاشية المجهولة. فإن كانت إحدى الواسطتين مجهولة، وسائرها معلومة، ضربت إحدى الحاشيتين في الأخرى وقسمت المبلغ على الواسطة المعلومة.

من أبو العلا محمد إلى سيد مكاوي

إليـاس سحاب

من عاداتنا السيئة والكسولة والمدمرة التي تستهوي البعض، لاختصار العناصر المركبة للعمليات الإبداعية برمز واحد هو صوت المغني. ولو تمهلنا قليلاً لوجدنا أن كل ملحن وكل شاعر وكل عازف وراء الظاهرة الإبداعية، موضع هذه الدراسة، وتحمل اسم أم كلثوم.

لم تكن أم كلثوم وحدها نتاجًا لتلك العمليات الإبداعية المركبة، فهناك عبد الحليم حافظ وحتى محمد عبد الوهاب، الذي امتلك ناصيتي الإبداع الموسيقي والغنائي، فإن تاريخ ظاهرته الفنية المميزة التي غطت القرن العشرين، لا يكتمل بغير دراسة دقيقة للبيئة التي كونت حساسيته الغنائية والموسيقية الجديدة (مثل المشايخ علي محمود ودرويش الحريري ومحمد رفعت) وقادة الفرق الموسيقية والعازفين العباقرة الذين كانوا يشكلون فريق عمله الأساسي، من جميل عويس إلى عزيز صادق إلى عطية شرارة إلى عبد الحليم نويرة وعلي إسماعيل وأندريا رايدر في الموزعين، وأنور منسي وكامل إبراهيم وعبد الفتاح منسي وجورج ميشيل وإبراهيم العفيفي ومحمود عفت وأحمد الحفناوي وسواهم في العازفين.

في هذه الدراسة، سنحاول التعمق قليلاً في هذا الاتجاه، فنلقي مزيدًا من الأضواء على علاقة أم كلثوم بملحنيها، مع التركيز على: محمد القصبجي وزكريا أحمد، ورياض السنباطي، واقتراب سريع من علاقتها بملحني المرحلة الأولى: أبو العلا محمد والنجريدي وداود حسني، وملحني المرحلة الأخيرة: الطويل والموجي وبليغ حمدي وعبد الوهاب وسيد مكاوي.

ولا تتوقف أهمية هذه المحاولة عند الإلمام المعمق بصائغي الإبداع الفني الكبير الذي كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة عظيمة باسمه، ولكن تتجاوز ذلك إلى التحليل الموضوعي لعلاقات أم كلثوم بهؤلاء المبدعين. فهذه العلاقات، بكل تعرجاتها وسلبياتها وإيجابياتها، لا ترسم لنا فقط ملامح شخصية أم كلثوم الفنية بكل نتوءاتها، ولكنها تحكي لنا بلسان فصيح، فصولاً من المخاض الثقافي الذي مازالت الأمة العربية تخوض غماره منذ صدمة الاتصال بالغرب والتحدي الغربي التي جاءت بها حملة نابليون بونابرت، والتي مازالت تشكل معضلة في كل جوانب الحياة العربية (السياسية والثقافية)، كلما اقتربنا من الإمساك بالصيغة العملية والمثالية لعلاقتنا بالغرب وتفاعلنا معه، قذفتنا أمواج الضغوط والمطامع الخارجية، ومفاصل الخلل الذاتي الداخلي، بعيدا عن مثل هذه الصيغة.

ساعتمد في هذه المحاولة لقراءة العلاقات المعقدة والمتنوعة بين أم كلثوم وملحنيها، على المعلومات المقارنة التي تملأ تلالاً من الكتب والمجلات والصحف والمقابلات الإذاعية والتليفزيونية، كمرجع أولي. ولكني ساعتمد، بعد ذلك، وربما أكثر من ذلك، على الحقائق الفنية التي يمكن استخلاصها من استقراء الشخصية الفنية لكل واحد من هؤلاء الملحنين (خاصة الثلاثة الأساسيين في حياة أم كلثوم) عبر المكونات العامة لهذه الشخصية، والمكونات الخاصة التي تتجلى بوضوح شديد في المقارنة بين نتاج هؤلاء الملحنين لصوت أم كلثوم (ذي الطبيعة المحافظة)، والأصوات النسائية الأخرى، خاصة أسمهان وليلى مراد، اللتين انطلقتا من الأسس المحافظة، إلى آفاق الكلاسيكية العربية الحديثة، بما يتجاوز الحدود التي أصرت أم كلثوم على التوقف عندها، بل العودة إليها بعد مغامرات تجديدية رائعة (مع القصبجي خاصة، وبدايات السنباطي)، أدت بأم كلثوم (كما سنرى) إلى التردد، ثم التراجع عنها. حتى ليمكن القول بثقة، إنه إذا كان لقصة علاقة أم كلثوم بملحنيها الأحد عشر (وخاصة الثلاثة الرئيسيين) جانب إنساني يروي دراما العلاقات الإنسانية المعقدة على مستوى القمة الفنية في عصر ما، فإن لهذه القصة جانبًا فنيًا، ذا ملامح تتداخل بل تتماهى مع ملامح التيارات المختلفة التي صنعت بتنافرها وتفاعلها العصر الذهبي للموسيقى والغناء العربيين في القرن العشرين. وهذا الجانب الفني من القصة، هو ما ستحاول السطور التالية تركيز الضوء عليه.

وسيلاحظ القارئ أن الإطار العام الذي توصلت إليه، بعد هذه القراءة المعمقة في سيرة علاقات أم كلثوم بملحنيها، هو إطار يقسم حياة أم كلثوم الفنية إلى مرحلتين شديدتي الوضوح:

* مرحلة أم كلثوم التلميذة النابغة، التي تشرب كل قطرة فن وثقافة تأتيها من أي أستاذ وضعته الظروف في طريقها (في الشعر والموسيقى والثقافة العامة والحياة الاجتماعية).

* ومرحلة أم كلثوم الأستاذة المقتدرة، التي بلغت ثقتها بنفسها، مع نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، حدود التفرد في قراراتها الفنية، وهو تفرد (وصل أحيانًا حد التسلط) ستصدم به حتى أساتذتها الأوائل الذين بقوا إلى جانبها، ولكن مع انقلاب كامل في العلاقة بينها وبينهم.

من التكوين في الأرياف إلى الاحتراف في القاهرة

يمكن اعتبار السيرة الفنية لأم كلثوم (متداخلة مع سيرتها الشخصية) حلقة في سلسلة سير معظم، بل ربما كل رموز العصر الذهبي للموسيقى العربية في القرن العشرين، حيث لا يشذ أي من هذه الرموز عن قاعدة التخرج من مدرسة الإنشاد الديني، قبل الانتقال إلى ممارسة التلحين أو الغناء على صعيد الاحتراف. ولابد هنا من استطراد عام (قبيل الدخول إلى السيرة المباشرة لأم كلثوم) ينبه إلى أن الأنظمة الحديثة لمناهج تدريس الموسيقى العربية (في المعاهد العامة أو الخاصة) قد أهملت هذه القاعدة الذهبية إهمالاً كليًا، بدأت آثاره العملية السلبية تصيب «أرض» الموسيقى والغناء العربيين بالتصحر، الذي تتسع مساحته كل يوم، لأن إلغاء تلك الدراسة التقليدية التي كانت ترضع كل محترفي الموسيقى والغناء من ينابيعها (حتى منتصف القرن العشرين) لم يتم تعويضها ببديل عصري في المناهج العصرية لتدريس الموسيقى العربية بأساليب جديدة تتيح لدارسي الموسيقى والغناء العربيين في العصر الحديث، الارتواء من ينابيع الإنشاد الديني، الذي كان يؤمنه التلقي الشفاهي المباشر جيلاً عن جيل.

ويتحول هذا النقص الفاضح، إلى كارثة ثقافية حقيقية في المعاهد الموسيقية الكبرى المنتشرة في الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، والمتخصصة في تدريس الموسيقى الأوروبية وحدها، فتخرّج لنا أجيالا متعاقبة من محترفي الموسيقى الذين يحملون الهوية العربية، ولكنهم قطعوا الصلة تماما بينابيع الموسيقى العربية، التقليدية والمعاصرة، علميا ووجدانيا، ثم يتصدرون مراكز «القرار» في الحياة الموسيقية الأكاديمية في طول الوطن العربي وعرضه، فيخرّجون أجيالا متلاحقة من الموسيقيين العرب (في جنسيتهم)، والمنقطعي الصلة بينابيع الموسيقى العربية، على الصعيدين العلمي والوجداني. ولا يستثنى من ذلك إلا نفر محدود جدا، عوض جانبا من هذا النقص بمجهود فردي، خارج مناهج الدراسة في معهده الموسيقي. ولا غرابة في ذلك، فقد علمتنا الطبيعة منذ الأزل، أن الثمار مرهونة ومحكومة ببذورها.

نقفل هذا الاستطراد الضروري، ونعود إلى أم كلثوم التي دخلت مدرسة الإنشاد الديني من باب بيئتها العائلية، فكان والدها أستاذها الأول (وربما ملحنها الأول) لأنه تحول من تحفيظها التراث التقليدي للإنشاد الديني، إلى وضع تواشيح دينية خاصة بها، بعد أن اكتشف أنه قد أنجب صوتا استثنائيا، يستحق الرعاية والاهتمام اللذين كان قد خص بهما ابنه البكر.

بديهي القول بأن أم كلثوم كانت في تلك المرحلة المبكرة تقبع في موقع المتلقي الخاضع تماما لتوجيهات الأستاذ، بحكم موقعه كأستاذ أول وموقعه كوالد، في بيئة ريفية محافظة.

وكان من الممكن لأم كلثوم أن تبدأ حياتها وتنهيها في هذه البيئة العائلية والفنية الأولى، فلا تتجاوز حدود الإنشاد الديني في الموالد الريفية، لولا أن القدر قد وضع في طريقها اثنين من عباقرة التلحين (أبو العلا محمد، وزكريا أحمد) سيتاح لهما رسم ملامح المنعطف الأكبر في حياة هذه الفنانة الاستثنائية.

ومع أن زكريا أحمد يحتل في التسلسل التاريخي لملحني أم كلثوم المركز الرابع (بعد أبو العلا والنجريدي والقصبجي)، فإن دوره في إقناع والد أم كلثوم بالقرار التاريخي بانتقالها إلى القاهرة، يوازي دور أبو العلا محمد، بل ربما يفوقه أو يسبقه على الأقل.

ولم يكن انتقال أم كلثوم إلى القاهرة في البداية يعني بالضرورة انتقالها من الإنشاد الديني إلى احتراف الغناء الدنيوي (كما في التعبير الأوروبي).

ويسمح تسلسل وقائع حياة أم كلثوم بالاستنتاج أن القرار التاريخي بانتقالها من الإنشاد الديني إلى احتراف الغناء واعتماد «التخت الموسيقي»، قد نضج في ذهن والدها، وصاحب القرار في حياتها في تلك المرحلة، في إطار الإعجاب الواسع الذي أثاره صوت أم كلثوم لدى من استمع إليها في إنشادها الديني من محترفي الموسيقى والغناء في القاهرة، ومن علية القوم في المجتمع القاهري، الذين أتيح لهم الاستماع إليها في بيوتهم وقصورهم.

ونستقرئ وقائع حياة أم كلثوم عند ذلك المنعطف، فيبرز أمامنا في البداية اسمان: الشيخ أبو العلا محمد، المذهبجي في فرقة مطرب القرن التاسع عشر الأول عبده الحامولي، والذي احترف الغناء وتلحين القصائد بعد رحيل الحامولي (١٩٠١)، ثم أحمد صبري النجريدي، طبيب الأسنان الذي هوى فن التلحين، والذي لم يحفظ له تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة سوى مجموعة حفنة من القصائد، وحفنة من الطقاطيق، لحنها لصوت أم كلثوم.

في علاقة أم كلثوم بالشيخ «أبو العلا محمد»، من المؤكد أنها كانت علاقة التلميذة المبتدئة في خطى الاحتراف الأولى، بالأستاذ المخضرم وصاحب الخبرة والشهرة. وقد بدأ الشيخ أبو العلا بتحفيظها قصائد عبده الحامولي (سجلت منها اثنتين: أراك عصي الدمع وأكذب نفسي). أما بقية القصائد من ألحان أبو العلا محمد، التي سجلتها أم كلثوم بصوتها، فهي في معظمها، بل ربما كلها، لم تلحن خصيصا لصوت أم كلثوم، بدليل وجود تسجيلات سابقة (ولاحقة) لها بأصوات أخرى، كصوت ملحنها أبو العلا نفسه، وأصوات فتحية أحمد وصالح عبد الحي.

أما بالنسبة لأحمد صبري النجريدي، فمع أن أم كلثوم قد تعاملت معه (في النصف الثاني من العشرينيات) وهي في الطور الأول للاحتراف، فيبدو أنه لم يستطع لعب دور الأستاذ في حياتها، لسببين مرجحين:

* الأول فني، يتعلق بتواضع حجمه الفني، كملحن هاو.

* والثاني شخصي، يتعلق على ما يبدو بتسرعه في الخلط بين العلاقة الفنية والعلاقة الشخصية، الأمر الذي قصر عمر العلاقة الفنية بينهما، حتى وضع حدا لها، في وقت مبكر.

وقبل الانتقال إلى مركز الثقل في هذه الدراسة، أي إلى الملحنين الأساسيين الثلاثة في حياة أم كلثوم (القصبجي، وزكريا، والسنباطي)، لابد لاستكمال الملامح الأساسية في هذا العرض، من إشارة سريعة إلى الملحن الكبير المخضرم داود حسني، الذي وضع لأم كلثوم في سنوات عمره الأخيرة (توفي سنة ١٩٣٧) مجموعة من الأدوار والطقاطيق ذات القيمة الفنية المهمة في المرحلة الأولى من حياة أم كلثوم. ومن المرجح أن علاقة أم كلثوم بداود حسني كانت أقرب إلى علاقة التلميذ بالأستاذ أيضا، فقد تم تعاونها معه وهي في بداية السلم، فيما هو يختتم حياة فنية حافلة



بالإنجازات الكبرى انطلاقا من تنصيب محمد عثمان (عبقري الموسيقى الأبرز في القرن التاسع عشر) لداود حسني خليفة شرعيا له، وانتهاء بالإشراف على تدريب أصوات بارزة أخرى، غير أم كلثوم، بينها أسمهان وليلى مراد ومحمد عبد المطلب.

ومع انتهاء هذه المرحلة التأسيسية، كانت أم كلثوم قد أكملت مع أساتذتها الأوائل، مرحلة التكوين الفني الأساسي بعقد أواصر صلة متينة مع الينبوعين الأساسيين: تراث التواشيح الدينية، على يد والدها الشيخ إبراهيم، وتراث القرن التاسع عشر، وخاصة فن القصيدة وفن الدور، على يد أبو العلا محمد وداود حسني، مع إشارة تاريخية ضرورية، إلى تداخل بين تعاملها مع داود حسني في مرحلة «التأسيس» الأولى، وبين مرحلة «الانطلاق» الكبرى الثانية، مع القصبجي وزكريا والسنباطي.

محمد القصبجي

لقاء محمد القصبجي مع أم كلثوم كان لقاء حاجة ماسة لدى كل منهما للآخر، لذلك يبدو لنا هذا اللقاء الذي ظهرت أولى ثماره في العام ١٩٢٨، أنه ينتمي إلى الحتمية أكثر من انتمائه للمصادفة.

فمحمد القصبجي، الذي ولد مع سيد درويش في عام واحد (١٨٩٢)، لم يكن له عند وفاة سيد درويش في العام ١٩٢٣ أي إنتاج موسيقي يدخله عصبة عباقرة الموسيقى العربية، التي دخلها فيما بعد من أوسع الأبواب، بينما كان سيد درويش قد أنتج فيما بين ١٩١٧ و١٩٢٣ من الموشحات والأدوار والطقاطيق الشعبية والألحان المسرحية ما أحله (عن جدارة كاملة) في موقع رائد مدرسة القرن العشرين في الموسيقى العربية.

وقد تكون أسباب عديدة وقفت وراء ظاهرة تأخر بروز عبقرية القصبجي اللحنية إلى ما بعد وفاة سيد درويش بخمس سنوات، غير أن استقراء وقائع الحياة الموسيقية العربية يضع في مقدمة هذه الأسباب، أن القصبجي كان قبل لقائه بأم كلثوم، عبقرية موسيقية مكبوتة، لأن مستوى الغناء الرائج قبل ظهور عبد الوهاب وأم كلثوم، ومستوى أساليب الأداء الغنائي حتى لدى الأسماء اللامعة كعبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية، كل ذلك كان (باستثناء سيد درويش) أدنى مستوى من الخيال الموسيقي الجامح والتجديدي لمحمد القصبجي.

هذه إذن كانت حاجة القصبجي الملحة لأم كلثوم. أما حاجة أم كلثوم للقصبجي فقد ولدت عندما أكملت تحولها من الإنشاد الديني إلى احتراف الغناء، الأمر الذي فرض الحاجة إلى فرقة موسيقية تكون على مستوى طموح أم كلثوم إلى الانتقال من الإنشاد الديني إلى الغناء الراقي، وليس إلى الألوان الرائجة الأقرب إلى الهبوط، والتي كادت أم كلثوم تقع فريسة لها في لحظة عابرة في بداياتها الفنية (طقطوقة الخلاعة والدلاعة مذهبي). وهذه الحاجة الماسة لدى أم كلثوم هي نفسها التي

أم كلثوم وملحنوها

هذه العلاقات، بكل تعرجاتها وسلبياتها وإيجابياتها: لا ترسم لنا فقط ملامح شخصية أم كلثوم الفنية بكل تنوعاتها، ولكنها تحكي لنا بلسان فصيح، فصولا من المخاض الثقافي الذي مازالت الأمة العربية تخوض غماره منذ صدمة الاتصال بالغرب والتحدي الغربي التي جاءت بها حملة نابليون بونابرت، والتي مازالت تشكل معضلة في كل جوانب الحياة العربية



فرضت تلك العلاقة المميزة في حياتها الفنية مع أحمد رامي (كشاعر وكاتب نص غنائي راق) ومع محمد القصبجي كعازف عود ممتاز وقائد فرقة موسيقية صغيرة في البداية، ثم كملحن عبقري، ذي آفاق بالغة الثراء والرفعة الفنية.

غير أن التساوي في حاجة الواحد منهما إلى الآخر، لم يكن يتطبق بالدرجة نفسها على القدرات الفنية لدى الطرفين. فعدا عن أن أم كلثوم كانت عند اللقاء لم تكمل عامها الخامس في احتراف الغناء، بينما كان القصبجي موسيقيا وعازفا مكتمل النضج وصاحب خبرة عملية طويلة، فإن فارقا مميزا بقي يميز القصبجي ويضعه في موقع الأستاذ المعلم (سواء عندما كانت أم كلثوم تعترف بذلك وتنصاع له، أو عندما كفت عن ذلك) وهو أن القصبجي كان صاحب عقل موسيقي جبار، جعل إبداعه الموسيقي يرتاد آفاقا تجديدية، مما سيجعل مؤرخي مدرسة القرن العشرين ومنظريها - في اعتقادي - يضعون اسمي محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي في صدارة المجددين، لأنهما صاحبا أغزر وأهم إنتاج (بين زملائهم وأقرانهم من المبدعين المجددين).

هذه الخاصية التجديدية لدى محمد القصبجي هي التي وقفت وراء ذلك التميز الذي برزت فيه ألحان القصبجي لصوت أم كلثوم على مدى ستة عشر عاما (١٩٢٨ - ١٩٤٤). وهذه الخاصية التجديدية نفسها هي التي وقفت وراء ذلك الطلاق الدرامي المبكر بين ألحان القصبجي وحنجرة أم كلثوم، عندما بالغ الأول في جموحه التجديدي، وشعرت الثانية أنها نضجت بما يكفي لتنفرد بقرارها الفني، بعد مرحلة الطاعة العمياء أو شبه العمياء للأساتذة الأوائل.

تكتفي الدراسات أو الكتابات التي تؤرخ للقصبجي (عبر أم كلثوم غالبا) بأنه مبتكر الشكل الثابت لفن المونولوج في الموسيقى العربية المعاصرة (مونولوج إن كنت أسامح وانسى الأسية - ١٩٢٨).

غير أن علاقة القصبجي بفن المونولوج تتجاوز بكثير هذه الواقعة التاريخية، حتى يمكن القول بأن خصائص فن المونولوج قد سيطرت على الفكر الموسيقي للقصبجي ودمغت بطابعها كل أعماله، التي لم تتجاوز شكل المونولوج أصلا إلا إلى شكلين آخرين: القصيدة والطقطوقة. وقد يفيد في تفسير هذا الاتجاه الخاص بمحمد القصبجي أنه كان بين أقرانه زعماء العصر الذهبي لمدرسة القرن العشرين، الوحيد الذي يفتقد إلى جمال الصوت (كعبد الوهاب والسنباطي) أو بحوضه بجمال الأداء (كزكريا أحمد وسيد درويش). فقد كان ذا صوت قبيح وأداء قبيح (تسجيل رق الحبيب بصوته).

يهيأ لي أن حرمان القصبجي من جمال الصوت والأداء قد فجر فيه انغماسا كليا في أعماق خياله الموسيقي، وترافق ذلك مع افتتانه بالمؤلفات الأوركسترالية العظيمة في الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية.

صحيح أن القصبجي قد استعار فن المونولوج من فن الأوبرا الغنائي (لا الفن السيمفوني الآلي)، غير أن ألحان القصبجي الكبيرة لأم كلثوم (حتى المبكرة منها) كانت تكشف عن أن هذا العبقري إنما كان يؤلف للأوركسترا أكثر مما يؤلف للصوت البشري.

في هذه النقطة بالذات، يلتقي ويتطابق - كما أعتقد - سر العظمة الخاصة لألحان القصبجي، وسر طلاقه الفني المبكر من أم كلثوم. لقد أمضى القصبجي ستة عشر عاما كاملة يبلور حنجرة أم كلثوم وفقا لمتطلبات خياله الفني، ويجرها إلى عالمه الخاص، البعيد عن مزاج أم كلثوم الأساسي الذي اكتسبته من تربيتها الأولى على الإنشاد الديني، وقصائد الحامولي وأبو العلا محمد التقليدية. وكانت الجرأة التجديدية، الطابع الغالب لغالبية ألحانه لأم كلثوم، حتى في بدايتها (إن كنت أسامح)، مرورا بـ«قين العيون» و«ياما ناديت» و«طالت ليالي البعاد»، والقصائد - المونولوج مثل «فاكرى» وأيها الفلك، وصولا إلى المونولوجين خطيري الشأن في فيلم نشيد الأمل (يا مجد، ومنيت شبابي). حتى جاءت تجربة فيلم «عايدة» (١٩٤٢) وبروز أسمهان اللامع والصاعق بين عامي ١٩٣٧ و١٩٤٤.

لقد سجل مسلسل أم كلثوم فيلم عايدة كمنعطف في علاقة القصبجي بأم كلثوم، وتحوله من موقع أستاذها وملحنها الأول، إلى موقع عازف العود في فرقتها الموسيقية. غير أن سيناريو المسلسل توقف عند نقطة الفشل الجماهيري للفيلم، الذي صدم أم كلثوم، وفسره القصبجي بأن الجمهور هو الفاشل، لا الفيلم.

إن التفسير الفني الأقرب إلى المنطق، لهذا المنعطف الخطير في علاقة القصبجي بأم كلثوم، هو أن صاحبة الحنجرة الاستثنائية، التي تربت في الحضن الدافئ للإنشاد الديني والغناء العربي التقليدي مع قصائد أبو العلا محمد، والتقليدي المتجدد مع أدوار وطقاطيق داود حسني وزكريا أحمد، قد بدأت تشعر بالبرودة في حضن الرحلة التجديدية الجامحة لمحمد القصبجي، التي أوغلت (في فيلم عايدة بالذات) بعيدا في بحار بعيدة، لم تعد تشعر أم كلثوم معها بالراحة الذاتية العفوية، أو تلك الراحة المكتسبة من ثقة التلميذ المطلقة بأستاذه.

ومع أن محمد القصبجي حاول - على ما أعتقد - تصحيح مسار علاقته بأم كلثوم، والخروج من صدمة ألحان فيلم «عايدة» الجامحة في تغريبها، فحصر خلاصة عبقريته وخلاصة تجاربه في مونولوج «رق الحبيب»، تلك التحفة النادرة في خزانة الموسيقى العربية الكلاسيكية المتجددة، فإن عنصرين جديدين كانا قد برزا في سياق العلاقة الإنسانية (لا الفنية هذه المرة) بين أم كلثوم والقصبجي، ليزيدا الأمور تعقيدا:

أ - وصول شهرة أم كلثوم في منتصف الأربعينيات إلى ذروة ذات حجم تاريخي، خرج بها نهائيا من موقع التلميذة المطيعة التي يسيرها أساتذتها، إلى موقع الأستاذة كاملة الاقتدار، طاغية الشهرة الفنية والاجتماعية.

ب - اعتماد القصبجي حنجرتي أسمهان وليلى مراد في التعبير عن بعض أفكاره الموسيقية الجديدة.

وقد شاءت الظروف أن تتضح هذه العوامل كلها وتتزامن مع وصول عبقرية زكريا أحمد إلى ذروتها التاريخية مع مونولوجات مسرحية من طراز «أهل الهوى» و«أنا في انتظارك» و«الآهات»، وتفتح عبقرية السنباطي في سلسلة مونولوجاته الذهبية من طراز «هلت ليالي القمر»، فتضافرت كل هذه العناصر على ما يبدو، لتدق ساعة استغناء أم كلثوم عن محمد القصبجي الملحن، استغناء كاملا ونهائيا، وليس الاكتفاء بتنحيته عن موقع «الملحن الأول». فوضع لها ثلاثة ألحان أخيرة في فيلم فاطمة (١٩٤٧) لا ترقى أبدا إلى مستوى تراثه التاريخي معها. وتذكر الوقائع أن القصبجي قام بعد ذلك بمحاولات عديدة لاستعادة رضى أم كلثوم عنه كملحن، ولكنها كانت تكرر الرفض، كلما كرر تقديم محاولة لحنية جديدة لها.

أما لماذا قبل القصبجي بذلك الحكم القاسي، الذي أصابه بالصمت المطبق بالنسبة لأم كلثوم وأي صوت آخر، فلم ينفصل عن أم كلثوم بل اكتفى بإطلاق صيحته العبقرية الأخيرة من خلال صوت ليلى مراد بلحنه المدهش (أنا قلبي دليلي - ١٩٤٧) وبحنين جميلين في «شاطئ الغرام»، واكتفى بمقعد عازف العود في فرقة أم كلثوم الموسيقية حتى آخر يوم في حياته (٢٦/٣/١٩٦٦)، فتلك ذروة المأساة الغامضة في حياة هذا العبقري الاستثنائي.

زكريا أحمد

يشير تسلسل الوقائع، إلى أن علاقة زكريا أحمد بأم كلثوم قد نضجت «على نار هادئة». فقد تم لقاؤهما الشخصي الأول الذي استمع فيه الملحن القاهري إلى المنشدة الريفية، في مطلع العشرينيات، بينما تأخر اللقاء الفني الأول بينهما في القاهرة (طقطوقة اللي حبك يا هناه) حتى مطلع الثلاثينيات.

ومع أن زكريا كان صاحب نصيب وافر في إقناع والدها الشيخ إبراهيم بالانتقال إلى القاهرة، فقد بدأت أم كلثوم رحلتها الاحترافية في القاهرة مع ثلاثة ملحنين (أبو العلا محمد والنجريدي والقصبجي)، قبل الدخول في عالم زكريا أحمد. ولم يكن هناك ما هو أكثر بديهية من ذلك اللقاء، فزكريا أحمد شيخ، قبل أن يكون ملحنا، وصاحب فرقة للإنشاد الديني قبل أن يحترف التلحين للمطربين والمطربات. وفيما كان يبدو أن القصبجي قد رسم للحنجرة العبقرية خطا تجديديا يبتعد بها عن أصولها التقليدية الأولى مع الإنشاد الديني، ومع قصائد أبو العلا محمد، تقدم زكريا أحمد، وكأنه شعر بحاجة صاحبة تلك الحنجرة إلى لونه الموسيقي وثيق الصلة بالإنشاد الديني وبتراث القرن التاسع عشر، أو لعله قد تلقى بالفعل إشارة أو دعوة بالتقدم إلى ذلك الموقع، من أم كلثوم نفسها.

هذه المقدمة ضرورية لتفسير المستوى القوي الذي رسم بداية التعاون الفني بينهما (اللي حبك يا هناه، وجمالك ربنا يزيده) وكأنه ثمرة إعداد طويل، وليس وليد اللحظة. فلم تدخل هاتان الأغنيتان في قائمة الروائع الخالدة التي أنشدتها أم كلثوم فقط، بل إنهما دخلتا تاريخ الموسيقى العربية من الباب العريض كمنعطف تجديدي بالغ الأهمية والخطورة في توسيع آفاق شكل الطقطوقة، ونقله من شكل موسيقي بسيط، يقف عند حدود استيعاب المعاني البسيطة، والأفكار الموسيقية البسيطة، إلى شكل أكثر تعقيدا وتنوعا، نافس بعد ذلك شكلي المونولوج والقصيدة، في استيعاب أرقى المعاني، وأجرأ الأفكار الموسيقية المتطورة والمعقدة.

والحقيقة أنه من الظلم، ومن الخطأ أصلا تصنيف زكريا أحمد في خانة الفنانين التقليديين أو المحافظين، برغم كل الظواهر الأولية التي توحي بذلك وتشير إليه. إن استقراء مجمل التراث المهم الذي تركه زكريا أحمد بصوت أم كلثوم، يؤكد أن هذا الملحن العبقري قد يكون استثناء فريدا في الفنون عند سائر الشعوب، وليس عند العرب فقط.

الجديد الذي جاء به زكريا أحمد للموسيقى العربية، وهو المحافظة على مضمون فني تقليدي، في إطار من الثورة الكاملة على الأشكال الموسيقية القديمة، فبقي محافظا حتى آخر ألحانه «الهوى غلاب» (١٩٦٠) على مضمون فني هو امتداد شرعي لروح محمد عثمان، مع أنه حطم شكل الدور التقليدي بأكثر من تجديد مثير، وطور شكل الطقطوقة من مذهب متكرر ومقاطع متشابهة، إلى مذهب متكرر ومقاطع مختلفة في اللحن وفي المقام، واقتحم شكل المونولوج الثوري الذي استعاره القصبجي للموسيقى العربية من الموسيقى الأوروبية، فطعمه بروح مضمونه الفني التقليدي، وربما بلغ ذروة العظمة الفنية في ذلك مع مونولوج «حلم».

إن استنتاج هذه الملامح الأساسية في شخصية زكريا أحمد ضرورة ملحة في سبر أغوار علاقته الفنية بأم كلثوم، فمن المؤكد كما

أم كلثــــوم وملحنــوهـــــا

إذا كان لقصة علاقة أم كلثوم بملحنيها الأحد عشر (وخاصة الثلاثة الرئيسيين) جانب إنساني يروي دراما العلاقات الإنسانية المعقدة على مستوى القمة الفنية في عصر ما، فإن لهذه القصة جانبا فنيا: ذا ملامح تتداخل بل تتماهى مع ملامح التيارات المختلفة التي صنعت بتنافرها وتفاعلها العصر الذهبي للموسيقى والغناء العربيين في القرن العشرين



يبدو في الخط البياني لتطور سيرة أم كلثوم الفنية، أن لون زكريا أحمد (التقليدي في مضمونه، المتجدد في أشكاله) كان قريبا جدا (بل ربما الأقرب، قبل ظهور السنباطي) إلى المزاج الفني الخاص لأم كلثوم. ولا شك أن زكريا أحمد كان يبادل أم كلثوم المشاعر الفنية نفسها، بدليل أنه ظل يعتبرها (حتى في فترة الخصام) خير من يؤدي ألحانه، ولم يترك مناسبة من المناسبات القليلة التي كان يتحدث فيها للصحافة أو الإذاعة إلا ويصنف صوت أم كلثوم ـ بلا تحفظ ـ أنه هبة استثنائية من السماء.

وهكذا، لم يكن في أي عنصر من عناصر العلاقة الفنية بين أم كلثوم وزكريا أحمد، ما يمكن أن ينذر باختلال تلك العلاقة، فهو أستاذها (سنا وخبرة) وهو صاحب اللون الفني الأثير لديها (حتى ظهور السنباطي). غير أن العوامل الإنسانية تدخلت مرة ثانية، لتلعب دورا صاخبا في تلك العلاقة الفنية الهادئة، وهي عوامل متعلقة بطرفي العلاقة على حد سواء.

فزكريا أحمد كان فنانا صعب المراس، شديد الاعتزاز والاعتداد بفنه إلى درجة لاتعرف المساومة، ولا حتى التعايش مع الألوان أو التيارات الفنية الأخرى (خاصة عبد الوهاب).

هذا من جهة الملحن. أما من جهة أم كلثوم، فيبدو أنها عندما وصلت قمة نضجها الفني وقمة تألقها في المجتمع القاهري في منتصف الأربعينيات، أصبح ثلاثة من عباقرة الموسيقى العربية متفرغين في بلاطها الفني، الأمر الذي كان فيه ما يكفي من الإغراء لدفع أم كلثوم إلى التصرف في هذا البلاط كملكة حقيقية، بغض النظر عن سن ملحنيها الثلاثة وعن أحجامهم الفنية العملاقة وأستاذيتهم المستحقة بكل جدارة، وأسبقيتهم في عالم الفن.

ومع أن موضوع الخلاف الذي فجر العلاقة بين أم كلثوم وزكريا أحمد منذ ١٩٤٧ حتى وفاته في مطلع العام ١٩٦١ (باستثناء اللحن الأخير: الهوى غلاب)، كان يتناول الأجر المادي، إلا أن مضمون الخلاف كان كما يبدو في كل تصريحات زكريا أحمد في فترة الخصام الطويلة، يتعلق بإصراره على الندية في التعامل كفنان له بلاطه الخاص به، سواء بالنسبة لأم كلثوم (مهما علا شأنها الفني والاجتماعي) أو بالنسبة لزملائه من ملحني أم كلثوم.

ريـــاض السنبـــاطـــي

هناك الكثير مما يسمح لنا بالاستنتاج أن أم كلثوم، كانت في نهاية عقد الثلاثينيات ومطلع عقد الأربعينيات، قد وصلت إلى ذروة من النضج الفني والاجتماعي، أصبحت معه بحاجة نفسية (وربما فنية أيضا) للتخفف (ولو تدريجيا أو جزئيا) من ضغط علاقاتها بأساتذتها، القصبجي وزكريا أحمد، على خياراتها الفنية. غير أن الاستجابة لنداء هذه الحاجة كانت مستحيلة، من غير وجود ملحن كبير، يكتمل فيه شرطان متلازمان:

* أن يكون أصغر سنا من أم كلثوم، حتى تستطيع التحرر من وضعها كتلميذة، لا تملك غير الطاعة تتعامل بها مع أستاذها، شأنها مع أساتذتها الأوائل (والدها، ثم أبو العلا محمد فالقصبجي فزكريا أحمد).

* أن تكون قامته الموسيقية شامخة بحيث توازي (أو تقارب على الأقل) ارتفاع القامة الفنية لأم كلثوم في تلك المرحلة.

لقد بذلت أكثر من محاولة، في تلك المرحلة وقبلها بقليل، في الأوساط السياسية والاجتماعية والفنية والاقتصادية (أبرزها المحاولة المتكررة لطلعت باشا حرب)، لتكوين ثنائي فني على مستوى القمة من أم كلثوم وعبد الوهاب. غير أن صفة المطرب اللامع عند عبد الوهاب (وعوامل أخرى سنعرضها فيما بعد) كانت تمثل لأم كلثوم عبئا في العلاقة، أين منه أعباء علاقتها بالقصبجي وزكريا أحمد. وكان القدر كان يهيئ رياض السنباطي، الذي لو لم يكن موجودا، لوجب إيجاده، للتقدم لملء الموقع الموسيقي الذي كان يبحث عن بطل إلى جوار أم كلثوم.

وسيتبين فيما بعد، أن اللون السنباطي ـ الكلثومي، أو الكلثومي ـ السنباطي، سيصبح علامة فنية مميزة لكل من أم كلثوم المطربة، والسنباطي الملحن، على الرغم من القيمة الفنية المؤكدة والمميزة لكل منهما، بعيدا عن الآخر. ولكن لنبدأ القصة من أولها.

يروي السنباطي في مقابلة ـ وثيقة للتلفزيون الكويتي قبل رحيله بسنتين عن لقائه الأول بأم كلثوم، في إحدى محطات قطار الصعيد، وكان كل منهما يرافق والده لحفلات إنشاد ديني. ويرجح أن يكون العام ١٩١٤ هو عام ذلك اللقاء، حيث يؤكد السنباطي (المولود ١٩٠٦)، أنه كان يومها في التاسعة من عمره. غير أن اللقاء الفني بينهما تأخر عن ذلك اللقاء الشخصي الأول عشرين عاما ونيف.

قبل ذلك، كان السنباطي قد التحق بفرقة محمد عبد الوهاب الموسيقية (مشهد أغنية «ياللي شجاك الأنين» في فيلم الوردة البيضاء ـ ١٩٣٣).

بعد ذلك بعامين، لحن السنباطي لأم كلثوم في فيلمها وداد أغنية ذات طابع شعبي (على بلد المحبوب وديني) حولتها في الفيلم لصوت عبده السروجي، لعدم اقتناعها باللحن، ولكنها عادت وسجلتها بصوتها على أسطوانة، بعد نجاحها الجماهيري. وكانت تلك بداية لحنية متواضعة للسنباطي.

غير أن العامين التاليين شهدا الانطلاقة الكبرى. ففي العام ١٩٣٦، شارك السنباطي زميله الكبير محمد القصبجي ألحان فيلم أم كلثوم نشيد الأمل. قدم السنباطي في هذا الفيلم ثلاث روائع لحنية. إذا نظرنا إليها اليوم نظرة تحليلية يمكن تصنيفها كما يلي:

١ ـ نشيد الجامعة (يا شباب النيل) كان السنباطي فيه بادي التأثر بعبد الوهاب (نشيد العلم ـ فيلم دموع الحب ـ ١٩٣٥).

٢ ـ مونولوج «قضيت حياتي». كان فيه السنباطي كامل التأثر بأسلوب القصبجي، حتى يبدو اللحن لهذا الأخير.

٣ ـ افرح يا قلبي. ويبدو فيه السنباطي منطلقا من التأثر بالقصبجي، ولكن باتجاه بلورة شخصيته الفنية الخاصة المستقلة.

كما وضع السنباطي لأم كلثوم، في العام نفسه، لحنه العظيم «النوم يداعب»، الذي اعتبره عبد الوهاب بين أهم ألحان السنباطي. وكانت بصمات القصبجي واضحة المعالم أيضا على هذا اللحن.

وحدث عند هذا المنعطف، أن تعاقدت أم كلثوم مع إذاعة القاهرة، على مشروع الحفلة الشهرية الثابتة، المذاعة مباشرة على الهواء، وهو ما سيصبح الإطار الذي تطل أم كلثوم منه على جمهورها، حتى نهاية حياتها الفنية (١٩٧٣ ـ قبل رحيلها بعامين).

عند هذا المنعطف، ولدت ـ في اعتقادي ـ حاجة أم كلثوم إلى لون فني تختاره هذه المرة بنفسها، وبقرار تكون هي سيدته، بعد أن ظلت في السنوات الأولى لحفلاتها الشهرية، تعتمد على ألحان شهيرة قصيرة للقصبجي وزكريا وأبو العلا، سجلتها على أسطوانات مثل (ليه تلاوعيني وأنت فاكراني).

هنا، كانت عبقرية السنباطي اللحنية قد بدأت تتضح، كما بدأت شخصيته الخاصة المميزة تتبلور. فبدأ يزود أم كلثوم بحلقات السلسلتين الذهبيتين اللتين سترسمان ملامح التعاون الفني الشامخ فيما بينهما بعد ذلك:

١ ـ سلسلة المونولوجات المسرحية المطولة، التي تعوض جماهير القرن العشرين، عن أطايب وصلة الطرب المتنوعة العناصر في القرن التاسع عشر (عبده الحامولي).

٢ ـ سلسلة القصائد ذات البناء الهندسي العربي المتميز (أشبه ما تكون بقصور العرب في الأندلس)، والتي أخرج فيها السنباطي كل مخزون وجدانه الصوفي، خاصة في القصائد الدينية، ولكن حتى في القصائد العاطفية.

بالنسبة للسلسلة الأولى (المونولوجات المسرحية المطولة، المصممة خصيصا للغناء الحي أمام الجماهير)، كانت البداية الخجولة بمونولوجي «فاكر لما كنت جنبي» (١٩٣٧) و«يا طول عذابي» (١٩٣٨). غير أن الانطلاقة الكبرى لهذا اللون السنباطي ـ الكلثومي كانت من غير شك مع القصيدة ـ المونولوج «الذكريات» (١٩٣٩) ومونولوج «هلت ليالي القمر» (١٩٤٠). فظل السنباطي يجود فيه ويلون ويضيف في أعمال مثل غلبت أصالح، سهران لوحدي، جددت حبك، يا ظالمني، دليلي احتار، عودت عيني، حيرت قلبي، إلى آخر هذه السلسلة الذهبية مع «ليلي ونهاري»، والقلب يعشق (ذات الموضوع الديني).

أما بالنسبة للسلسلة الثانية، فقد تم تدشينها مع قصيدة «سلوا كؤوس الطلا»، في العام ١٩٣٧، ومع أنها كانت الحلقة الأولى في هذه السلسلة الذهبية، فإنها حوت ـ منذ البداية ـ كل عناصر تلك السلسلة الذهبية التي ستتشعب بين العاطفي والديني، والتي سيكون من أروع نماذجها «سلوا قلبي ونهج البردة» (في القصائد الدينية)، ورباعيات الخيام والأطلال (في اللون الوجداني) حتى آخر سلسلة القصائد العاطفية (ذكريات وقصة الأمس وأقبل الليل ومن أجل عينيك).

ومع أن زكريا أحمد قد شارك السنباطي عشر سنوات كاملة، في أمجاد الحفلات الجماهيرية الحية (١٩٣٧ ـ ١٩٤٧)، غير أن السنباطي تفرد بهذه الأمجاد وحده حتى مطلع عقد الستينيات، بعد تلك القطيعة الشهيرة مع زكريا، التي يبدو أنها لم تكن مؤسسة على خلافات فنية، بل شخصية وإنسانية عامة.

لا شك بأن الحصيلة العامة لفن أم كلثوم العظيم، يقدم لنا كل البراهين والحجج التي تؤكد أن أم كلثوم لم تجد نفسها فنيا، كما فعلت مع ألحان السنباطي، ولا يجوز أن يوحي ذلك للحظة بالخلط بين القيمة الفنية والراحة النفسية. ولكن المقصود بالضبط هو أن أم كلثوم عندما وضع لها السنباطي مونولوجات مثل هلت ليالي القمر ويا اللي كان يشجيك أنيني (إلى آخر السلسلة) وقصائد من طراز سلوا كؤوس الطلا وسلوا قلبي ورباعيات الخيام، وجدت أخيرا اللون الأقرب إلى قلبها ووجدانها، اللون الذي لو وهبها الله موهبة التلحين (الذي جربته مرتين وفشلت)، فإنها كانت ستتجه إليه، وهذا افتراض له كل ما يبرره.

ولكن بقي السؤال الأهم في موضوع تداخل الإنساني بالفني في علاقة أم كلثوم بالسنباطي: هل هناك شبهة في قيام أم كلثوم (بعد أن تحولت إلى أستاذة، وإلى صاحبة قرار فني مستقل بل متفرد) بفرض هذا اللون على رياض السنباطي؟

هناك حقائق في حياة السنباطي الإنسانية لا تسمح بإطلاق مثل هذه الفرضية، بل قد توحي بعكسها تماما

فمع أن السنباطي كان يصغر أم كلثوم سنا، بسنوات قد تصل إلى الثماني، ومع أن بداية تعاونهما كانت بين الملحن الموهوب (ولكن الناشئ) والمطربة الأشهر والأهم، فإن من المؤكد أن السنباطي كان يتمتع بشخصية قوية وبثقة بنفسه وبفنه على درجة عالية ومعروفة للجميع.

لا يشذ أي من هذه الرموز عن قاعدة التخرج من مدرسة الإنشاد الديني، قبل الانتقال إلى ممارسة التلحين أو الغناء على صعيد الاحتراف. ولا بد هنا من استطراد عام ينبه إلى أن الأنظمة الحديثة لمناهج تدريس الموسيقى العربية قد أهملت هذه القاعدة الذهبية إهمالاً كلياً، بدأت آثاره العملية السلبية تصيب «أرض» الموسيقى والغناء العربيين بالتصحر

ومع ذلك فإننا يمكن بعد نظرة شاملة إلى الرصيد التاريخي الكامل للسنباطي، أن نؤكد وجود تيارين فنيين مختلفين في نتاجه الفني:

* السنباطي غير الكلثومي.
* والسنباطي الكلثومي.

أما السنباطي غير الكلثومي فيمكن أن نرصد ملامحه الفنية المميزة، في كل أو معظم ما لحن لغير أم كلثوم، بما في ذلك ألحانه التي سجلها بصوته، ثم بأصوات سواه (خاصة أسمهان وليلى مراد).

وإذا حاولنا اختصار الفارق الأساسي الذي يميز السنباطي غير الكلثومي عن السنباطي الكلثومي، فإننا نعود إلى الفارق الأساسي بين الفلسفة الجمالية لمدرسة القرن التاسع عشر والفلسفة الجمالية لمدرسة القرن العشرين في الموسيقى العربية. وهذا الفارق يتركز على أن الأولى (مدرسة القرن التاسع عشر) كان الخيال الموسيقي فيها (والأداء الموسيقي) في خدمة الصوت، وفنونه التطريبية والزخرفية، ومدى اتساع مساحاته بين قرار وجواب. أما مدرسة القرن العشرين، فقد أدت كل مؤثرات التفاعل مع الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، إلى انبهار الموسيقيين بالقدرات التعبيرية اللامحدودة للأوركسترا الكبير، مقارنة بالقدرات المحدودة للتخت الموسيقي. فأصبح كبار الموسيقيين العرب، أو معظمهم، يلحن للأوركسترا كما للصوت البشري، بل يعتبر الأداء الصوتي جزءا من التعبير الفني الذي تؤديه الأوركسترا. ومع أن هذه المعادلة ظلت تختلف في توازن نسبها بين ملحن وآخر، إلا أن نسبة توجه الخيال الموسيقي إلى التعبير الأوركسترالي (إلى جانب التعبير الصوتي الغنائي) ظلت بارزة (باستثناء زكريا أحمد بين الكبار) كما رأينا. فإذا عدنا إلى السنباطي، فإن ألحانه تشير إلى تنقله الدائم بين عنصري هذه المعادلة. فكان عندما يلحن لأم كلثوم، ذات الصوت الاستثنائي، وذات الحاجة إلى ألحان تؤديها في حفلات طرب حي أمام الجماهير بشكل مستمر (منذ ١٩٣٧ وحتى توقفها)، كان بديهيا أن يضع خياله الفني في خدمة عظمة ذلك الصوت، وحاجة ذلك الصوت في حفلات الطرب المسرحي الجماهيري المباشر. أما عندما كان يلحن لصوته، أو لأصوات أسمهان وليلى مراد، ثم نجاة الصغيرة ووردة، وحتى عبدالحليم حافظ، فكان يشعر بمزيد من الحرية، فيطلق العنان لخياله الموسيقي في كل ما يحلو له. وهي ما يعبر به عن تطلعه للتلحين للأوركسترا الكبيرة.

غير أن الخط البياني العام لمجمل إبداع رياض السنباطي، يشير إلى طغيان لونه الكلثومي على لونه اللاكلثومي. حتى أنني كتبت مقالا عند رحيل أم كلثوم بعنوان: «ماذا سيفعل رياض السنباطي الآن»؟

طبعا، كان يمكن الرد نظريا على هذا التساؤل بالقول، أن بوسعه الانطلاق في لونه الثاني اللاكلثومي، ولكن الشيخوخة كانت قد زحفت إلى حيويته الفنية، فأتى الصمت ما عدا ألحان قليلة لوردة وفايزة أحمد وميادة الحناوي وسعاد محمد وفيروز، كلها - ويا للغرابة! - مطبوعة بالطابع السنباطي الكلثومي، وإن لم يرتفع أي منها إلى مستوى الروائع الكلثومية. لهذا العملاق الذي اختارته أم كلثوم ليعوضها عن موهبة التلحين التي لم يمن بها الله عليها، فارتبط معها ارتباطا لا فكاك منه، حتى في رحاب الخلود.

محمد الموجي وكمال الطويل

ما إن انتصف عقد الأربعينيات، حتى كان المشهد واضحا في قمة الغناء العربي



الكلاسيكي، يتربع على قمته محمد عبد الوهاب (مغنيا وملحنا) وأم كلثوم وحولها عباقرة اللحن الثلاثة (القصبجي وزكريا والسنباطي). غير أن تعديلا مهمًا اكتمل مع العام ١٩٤٧، وبعد انسحاب القصبجي ثم زكريا أحمد عن هذا الثلاثي، فاحتل السنباطي، لفترة طويلة، موقع الملحن الأوحد لصوت أم كلثوم.

وكان بديهيا أن يفتح ذلك شهية الملحنين الطامحين (حتى قبيل اكتمال انسحاب القصبجي وزكريا). فغنت في العام ١٩٤٣ لحنا لفريد غصن «وقفت أودع حبيبي» (بناء على ترشيح من القصبجي فيما يبدو)، ولكن عدم تجاوب الجمهور مع الأغنية دفع أم كلثوم إلى التوقف عن غنائها، بل إلى إعدام التسجيل الوحيد لها، كما هو مرجح.

بعد ذلك، من المعروف أن محاولات عديدة، قد بذلها ملحنون عديدون، منهم أحمد صدقي وفريد الأطرش ومحمد فوزي، دون نتيجة عملية. ولا بد من وقفة، ولو عابرة، عند اقتراب الملحن العبقري محمود الشريف من أم كلثوم، بل اقترانه العابر بها.

لقد أتيح لي في لقاء شخصي مع الشريف في منزل صديقي العبقري الراحل صلاح جاهين، أن أستمع إلى كلمات قليلة رد بها الشريف على سؤالي عن قرانه بأم كلثوم. وأهم ما في هذه الكلمات القليلة تصريحه بأن موضوع الزواج كان مقرونا بمشروع فني بينه وبين أم كلثوم لإحياء زخم المسرح الغنائي. غير أن المشروعين انتهيا إلى فشل (الزواج والمسرح الغنائي).

فإذا كان كلام الشريف دقيقا، فإن من حقنا أن نتخيل أن نجاح مثل هذا المشروع كان سيغير كثيرا في تفاصيل السيناريو الفني لحياة أم كلثوم، بل سيغير في ملامح المنافسة بينها وبين عبد الوهاب، الأمر الذي كان (لو جنح بنا الخيال) سيؤدي إلى إثراء الحياة الموسيقية والغنائية العربية المعاصرة بعناصر من الثراء الفني، لا يمكن تصور حدودها.

غير أن هذا لم يحدث، وأصبحت أم كلثوم سيدة الحفلات المسرحية الشهرية، بعد أن تحول عبد الوهاب عن الحفلات الحية، في مطلع الأربعينيات، مفضلا عليها التسجيلات في استوديوهات الإذاعة، طلبا للحد الأقصى من الإتقان، وتحررا من قيود طلبات الجمهور في الحفلات الحية، وهي تجربة عملية صدمت عبد الوهاب في آخر حفلاته الحية (قبل الحفلة اليتيمة عام ١٩٥٤ التي غنى فيها «كل دا كان ليه»)، عندما رفض الجمهور الاستماع إلى الجندول، رائعة عبد الوهاب الخالدة، وأصر على سماع المواويل وأغنيات الطرب المعروفة (مين عذبك، لما انت ناوي الخ..). فأطلق عبارته الشهيرة: «أريد أن أشد الجمهور، لا أن يشدني».

التبدل الأول في هذا المشهد الثابت للمنافسة بين عبد الوهاب من جهة، وأم كلثوم (مع ملحنها الوحيد المعتمد السنباطي) من جهة ثانية، جاء مع التحولات الاجتماعية والثقافية التي بدأت ثورة ٢٣ يوليو تطلق لها العنان. فلفت نظر أم كلثوم ظهور ملحنين موهوبين وراء ظاهرة عبد الحليم حافظ الجديدة: محمد الموجي (صاحب صافيني مرة)، وكمال الطويل (صاحب على قد الشوق).

فمن المرجح أن أم كلثوم، بعد أن استقرت على لون فني واضح المعالم مع ملحنها الأثير رياض السنباطي، ترتاح إليه راحة كاملة لأنه ترجمة أمينة لمزاجها الفني الحميم، بدأت تبحث عن تجدد ما، ضمن إطار لونها الذي أصبح واضح المعالم. فكلفت محمد الموجي في العام ١٩٥٤ بتلحين أنشودة الجلاء، التي نظمها شاعرها الأثير أحمد رامي.

ويبدو أن هذا التعاون الأول المحدود مع الموجي، قد شجع أم كلثوم على المضي في «المغامرة» قدما. فعندما أنتجت إذاعة القاهرة بعد ذلك بعام (١٩٥٥) برنامج رابعة العدوية، كان ثلاثي الملحنين الذي تولى مهمة تلحين قصائد طاهر أبو فاشا الصوفية العميقة مكونا من رياض السنباطي ومحمد الموجي وكمال الطويل. وأعطت «المغامرة» كل ثمارها، فخرجت ألحان الفارسين الجديدين موازية لألحان العملاق المخضرم، عدا لحن واحد للطويل (غريب على باب الرجاء) أبدى الطويل عدم اقتناعه به، واتفق مع أم كلثوم على سحبه. بل إن المفاجأة كانت أن لحني الموجي (حانة الأقدار والرضا والنور) ولحن الطويل (لغيرك ما مددت يدا) قد انتشرا أكثر من ألحان السنباطي لرابعة العدوية، على روعتها، ربما لأنها تحمل نكهة جديدة، إضافة إلى الرصانة والمستوى الحرفي الرفيع المتأثر بالسنباطي على أي حال.

وشهد العام التالي (١٩٥٦) مع الأجواء المشحونة والكثيفة لتأميم قناة السويس، اندفاع أم كلثوم إلى مدى أبعد في «مغامرتها»، فاختارت شاعرا شابا أيضا هو صلاح جاهين، ليكتب لها قصيدتين بالعامية، واحدة لتحية مرشدي قناة السويس المصريين (محلاك يا مصري) والثانية لمعركة التحدي في بور سعيد (والله زمان يا سلاحي). فكلفت الموجي باللحن الأول، الذي وضع فيه خلاصة الروح الشعبية العميقة التي تميز بها خط الموجي (إلى جانب رومانسيته الرفيعة)، وكمال الطويل باللحن الثاني، الذي أبدع في صياغته على شكل نشيد حماسي كلاسيكي، أكمل فيه سلسلة «أيها الخفاق» و«نشيد الحرية» لعبد الوهاب، و«يا شباب النيل» الذي غنته أم كلثوم من ألحان السنباطي. وقد وصل الإجماع على قيمة هذا النشيد إلى درجة اختياره نشيدا وطنيا لمصر، قبل النشيد الحالي.

ونترك كمال الطويل يحدثنا عن علاقته الفنية بأم كلثوم، التي يمكن اعتبارها تعبيرا عن علاقة الملحنين الموهوبين الشابين بالمغنية التي تتربع على قمة الغناء العربي المعاصر.

الحكاية الأولى يروي فيها كمال الطويل الرهبة التي انتابته عندما تلقى دعوة أم كلثوم، ومحاولته التملص منها. ثم يروي كيف تصرفت أم كلثوم لكسر تلك الرهبة، بدعوته لتكرار زيارتها في منزلها، قبل مفاتحته بأي عمل فني، الأمر الذي لم يتم إلا بعدما شعرت أم كلثوم بانكسار حاجز الرهبة، فطلبت إليه التلحين لها. ولما طرح كمال الطويل السؤال البديهي البسيط: «ولكن كيف ألحن لك يا ست، لا أدري؟».. ردت ببساطة: «عادي كما تلحن لنجاة الصغيرة».

أما الحكاية الثانية فهي في صميم الخيارات الفنية المتفاوتة بين كمال الطويل وأم كلثوم. فمع أن الطويل قد حاول في لحنه صياغة معادلة يرضي بها طموحاته الفنية الخاصة، وطبيعة صوت وأداء أم كلثوم، فإن التوزيع الموسيقي الذي اقتضاه الطابع الحماسي للنشيد، اعتمادا على آلات النفخ النحاسية والطبل السيمفوني والصنوج السيمفونية، أثار حفيظة أم كلثوم فعلقت بسخريتها المعهودة: ألا ينقضي الأمر بغير هذه «الحلل» (الطناجر).

وفي الترجمة الفنية لهذا الموقف، يمكن أن نعيد الاستماع إلى «والله زمان يا سلاحي»، فنكتشف أن أداء أم كلثوم أشد ما يكون تمكنا وراحة و«سلطنة»، مع المقطع الثاني على مقام البياتي (يا مجد يا مجدنا)، بينما نسمع في المقطع التالي (مصر الحرة مين يحميها) أداء مستوترا قلقا، لأن لحنه يخرج عن نطاق حساسيات الطرب التقليدي، إلى الحساسيات الجديدة التي تفنن في إدخالها إلى نسيج الموسيقى العربية القصبجي وعبد الوهاب. علما بأن أم كلثوم كانت قد أدت مقطعا مشابها

في فلسفته الجمالية، براحة كاملة، في لحن السنباطي القديم «يا شباب النيل»، وهو مقطع «يا شباب النيل هيا للعلا تعاونوا». غير أن تلك كانت مرحلة «تتلمذ» أم كلثوم على يدي القصبجي (١٩٣٦) بينما كنا في العام ١٩٥٦ في صميم مرحلة أم كلثوم «الأستاذة».

ولعل في تلافيف هذا الموقف، تكمن محاولة تفسير انقطاع أم كلثوم عن التعاون مع الطويل، واستمرار تعاونها مع الموجي، الذي كلفته بعد ذلك بلحنين طويلين في إطار حفلاتها الشهرية: للصبر حدود (١٩٦٤) واسأل روحك (١٩٧٠). فجاء الأول محاولة صريحة من الموجي للتعبير عن شخصيته في إطار مدرسة السنباطي الكلثومية. أما الثاني (أسأل روحك) فكان فيه الموجي أكثر تحررا، فأطلق العنان لرومانسيته العميقة في لحن رائع، لكن الوقت كان متأخرا، فصوت أم كلثوم في السبعينيات، كان مجرد ظل جميل لصوتها العبقري في العقود السابقة.

بليغ حمدي

غير أن «مغامرة» أم كلثوم الكبرى كانت من غير شك مع بليغ، وذلك لأسباب ثلاثة:

١ - أنه عندما كلفته أم كلثوم باللحن الأول كان لم يتجاوز الثلاثين من عمره بعد، وكانت أم كلثوم قد بلغت ضعف سنه، وأضعاف شهرته الفنية.

٢ - أنها أدخلته رأسا «حرم» حفلاتها الشهرية المطولة، خلافا لتصرفها مع محمد الموجي، الذي تفصل عشر سنوات كاملة بين نشيد الجلاء (لحنه الكلثومي الأول)، و«للصبر حدود» أول ألحان الموجي لحفلات أم كلثوم الشهرية، ومع كمال الطويل الذي لم يدخل هذا «الحرم».

٣ - أن التعاون بين أم كلثوم وأصغر ملحنيها لم يكن مجرد نزوة أو تجربة عابرة، بل تحول إلى علاقة فنية ثابتة، فوضع لها فيما بين ١٩٦٠ و١٩٧٣ أحد عشر لحنا (واحد منها وطني: سقط النقاب، على أثر نكسة ١٩٦٧). أي بمعدل يقارب اللحن الواحد في السنة. وقد تساوى في ذلك مع محمد عبد الوهاب (عشرة ألحان)، في كونهما الملحنين الوحيدين من خارج قائمة ملحنيها «الدائمين» تاريخيا، اللذين تحول تعاونهما مع أم كلثوم إلى تعامل ستوى ثابت. وتفرد بليغ حمدي بكونه صاحب آخر لحن سجلته أم كلثوم بصوتها على أسطوانة (حكم علينا الهوى - ١٩٧٣)، ومنعها المرض من تقديمه على المسرح في حفلة حية.

في أواخر عقد الخمسينيات كان المشهد العام لامبراطورية أم كلثوم الفنية مسرحا لتدفق هائل للمخيلة الفنية لملحن أم كلثوم الأوحد (في ذلك العقد) رياض السنباطي: أروح لمين، هجرتك، الحب كده، لسه فاكر، قصيدة قصة الأمس، وقصيدة ثورة الشك. وكان تعاون أم كلثوم مع الموهبتين الجديدتين (الطويل والموجي)، قد توقف عند أعمال وطنية قصيرة، إضافة إلى ألحان رابعة العدوية...

ويبدو أن غزارة السنباطي الاستثنائية في ذلك العقد الذهبي من سيرته الفنية، لم يلجم رغبة أم كلثوم (وقد تربعت على العرش بلا منافس)، عن البحث عن نغمة شابة جديدة. ويبدو أن محمد فوزي كان يعمل في لحن لأم كلثوم عندما لفت انتباهه الصعود الصاروخي للموهبة الجديدة بليغ حمدي. وإذا صحت الحكاية التي تقول أن محمد فوزي قد بلغ من إعجابه ببليغ حمدي أنه توقف عن التلحين لأم كلثوم ورشح لها زميله الجديد بقوة، فإن هذه الحكاية تستحق التوثيق الدقيق والمفصل من مؤرخي الموسيقى العربية المعاصرة، لما فيها من معان بليغة. الخميس الأول من ديسمبر

القصبجي كان صاحب عقل موسيقي جبار، جعل إبداعه الموسيقي يرتاد آفاقا تجديدية، مما سيجعل مؤرخي مدرسة القرن العشرين ومنظريها، في اعتقادي، يضعون اسمي محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي في صدارة المجددين؛ لأنهما صاحبا أغزر وأهم إنتاج تجسدت فيه المعادلة الصعبة



١٩٦٠ (وهي الليلة الأولى في ذلك الشهر) لم تكن عادية في مسيرة أم كلثوم، ومسيرة بليغ حمدي وزكريا أحمد، بل كانت ليلة تاريخية بالنسبة للثلاثة. فقد تكونت الوصلة الكلثومية الثلاثية في افتتاح موسم ١٩٦٠ - ١٩٦١، من:

١ - رائعة رياض السنباطي هجرتك (غنتها للمرة الرابعة عشرة)

٢ - أول لحن كلثومي لبليغ حمدي، حب إيه اللي أنت جاي تقول عليه.

٣ - رائعة زكريا أحمد وبيرم التونسي الخالدة «الهوى غلاب»، وآخر ألحانه لها. (يشاء القدر أن يرحل بيرم التونسي بعد الحفلة الأولى للأغنية، ويرحيل زكريا أحمد بعد الحفلة الثانية بأسبوعين، وذلك في يناير وفبراير ١٩٦١ على التوالي).

ومع أن «حب إيه» تعتبر اليوم من أضعف ألحان بليغ حمدي لأم كلثوم، وقد تكون أضعف أغنياتها المسرحية المطولة، فقد فتنت النكهة الجديدة للملحن الشاب الجمهور الكلثومي المتمرس، وأم كلثوم نفسها وهي في ذروة نضج تجاربها الفنية، أكثر من رائعة زكريا أحمد، التي تعتبر من أقوى ما شدت به أم كلثوم في تاريخها الطويل. فمن يراجع جدول الموسم الغنائي لأم كلثوم ٦٠ - ١٩٦١، المكون من تسع حفلات، بين ديسمبر ويوليو (بما في ذلك حفلة مؤتمر المحامين العرب في فبراير، وحفلة أعياد الثورة في يوليو)، يجد أن «حب إيه» لم تغب عن أية حفلة في ذلك الموسم، بينما غابت «الهوى غلاب»، عن ثلاث من الحفلات التسع.

ويمكن اعتبار هذه الفاتحة في علاقة بليغ حمدي بأم كلثوم، نموذجا لطبيعة تلك العلاقة، التي أغدقت فيها أم كلثوم على الموهبة الموسيقية الشابة رعاية لا مثيل لها في حياتها الفنية، هي أشبه برعاية الأستاذ لتلميذه الذي آمن بموهبته إلى أبعد مدى.

وللأمانة نقول أن كل الإيجابيات التي طرحتها أم كلثوم بكرم شديد بين يدي بليغ حمدي، كان يقابلها سلبية مهمة، هي أن مرحلة «ربيع» بليغ حمدي الملحن كانت تتعامل مع «خريف» أم كلثوم الصوتي، وذلك واضح كل الوضوح في آخر لحنين غنتهما أم كلثوم لبليغ «الحب كله» (في حفلات حية) و«حكم علينا الهوى» (في أسطوانة).

خلاصة القول في هذه العلاقة أنها إذا كانت قد منحت بليغ حمدي الشهرة من أوسع أبوابها، والثقة الكاملة بالنفس، فإنها منحته شيئا ثالثا، قد يكون هو الأهم فنيا. فالشخصية الموسيقية لبليغ حمدي تقول أنه، بلغة الرياضة، من سباحي المسافات القصيرة، ومعلوم أن سباحة المسافات الطويلة تقتضي قدرات وتقنيات لا يمتلكها سباحو المسافات القصيرة أو المتوسطة.

سيد مكاوي

إنه آخر اسم في قائمة ملحني أم كلثوم الأحد عشر. ومع ذلك فإن محاولاته لدخول بلاطها سبقت كثيرا ظهور لحنه الأول، والأوحد، لها «يا مسهرني». وقد اختصر التوأم الفني لسيد مكاوي، العبقري الراحل صلاح جاهين، اختصر لي «معاناة» سيد مكاوي في الوصول إلى حنجرة أم كلثوم، وإحساسه بالإحباط بسبب تكرار فشل محاولاته الأولى، حتى واساه صلاح بعبقرية السخرية لديه: «ولا يهمك، يتهوفن نفسه لم تغن له أم كلثوم، ومع ذلك خلدت ألحانه».

والحقيقة أن الشيخ سيد كان على قدر الفرصة التي أتيحت له في الموسم الغنائي الكلثومي ما قبل الأخير، فصاغ لها لحنا يراعي كل شروط الأغنية الكلثومية المسرحية الجماهيرية، ويراعي في الوقت نفسه حدود صوتها في العقد الأخير من حياتها الفنية. ثم انطلق بعد ذلك لإنجاز لحن ثان، يتمتع بالمواصفات نفسها (أوقاتي بتحلو معاك، الذي حوله بعد ذلك للفنانة وردة)، ولكن الكلمة الأخيرة، في هذه العلاقة التي كانت أشبه بانشاكه الناضجة، في آخر مواسمها، كانت للقدر.

محمد عبد الوهاب

نادرا ما استمعت إلى تقييم كامل الموضوعية، للعلاقة الفنية المتأخرة التي جمعت أم كلثوم بعبد الوهاب. ويبدو ذلك طبيعيا ومنطقيا إذا تذكرنا أننا عشنا جميعا عصر هذين العملاقين اللذين طبعا القرن العشرين بطابعهما، كما عبر عن ذلك الموسيقار رياض السنباطي عندما أكد أننا نعيش فنيا في عصر عبد الوهاب وأم كلثوم، وأننا يجب أن «نحمد الله على ذلك». (استقيت هذا الرأي حرفيا من تسجيل لسهرة منزلية في لبنان، كان نجمها رياض السنباطي).

أما سبب صعوبة الموضوعية في الحكم على تعاون عبد الوهاب وأم كلثوم، فهو أن بعضنا افترض - نظريا - أنه ما دام اللقاء بين أعظم ملحني القرن وأعظم مطربات القرن، فلا بد من أن تكون الثمرة أعظم أغنيات القرن وألحانه.

ولكن النتيجة العملية لم تأت مطابقة للتحليل النظري (وما كان لها أن تأتي كذلك)، فلا جدال بأن الأغنيات العشرة التي شدت بها أم كلثوم من ألحان عبد الوهاب (ثماني أغنيات عاطفية، وأغنيتان وطنيتان)، ليست بالقطع أجمل أغنيات أم كلثوم، ولا هي أعظم ألحان عبد الوهاب. ومن المؤكد أن سجل خلود عبد الوهاب وسجل خلود أم كلثوم قد كتبا بنصيبهما شبه النهائيين، قبل «أنت عمري».

بعد هذا الإقرار بالنتيجة النهائية، يسهل علينا الاقتراب من تحليل العلاقة الفنية بين هذين العملاقين بأدوات موضوعية.

التفسير الأكثر شيوعا لعدم تعاون عبدالوهاب وأم كلثوم قبل عقد الستينيات، وفشل كل المحاولات المتكررة في هذا الاتجاه، من أكثر من مرجع مبهم، هو الغيرة الفنية المتبادلة، وخشية أم كلثوم من تكرار مصير منيرة المهدية، عندما كان تعاملها مع عبد الوهاب، مقدمة لأفول نجمها.

أما تفسير اللقاء المتأخر، برأي أصحاب هذه النظرية، فيشير إلى سببين:

* ضعف عامل الغيرة الفنية مع تقدم السنين، واستقرار كل نجم على عرشه.

* تدخل الرئيس عبد الناصر المباشر في موضوع التعاون، وإلحاحه عليه.

غير أن الاقتراب من هذا الموضوع الشائك بأدوات التحليل الفني الموضوعية، تشير إلى أسباب أخرى، مع عدم استبعاد عامل الغيرة الفنية، الإنساني والطبيعي.

فمع أن الفنانين، قد شربا، في مرحلة النشأة، من الينابيع نفسها (تراث الإنشاد الديني، وتراث القرن التاسع عشر)، إلا أن اكتشاف عبد الوهاب لموهبته التلحينية، دفعه إلى مسافة أقرب من الاحتكاك بالموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، والنهل من ينابيعها، والتأثر بها، في أدائه الغنائي، وفي أساليبه التلحينية.

ولأن عبد الوهاب قد انطلق في هذا الاتجاه بعد استكمال استيعابه الكامل والمعمق لتراثه القومي، والتأصل عميقا في جذوره، فإن المحصلة العملية ما كان يمكن لها أن تكون تغريبا (كما كان يصر غلاة المحافظين، خاصة في النصف الأول من القرن العشرين)، بل جاءت النتيجة توليد أساليب متجددة من داخل الشخصية الراسخة للغناء العربي والموسيقى العربية، وهو

كتــاب الــزاويــة

رسائل إخوان الصفا

٤ ـ في مثنوية الإنسان

اعلم يا أخي، أيّدك اللّه وإيّانا بروح منه، بأن الإنسان لما كان هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية، وهما جوهران متباينان في الصفات، متضادان في الأحوال، ومشتركان في الأفعال العارضة والصفات الزائلة، صار الإنسان من أجل جسده الجسماني مريداً للبقاء في الدنيا، متمنيًا للخلود فيها، ومن أجل نفسه الروحانية صار طالبًا للدار الآخرة، متمنيًا للبلوغ إليها، وهكذا أكثر أمور الإنسان ونصرف أحواله مثنويةٌ متضادة كالحياة والممات والنوم واليقظة والعلم والجهالة والتذكر والغفلة والعقل والحماقة والمرض والصحة والفجور والعفة والبخل والسخاء والجبن والشجاعة والألم واللّذة، وهو متردد بين الصداقة والعداوة والفقر والغنى والشبيبة والهرم والخوف والرجاء والصدق والكذب والحق والباطل والصواب والخطأ والخير والشر والقبح والحسن وما شاكلها من الأخلاق والأفعال والأقاويل المتضادة المتباينة التي تظهر من الإنسان الذي هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية.

واعلم يا أخي بأن هذه الخصال التي عددنا لا تنسب إلى الجسد بمجرده، ولا إلى النفس بمجردها، ولكن إلى الإنسان الذي هو جملتها والمجموع منها الذي هو حي ناطق مائت، فحياته ونطقه من قبل نفسه وموته من قبل جسده، وهكذا نومه من قبل جسده، ويقظته من قبل نفسه. وعلى هذا القياس سائر أموره وأحواله المتباينات المتضادات، بعضها من قبل النفس، وبعضها من قبل الجسد، مثال ذلك عقله وعلمه وحلمه وتفكره وسخاؤه وشجاعته وعفته وعدله وحكمته وصدقه وصوابه وخيره وما شاكلها من الخصال المحمودة.

الطابع الغالب على ما سيبقى من تراث عبد الوهاب الموسيقي والغنائي، بعد استكمال عملية الغربلة التاريخية.

وليس صحيحا ما يردده بعض غلاة المحافظين المتشددين، من أن هذا الاتجاه إنما سلكه عبد الوهاب، تحايلا على التحولات الفيزيولوجية التي بدأت تظهر على صوته، فعمد إلى تضخيم دور الأوركسترا على حساب دور الصوت. بدليل أن هذا الاتجاه التحديثي كان خيارا واضحا لعبد الوهاب حتى في المرحلة التي يسميها غلاة المحافظين «العصر الذهبي» لصوت عبد الوهاب، والذي يرسمون خط نهايته مع منتصف عقد الثلاثينيات. ويسهل كثيرا العثور على عشرات الأدلة لدى مقارنة تراث عبد الوهاب وتراث أم كلثوم المبكر، فيما بين ١٩٢٥ و١٩٣٥، حيث بدأت ترتسم ملامح مدرستين مختلفتين في الأداء الغنائي، يمكن وصفهما اصطلاحا بالكلاسيكية التقليدية (لأم كلثوم) والكلاسيكية المتجددة (لعبد الوهاب).

ومع أن أعمال القصبجي (وأعمال السنباطي الأولى) قد دفعت أم كلثوم مرات عديدة نحو مساحات الكلاسيكية المتجددة، إلا أن ألحان أبو العلا محمد وداود حسني وزكريا أحمد، قد شدت أم كلثوم بعد فترة، للاستقرار في مساحات أقرب ما تكون إلى الكلاسيكية التقليدية، مع تعديلات متجددة اكتسبتها من أدائها لألحان القصبجي، وألحان السنباطي الأولى.

والمؤكد أن عبد الوهاب (إضافة إلى أنه لم يكن في ذروة حيويته الفنية عندما لحن لأم كلثوم، التي كانت هي الأخرى في بداية نزول سفح هرمها الفني عندما غنت أنت عمري) قد وضع ألحانه العشرة لأم كلثوم وهو تحت ضغط المواءمة الضرورية بين المدرستين، (إضافة إلى مراعاة قدراتها الصوتية المتراجعة) وخاصة أن أم كلثوم كانت قد أصبحت صاحبة أسلوب ثابت وراسخ في الغناء، ولم تعد في سنواتها التجريبية الأولى.

لذلك نجد اللحن الأول «أنت عمري» قد صيغ سعيا وراء التوفيق بين ثلاثة أغراض فنية (بعدد المقاطع الثلاثة للأغنية):

* فجاء المقطع الأول وهابيا خالصا (أد إيه من عمري قبلك راح).
* وجاء المقطع الثاني أقرب ما يكون للأسلوب الكلثومي (الليالي الحلوة).
* أما المقطع الثالث، فقد استذكر فيه عبدالوهاب الكلثوميات الخفيفة السريعة (على بلد المحبوب للسنباطي، وغني لي شوي شوي لزكريا، على سبيل المثال).

ولا تبرح مخيلتي، تلك الشروحات التي استغرقت نصف ساعة كاملة، للعبقري الراحل محمود الشريف، وهو يفصّل لي عظمة المقطع الأول في «أنت عمري»، الذي اعتبره واحدا من أجمل ما سمع في تاريخ الموسيقى العربية.

أما الأقرب إلى الكمال الفني، والهندسة المعمارية الموسيقية الشامخة بين ألحان عبدالوهاب الكلثومية، فثلاثة ألحان ـ في رأيي ـ على باب مصر، وهذه ليلتي، ويقترب لحن أنت الحب من ذلك، ولكنه لم يلفت الأسماع كما يستحق، ربما لميله إلى الهدوء الشديد. بعد ذلك، تجلت روح عبدالوهاب في الأصالة المتجددة في فكروني ودارت الأيام وأغدا ألقاك، وحتى أمل حياتي وليلة حب، التي تبدو في آخر قائمة ألحان عبد الوهاب الكلثومية. فإن من يستمع إلى تسجيلها بصوت عبد الوهاب وعوده، يرى فيها حساسيات وهابية ما كان بإمكان صوت أم كلثوم في آخر حفلاتها الشهرية (١٩٧٣) أن يؤديها بما تستحق وما يكشف عن مكنوناتها.

ولا بد من إشارة أخيرة في هذا المجال، إلى لحن «أصبح عندي الآن بندقية»، الذي وضعه عبد الوهاب بتحرر كامل من المهمة التوفيقية الصعبة، فجاء أكثر ألحانه لأم كلثوم وهابية.

خــــلاصــة عـــامــة

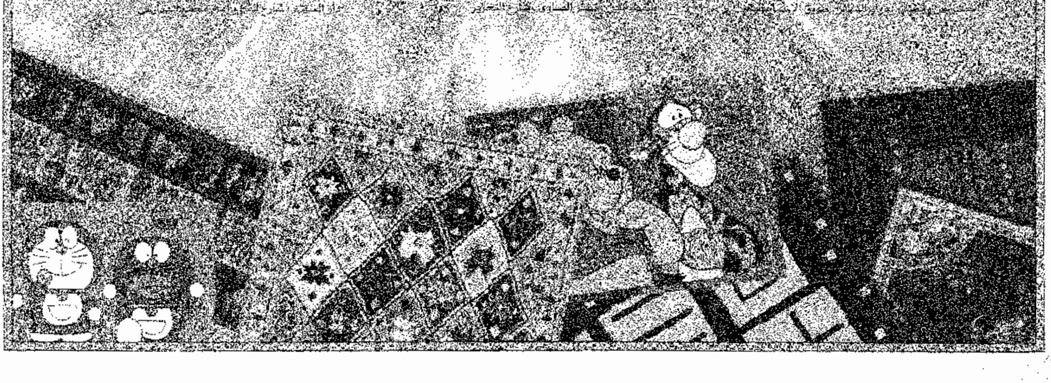
إن مفتاح علاقة أم كلثوم بملحنيها (خاصة الثلاثة الأساسيين: القصبجي وزكريا والسنباطي) يكمن في تحديد موضوعي دقيق لملامح موقعها في تاريخ الغناء العربي المعاصر، وأنا ممن يرون أن ملامح هذا الموقع تقع في منزلة ما بين المنزلتين، اللتين وقع أصحابهما، في المبالغة:

* المنزلة التي عبر عنها شيخ نقاد الموسيقى العربية في القرن العشرين، الراحل كمال النجمي (الذي أطلقت عليه اسم «أصفهاني القرن العشرين» في مقال سابق لوجهات نظر)، والتي يؤكد فيها، بلا تحفظ، أن أم كلثوم مسؤولة عن ثلاثة أرباع التطور الذي حدث في الغناء العربي والموسيقى العربية في القرن العشرين، وهو بذلك يجعلها المبدعة الأولى، وراء إبداع القصبجي وزكريا والسنباطي.
* المنزلة التي عبر عنها المسؤولون عن تقييم المستحقين لجوائز الدولة في مصر، عندما اعترضوا على ترشيح أم كلثوم، باعتبارها مجرد مؤدية غنائية، وليست مبدعة. ولم يسحبوا اعتراضهم إلا بتدخل مباشر من جمال عبد الناصر.

فإذا لم تكن أم كلثوم هي مبدعة الألحان التي صنعت مجدها الفني، فمن المؤكد أيضا أنها لم تكن مجرد مؤدية لهذه الألحان، وذلك لسببين موضوعيين، لا علاقة لهما بالإعجاب بعظمة صوت أم كلثوم، أو الانبهار به:

١ ـ أن أم كلثوم، قد عوضتنا في عهد الإذاعة وآلات التسجيل الإذاعي والتلفزيوني، عن الفلسفة الجمالية العظيمة لفن الارتجال، التي طبعت مدرسة النهضة الموسيقية في القرن التاسع عشر، فلم تكن مجرد حنجرة عظيمة تؤدي ألحانا عظيمة، بل كانت مبدعا فنيا يقدم لنا هذه الألحان بتفسير جديد وصيغة جديدة في كل حفلة.

٢ ـ أن عظمة حنجرة أم كلثوم، وعظمة أدائها الارتجالي المبدع، وقوة شخصيتها، قد جعلت منها مؤسسة فنية «تشحن بالتيار الكهربائي» لحيويتها الفنية، كل ملحنيها وشعرائها وعازفي فرقتها الموسيقية، حتى وإن كانوا في موقع الأستاذ الفني لها، وهذا ما عبر كل من القصبجي وزكريا أحمد والسنباطي عن ذلك، مع أن الأولين نالا من سطوة وقسوة سلطانها الفني آثارا مدمرة، والثالث لم يسلم من رذاذ ذلك السلطان. صحيح أنهم المبدعون الأوائل، ولكنها بلا جدال، شريكتهم وملهمتهم وحافزهم في كل ما أبدعوا لصوتها.



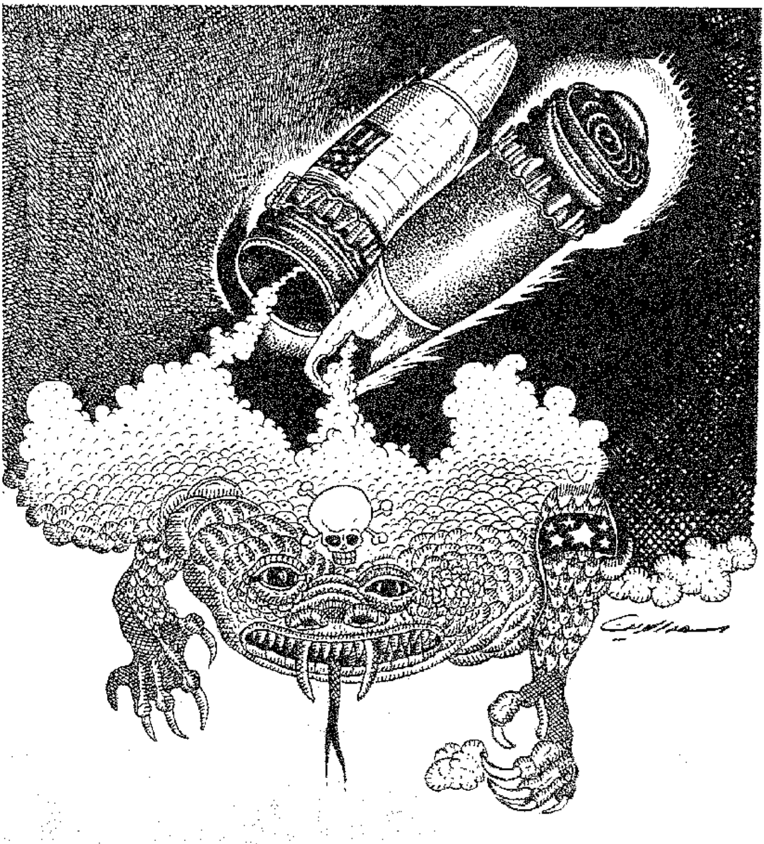
ذخيرة اليورانيوم..
الجريمة والعقاب

محمد قدري سعيد

كلعنة نزلت من السماء ، سقط مئات من جنود حرب الخليج والبلقان بعد أوبتهم إلى ديارهم ضحايا لأمراض غامضة ، تنوعت بين ضعف عام وإرهاق شديد وآلام في العضلات وسقوط للشعر وطفح وأورام سرطانية في الجلد والدم أودت بعدد منهم إلى الموت. ولم يكن الجسد وحده الذي اشتكى ، ولكن شيئا ما طال أيضا النفس في بعض الحالات ليضيف أوجاعا نفسية إلى الآلام الجسدية الغريبة. ولولا ثورة الجنود وشكوى العائلات وشبكة الإنترنت لاستمر صمت الساسة والعسكريين والعلماء ، ولسقط الأمر كله في جُب الأشياء «غير معروفة السبب». وبرغم أن القصة قد بدأت في أعقاب حرب الخليج ١٩٩١ . وكان ضحاياها يتزايدون من جنود التحالف والمدنيين العراقيين ، إلا أن السبب وراء «مرض حرب الخليج» ظل ضائعا لمدة عشر سنوات وسط نظريات هائمة واتهامات متبادلة حتى ضرب «مرض حرب البلقان» جنود حلف الناتو من الأوروبيين ، وحط الاتهام فجأة فوق ذخيرة أمريكية مصنوعة من مادة «اليورانيوم المنضب» Depleted Uranium كانت قد استخدمت في الحربين -الخليج والبلقان- على نطاق واسع.

ولم تكن هي المرة الأولى التي تردد فيها الحديث حول تلك الذخيرة وخاصة عن العراقيين ، إلا أن أحدا لم يكن على استعداد لسماع شهادة من العراق ، ولم يسقط ستار الصمت إلا عندما تصاعد بقوة ضجيج أوروبي لا يكتم السر بعد موت أعداد من الجنود الإيطاليين. وزاد من سخونة المشكلة وحساسيتها أنها تزامنت مع انتشار مرض غامض آخر في أوروبا اسمه «جنون البقر» ، وأنها وقعت وسط تقاطع طرق سياسي يقف في وسطه وصول رئيس جديد إلى البيت الأبيض ، يزاحمه عزم أوروبي لسلك سياسة دفاعية مستقلة ، ومشاريع لتوسيع الاتحاد جهة الشرق ، مع تململ أطلسي وإصرار أمريكي على بناء درع صاروخي يحمي الأرض الأمريكية من الآخرين.

وتفاعلت الأزمة وسط إصرار من المسئولين العسكريين في حلف الناتو والعلماء بأنهم لا يملكون دليلا يثبت على وجه اليقين وجود علاقة بين مادة «اليورانيوم المنضب» والحالات المرضية الخطيرة التي اكتشفت حتى الآن في



1- Environmental Exposure Report: Depleted Uranium in the Gulf (II)", Office of Special Assistance for Gulf War Illnesses, Department of Defense, Report No. 1- 800- 497- 6261, December 13, 2000.

2- J. S. Przemieniecki ed., "Critical Technologies for National Defense", US Air Force Institute of Technology, (AIAA, 1991).

ذخيرة اليورانيوم

بداية المأساة ترجع إلى حرب الخليج ١٩٩١، عندما استخدمت الولايات المتحدة في الميدان لأول مرة ذخيرة جديدة خارقة للدروع مصنوعة من مادة مشعة ذات كثافة عالية اسمها «اليورانيوم المنضب»، كما استخدمت أيضا في نفس الحرب دبابات ذات دروع مدعمة بنفس المادة. وقد لعبت تلك الذخيرة دورا مهما في تدمير المدرعات العراقية أثناء مرحلة الحرب

أوروبا وعددها ستون حالة، مات منهم عشرون نصفهم من الإيطاليين. وحاولت إيطاليا وألمانيا والنرويج والبرتغال واليونان في اجتماع مجلس الحلف في منتصف يناير ٢٠٠١ الحصول على قرار بحظر استخدام الذخيرة المصنوعة من اليورانيوم المنضب، إلا أن باقي الأعضاء ناصروا الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا -الدول الثلاثة التي استخدمت تلك الذخيرة- بحجة غياب دليل علمي يثبت أنها السبب وراء المشكلة. لكن الأخبار توالت من الدول التي أكدت في البداية خلو قواتها من تلك الأعراض مثل أسبانيا وهولندا وجمهورية التشيك والمجر باكتشاف مؤشرات جديدة لحالات سرطانية بين جنودها. حتى فرنسا التي وقفت داخل معسكر الإنكار المطلق أعلنت في النهاية اكتشاف ست حالات من سرطان الدم (اللوكيميا) بين جنودها، وحدث نفس الشيء مع بريطانيا. واستجابة لضغوط من الحكومات الأوروبية ومؤسسات الاتحاد الأوروبي، لم يجد حلف الناتو مفرا من إبداء استعداده لتقديم كل المعلومات المطلوبة، وانطلقت في نفس الوقت عمليات فحص للجنود والمناطق التي أستخدمت فيها الذخيرة. واستيقظت منظمات الأمم المتحدة للصحة والبيئة والوكالة الدولية للطاقة الذرية من سباتها العميق، ونزعت عن نفسها قيود التردد والخوف من «التعبع الأمريكي» المعترض من تلك الصحوة المفاجئة.

بدأ برنامج الأمم المتحدة للبيئة عمله في كوسوفا في نوفمبر ٢٠٠٠ بفريق متخصص قضى هناك ١٢ يومًا، ركز خلالها على الآثار البيئية لحملة البلقان. بدأ الفحص بعمل قياسات إشعاعية لعينات من التربة في ١١ موقعًا تم اختيارها بصفة ميدانية من قائمة تضم ١١٢ موقعًا، كانت عرضة للقصف الجوي بذخيرة اليورانيوم خلال الحرب. ولم يقتصر أخذ العينات على التربة بل امتد أيضا ليشمل المياه والألبان والنباتات. ويمكن تخيل حجم الضرر الذي أصاب البيئة في كوسوفا من معرفة أن حلف الناتو قد أمطرها بأكثر من ٣٠ ألف قذيفة من اليورانيوم المنضب المضاد للدروع على مدى ١١ أسبوعا، وترك فوق أرضها ما يقرب من ١١ طنا من بقايا الذخيرة والشظايا، فضلا عن مقدار غير معروف من الغبار الدقيق المشع ترسب فوق التربة. وما يمكن قوله حتى الآن من ملاحظات، قبل أن تقدم اللجنة تقريرها النهائي في مارس ٢٠٠١، أنها وجدت زيادة «طفيفة» في مستوى الإشعاع في عينات التربة المأخوذة مباشرة أسفل بقايا الذخيرة المتناثرة فوق الأرض، وأيضا داخل الحفر والفتحات الناتجة عن الاصطدام، ونصحت اللجنة بأن محاولة لمس تلك الأماكن من التربة تعتبر مخاطرة «لا لزوم لها» unnecessary risk. ولكن اهتمام اللجنة الأكبر كان موجها إلى محاولة تحديد مستوى تلوث المياه الجوفية والمحيط النباتي في تلك الأماكن لأثره الواسع والممتد على الثروة الحيوانية والإنسان.

وبداية المأساة ترجع إلى حرب الخليج ١٩٩١، عندما استخدمت الولايات المتحدة في الميدان لأول مرة ذخيرة جديدة خارقة للدروع مصنوعة من مادة مشعة ذات كثافة عالية اسمها «اليورانيوم المنضب»، كما استخدمت أيضا في نفس الحرب دبابات ذات دروع مدعمة بنفس المادة. وقد لعبت تلك الذخيرة دورا مهما في تدمير المدرعات العراقية أثناء مرحلة الحرب البرية بسبب قدرتها على اقتحام دروع الدبابات الثقيلة مقارنة بأنواع الذخيرة الأخرى عالية السرعة، واشتعال شظاياها بعد نفاذها من الدرع، مما يتسبب في اشتعال الوقود أو الذخيرة الموجودة داخل الدبابة، وأطلق عليها العسكريون للونها ومزاياها «الطلقة الفضية».

والأزمة التي تفجرت بسبب هذه الذخيرة بعد عقد كامل من بدء استخدامها طرحت مرة أخرى -منذ أن ظهرت القنبلة النووية لأول مرة- معضلة الإنسان والسلاح، والثمن الواجب دفعه من أجل تحقيق مستويات جديدة للتدمير. وطرحت أيضا معضلة العلم والعلماء عندما يخوضون في مسائل مركبة متعددة الأبعاد ممتدة في الزمن غير تقليدية بمنطق بسيط وأدوات عاجزة. فهذه هي المرة الأولى التي يضع العلماء في يد «الجندي العادي» ذخيرة مشعة ويقبلون بمخاطر استخدامها وتداولها الصحية والبيئية. وطرحت الأزمة كذلك قضية التجريب في الحرب وتحول ميدان القتال إلى معمل لحروب المستقبل، وأزمة السياسة في عصر ثورة الاتصالات والشبكات وصعوبة إخفاء الحقائق إلى الأبد. والمسألة في جزء كبير منها ليست منقطعة الصلة بعدد كبير من الدول العربية، بعضها يستخدم السلاح الأمريكي ويصنعه، وبعضها الآخر يحتفظ بكميات كبيرة منه على أرضه لأوقات الطوارئ، فضلا عن احتمالات قيام إسرائيل بتصنيع تلك النوعية من الذخيرة أو امتلاكها لها وما يعنيه ذلك من تهديد مزدوج عسكري وبيئي.

وإذا كانت القصة الأوروبية لذخيرة اليورانيوم مازالت في سطورها الأولى، إلا أن جذورها الحقيقية نجدها في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تطور موضوع ذخيرة اليورانيوم خلال السنوات الماضية بعيدا عن الضوء الإعلامي في صمت. وربما يكون مفيدا قبل أن نتناول جذور المشكلة وتداعياتها في الولايات المتحدة أن نتكلم قليلا عن ماهية «اليورانيوم المنضب» واستخداماته السلمية والعسكرية وكذا آثاره البيئية والصحية.

اليورانيوم المنضب

يقبع عنصر اليورانيوم في بحر العناصر قرب قاع جدول «مانديليف» الذي يضم عناصر مادة الكون، وسط باقي العناصر الديناصورية الثقيلة الأخرى ذات الذرات المتململة القلقة والمشعة. وتعتبر ذرة اليورانيوم أثقل ذرة لها وفرة معقولة على الأرض، لا يسبقها في الوزن الذري إلا النبتونيوم Neptonium والبلوتونيوم Plutonium وهما من العناصر النادرة. ومن بين الأسباب التي أغرت العلماء باستخدام اليورانيوم في تصنيع الذخيرة أنه لا يعتبر عنصرا نادرا حيث تصل نسبته في القشرة الأرضية إلى ٠,٠٠٠٤ أي أن كل عشرة آلاف طن من القشرة الأرضية يحتوي على أربعة أطنان من اليورانيوم، وهي نسبة عالية مقارنة بالكثير من العناصر الأخرى، فهو على سبيل المثال أكثر وجودا في الطبيعة من الفضة. ومعدن اليورانيوم في صورته الخالصة فضي اللون وينصهر عند ١١٣٢ درجة مئوية، وتشتعل جزيئاته الدقيقة عند درجات الحرارة العالية ذاتيا في الهواء.

ويوجد خام اليورانيوم في الطبيعة Natural Uranium كخليط من ثلاثة نظائر مشعة: اليورانيوم-٢٣٨ ونسبته في خام اليورانيوم ٩٩,٢٧٦٪، واليورانيوم-٢٣٥ ونسبته ٠,٧١٨٪، واليورانيوم-٢٣٤ ونسبته ٠,٠٠٥٦٪. ومن أجل أن يستخدم اليورانيوم كوقود للمفاعلات النووية يتم «تخصيبه» بزيادة تركيز النظائر القابلة للانشطار أي اليورانيوم-٢٣٥ و ٢٣٤. ويتطلب ذلك فصل كل كمية اليورانيوم-٢٣٤ وثلثي كمية اليورانيوم-٢٣٥ من عينة اليورانيوم الطبيعي، وما يتبقى من هذه العملية يطلق عليه «اليورانيوم المنضب» (اليورانيوم الذي نزعت عنه نسبة كبيرة من النظائر القابلة للانشطار) ويتكون معظمه من اليورانيوم-٢٣٨، والإشعاع الصادر من اليورانيوم المنضب يقل بنسبة ٤٠٪ عن مستوى الإشعاع الصادر من خام اليورانيوم في صورته الطبيعية، أما باقي الخصائص الطبيعية والكيماوية ودرجة السمية فهي متطابقة في المادتين. وانخفاض مستوى الإشعاع لتلك المادة كان سببا إضافيا -بجانب الكثافة العالية والوفرة ورخص الثمن- لاختيارها لتصنيع الذخيرة.

الصور المختلفة لليورانيوم

اليورانيوم الطبيعي

يورانيوم-٢٣٤	٠,٠٠٥٦٪
يورانيوم-٢٣٥	٠,٧١٨٪
يورانيوم-٢٣٨	٩٩,٢٧٦٪

اليورانيوم المنضب

يورانيوم-٢٣٤	٠,٠٠٢٪
يورانيوم-٢٣٥	٠,٢٪
يورانيوم-٢٣٨	٩٩,٨٪

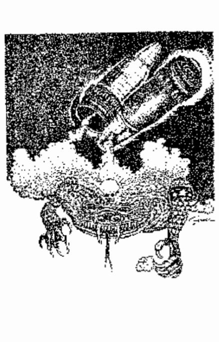
اليورانيوم المخصب

يورانيوم-٢٣٤	آثار قليلة
يورانيوم-٢٣٥	٣-٩٠٪
يورانيوم-٢٣٨	١٠-٩٧٪

الاستخدامات العسكرية والمدنية: يستخدم اليورانيوم المنضب في تصنيع الذخيرة المضادة للدروع التي تطلق من مدافع الدبابات والطائرات، وفي تصنيع الرؤوس الحربية للصواريخ المضادة للدبابات. ويدخل أيضا في تصنيع دروع بعض الدبابات (مثل M1A1 الأمريكية)، وله أيضا بعض التطبيقات السلمية، فتصنع منه قطع معدنية تعمل كأوزان لضبط اتزان الطائرات والقوارب Counter Weights. وقد تسببت بعض حوادث سقوط الطائرات بالفعل في انتشار بقايا من تلك المادة في منطقة الحادث (كما حدث في امستردام-هولندا ١٩٩٢، وفي ستانستيد-بريطانيا يناير ٢٠٠٠).

الآثار الصحية والبيئية: لليورانيوم المنضب تأثيرات كيماوية وإشعاعية سلبية على صحة الإنسان. ويتوقف مستوى هذا التأثير ودرجة الضرر الناتج منه على «أسلوب» التعرض لتلك المادة (لمس، بلع، استنشاق) ومدة التعرض. وفي المتوسط يوجد داخل الإنسان العادي حوالي ٩٠ ميكروجراما

المسألة في جزء كبير منها ليست منقطعة الصلة بعدد كبير من الدول العربية، بعضها يستخدم السلاح الأمريكي ويصنعه، وبعضها الآخر يحتفظ بكميات كبيرة منه على أرضه لأوقات الطوارئ، فضلا عن احتمالات قيام إسرائيل بتصنيع تلك النوعية من الذخيرة أو امتلاكها لها



(ميكروجرام = ١/١٠٠٠ من الجرام) من مادة اليورانيوم عن طريق الغذاء والماء والهواء موزعة بين الهيكل العظمى (٦٦٪) والكبد (١٦٪) والكلى (٨٪) والباقي في أنسجة الجسم الأخرى. والتعرض الخارجي لمادة اليورانيوم المنضب ينشأ من العمل داخل مخازن الذخيرة، أو داخل مركبة لها درع أو تحمل ذخيرة من تلك المادة، أو التعرض للشظايا والغبار الناتج من اصطدام الذخيرة بالهدف. والتعرض الخارجي الذي لا يصاحبه بلع أو استنشاق أو تسرب من خلال الجلد له تأثير إشعاعي على الإنسان. أما التعرض الداخلي الذي ينتج عن البلع والاستنشاق أو التسرب من خلال الجلد والجروح فيجمع بين التأثير الكيماوي والإشعاعي. وتوضح الدراسات التي أجريت على اليورانيوم أن أكثر من ٩٥٪ من اليورانيوم الذي يدخل الجسم عن طريق الفم لا يمتص داخله بل يتم التخلص منه عن طريق البراز. أما ما يدخل عن طريق الدم فيتم التخلص من ٦٧٪ منه بعد مرور ٢٤ ساعة عن طريق البول. وتبين بعض الدراسات أن تعرض الكلى لفترات طويلة لليورانيوم يمكن أن يؤدى إلى تلفها وفشلها في القيام بوظائفها.

وتشع مادة اليورانيوم المنضب ثلاثة أنواع من الأشعة: ألفا وبيتا وجاما، والأنواع الثلاثة لها تأثيرات ضارة على الأنسجة الحية إذا تجاوزت الجرعة المسموح بها. وتتحدد الجرعة بمستوى الإشعاع وزمن التعرض. وفي حالة اليورانيوم المنضب لا تستطيع أشعة ألفا اختراق جلد الإنسان، ولكن وصول المادة إلى داخل الجسم عن طريق البلع أو الاستنشاق يمكن أن يزيد من احتمالات الإصابة بسرطان الرئة نتيجة تعرضها لأشعة ألفا وأشعة بيتا. ويقل هذا الاحتمال مع إنخفاض مستوى الإشعاع وزمن التعرض له. ولا يعتقد العلماء أن تعرض بعض العسكريين الأوروبيين لآثار اليورانيوم المنضب أثناء حرب البلقان هو سبب إصابتهم بسرطان الدم. ويبنون اعتقادهم هذا على عدد من الدراسات أجريت على ضحايا سرطان الدم من الناجين في هيروشيما ونجازاكي بعد ضرب المدينتين بالقنبلة النووية في ١٩٤٥ (بواسطة الأمريكيين أيضا)، وعلى دراسات أخرى أجريت على العاملين في مجال الصناعات النووية وعمال مناجم اليورانيوم.

فى حالة اليورانيوم المنضب لا تستطيع أشعة «ألفا» اختراق جلد الإنسان، ولكن وصول المادة إلى داخل الجسم عن طريق البلع أو الاستنشاق يمكن أن يزيد من احتمالات الإصابة بسرطان الرئة نتيجة تعرضها لأشعة «ألفا» وأشعة «بيتا». ويقل هذا الاحتمال مع انخفاض مستوى الإشعاع وزمن التعرض له

وتُرجع الدراستان سبب حدوث سرطان الدم إلى تعرض نسبة من الضحايا إلى أشعة جاما وهي موجودة بمستويات ضعيفة للغاية في حالة اليورانيوم المنضب. ويضيف العلماء إلى ذلك دليلا آخر من حادث انفجار مفاعل تشيرنوبيل، فبرغم تزايد معدلات سرطان الرئة في الأطفال بعد حدوث الانفجار بخمسة عشر عاما إلا أن سرطان الدم لم يسجل زيادة ملحوظة بين سكان المناطق الأكثر تلوثا نتيجة للحادث. ولقد قام العلماء بتقدير جرعة الإشعاع التي يمكن أن يتعرض لها الفرد نتيجة استنشاقه للغبار الناتج عن اصطدام طلقات اليورانيوم بالدبابات، آخذين في الاعتبار أقصى الظروف الممكنة، ووجدوا أنها لا تتجاوز نصف الجرعة السنوية المسموح بها للعاملين في مجال الأشعة. وبرغم أن تلك الجرعة تعتبر كبيرة نسبيا إلا أن العلماء يرون مع ذلك أنها لن ترفع مخاطر الإصابة بسرطان الدم بأكثر من ٢٪ فوق المعدل الطبيعي. ومن المعروف أن المعدل العالمي للإصابة بسرطان الدم تصل إلى ٥٠ حالة لكل مليون من السكان في الشريحة العمرية بين ٢٠-٤٥ سنة.

قصة ذخيرة اليورانيوم

لا تخرج الطرق التقليدية الشائعة لقتل الأفراد أو المعدات في الحرب عن اثنتين: الأولى كيماوية تستخدم المواد شديدة الانفجار لتوليد طاقة ضغط وحرارة كافية لإعطاب الهدف أو تدميره والقضاء عليه، والثانية ميكانيكية تستخدم طاقة الحركة وتقوم على الاصطدام المباشر مع الهدف واختراقه وتحطيم أجزائه الحيوية من الداخل. قنابل الطائرات الحاملة للمواد شديدة الانفجار تعتبر مثالا للطريقة الأولى، أما طلقة الرصاص العادية التي تطلق من المسدسات أو البنادق فهي مثال للطريقة الثانية، مجرد قطعة من المعدن الثقيل تخترق الجسد وتحطم الضلوع بفعل سرعتها وكتلتها معا (أو بلغة الميكانيكا بتأثير طاقة الحركة). أما دانة المدفع فهي مثال للطريقتين، تنفجر بالقرب من الهدف وتمطره بالشظايا السريعة فيُقضى عليه بإحدى الطريقتين أو بهما معا.

وتُعتبر المدرعات، بحكم اسمها ورسمها، رمزا للاستمرار والبقاء بين المعدات العسكرية، وظلت لسنوات طويلة هدفا مستعصيا على التدمير، يمكن إعطابها أحيانا لكنها تبقى جاثمة فوق أرض المعركة ربما لسنوات طويلة. وفي الحقيقة لم تفلح الطريقتان المشار إليهما سابقا في التغلب على الدرع السميك للمدرعات، ونتيجة لذلك كان ضروريا البحث عن أفكار جديدة لتطوير الطريقتين بما يتناسب مع «مفهوم الدرع»، فليس مطلوبا أن «تنطح» الدرع أو تخدشه بل ببساطة أن «تخرقه».

ونتج عن تطوير الطريقة الأولى فكرة «الحشوة الجوفاء» Hollow Charge التي تقوم على «تفريغ» رأس المقذوف من المواد شديدة الانفجار إلا من كمية صغيرة يوضع أمامها مخروط من النحاس، وقبل أن يلمس المقذوف درع الدبابة تنفجر شحنة المتفجرات الصغيرة وتحول مخروط النحاس إلى تيار سريع ساخن من النحاس المنصهر يُذيب الدرع ويخرقه في نقطة محددة حتى ينفذ إلى الداخل فيحوله إلى جحيم، ويقتل الأفراد ويفجر الذخيرة وتتحول الدبابة إلى قطع متناثرة. وهذه الطريقة كان لها فعل السحر في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأخذت شهرتها الحقيقية من تلك الحرب، فمعظم المقذوفات الشهيرة مثل الـ «آربيجي» و «المالوتكا» و «التو» وغيرها تحمل في مقدمتها «حشوة جوفاء»، وأنواعها الحديثة تستطيع الآن أن تخترق بسهولة درعا من الصلب يربو سمكه على متر كامل.

لكن الدرع تطور أيضا ليبطل تأثير تيار النحاس المنصهر، فلم يعد درعا من طبقة واحدة بل أصبح يتكون من عدة طبقات، كل طبقة من مادة مختلفة بعضها من المواد الجديدة مثل السيراميك. وتعددت الأفكار في محاولة تشتيت تيار النحاس، مثل وضع شحنات صغيرة جدا من المتفجرات فوق درع الدبابة تنفجر بواسطة تيار النحاس لكنها تشتته وتحمي الدبابة منه Reactive Armor.

وكان مهما أيضا تطوير الطريقة الثانية - التدمير بطاقة الحركة - عن طريق زيادة سرعة المقذوف وكتلته وقدرته على التماسك حتى يستطيع إتمام رحلته الصعبة داخل الدرع بنجاح، ومن هنا كان الاهتمام بمادة «اليورانيوم المنضب» كمادة يمكن أن تقوم بالمهمة المطلوبة. لكن تلك المادة لم تكن الخيار الأول، ففي نهاية الخمسينيات وقع الاختيار على مادة كاربيد التنجستين لكثافته العالية (١٣ جرام/سم٣) كبديل عن استخدام الصلب الكربوني (٧٫٩ جرام/سم٣) الذي كان شائعا في ذلك الوقت. ومع تطور تصميم الدروع وبنائها من طبقتين أو ثلاث كانت ذخيرة التنجستين تنكسر قبل أن تتم الاختراق بنجاح. وبدأ البحث عن مواد أخرى في بريطانيا والولايات المتحدة معظمها يقوم على التنجستين مخلوط بمعادن أخرى.

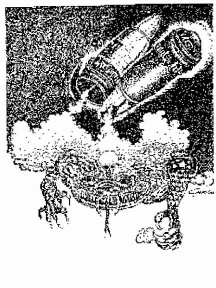
وفي السنوات الأولى للستينيات بدأ التفكير في الولايات المتحدة لاستخدام «اليورانيوم المنضب» والمتبقي عن عملية تخصيب اليورانيوم في تصنيع الذخيرة المضادة للدبابات بسبب كثافته العالية (١٩ جرام/سم٣) وخواصه الميكانيكية والحرارية. وفي البداية صُنعت الذخيرة من اليورانيوم المنضب مسبوكا مع مواد أخرى ثم بعد ذلك بصورة منفردة، ولم تكن نتائج التجارب الأولية ضد الدبابات الروسية مشجعة. واستمرت التجارب حتى منتصف السبعينيات بدعم من أفرع القوات المسلحة الأمريكية المختلفة، وحققت الأعيرة الصغيرة ٢٠مم و٢٥مم و ٣٠مم نتائج مقبولة وأظهرت تفوقا على ذخيرة التنجستين. وتتابع التطوير بعد ذلك ليصل إلى أعيرة الدبابات الكبيرة مثل ١٠٥مم و ١٢٠مم، والعيار الأخير هو الذي استخدم بكثافة في حرب الخليج ١٩٩١.

وبالتوازي مع ذلك وفي إطار مفاهيم قتالية جديدة للقتال «من بعد»، بدأت القوات الجوية الأمريكية في تطوير قدراتها على اصطياد الدبابات، فأضافت إلى ترسانتها الطائرة A-10 المزودة بمدفع عملاق فريد GAU-8/A مكون من ثماني مواسير عيار ٣٠مم تستطيع الطائرة أن تمطر به حشود المدرعات بمعدل مخيف يبلغ ٤٢٠٠ طلقة في الدقيقة الواحدة. وطورت القوات الجوية لذلك المدفع ذخيرة عيار ٣٠مم مصنوعة من اليورانيوم المنضب. وقررت أيضا البحرية الأمريكية استخدام ذخيرة اليورانيوم مع نظام اعتراض الصواريخ البحرية فالانكس Phalanx، لكن البحرية رأت العودة لاستخدام قذائف التنجستين باعتبارها أكثر أمانا من الناحية الإشعاعية، ولأن الهدف المراد تدميره (الصواريخ) يمكن اختراقه بسهولة مقارنة بالدبابات.

وتستخدم الولايات المتحدة حاليا ذخيرة اليورانيوم بالأعيرة الآتية: ٢٥مم (المدفع BUSHMASTER الخاص بعربة القتال برادلي) و ١٠٥مم (مدفع الدبابة M1 و M60)، و ٢٥مم (مدفع الطائرة AV-8 Harrier) و ١٢٠مم (مدفع الدبابة M1A1)، و ٣٠مم (المدفع GAU-8 على الطائرة A-10) و ٢٠مم (المدفع PHALANX المحمول على السفن)، و ٣٠مم (المدفع GPU30 على الطائرة F-16).

وبالإضافة إلى ذلك دخل اليورانيوم المنضب كإحدى المواد المكونة لدرع

ذخيرة اليورانيوم



الدبابة M1A1 وانتجت الولايات المتحدة طلقات للأسلحة الصغيرة من اليورانيوم، على سبيل التجريب، برغم انباء ترددت بانها استخدمت في حرب الخليج. وثارت أيضا اتهامات بأن صواريخ الكروز التي استخدمت ضد العراق كانت بها اجزاء من اليورانيوم ولكن التحقيقات التي أجريت لم تثبت ذلك على وجه اليقين.

هواجس بيئية وصحية

شكلت المخاطر البيئية والصحية المحتملة هاجسا مستمرا لوزارة الدفاع الأمريكية منذ أن بدأ التفكير في تصنيع ذخيرة مضادة للدروع من مادة اليورانيوم المنضب. وفي أول بادرة جادة للتعامل مع هذا الهاجس طلب مكتب بحوث وهندسة الدفاع التابع لوزارة الدفاع في ٩ أكتوبر ١٩٧٣ من لجنة متخصصة تقييم الآثار البيئية والصحية لهذه الذخيرة، وكل ما يتصل بها من تصنيع ونقل وتخزين واستخدام، وكيفية التخلص منها عند الضرورة، على أن يمتد التقييم إلى نظم الأسلحة المستخدمة لتلك الذخيرة مثل الدبابات ومدافع الطائرات والسفن. وتكونت اللجنة من خبراء في الشئون البيئية والصحية والطاقة النووية. وانتهت اللجنة إلى نتيجة عبرت عنها بكلمات يشوبها الحرص وعدم اليقين: «من المحتمل أن ذخيرة اليورانيوم ليس لها آثار بيئية ذات شأن»، ثم أعقبت ذلك بتأكيد أن تعرضها لظروف غير عادية (مثل سقوط الطائرة A-10) يمكن أن يتسبب في آثار بيئية مهمة. وبرغم أن اللجنة قد أشارت بأنها وجدت سمية اليورانيوم أقل مما كان متوقعا في البداية، وأنه ليس أكثر سمية من الرصاص وباقي العناصر الثقيلة، لكنها لفتت النظر بأن ظروف المعركة والاستخدام الكثف للذخيرة سوف تنشأ عنه مشاكل استنشاق وبلع للغبار المشع، وتعرض الجسم والجروح للشظايا الملوثة. وأضاف التقرير عددا من سيناريوهات الحوادث التي من الممكن أن تتعرض لها نظم الأسلحة المستخدمة لتلك الذخيرة، منها سيناريو سقوط طائرة من طراز A-10 وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من نشر حوالي ٤٠٠ كجم من الذخيرة فوق مكان الحادث من الصعب إزالتها إلا بتكلفة عالية طبقا للمكان والظروف.

تعتبر حرب الخليج أول حرب تستخدم فيها ذخيرة اليورانيوم على نطاق واسع، وعرفت خلال الحرب بين الجنود الأمريكيين «بالطلقة الفضية»

والهاجس الأكبر في موضوع ذخيرة اليورانيوم كان الغبار المشع الناتج من اصطدام الذخيرة بدرع الدبابة أو تعرض الذخيرة للحريق وما ينتج عن ذلك من أكسيد اليورانيوم الذي يتحول بدوره إلى غبار قابل للاستنشاق أو الانتشار فوق التربة والنباتات. وفي سنة ١٩٧٩ أجريت مجموعة من الدراسات لتحديد كمية الغبار انتهت إلى مجموعة من النتائج:

* ينتج عن اصطدام ذخيرة اليورانيوم بالدروع كمية من الغبار القابل للاستنشاق بواسطة الأفراد، ويقل هذا التركيز مع الزمن لكنه يظل لعدة ساعات في الهواء بعد عملية الاصطدام.

* غبار أكسيد اليورانيوم بعد ترسبه فوق الأسطح يمكن أن يعلق مرة أخرى بالهواء مع استمرار النشاط العادي للأفراد.

* يصل وزن الغبار الناتج إلى ١٠-٢٠٪ من وزن طلقة اليورانيوم قبل الاختراق، وتتوقف الكمية على صلابة الدرع، وتختلف النتائج إذا كان الغبار ناتجا عن حادث حريق للدبابة أو الذخيرة.

وعندما زاد القلق من ذخيرة اليورانيوم بعد حرب الخليج أجريت في سنة ١٩٩٤ أول تجربة حريق لمركبة قتال مدرعة حقيقية (برادلي) تحمل شحنتها الكاملة من الذخيرة. زودت المركبة بعدد من صواريخ (التو) و٢٤٠ ١١ طلقة من ذخيرة اليورانيوم عيار ٢٥ مم، واستمر الحريق لمدة ست ساعات تقريبا. نتج عن الحريق كمية مهمة من أكسيد اليورانيوم مترسب داخل المركبة المحترقة وحولها. وأظهر التحليل أن ٣٣٪ من أكسيد اليورانيوم المترسب داخل الدبابة وحولها قابل للاستنشاق (أي أن ذراته ناعمة بالدرجة التي تجعله عالقا في الهواء).

ورغما عن كل ما أثير من محاذير بيئية، قررت وزارة الدفاع الأمريكية نشر نظم الأسلحة التي تستخدم ذخيرة اليورانيوم، وبنت رأيها على أساس أن مخاطر ذخيرة اليورانيوم يمكن تحملها إذا ما قورنت بالمخاطر الأخرى الموجودة في ميدان القتال، وأن الالتزام بمجموعة من القواعد والتعليمات يمكن أن يخفف من تلك المخاطر، وأن الفوائد العملياتية لتلك الذخيرة تتفوق على المخاطر الأخرى المحتملة. والخلاصة أن القوات المسلحة الأمريكية قررت في النهاية تجاهل الآثار البيئية والصحية بعيدة المدى على الأفراد وعلى البيئة في مقابل تحقيق مزايا آنية في ميدان المعركة.

ماذا حدث في حرب الخليج؟

تُعتبر حرب الخليج أول حرب تُستخدم فيها ذخيرة اليورانيوم على نطاق واسع، وعُرفت خلال الحرب بين الجنود الأمريكيين «بالطلقة الفضية». وتتضمن التقارير الأمريكية قصصا كثيرة تحكي عن انبهار القادة والجنود بتأثير تلك الذخيرة على المدرعات العراقية. ومن بين تلك القصص نجاح دبابة أمريكية من طراز M1A1 في تدمير ثلاث دبابات عراقية مرة واحدة بواسطة ثلاث طلقات من ذخيرة اليورانيوم الخارقة للدروع بعد أن حاولت الدبابات العراقية مهاجمتها بالصواريخ المزودة بحشوة جوفاء دون نجاح. وبشكل عام استخدمت كل فروع القوات الأمريكية البرية والبحرية والجوية ذخيرة اليورانيوم أثناء الحرب، كما استخدمت أيضا الدبابات M1A1 الثقيلة التي يدخل في درعها طبقات من مادة اليورانيوم المنضب.

والملاحظات الآتية تعرض باختصار حجم استخدام تلك المادة في حرب الخليج:

* استخدم الجيش الأمريكي في حرب الخليج ٥٩٤ دبابة ثقيلة M1A1 يدخل في بناء درعها مادة اليورانيوم المنضب من إجمالي ١٧٧٢ دبابة من هذا الطراز شاركت في الحرب.

* تعتبر حرب الخليج هي المناسبة الأولى التي أطلقت فيها قوات المدرعات الأمريكية ذخيرة اليورانيوم، حيث لم يُسمح لتلك القوات قبل ذلك باستخدامها في التدريب.

* أطلقت المدرعات الأمريكية ٩٥٥٢ طلقة يورانيوم أثناء الحرب تزن في مجموعها ٥٠ طنا.

* استخدمت القوات الجوية طائرات A-10 على نطاق واسع ضد حشود الدبابات، واشترك منها في الحرب ١٤٨ طائرة نفذت ٨٠٧٧ طلعة أطلقت فيها ٧٨٣٥١٤ طلقة عيار ٣٠ مم تزن حوالي ٢٥٩ طنًا من مادة اليورانيوم المنضب.

* لم تطلق القوات البحرية إلا ٤-٥ طلقات يورانيوم من المدفع المحمول PHALANX.

* استخدم مشاة الأسطول ٧٦ دبابة M1A1 و٨٦ طائرة AV-8B Harrier نفذت ٣٣٤٢ طلعة جوية أطلقت فيها ٦٧٤٣٦ طلقة خارقة للدروع يصل وزن مادة اليورانيوم المنضب فيها إلى ١١ طنا.

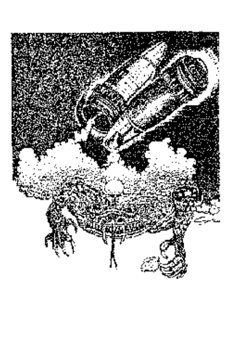
* بريطانيا هي الدولة الوحيدة خلاف الولايات المتحدة التي استخدمت ذخيرة اليورانيوم ضد الدبابات العراقية. واستخدمتها بأعداد قليلة للتدريب أثناء تمركزها بالسعودية، ويصل وزن الذخيرة المستخدمة إلى حوالي طن واحد.

لقد أثبتت أحداث حرب الخليج أنه من التبسيط المخل للأمور تصور أن ظروف الحرب يمكن أن تسمح في كل الأحوال باتباع قواعد غير عملية لتجنيب الجنود والبيئة مخاطر التعرض لآثار ذخيرة اليورانيوم الضارة. ومن الغريب أن كل السيناريوهات الخاصة المؤدية إلى مخاطر «لا يمكن التحكم فيها» قد حدثت خلال تلك الحرب القصيرة، ونتجت عنها آثار ضارة للبيئة وللجنود الأمريكيين، ويتضح ذلك من الحوادث الآتية:

* **التعرض لنيران صديقة**: friendly fire تكرر أثناء الحملة البرية في حرب الخليج تعرض الأسلحة الأمريكية لنيران صادرة من أسلحة أمريكية أخرى لأسباب كثيرة بعضها يتصل بالأحوال الجوية وانخفاض الرؤية، وأيضا نتيجة للحشد الضخم للمعدات والأفراد في مسرح العمليات. ونتج عن تلك الحوادث إصابة ٦ دبابات M1A1 و١٥ عربية قتال Bradley بنيران الطائرة الأمريكية A-10 والمدفع Phalanx. وفي كثير من الأحوال ظن الجنود الأمريكيون أنهم قد تعرضوا لنيران عراقية إلا أن فرق تقييم الخسائر كشفت عن آثار مادة مشعة عند فتحات دخول الطلقات.

* **حادثة معسكر الدوحة بالكويت**: بعد انتهاء حرب الخليج بأربعة شهور وفي ١١ يولية ١٩٩١ حدث انفجار وحريق ضخم في معسكر الدوحة بالقرب من مدينة الكويت، وهو مكان تمركز الفيلق المدرع الحادي عشر الأمريكي. ونتيجة للظروف السياسية، واحتمالات تجدد الاشتباكات مع العراق في أي وقت، كانت الدبابات الموجودة محملة بالذخيرة مع وجود مخزون كبير من الذخيرة داخل المعسكر. بدأ الحريق في عربة نقل الذخيرة أدت إلى انفجارها وما عليها من ذخيرة، وانتقل الحريق والانفجارات إلى عربات ذخيرة أخرى ودبابات ومعدات. ولم يسفر الحادث عن قتلى، ولكن أصيب ٤٩ جنديًا أمريكيًا بجروح بالإضافة إلى أربعة جنود بريطانيين أصيبوا إصابات طفيفة. أما الخسائر في المعدات فكانت تدمير ١٠٢ عربية و٤ دبابات، ودمرت كميات كبيرة من الذخيرة من بينها ٦٦٠ طلقة عيار ١٢٠ مم مصنوعة من اليورانيوم المنضب. الحادث أيضا تسبب في تدمير ٣ دبابات M1A1 وما عليها من ذخيرة (حوالي ١١٠ طلقة يورانيوم) بالإضافة إلى مئات الطلقات من نفس النوع كانت مخزنة فوق عربات الذخيرة. ولقد أثبتت التحقيقات أنه برغم أن قيادة الفيلق كانت على علم بالأخطار الإشعاعية في الأيام التي تلت الحادثة إلا أن إجراءات محددة لم تتخذ للتقليل من آثار تلك الأخطار.

ذخيــرة اليـورانيــوم



بدأ الخطأ في موضوع ذخيرة اليورانيـــوم من لحظة الموافقـة على استخـدام وتـداول ذخيرة مصنوعـــة من مادة مشعة، تستهلك بكميات كبيرة في الميدان في تطبيقات حربية «عادية» بواسطة أفراد «عاديين» وسط ظروف «غير عادية».

ويبدو أن حرارة الجو الشديدة والأحوال المتردية للجنود كانتا وراء عدم ارتدائهم ملابس الوقاية واتباعهم لتعليمات التعامل مع حوادث من هذا الحجم.

* تحطم طائرة A-10 في السعودية: في ٢٧ فبراير ١٩٩١ تحطمت طائرة A-10 واحترقت أثناء محاولتها الهبوط في مدينة الملك خالد العسكرية في السعودية. وكانت الطائرة تحمل قبل إقلاعها ١١٥٠ طلقة موزعة بين طلقات اليورانيوم والطلقات التقليدية شديدة الانفجار.

وهناك أحداث أخرى أقل أهمية تسببت في تعرض الأفراد لآثار ذخيرة اليورانيوم، إلا أن الحساب يدل في النهاية على أن الدائرة التي انتشرت فوقها لعنة تلك المادة كانت أوسع مما توقع البعض في البداية، فقد ضمت داخل محيطها العراق والكويت والسعودية وأعدادا كبيرة من الجنود والمعدات لن يتاح أبدا حصرها بشكل دقيق.

الحصاد المر لحرب الخليج

لم يكن انتصار الولايات المتحدة في حرب الخليج هو حصادها الوحيد، فلم يكد ينقشع ضباب الحرب إلا وتعالت الشكوى من بعض المحاربين الذين شاركوا فيها من أعراض لا يجدون تفسيرا شافيا لها. ومضى على ذلك أكثر من أربع سنوات قبل أن تحدث استجابة جادة من الإدارة الأمريكية والكونجرس ووزارة الدفاع. ففي يونية ١٩٩٥ قررت الوزارة تكوين فريق عمل لبحث الحوادث والظروف التي أحاطت بمجريات الحرب والتي ربما كانت السبب وراء إصابة الأفراد بتلك الأعراض. وفي ١٢ نوفمبر ١٩٩٦ تقرر تعيين مساعد خاص لنائب وزير الدفاع مهمته متابعة التحقيقات والدراسات الخاصة بهذا الموضوع، وجمع المعلومات عن مادة «اليورانيوم المنضب» التي أشارت إليها أصابع الاتهام. ومن الغريب أنه حتى أغسطس ١٩٩٨ لم يكن قد بدأ بعد برنامج طبي شامل لمتابعة الأفراد الذين تعرضوا لآثار ذخيرة اليورانيوم أثناء الحرب. لكن تصاعد الاهتمام بالموضوع فرض إنشاء برنامج مشترك للمتابعة الطبية تحت إشراف وزارة الدفاع وجمعية شئون المحاربين. وحتى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٠ كان البرنامج قد سجل ٦٦٢ فردا تقرر متابعتهم طبيا. وصدر التقرير الأول لوزارة الدفاع في ٤ أغسطس ١٩٩٨ بعنوان «تقرير عن التعرض البيئي: اليورانيوم المنضب في حرب الخليج»، وتم تحديثه مؤخرًا في ١٣ ديسمبر ٢٠٠٠.

وكان هدف التقرير منذ البداية الرد على عدد من الأسئلة: هل تعرضت القوات الأمريكية لمخاطر صحية «غير مقبولة» بسبب تعرضها لمادة «اليورانيوم المنضب» أثناء حربها في الخليج؟ وهل كان الأفراد مدربين للتعامل مع تلك المخاطر؟ وللإجابة على تلك الأسئلة تضمن التقرير نتائج فحص الحوادث الموثقة لتعرض الأفراد لمادة اليورانيوم المنضب والآثار الصحية التي يعاني منها الأفراد. ولتحقيق ذلك تمت مئات من المقابلات مع محاربي حرب الخليج، وشهود العيان، والخبراء، واستعان التقرير بالدراسات التي أجرتها العديد من الجهات. وقسم التقرير حالات التعرض إلى ثلاثة مستويات (١) و (٢) و (٣) مقسمة تبعا للأنشطة والأحداث، حيث يمثل المستوى (١) أعلى مستويات التعرض والمستوى (٣) أقلها.

وبرغم عدم اليقين الذي يسود معظم فقرات التقرير ونتائجه ينتهي بفقرة نهائية يعرب فيها عن «اعتقاده» بأن اليورانيوم المنضب ليس السبب في أمراض حرب الخليج، ويضيف أن الدلائل المتوفرة تشير - برغم الاعتقاد أن التعرض لجرعات عالية من هذه المادة عن طريق الفم أو الاستنشاق يمكن أن يؤدي إلى مخاطر كيماوية وإشعاعية - إلى الجنود الذين شاركوا في حرب الخليج لم يتعرضوا لجرعات يمكن أن تعرض صحتهم للخطر.

وبشكل مستقل طلب الكونجرس من مكتب المراقب العام أن يبحث عن إجابات للأسئلة الآتية:

* ماهو الفهم العلمي للتأثيرات الصحية الناتجة عن التعرض لمادة اليورانيوم المنضب؟

* هل يواجه المحاربون الذين اشتركوا في حرب الخليج مصاعب إدارية مع برنامج الفحص الطبي الحالي لتحديد التأثيرات الصحية المحتملة لليورانيوم المنضب؟

* إلى أي مدى قامت أفرع القوات المسلحة بإدخال برامج لتدريب الأفراد على العمل في مسرح لعمليات ملوث باليورانيوم المنضب؟

* العدد ليس نهائيا وجاري تدقيقه

** ملابس وقاية - أقنعة - مرشحات هواء

وفي تقريره إلى الكونجرس أوضح المراقب العام في ٢٩ مارس ٢٠٠٠ بالنسبة لموضوع الآثار الصحية أن العديد من الدراسات قد أكدت أنه «من غير المحتمل» أن يؤدي استنشاق أو بلع اليورانيوم المنضب إلى مخاطر صحية نتيجة الإشعاع وبالتحديد السرطان. وبالنسبة لمسألة المعوقات الإدارية أكد التقرير أن ١٤,٨٪ من بين ١٢٨ محاربا قد واجهوا عقبات للاشتراك في برنامج الفحص الصحي وقياس نسبة اليورانيوم في البول، تراوحت تلك العقبات بين عدم الاتصال بهم لتحديد ميعاد للفحص، أو أنهم لم يجروا اختبار وجود اليورانيوم في البول، أو أنهم لم يستطيعوا فهم نتائج الاختبار. وبالنسبة لمسألة برامج تدريب الأفراد، أوضح التقرير وجود صعوبات للتحقق من وجود هذه البرامج، وأنه بمراجعة ١٧ قاعدة عسكرية تكشفت صعوبات تواجه حصول الجنود على تلك التدريبات لأسباب مختلفة. ونوه التقرير بالصعوبات التي تواجه عملية تقدير الجرعات الإشعاعية التي تعرض لها الجنود نتيجة الحوادث وكذا تحديد كميات الغبار المشع الناتج من اصطدام ذخيرة اليورانيوم بالهدف.

أزمة يقين ومصداقية

تثير مشكلة أمراض حرب الخليج وعلاقتها بذخيرة اليورانيوم قضية «الدراسات العلمية» وعجزها أمام بعض الظواهر المركبة المتصلة بالبيئة والبشر عن الوصول إلى نتائج واضحة مفهومة ومؤكدة. ولا شك أن العجز يتزايد وربما يتحول إلى انحراف متعمد إذا أضفنا إلى ذلك الحرب والسياسة والمصالح. وهناك قدر من التماثل بين مشكلة ذخيرة اليورانيوم ومرض جنون البقر الذي انتشر في أوروبا مؤخرا. لقد طالب الرئيس الفرنسي جاك شيراك في نفاد صبر بإيقاف استخدام الأعلاف المخلوطة بمكونات حيوانية بدون انتظار إثبات العلاقة بينها وبين مرض جنون البقر الخطير.

لقد بدأ الخطأ في موضوع ذخيرة اليورانيوم من لحظة الموافقة على استخدام وتداول ذخيرة مصنوعة من مادة مشعة، تُستهلك بكميات كبيرة في الميدان في تطبيقات حربية «عادية» بواسطة أفراد «عاديين» وسط ظروف «غير عادية». وذلك اعتمادا على أن مستواها الإشعاعي منخفض وأن قواعد خاصة سوف تحترم عند استخدامها. لكن التجربة العملية وسط ظروف الحرب لم تُثبت صواب هذا التصور. والمشكلة أن معظم الدراسات التي أجريت حول الموضوع قامت بها هيئات أمريكية بتمويل من وزارة الدفاع، وأن هذه الهيئات هي نفسها التي أجازت استخدام تلك النوعية من الذخيرة وراقبت التجارب التي تمت عليها قبل السماح باستخدامها في الميدان، وهي التي وضعت القواعد الإرشادية للتعامل معها طبقا لتصور معين عن طبيعة المخاطر المحتملة عند الاستخدام الفعلي.

ولاشك أن أخطاء كثيرة قد شابت تصور المخاطر وتحديد آثارها، ثم كان الاعتماد على دراسات سابقة أجريت على مجموعات من العاملين في مجال الصناعات النووية والعاملين في المناجم تختلف ظروفهم بصورة جوهرية عن ظروف ميدان القتال حيث يصعب اتباع قواعد أمان معقدة في أجواء ساخنة متسارعة وسط مخاطر أخرى كثيرة. ويضاف إلى تلك الأخطاء قصور في تصور كل السيناريوهات الممكنة للخطأ والخطر ومنها بطبيعة الحال تعرض القوات نفسها لنيران صديقة بنفس الذخيرة. ويضاف إلى ذلك تقصير - يصل إلى حد جرائم الحرب - في تجاهل تلوث البيئة بالغبار المشع، وترسبه فوق النباتات، وتسربه إلى المياه الجوفية بصورة مركزة تختلف كثيرا في قيمة تركيزها عن النسبة الطبيعية المتجانسة لليورانيوم داخل القشرة الأرضية. لقد دارت معارك البلقان والخليج فوق مناطق مأهولة ومعطرة مما يزيد كثيرا من احتمالات تسرب الخطر إلى المياه والغذاء ووصوله بسهولة للأطفال عند تعاملهم البريء والتلقائي مع الطبيعة حولهم.

لذلك كان منطقيا وضروريا أن تتولى منظمة الصحة العالمية التحقيق في الأمر بسبب خطورته البيئية الشديدة، خاصة أنه من غير المعروف بدقة عدد الدول التي اشترت ذخيرة اليورانيوم من الولايات المتحدة. لقد وجدت المنظمة بالفعل فجوات كثيرة في المعلومات المتوافرة عن مادة «اليورانيوم المنضب» ومعدلات الإصابة بالسرطان في المناطق المنكوبة، ولا شك أن حقائق الموضوع ينقصها الكثير، فلم نسمع حتى الآن صوتا أو نقرأ تقريرا من دول أخرى - غير الولايات المتحدة - دارت الحرب فوقها أو بالقرب منها أو شارك أبناؤها فيها.

وفي النهاية تبقى معظم تفاصيل القصة أمريكية في ملامحها وعناصرها، الفكرة والسلاح والذخيرة والحرب، وأيضا الضحايا. لقد بذلت الحكومات الأمريكية المتعاقبة بعد مأساة فيتنام جهدا لم يتوقف لتطوير السلاح والذخيرة ومفاهيم القتال للوفاء بوعد قدمته إلى الشعب الأمريكي أن يعود الجنود إلى أحضان أمهاتهم من الحرب سالمين. وبدا أن الوعد قد تحقق أخيرا في حرب البلقان فلم تفقد الولايات المتحدة جنديا واحدا، لكن الأيام نقضت الوعد.. فالجنود يموتون بعد عودتهم لسبب غامض مازالوا يبحثون عنه.

الأقبـــاط يكتبـــون رواياتهــم

يوســـف القعيـــد



ثلاث روايات صدرت مؤخرًا، يجمع بينها الكثير من السمات المشتركة. الروايات هي: «قرية غرب النيل» لنيافة الأنبا الدكتور يوحنا قلته، كما وصفته دار النشر في مقدمة الرواية، و«شبرا» للروائي نعيم صبري، و«وصايا اللوح المكسور» للدكتور غبريال زكي غبريال. والقول بصدور الروايات الثلاث مؤخرًا، ربما كان غير دقيق. فالرواية الأولى صدرت سنة ١٩٩٦، أما الثانية والثالثة فقد صدرتا في شهر واحد من عام واحد: يوليو سنة ٢٠٠٠.

الروايات تطرح سؤالاً واحدًا: هل تعد الروايات الثلاث من الأدب القبطي؟! وذلك باعتبار أمرين: ديانة أصحابها. كاتبان مسيحيان - أحدهما رجل دين مسيحي - والثالث كان مسيحيًا وأسلم. الأمر الثاني: طبيعة الموضوع التي تدور حوله الروايات الثلاث. وإن كان من حقي أن أبدأ برأيي ونحن في المدخل إلى رواق القضية. فربما كنت ضد تصنيفات الأدب التي راجت مؤخرًا. مثل أدب نسائي وأدب قبطي وأدب نوبي. فالأدب إما أن يكون أدبًا أو لا يكون. ويمكن أن يكون هناك أدب يكتبه قبطي أو مسلم. لكن الأساس هو توافر جماليات الكتابة الأدبية وخصائص النوع الأدبي في هذه الكتابة أم لا. وخطورة مصطلح الأدب القبطي تأتي من المناخ الذي يقوم على ربط أمور الحياة اليومية بالدين. فنحن نعيش زمن الله. والاهتمام بالدين وجعله محور أي كتابة يؤدي إلى رواجها. أو هكذا هو المتصور على الأقل.

وقبل أن يسود مصطلح الأدب القبطي. نجد تعبير الأدب الإسلامي الذي نحته الدكتور نجيب الكيلاني، بل وكتب بعض الروايات التي أطلق عليها تعبير أدب إسلامي. تتاول فيها تاريخ الإسلام. وتم تأسيس رابطة للأدب الإسلامي في المملكة العربية السعودية. وأصدرت مجلة فصلية تحمل عنوان: الأدب الإسلامي. الحقيقة أن واحدًا من أصحاب الروايات الثلاث التي نحن بصددها. لم يكتب عليها أنها من الأدب القبطي. ولكن صدورها هو الذي دفعني إلى طرح السؤال.

نحن إذن أمام قسمة جديدة في الكتابة الروائية العربية. تقسم الإبداع الروائي على أساس ديني. سواء كان دين الذين يكتبون هذا النص، أو الموضوع الذي يتناوله. ولعل هذا ما دفعني إلى البدء من كتاب الأدب القبطي: قديمًا وحديثًا. وهو الكتاب الوحيد الذي يتناول ظاهرة الأدب القبطي منذ دخول المسيحية إلى مصر وحتى ثورة سنة ١٩١٩. كنوع من التأصيل الذي لابد منه قبل الانطلاق إلى الروايات الثلاث.

المسيحية أدبًا

الأدب القبطي قديمًا وحديثًا لمحمد سيد كيلاني «١٩١٢ - ١٩٨٠» ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة. هكذا كان يكتب تحت اسمه في بعض مؤلفاته. يكاد أن يكون الكتاب الوحيد الذي يدرس ظاهرة الأدب القبطي. ولأنه يدرك ذلك. فهو يكتب في السطر الأول من كتابه: «هذا أول كتاب عن الأدب القبطي يحتوي على دراسة مركزة للأدب المتعلق بالشئون القبطية. والذي يصور حالة الأقباط النفسية وحركاتهم الاجتماعية. وميولهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية وخصوصياتهم الطائفية ونزعاتهم العاطفية وأمانيهم الوطنية ومشاعرهم القومية. وفخرهم بالأمجاد الفرعونية. ولم أغفل دراسة آدابهم الدينية التي تزخر بآرائهم المسيحية وعقائدهم اللاهوتية. دراسة أدبية خالصة بعيدة عن الجدل والمناقشة. فليس هذا كتاب دين وإنما هو كتاب أدب».

في الباب الأول من كتابه وعنوانه: الأدب القبطي من بدء ظهوره إلى نهاية العصر العثماني. يقرر أنه في سنة ٨٤هـ - ٧٠٥ ميلادية. صدر قرار بنقل الدواوين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية. وبذلك أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في المعاملات الحكومية. فأخذ الأقباط يهملون بالتدريج دراسة اللغتين اليونانية والقبطية ويقبلون على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها. وبدأوا يؤلفون الكتب العربية في القرن الثالث الهجري. وفي هذا الوقت لم تكن حركة التأليف في عصر الإسلامية قد بدأت على نطاق واسع. بل إن الكتب التي وضعت في القرن الثالث لا تكاد تذكر. وفي عصر الدولة الفاطمية ظهر أدباء مسيحيون كثيرون. ولكنهم كانوا يسارعون إلى اعتناق الإسلام ليظفروا بالوظائف الكبرى في ديوان الإنشاء وغيره. ويؤلفون الكتب الإسلامية تقربًا من الحكام وتأكيدًا لأحلامهم.

وفي الباب الثاني الذي خصصه للأدب القبطي في العصر الحديث يقول: كان الأقباط يتلقون مبادئ العلوم في كتاتيب خاصة يديرها عرفاء. وقد ظلت حتى العصر الحديث تتخذ أماكن لها بجوار الكنائس. أو منزل العريف ولم تكن تختلف عن كتاتيب المسلمين. وكان الصبيان يتلقون فيها مبادئ الدين. ويحفظون جانبًا من الإنجيل ومبادئ الحساب. أما الذين يريدون مواصلة التعليم فكانوا يدرسون الأدب العربي والنحو والمنطق والعروض على أساتذة من المسلمين. وقالت صحيفة الوطن في ١٩١٦/٥/٣: ويذكر متتبعو التاريخ أنه كان للأقباط قديمًا رواق بالأزهر المعمور يتلقى فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية. إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة. وممن درسوا في الأزهر من الأقباط: أولاد العسال قديمًا. وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن. ووهبي بك تادرس حديثًا. وذكرت الصحف تحت عنوان: الأقباط في الأزهر ما نصه: يتردد كثيرًا على حلقات الدروس المختصة لعلوم المنقول والمعقول في الأزهر جماعة من إخواننا الأقباط وقد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق والنحو والصرف والبيان والبديع والهيئة والجبر.

ولما أنشئت المدارس الحكومية، ومدارس الإرساليات الأجنبية أقبل الأقباط على الالتحاق بها. وافتتح الأنبا كيرلس الرابع أول مدرسة قبطية في مدينة القاهرة سنة ١٨٥٣. وقد حاول العرفاء أن يقاوموا حركة افتتاح المدارس القبطية لأنها ستقطع عنهم مورد رزقهم. فطافوا بالمنازل وحرضوا الآباء على عدم إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس، وذكروا أن الحكومة ستأخذ أبناءهم منها وتجندهم في الجيش. وترسلهم إلى ميادين القتال. ولما شعر الأنبا كيرلس بحركتهم استرضاهم بأن عينهم في وظائف التدريس بالمدرسة القبطية. فكانوا يدرسون الأطفال مبادئ القراءة والكتابة ويدرسون الدين لجميع التلاميذ. ثم أخذت المدارس القبطية تنتشر في جميع أنحاء القطر المصري. وظهرت مدارس التوفيق القبطية ومدارس ثمرة التوفيق ومدارس الإيمان

١ - شبرا (رواية)
نعيم صبري
القاهرة: الحضارة للنشر، ٢٠٠٠.
٢ - وصايا اللوح المكسور (رواية)
غبريال زكي غبريال
القاهرة: الحضارة للنشر، ٢٠٠٠.
٣ - قرية غرب النيل (رواية)
الأنبا الدكتور يوحنا قلته
القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٦.

والإخلاص والمحبة وغيرها، وامتد هذا النشاط العلمي إلى ربوع السودان.

وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت كلية البنات الأمريكية الكائنة بشارع رمسيس بالقاهرة فظهرت بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية فكرة إنشاء كلية قبطية للبنات. وكانت هذه الطائفة تخشى على بناتها أن يعتنقن مذاهب المدارس الأجنبية التي يتعلمن بها. ويتركن مذهب آبائهن. وفي هذا خطر عظيم يهدد تلك الطائفة. لذلك بدأ آباؤهم الدعاية للمشروع وعقدوا الاجتماعات وألقوا الخطب والقصائد حاثين على التبرع للمشروع الذي انتهى بإنشاء كلية البنات بالعباسية. وقد افتتحت سنة ١٩١٦. بعد ثمانية أعوام من ظهور الفكرة. ولما كانت الدعوة إلى إنشاء الكلية. جاءت في نفس الوقت الذي قامت فيه الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية. فإن الأقباط لم يهتموا بها وشرعوا في تأليف لجان تطوف بالأقاليم لجمع التبرعات لكليتهم.

هذا عن تعلم الأقباط للغة العربية. وتطور تعليمهم في مصر. لكن ماذا عن الأدب القبطي؟ يقول المؤلف: لقد كثر في الأدب القبطي التحدث عن الفقراء والأيتام، وتصوير ما يلاقونه من البؤس والشقاء والذل والهوان. في صورة تستدر العطف وتستدعي الشفقة وترقق القلوب. ثم يمر المؤلف على اعتقاد بعض الأقباط أنهم من نسل الفراعنة. لم تختلط دماؤهم بدماء أجنبية عربية أو تركية أو غيرها. واتخاذ الأقباط من رمسيس شعارًا لهم. وتلقيب أنفسهم بأحفاد رمسيس. وإنشاء نادٍ يحمل هذا الاسم. وإطلاق الأسماء الفرعونية على بعض أبنائهم، وظهور حركة ترمي إلى إحياء اللغة القبطية. لأنها كما قالوا لغة البلاد المصرية ولغة العبادة، ولغة المدنية القديمة والجديدة.

قال أحدهم: في مجلة المفتاح، عدد فبراير ١٩١٢:

- إننا نتكلم بلغة غير لغتنا. وديننا قد انمسخ بتعاليم غريبة لم نجن من ورائها غير التنابذ والشقاق. فإذا أردنا أن تكون قوميتنا سليمة فلابد من كنيسة واحدة. ولغة واحدة. تنضم تحت لوائها ونحبها ونفخر بها. وأما حال التذبذب وعدم الاكتراث التي نحن فيها هذه، فإن هي إلا من مقدمات الخذلان والموت.

والملاحظ - يقول المؤلف - أن الذين نادوا بإحياء اللغة القبطية لم يقصدوا إحياءها بين النصارى فقط. بل كان غرضهم إحياءها بين المصريين جميعًا، المسلمين منهم والنصارى. وذلك لأن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنة الجميع مما يدل دلالة قاطعة على أن أصلهم واحد. فهم من نسل الفراعنة وليسوا عربًا. ويمر الكاتب على مشاكل طوائف الأقباط والعلاقة بين المسلمين والأقباط في العقدين الأول والثاني من القرن الماضي. والمؤتمر القبطي الذي عقد في سنة ١٩١١ ومطالب الأقباط التي جرى التعبير عنها في هذا المؤتمر. والمؤتمر الذي عقده المسلمون في نفس السنة تحت مسمى المؤتمر المصري. ويتناول الحركة الوطنية وأثرها في الأدب القبطي عن ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٩. والموقف عن اغتيال بطرس غالي الجد ويقرر: إذا نظرنا إلى الأقليات في مختلف الدول وجدنا أنها تقف من الأكثريات موقف الشك والحذر نتيجة للمظالم التي وقعت عليها في عصور الاستبداد والطغيان. ولم يكن موقف المسيحيين في مصر ليختلف عن موقف هذه الأقليات. كانوا يعارضون النظام الدستوري ويرفضون فكرة إنشاء مجالس نيابية. لأنها تؤدي إلى تحكم الأكثرية الإسلامية في الأقلية المسيحية. وتوهموا أن حقوقهم ستهضم ومصالحهم ستداس بالأقدام. وكانوا يعارضون طلب المصريين جلاء قوات



قالت صحيفة الوطن في ١٩١٦/٥/٣: ويذكر ستبحو التاريخ أنه كان للأقباط قديمًا رواق بالأزهر المعمور يتلقى فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية. إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة. وممن درسوا في الأزهر من الأقباط: أولاد العسال قديمًا. وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن. ووهبي بك تادرس حديثًا.



الاحتلال. لأنهم توهموا أن حياتهم ورفاهيتهم رهينة بوجود النفوذ البريطاني. فهم بخير مادام الإنجليز بمصر. وإذا ما غادروها فأغلب الظن أن الأغلبية الإسلامية ستنكل بهم. وفي ١٩١٥/١/١٥ قالت صحيفة الوطن: إن الطوائف المسيحية، يجب أن تخرج من عزلتها، وتندمج في المجموع الوطني. فلا تحرص إلا على معتقدها الديني وما كان له مساس به.

وفي الفصل الخاص بثورة ١٩١٩ وأثرها في الأدب القبطي يكتب: حقًا قبل سنة ١٩١٤ كانت بعض أصوات تدعو إلى اتحاد العنصرين. وخطب بعض علماء المساجد في الكنائس. كما خطب بعض القساوسة في المساجد. ولكن هذه الحركة كانت محددة، ولم يكتب لها النجاح. أما ثورة سنة ١٩١٩ فكانت حدًا فاصلاً بين عصرين مختلفين بالنسبة للمجتمع المسيحي والأدب القبطي. فقد اندفع المسيحيون منذ قيام الثورة للاشتراك في الجهاد الوطني والكفاح القومي في حماسة. ولم يدخروا وسعًا في العمل من أجل الاستقلال وتطهير البلاد من الاحتلال. فكتب كتابهم وخطب خطباؤهم. ونظم القصائد الطويلة شعراؤهم. وكلها تزخر بالعواطف الوطنية الملتهبة.

وفي فصل مهم عنوانه مجتمع الأقباط وأثرهم في أدبهم يكتب:

- كان المسيحيون فيما مضى. يعتبرون أنفسهم أمة قائمة بذاتها. لها كيانها وشخصيتها وآمالها. وأفراحها وأحزانها وأعيادها وتقاليدها. وقد ظلوا محتفظين بهذا الرأي إلى ما قبيل ثورة ١٩١٩. وألفوا كتبًا تتناول تاريخهم وتاريخ كنيستهم وتراجم عظمائهم مثل «الأقباط في القرن العشرين» لرمزي تادرس و«تاريخ الأمة القبطية» ليعقوب نخلة رفيلة و«نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر» لتوفيق اسكاروس. وأقاموا الجمعيات الخيرية والأندية الثقافية والملاجيء الخاصة بهم. وظهرت صحف ومجلات كثيرة دينية وأدبية تعالج شئون القبط. وشرع كتابهم يحررون المقالات والفصول في البحث عن أسباب تأخر الأمة القبطية. ويصفون ما نتابها من علل وأمراض اجتماعية. وما فيها من عيوب ونقائص ويقترحون خير الطرق لعلاج هذه الآفات.

ويقف أمام تناول كتاب الأقباط لهموم ومشاكل الأمة القبطية. مثل تأخر الزواج، وعدم إقبال الأقباط على التعليم، وقضية الطلاق بكل ما تحمله من تعقيدات في المجتمع القبطي. وهناك مشكلة أعرقها شخصيًا للمرة الأولى. وهي تحرير المرأة المسيحية من الحجاب. فقد قالوا أن المرأة المسيحية لم تكن تعرف الحجاب. وإنما الذي فرضه عليها هو أحمد بن طولون. وذكروا أن الحجاب كان السبب في تأخر المرأة القبطية وتخلفها عن نساء العالم. وإن الدين المسيحي نهى عن الحجاب. وعن تغطية وجه المرأة بالبرقع، وعن لف جسمها بالحبرة والإزار. وقالوا أن المرأة القبطية شبت على العفة والطهارة. وإن هذه الصفات طبيعية فيها منذ عصور الوثنية. وكانوا يقارنون دائمًا بين بنات الفرنجة وهن مسيحيات وبنات الأقباط اللاتي يشاركنهن في العقيدة ومع ذلك فالفرق عظيم.

ويجمل محمد سيد كيلاني كتابه تحت عنوان خاتمة ويقول: إن الأدب القبطي منذ بدايته على يد ابن بطريق وحتى العصر العثماني: كان من الأدب الديني الذي يهدف إلى خدمة المعتقدات المسيحية. والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق والتنويه بالأعياد القبطية. ولما قامت النهضة المصرية اتسعت دائرة الأدب القبطي وتشعبت أغراضه داخل الإطار القبطي وفي حدود المصالح القبطية. فكانت مهمته هي خدمة أبناء الطائفة في شتى المجالات والعمل على بناء مجتمع قبطي.

وبثورة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق. فاختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة. والذي كان يدعو إلى دوام الاحتلال البريطاني واتجه إلى الاندماج في الأدب السياسي العام. بعد أن اتحدت الأغراض وتوحدت الأهداف. وكذلك أخذت دعوة الشعراء والكتاب إلى إنشاء المدارس وتشجيع التعليم والحض على طلب العلم تفقد أهميتها، بعد أن أقبل الناس عن كل صوب على طلب العلم من تلقاء أنفسهم. وبعد أن كثرت المدارس، ولم يبق من الأدب القبطي إلا الأدب الديني. تقترن به عادة الدعوة إلى البر بالفقراء والمحتاجين. وذلك لأن الترغيب في الإحسان ركن من أركان الأدب الديني.

هناك مسافة بين عنوان كتاب محمد سيد كيلاني ومحتواه. فهو ليس دراسة في قضية الأدب القبطي بقدر ما هو دراسة مهمة عن الكتابة القبطية باللغة العربية. سواء أكانت مقالات أو خواطر أو انطباعات أو قصائد شعرية. مثلاً لم يناقش لماذا لم يكتب الأقباط النص الروائي والسير الذاتية والكتابة المسرحية. مع أن هذه الأشكال كانت معروفة في ذلك الوقت. وكتبها مسلمون لكن الأقباط لم يقتربوا منها. ربما كان السبب هو اعتماده على الصحف والمجلات والمطبوعات الدورية. وبالتالي كان محكومًا بنوعية المادة التي تحت يديه. ولم يخرج من إطارها. ومع هذا يبقى جهده رياديًا وغير مسبوق. وهو نفسه يعترف بهذا القصور في مقدمة كتابه - وليس التقصير - وذلك حين يقول:

- حينما درسنا الأدب المصري العام أهملنا الأدب القبطي إهمالاً تامًا. لذلك جاءت دراستنا ناقصة. فضلاً عما وقع فيه من خطأ في الحكم وسوء في الفهم. وفساد في الاستنتاج. وبعد عن الصواب في دراستنا لبعض الظواهر الأدبية. أما النقص في دراسة أدبنا السياسي فواضح. لأن أدب الأكثرية الإسلامية. كان يختلف قبل ١٩١٩ عن أدب الأقلية القبطية.

ثم يقول: مما يمكن أن يشكل اعترافًا بالتقصير:

- من الغريب أن الأقباط المعاصرين يجهلون أدب أجدادهم جهلاً تامًا ولا يكاد المتعلمون منهم يحفظون شيئًا عن شعرهم. وكان لهذا الجحود الذي لاقاه أدباء الأقباط من أبناء طائفتهم أثره في نفوسهم. فأهملوا نتاجهم الأدبي. حتى عبثت به يد النسيان أو كادت. فلم يهتموا بجمع شعرهم ونثرهم. وقد ترتبت على هذا صعوبة كبرى تعترض سبيل الباحث في الأدب القبطي. وصعوبة أكبر في الوقوف على تراجم شعرائهم وكتابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم.

أيضًا فهو لم يناقش أهم قضية يطرحها هذا الكتاب ألا وهي أن الأدباء الأقباط عندما قرروا التعبير الفني عن أنفسهم استخدموا الشعر العربي العمودي التقليدي وهو نتاج عربي إسلامي. ولم يستخدموا أشكالاً فنية آتية من العصر القبطي في مصر. وهذا التناقض الفني والأدبي - وليس الديني - كان يتطلب الوقوف أمامه طويلاً. مثلما توقف أمام الحب الإلهي وتأثيره في الشعر القبطي المصري.

القمص روائيًا

نيافة الأنبا الدكتور يوحنا قلته هو نفسه كمال قلته. والأخير اسمه المدني أما الأول فهو اسمه الديني. وكلاهما - يوحنا وكمال - اسمان لشخص واحد. ولد سنة ١٩٣٧. في القرية التي تدور فيها أحداث روايته. واستمر في دراسته المدنية حتى حصل

على الماجستير وكان موضوعها: أثر الثقافة الفرنسية في أدب طه حسين سنة ١٩٨٤. وقابل طه حسين أكثر من مرة خلال إعداد الدراسة. أما الدكتوراة فقد كان موضوعها عن دراسات المستشرقين الفرنسيين للشعر العربي، حيث درس جهود ستين مستشرقًا درسوا الشعر العربي. وقد سبق له التدريس في أكاديمية الفنون في فترة رئاسة الدكتور رشاد رشدي لها. ويقول إنه عندما فكر في تدريس كتاب ديكارت مقال في المنهج للطلاب حتى يتعلموا طرق التفكير، والمنهج الذي يمكن أن يقودهم إلى الحقيقة. قال له الدكتور رشدي: لاداعي لذلك. وقام بالتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة: من ٨٧ حتى ١٩٩٢. مؤلفاته المنشورة هي: الإنسان هو القضية، وأرواح هائمة ٩٨، وتأملات في الإنجيل وهو دراسة في الإيمان المسيحي ١٩٩٩، وآخر كتبه المسيح دعوة للحرية. فيه نظرة جديدة لشخصية المسيح. ومشروع الدكتور قلته يقوم على حمل لواء العلاقة بين الثقافة والدين. ذلك أنه يرى أن بعض رجال الكنيسة الذين تحرروا من الجو الكنسي والتقاليد الكنسية. تمكنوا من أن يقولوا للكنيسة: «ستوب» هذا يكفي. وقاموا بعملية مهمة وتاريخية وكان لابد منها. وهي نقل الحضارة لقلب الكنيسة. وأخذوا الكنيسة إلى جوهر الحضارة. القضية الثانية التي يهتم بها أنه ضد فكرة قبطية الكنيسة المصرية. ويركز على عروبة الكنيسة. مشروع الدكتور قلته يقوم على مخاطبة الصفوة والمثقفين. باعتبار أنهم هم الذين يقودون المجتمع إلى الأمام. ولا يفكر في الكتابة للقارىء العادي. ولا يخاطب وجدان الفرد العادي.

المنصب الديني الذي يتولاه هو نائب بطريرك الكنيسة الكاثوليكية في مصر. أي أنه الرجل الثاني في هذه الكنيسة. بقي أن أقول أنني عند السؤال عن روايته في أوساط الكنيسة المصرية. فوجئت بحالة من عدم الارتياح تجاهها. وهذا الكلام يتفهمه الإنسان خاصة عندما يدخل إلى قلب الرواية. قال لي الدكتور يوحنا أن أحداث روايته واقعية. وأن بعض أبطالها مازالوا يعيشون حتى الآن. وهو ما كتبه في مقدمة الرواية: هذه قصة وقعت أحداثها في النصف الثاني من هذا القرن «القرن الماضي الآن» كل أبطالها حقيقيون. الأسماء وحدها من صنع الخيال. حتى لا تقلق أرواح الذين رحلوا إلى الخلود. من الصفحة الأولى من الفصل الأول، يفرق الكاتب بين المسلمين والأقباط في قرية «القطنة» وهي قرية من أصغر القرى في محافظة سوهاج في صعيد مصر. أغنياء شرق البلد قلة من المسلمين. وأغنياء غرب البلد قلة من الأقباط. ونحن أمام بطلين الحاج فتحي والخواجة كامل. الذي لم يذهب إلى القدس ولكنه يعشق لقب المقدس. والحاج فتحي الذي لم يذهب إلى الحجاز ولكنه يعجب بمن يقول له يا حاج. يقول صاحب الرواية: لم يذكر التاريخ مرة واحدة أن المسلمين قاموا بثورة ضد الأقباط ولم تشهد مصر في كل عصورها حربًا أهلية بين المسلمين والأقباط. أما الكنيسة فيقول عنها: اطمأنت الكنيسة إلى أن مذهبها الأرثوذكسي سيبقى المذهب السائد الأوحد في مصر.

ولم يقلق الكنيسة القبطية انضمام بعض العائلات الثرية إلى المذهب الكاثوليكي أو المذهب البروتستانتي. لقد كان انضمامًا إلى ثقافة وإلى حضارة أكثر منه انضمامًا إلى إيمان جديد أو كنيسة جديدة. ولكن القلق بدأ يساور الكنيسة القبطية حين تسرب المرسلون وطرقوا أبواب القرى والكفور وأنشأوا فيها المدارس وأقاموا الأديرة. فأقبل الطلاب الأقباط من الطبقات الفقيرة المهملة على تلك المدارس. ورأوا في ذلك تحقيقًا لحلم طالما راودهم بأن يسلك أولادهم المحرومون درب أبناء الأغنياء والمترفين ليشقوا لهم طريقًا في الحياة أكثر أمنًا. ويخرجهم من ظلمات الجهل والفقر والتخلف. وهذا هو الحدث الرئيسي في هذه الرواية.

الفصل الثاني وعنوانه: السفر إلى الدير. يتوقف أمام منزل المقدس كامل أتوبيس خاص من أحدث أنواع السيارات المرسيدس. مكتوب على جانبيه باللغتين العربية والفرنسية: مدرسة العائلة المقدسة. كما رسمت في دائرة صغيرة بجوار العبارة: صورة العذراء تحمل طفلها. فاليوم، موعد سفر بعض الصبية الأقباط. الذين وقع عليهم اختيار الرهبان الكاثوليك ليصحبوهم إلى دير في القاهرة. يعدونهم سنوات طويلة. ليصبحوا بعدها قسوسا في الكنيسة الكاثوليكية. ولا تتجاوز أعمار الصبية العاشرة. صعد المختارون إلى الأتوبيس. عشرة أولاد. اختارهم الرهبان. من العائلات القبطية التي انضمت إلى المذهب الكاثوليكي منذ نصف قرن. لم يكن اختيارهم عشوائيًا. بل تم بعد اختبارات متعددة. فالمعد للكهنوت لابد أن يكون سليمًا جسدًا وعقلاً وروحًا. لا يقبل ذوي العاهات أو أبناء المطلقين أو الذين غيّر والدهم أو والدتهم الديانة. لا يشترط ثراء الأسرة أو فقرها. لكن الفقراء يودون أكثر من الأغنياء أن يسلك أبناؤهم هذا السبيل. من بين الذين ودعوا أولادهم في شيء من الحزن. الخواجة كامل الذي بعث بابنه البكر غريب، وهو يشعر أن ابنه رحل وفي قلبه الصغير جرح بسبب غيرته التي تنغص حياته. إذ يرى والده قد غمر شقيقه وجيه بمحبة وإعزاز وغيرة عن إخوته. وحنان بالغ لا يدري له سببًا.

الفصل الثالث عنوانه: عاصفة بين الأقباط. وهو يبدأ هكذا: تشيع في غرب البلد وفي شرقها أن الرهبان الكاثوليك صحبوا معهم إلى القاهرة عددًا كبيرًا من الصبيان. ليعدوهم قسوسًا للكنائس الكاثوليكية. كما أشيع أيضًا أن بنات سافرن مع الراهبات ليتحولن إلى راهبات كاثوليكيات. وأن الرهبان سيعودون ومعهم تصريح ببناء مدرسة كاثوليكية. وأن الراهبات أيضًا قد اخترن قطعة أرض خلف بيوت غرب البلد لإقامة دير صغير. وبه مستوصف ودار حضانة. لم يكن الأمر حقيقة. وإنما مجرد أمنية. ألقى بها أحد الرهبان مع الخواجة كامل إذ قال له: إن شاء الله في القريب العاجل تكون مدرسة القطنة، وكنيسة القطنة، وكمان دير رهبان القطنة. فرفع أبوغريب عينيه إلى السماء وقال: من بقك لباب السما.

وتتم مناقشة موضوع تغيير الملة في الكنيسة. يقول القمص: احنا ناس أرثوذكس. الكنيسة القبطية أم الشهداء. دايمًا كان فيه ناس عايزين يقسموها ولكنها صمدت بنعمة المسيح ودم شهدائها. لازم كلنا نكون يد واحدة ورأى واحد. ونمنع دخول كنائس ثانية. يرد عليه الخواجة تاوضروس أولاً: ماحدش يقدر يغيّر عقيدة إنسان. ثانيًا احنا أصلاً مش فاهمين حاجة في العقيدة. أهو كله في المسيح أرثوذكس. كاثوليك. بروتستانت. هو احنا دخلنا في الإسلام؟ أنا مش فاهم كنيستنا القبطية زعلانة ليه. دي صلواتهم زي القبط بالضبط. أنا مش شايف فرق غير في لبس العمامة. دي عمامة مدورة ودي عمامة مربعة. يرد عليه توفيق: يعني مش كله في المسيح؟ بس الكاثوليك أرقى. العلم عندهم كويس. والنظام أحسن والقسيس مش بتاع فلوس.

وفي المدرسة يصف الواقع هكذا: يدق جرس المدرسة في الثامنة صباحًا. لا يحيي



بثورة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق. فاختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة. والذي كان يدعو إلى دوام الاحتلال البريطاني واتجه إلى الاندماج في الأدب السياسي العام، بعد أن اتحدت الأغراض وتوحدت الأهداف



العلم ولا يهتف التلاميذ عاش الملك. كل ما يعرفه التلاميذ أنهم أقباط. وينبغي أن يظلوا أقباطًا. لم تعلق صورة عبدالناصر في المدرسة -بعد ذلك- إلا بعد إلحاح شديد من ضابط النقطة. الذي قدمها هدية للمدرسة. ويناقش العمدة أبوغريب في حكاية ملل الأقباط. الذي يقول له: الكاثوليك تابعين لبابا روما واحنا أولاد بلد تبع الأنبا يوساب.

لكن غريب يترك الدير بعد أن حصل على شهادة دراسة اللغة الفرنسية. وبعض زملائه ينتظر السفر إلى روما. أما غريب فلم تكن عنده رغبة في إكمال دراسة اللاهوت. لا يريد أن يطلع قسيسًا. إنه بتعبير والده يرفض المسيح لكي يتزوج. وغريب عندما نذره والده للرهبنة كان عمره عشر سنوات. لم يكن من حقه أن يختار. أما الآن وعمره عشرون سنة. من حقه أن يختار. إنه يريد أن يعمل بتدريس اللغة الفرنسية في بنادر الصعيد. أما والده فيرى أنه لابد أن يكمل عمره في التكفير عن ذنوبه. لأن من يخرج من الدير ملعون. وغريب يرى أن الدير فيه أناس مش كويسين. وهناك تمييز أناس عن أناس. لأن البشر موجودون في كل مكان. وغريب لا يعرف أن الفشل في حياة الرهبنة، والخروج من مسلك الرهبنة يمثل في حياة القرى عارًا، يصبح سبة للأسرة. وكأن لعنة قد حلّت بمن يفعل هذا. لأنه لا يوجد طريق للسماء غير الكهنوت والرهبنة. ويقوم كامل بطرد ابنه غريب من البيت عقابًا له على مروقه من الرهبنة إلى الحياة العادية. بحجة حقه في الاختيار. وإن كان لا يعرف أنه بذلك قد اغتال أهم أحلام والده كامل القطناوي. لقد اختلط في أعماقه الورع والتقوى بالطموح والأمل. إن الكهنوت عنده أسمى رسالة وأجمل وظيفة. فهو امتلاك للدنيا والآخرة. إنه يحسد الآباء الذين سيصعد أولادهم إلى درجة الكهنوت. كان قد خطط ليكون غريب قسيسًا. ووجيه تاجرًا. وعجيب وأكمل وجميل وجلال طلبة في الجامعة. كان مُصرًا على أن يخرج من دائرة البؤساء. فالابن الأكبر إن أصبح قسيسًا أمده بالعون المعنوي وارتفع بأسرته من طبقة إلى طبقة. والابن الثاني إن أتقن فن التجارة وأصبح تاجرًا كبيرًا فإنه يستطيع أن يتفرغ لتربية الأربعة الباقين ليتخرجوا من الجامعة. فإذا بالحلم ينهار في لحظة.

في هذه الرواية العديد من الآراء السياسية التي يُنطق بها الروائي الأبطال بها. فرغم قوله أن كامل لم يكن عليمًا بأمور السياسة ولا يحب الدخول فيها. إلا أن الروائي يقول: لا يدرك -يقصد كامل- أنه أحب جمال عبدالناصر دون أن يعرف الأسباب الحقيقية. أعجبته شجاعته وإقدامه. ومواقفه المتحدية للدول الكبرى. ربما أحبه لأنه أعطى الفرصة لأبنائه لدخول الجامعة. أتاح لهم ما لم يتحه ملك أو رئيس. كان يشعر في خطب جمال بتعاطفه مع الفقراء. أما السادات فقد عشق فيه روح ابن البلد. وتبسطه مع الفلاحين. لكن لم يبلغ حبه للسادات مبلغ حبه لجمال دون أن يعرف لذلك سببًا. ربما لأن السادات تنهى عصره بموقف أغضب الأقباط. وبدا متعاليًا عليهم. ربما لأن ابنه مات في الحروب التي قادها السادات «الأدق أن يكتب الروائي استشهد بدلاً من مات».

ولأن ثقافة الروائي فرنسية وفي الرواية جو فرنسي. نقرأ اسم زولا واسم بودلير. وحالة من الإعجاب بالثورة الفرنسية. ومقارنتها بثورة يوليو. فالثورة الفرنسية غيّرت العالم وأثرت فيه. ولكن هل كان التغيير إلى الأفضل؟ الا يكفي أن هذه الثورة حرّكت نزعتها العدل والحرية. وأيضًا فقد زرعت المادية والإلحاد. ويقول أحد المتجاورين: ليت ثورة جمال

عبدالناصر حذت حذوها. لكانت قد حققت ما عجزت عن تحقيقه اليوم. بعد سنوات من قيامها.

تجــــــــــربة بــكر

على الرغم من ضخامة عدد صفحات رواية «شبرا» ٢٣٤ صفحة. إلا أن صاحبها نعيم صبري. باعتباره من رواد جلسات نجيب محفوظ وليس من حرافيشه. قد قرأها لنجيب محفوظ. على مدى جلسات امتدت لشهور طويلة. قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. قال لي نجيب محفوظ: إن الرواية أعجبته لسببين: الأول: أنها تقدم حيًا بأكمله. هو حي شبرا بكل سكانه. وهذا لون جديد من الكتابة الروائية. فهو لا يكتفي بتقديم أسرة. أو سكان عمارة. ولكن يقدم حيًا. الأمر الثاني: أنه يقدم أفضل ما في أبطاله. لدرجة أنني عندما كنت أستمع إليه، وهو يقرأها لي. كنت أتمنى لو أن الناس في الواقع بهذا القدر من الطيبة ولو كانوا هكذا. لاختفت الهموم والأحزان من الدنيا.

شبرا ليست رواية نعيم صبري الأولى. أصدر قبلها ثلاث روايات. وثلاثة من دواوين الشعر. ومسرحية شعرية. وكتابا من السيرة الذاتية. ولأن نعيم صبري ميسور الحال. وكان يمكن اعتباره إلى وقت قريب من صغار رجال الأعمال. قبل أن يتفرغ للكتابة فقط. وهو تفرغ من جيبه الخاص. وليس من إدارة التفرغ في وزارة الثقافة. وهو - علاوة على ذلك - ينشر أعماله على نفقته الخاصة. يمكن القول أنه عضو في حزب أحمد رامي الذي كان يرفض التكسب من الشعر.

ورواية شبرا تقدم تجربة حياة عدد من البشر يؤمنون بالأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية. وإن كانت هذه الأسرة اليهودية الوحيدة في الرواية. وهي أسرة راشيل اشكينازي تختفي فجأة. ويبدو أن نعيم صبري قد آثر السلامة. ولم يحدد ظروف اختفائها ولا توقيتها الزمني. حتى لا يصطدم بالناصريين، لأنه من المعروف تاريخيًا أن اليهود غادروا مصر خلال العدوان الثلاثي عليها سنة ١٩٥٦. بعد أن تحولوا إلى طابور خامس ضد تجربة عبدالناصر. وعاد القليل منهم إلى وادي النيل بعد معاهدة السادات مع إسرائيل. وإن كان الذين عادوا أطلال بشر متقدمين في العمر.

وأحداث الرواية تدور في حي شبرا. وهو حي اشتهر بكثرة سكانه من المسيحيين، وإن كانت هذه الكثرة قد بدأت تذوب مؤخرًا وسط سكان مسلمين كثيرين. وأصل كلمة شبرا في اللغة القبطية جبروا وتعني العزبة والعزبة هي الخلية الأولى في مجتمع الزراعة. والتي تنمو فيما بعد إلى القرية. وسط حشد هائل من التفاصيل. وعدد ضخم من الشخصيات لدرجة أن الإنسان يتوه بينها. حتى إن المؤلف ولمواجهة احتمال هذا التوهان المتوقع قام برسم كروكي للعمارة التي تدور فيها الأحداث. أوضح فيه الشقق والسكان.

التجربة التي تقدمها الرواية ربما كانت المرة الأولى التي تكتب فيها، شاب مسيحي يحب فتاة مسلمة. وهما معا من سكان نفس العمارة، وإن كان المؤلف لا يتوقف أمام الضرورة التي تجعل الفتى يحب الفتاة، والفتاة تحب الفتى، سوى أن كلا منهما يحب الآخر. فهي قصة مثل جميع قصص الحب، وإن كانت قد غيرت من مسار حياة الاثنين. نقرأ في الرواية: نشأت قصة حب بين نبيلة بنت الست عائشة وسعيد ابن الست عايدة رزق الله منذ



ومــــشــــروع
الدكــــتـــــور
قلتـــة يقــــوم على
حـــمل لواء العـــلاقـــة
بين الثــــقـــافـــة والدين.
ذلـــك أنـــه يــرى أن بــعض
رجـــال الكنيـــســـة الذين
تحــــرروا من الجــــو الكنسى
والتـــقـــاليـــد الكنســيـــة.
تمكنوا من أن يقـــــولـوا
للكنيـــســـة: «ستوب» هذا
يكفي. وقـاموا بعملية مهمة
وتاريخـــيـــة كـــان لابد
منهـــــا. وهى نقل
الحـــضـــارة لقلب
الكنيـــســـة



ثلاث سنوات، قصة حب عميقة جدًا تمر بأطوار متتابعة من الوصل والافتراق. يتفقان على الافتراق بسبب الظروف، ثم لا تلبث نبيلة أن تنهار فتتصل بسعيد تليفونيًا وتطلب لقاءه فورًا. كانت تمر عليه أحيانًا بالشركة دون سابق إنذار وتنتظره حتى انتهاء مواعيد العمل، ثم يخرجان ويمضيان الساعات الطوال معًا، يحدث هذا دائمًا مثل حكاية صخرة سيزيف، ما العمل؟! نبيلة مسلمة وسعيد قبطي. مأزق لا يحسدان عليه، يدفعهما التعقل ونكران الذات إلى الاتفاق على الافتراق من أجل أسرتيهما، ثم لا يلبثان أن يضعفا كآدميين، يخفق قلباهما بالحب العميق ويتطلعان إلى الارتباط وتكوين أسرة. والمؤلف لا يحدد دين المحبين فقط، بل يقدم ما يمكن أن يسمى ببيان أديان لكافة أبطال عمله. مع أن هذا من الممكن أن يتم في النص الروائي دون اللجوء إلى المباشرة الصريحة من خلال وضع الصليب في صدر الفتى، أو الهلال في صدر الفتاة نبيلة طالبة في كلية الآداب وتدرس الأدب الفرنسي. سعيد أيضًا يجيد الفرنسية، حيث درس بمدارس الفرير بشارع البحث.

لا يكون هناك من حل سوى أن يعتنق سعيد الإسلام. هكذا يفكران في الأمر ويتوصلان إلى القرار. ولكن تبقى المشكلة: كيف يواجه الناس والأقارب بعد هذه الخطوة؟ سيقولون إنه أشهر إسلامه ليحل مشكلة زواجه، ولكن كيف سيكون الحال بالنسبة للأبناء، أي دين سيكونون عليه؟ سيجدون عماتهم وجداتهم لأبيهم مسيحيات، وخالهم وخالتهم وبقية أهل أمهم مسلمين، كيف سيشاركون أهل أبيهم وأهل أمهم مناسباتهم الدينية؟ وإذا سألوا أباهم وأمهم: لماذا نحن مسلمون وأهل أبينا مسيحيون؟ ولماذا غير أبونا دينه؟ كيف سيواجهون أقرانهم عندما يكبرون؟

ويذهب الفتى والفتاة من أجل مشاهدة فيلم حسن ومرقص وكوهين. وقد اعتبرتها مصادفة تمت صناعتها من أجل مواجهة أحداث الرواية بفيلم سينمائي. وقصص الحب في الرواية تدور بين بشر مختلفي الأديان: مجدي وكريستينا، صابر وحليمة. وبعد أن يتخذ سعيد قرارًا بتغيير ديانته يقول إن ما يعنيني هو الإيمان بالله، وتدور مناقشات في كل مكان في العمارة، وتدور الأفكار الحائرة. لقد تزوج النبي محمد «ص» من مارية القبطية. ماذا حدث؟ ومن هنا يختار دينه؟ دارت التساؤلات في ذهنه بعد زيارته لأخته بشارع الزهور في اليوم التالي لوصوله وإثارة الموضوع. عن مشكلة الأولاد وديانتهم تقول له أخته: عندما يشب الأطفال سيكون خانة الديانة قد ألغيت من البطاقة الشخصية بإذن الله. يرد عليها: لن ينصلح حال هذا البلد طالما وجدت خانة الديانة في البطاقة الشخصية.

ويقدم نعيم صبري تفاصيل إجراءات تغيير الديانة في الفصل ١١٧ من الرواية هكذا:

- استقل سعيد الأتوبيس المتجه إلى الأزهر لإشهار إسلامه. فكر أولاً. أين يمكن للمرء أن يشهر إسلامه؟ لابد أن يكون في الأزهر. استعاد في ذهنه بعض الأخبار التي قرأها بالجرائد في الماضي عن ذهاب بعض الأجانب إلى الأزهر وإشهار إسلامهم هناك. لم تكن لديه أية فكرة عن الإجراءات، نزل عند محطة الأزهر. سأل أحد المارة عن إدارة الأزهر. ازدادت سرعة نبضات قلبه وهو يدلف من الباب ويصعد درجات السلم. تردد قليلاً. وهو لا يدري ماذا يفعل أو إلى أين يتوجه. رأى أحد الموظفين خارجًا من إحدى الغرف. فاقترب منه يتردد. وسأله بصوت مرتجف:

- من فضلك.. أنا.. كنت أريد أن أسأل. أنا. أريد. أريد أن أشهر إسلامي. إلى أين أتوجه؟!

- في الحقيقة. أنا لا علم لي بالإجراءات. لحظة من فضلك سأسأل الزملاء بالإدارة. تركه ودخل إلى الغرفة مرة أخرى. عاد وأخبره بالتوجه إلى مكتب رئيس لجنة الفتوى بالدور الأول.

صعد سعيد إلى الدور الأول وهو يراجع في ذهنه فاتحة الكتاب والشهادتين اللتين حفظهما بعد أن تصور أنه سيطالب بترديدهما أمام المسئولين. دخل إلى غرفة رئيس لجنة الفتوى. الذي كان جالسًا خلف مكتبه مشغولاً بأداء عمله. شيخ جليل ممتلئ القوام ذو وجه سمح. شجعه على أن يتم الحديث. بدأ كلامه وهو يقف إلى جوار المكتب قائلاً بصوت خفيض:

- أريد أن أشهر إسلامي.

دعاه الرجل إلى الجلوس بجواره. ثم سأله بهدوء:

- ما سبب إقدامك على إشهار إسلامك؟

أجابه سعيد:

- بصراحة يا سيدي. أحب فتاة مسلمة وأريد أن أتزوجها.

سأله الشيخ بهدوء:

- وهل هذا هو السبب الوحيد لإقدامك على هذه الخطوة؟!

أجابه سعيد:

- نعم يا سيدي. وقد ساعد على اتخاذ قراري هذا. أنني نشأت بأسرة متسامحة دينيًا وغير متزمتة، لنا كثير من الأصدقاء من المسلمين. بالإضافة إلى أنني أرى أن جميع الأديان تدعو إلى القيم النبيلة، وفي النهاية إلى الإيمان بالله.

- عظيم. هل تحفظ فاتحة الكتاب؟

- نعم يا سيدي.

طلب منه أن يتلوها. ثم سأله أن ينطق بالشهادتين ففعل. قال له الشيخ بعدها:

- حافظ على نفسك يا بني، فأنت الآن تملك صفحة ناصعة البياض. خالية من الذنوب. احرص على السلوك المستقيم وعلى خشية ربك.

سأله عن الإجراءات الرسمية بعد هذا. هل سيحصل على شهادة بالإشهار؟! طلب منه النزول إلى إحدى المكتبات المجاورة ويحضر منها شهادة إشهار إسلامه لكي يعتمدها له. يشعر سعيد بارتياح كبير لانتهائه من تلك الخطوة الحاسمة في حياته ولشعوره باقتراب تحقيق أمنيته بالارتباط بنبيلة. عبر شارع الأزهر باحثًا عن مكتبة للسؤال عن تلك الشهادة. وقف أمام إحدى المكتبات الصغيرة. طلب من الرجل شهادة إشهار إسلامه فأعطاه واحدة. عاد فطلب أربع نسخ أخرى من الشهادة. سيعتمدها جميعًا، لعله يحتاجها في أكثر من إجراء. من يدري؟ وقف مترددًا عند كتابة الاسم. سأل الرجل: هل تعرف إن كان من الضروري أن أغير اسمي؟! سأله الرجل: ما اسمك بالكامل؟! أجابه سعيد: سعيد رمزي نجيب بطرس. قال له الرجل: الاسم الثلاثي مشترك بين المسلمين والمسيحيين فلا داعي للتغيير. أوضح له سعيد قائلاً: اسمي الثلاثي هو سعيد رمزي نجيب بطرس. لأن أبي اسمه مزدوج «رمزي نجيب». قال له الرجل: أنصحك بعدم تغيير الاسم. سيجر عليك مشاكل كثيرة. ستضطر إذا غيرت الاسم إلى تغيير كل شهاداتك الدراسية. وجميع المستندات الخاصة بك، لن تستعمل الاسم الثلاثي إلا في الأوراق الرسمية. تستطيع أن تكتفي باسمك واسم أبيك المزدوج في معظم المعاملات.

سأل سعيد في النهاية: هل سيستخدم هذه الأوراق في تغيير البطاقة الشخصية؟ قال له: إن الإجراءات التي قام بها هنا هي إجراءات دينية. أما الإجراءات المدنية والإدارية فيجب أن تتم في مديرية الأمن. ذهب إلى مديرية الأمن فورًا. سأل عن الإدارة الخاصة بإشهار إسلامه. دخل إلى مكتب الرجل المسئول. أملى عليه طلبًا ليكتبه. مفروض أن

يحضر ثلاثة لقاءات أسبوعية مع أحد القساوسة. اللقاء سيكون يوم الثلاثاء. سأله عن ضرورة هذه اللقاءات. فقال له إن هذه تعليمات واجبة التنفيذ قبل السماح بإشهار إسلامه. ويحتار سعيد بسبب هذا المأزق. ماذا سيقول للقساوسة؟ وعندما يقول له إنه عزم أمره. وقام بالإجراءات ولن يعود فيها. يقول له المسئول إن هذه الإجراءات تمت بالاتفاق مع الكنيسة والسلطة المدنية. لا نريد أن نغضب الكنيسة لذلك تم الاتفاق على إتاحة الفرصة للكنيسة للقاء الشخص المتقدم لإشهار إسلامه. حتى تطمئن إلى قراره وتناقشه فيه. ستقابل القسيس ثلاث مرات. تحضر إلى مكتبي الثلاثاء القادم الساعة الحادية عشرة صباحًا، ثم الثلاثاء الذي يليه والثلاثاء الثالث. بعد أن تعتمد الإجراءات ونعطيك شهادة تتقدم بها إلى الشهر العقاري لاستخراج شهادة إشهار إسلام مؤقتة. ثم تتوجه إلى دار المحفوظات العمومية بالقلعة لتغيير شهادة الميلاد أولاً، باستخراج مستخرج رسمي لتغيير الديانة بعدها تتقدم إلى السجل المدني لتغيير البطاقة. يطرق سعيد ساهمًا ثم يسأل: وأين تكون اللقاءات؟ أشار الرجل إلى طاولة اجتماعات أمامه بالغرفة وهو يقول: على هذه الطاولة. في اللقاء الأول مع القسيس يسأله: أين تصلي الأسرة؟ في أي كنيسة؟ انتبه سعيد للسؤال المباغت. ودارت برأسه الظنون. القسيس يريد أن يصل إلى أسرته لمحاولة الضغط عليه. أجابه بعد تفكير: لا أعرف. يسأله: ما عنوانك يا سعيد؟! يقول له سعيد: لنكن صرحاء. حضرتك تريد معرفة عنواني والكنيسة التي تصلي فيها الأسرة لتصل إلى أسرتي، لإثنائي عن عزمي. أود أن أوضح لك أنني لن أبلغك بعنواني، وإنني لا أريدك أن تتصل بأسرتي. هذا شأني الخاص، وأنا رجل بالغ رشيد. ولا يكون هناك من حل أمام سعيد سوى أن يبلغه بعنوان آخر غير عنوانه الحقيقي. وإن ذهب القسيس يتحرى ويبحث عن أهله لن يصل إلى أي شيء. وبالفعل يستخرج بطاقة شخصية جديدة على عنوان صديقه مدحت في مصر الجديدة. وعندما يلتقي بالقسيس. المؤلف لا يوضح هل هو نفس القسيس في اللقاءات كلها. أم أنه يتغير من لقاء لآخر. يسلمه صورة البطاقة المدون فيها العنوان غير الحقيقي. ولا يكون أمام سعيد ونبيلة بعد أن أصبح سعيد مسلمًا سوى الزواج والسفر إلى ليبيا. بعد أن يشعر سعيد بوحشة ضارية. اكتشف أنه يقف وحيدًا ضد الجميع. وأهله ثاروا على قراره الذي نفذه قبل أن يعرفوا به. ويكون السفر إلى ليبيا - الذي يعتبر الحل الوحيد - سهلاً لأن خال زوجته يعمل هناك.

في الجزء الأخير من الرواية وبشكل مفاجئ تمامًا. نقرأ رسائل متبادلة بين الأبطال. خاصة بعد سفر البطلين إلى ليبيا.

سألني نجيب محفوظ في حضور المؤلف. عن رأيي في روايته بعد أن أبلغته أنني انتهيت من قراءتها. قلت له إن الرواية تقدم تجربة جديدة تمامًا على الكتابة الروائية المصرية والعربية. الا وهي تجربة أن يغير إنسان دينه. بصرف النظر عن الأسباب التي يمكن أن تقوده إلى ذلك. وتلك هي الإيجابية الجوهرية فيها. ولكني أقول: لو كنت كاتب هذه الرواية. هكذا يفكر كل الروائيين بعد أن يقرأوا روايات زملائهم. كل واحد يضع نفسه مكان الروائي الذي يقرأ له. علاوة على أنه يأويل الروائي عندما يقول روائي آخر رأيه في عمله. هكذا تعلمنا من التاريخ الأدبي. قلت له لو أنني كاتب هذا النص، لاكتفيت بتجربة نبيلة وسعيد. وقدمتها كما يجب أن تقدم. ودخلت التجربة حتى أعماقها. لأن نعيم صبري قدمها ولكن من الخارج. لم يعبر إلى داخل شخصية سعيد أو نبيلة رغم أهميتها وخطورة التجربة. إن العمق النفسي والرحلة الداخلية لإنسان يغير ديانته. هذا إن كان سعيد مسيحيًا تحول إلى الإسلام تجربة خطيرة، أما كونه لم يكن مسيحيًا فهذا معناه أنه لن يكون مسلمًا. هذه التجربة لم نجدها، وإن كنت قد وجدت الحدث الخارجي للعملية. الحركة الخارجية لسعيد. والإجراءات المادية التي أقدم عليها، خاصة أنني أعرف أن نعيم صبري الروائي قد مر بهذه التجربة في حياته. كان مسيحيًا وأسلم ليتزوج من الإنسانة التي أحبها، وهي زوجته الآن. وعمل فترة من الوقت في ليبيا فعلاً. وهذا يعطيه عمقًا حقيقيًا في الغوص إلى أعماق الشخصية. أيضًا لي مأخذ آخر على رواية نعيم، فهو الوحيد من بين الروائيين الثلاثة الذي كتب الرواية من قبل، ولذلك تكون المحاسبة هنا أشد. في هذه الرواية حشد من التفاصيل، مع أن التفاصيل في النص الروائي اختيار وليست حشدًا، والرواية مزدحمة بالشخصيات بصورة غير عادية. كما أن الكاتب حاول أن يقدم شبرا باعتبارها مكانًا مختلفًا عن غيره من أماكن مصر وهذا غير صحيح فشبرا جزء من مصر.

بقي أن نعرف أن نعيم صبري مولود في شبرا في ١٥/١٢/١٩٤٦، وعاش فيها حتى تخرج من كلية الهندسة جامعة القاهرة قسم ميكانيكا إنتاج سنة ١٩٦٨. وأنه مر شخصيًا بتجربة تغيير ديانته من المسيحية إلى الإسلام سنة ١٩٧٠. وقضى في ليبيا السنوات من ١٩٧١ حتى ١٩٧٧. أكثر المعلومات طرافة، بل وإثارة عن نعيم صبري. أنه ابن خالة غبريال زكي غبريال صاحب الرواية الثالثة في هذا المقال.

رسالة خطيرة

وصايا اللوح المكسور هي الرواية الأولى للدكتور غبريال زكي غبريال. وما أن شاهدت صورته المنشورة على الغلاف الخلفي للرواية، وبعد أن جردت الوجه من اللحية الكثيفة التي تحيط به. وقد جرت هذه العملية في خيالي طبعًا. حتى اكتشفت أنني أعرف الروائي، فقد كان مسئولاً عن شئون المقر في حزب التجمع التقدمي الوحدوي في سنوات التجربة الحزبية المصرية الأولى. حوالي منتصف السبعينيات، ثم ذهب كل منا لحال سبيله، وربما عبرت ميوله الأدبية عن نفسها في ذلك الوقت البعيد بكتابة بعض القصص القصيرة. أما الكتابة الروائية، فلا أعرف متى بدأت بالتحديد. الدكتور غبريال حسب المعلومات المدونة على غلاف روايته الخلفي، مولود في مدينة القاهرة سنة ١٩٤٥. وحاصل على بكالوريوس طب بيطري. وخدم كرقيب طبي في الجيش الثالث الميداني في حرب ٧٣، ولم ينشر قبل هذه الرواية سوى القصص القصيرة. لديه الكثير من الأعمال الأدبية ولصعوبات النشر قرر نشر هذا العمل على نفقته وبمساعدة أصدقائه. وروايته مهداة إلى والد الروائي وأمه اللذين تحملا الكثير من عثراته. وأيضًا إلى زوجته «امتدادًا لهما».

والرواية تبدأ بلقاء عاطفي بين البطل بولا عازر جرجس وصديقته التي تطرده من منزلها فيتجه إلى البار ليحتسي الخمر. كان قد تصور أنها كارثة ستوحب بهذه العلاقة والروائي حريص على أن يثبت من الصفحات الأولى أن بطلته مسيحية وإن بطله أيضًا مسيحي. ويصدر قرار بنقل بولا للقيام بأعمال مدير عام بمحافظة بني سويف وذلك كجزء من حركة تنقلات شملت الجميع. يستعرض حاله. وهي فرصة للروائي لكي يقدم لنا ظروف بطله، ابنته مريم في الثالثة بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، ابنه كريم في الثانية الثانوية، زوجته ناهد، بعد رحلة تنقلات تعمل في فرع للبنك على بعد كيلومترين من منزلهم. أما تريز حبيبته فيفكر في الاتصال بها.

بعد ترتيب أموره يقول له زميله إن هذا النقل فيه مكيدة. وزوجته تضيف أن في المكيدة بعدها الديني، وتصر على أن صاحب هذه المكيدة قبطي مثلهم، وهي متأكدة أن كل مكيدة ضد قبطي هناك أصبع قبطي خلفها، وتقول له: المر الذي يختاره الرب لي خير من الحلو الذي أختاره لنفسي.

يحس بولا بالفارق بين الحياة في القاهرة والحياة في بني سويف، يشعر بتصرفات مركبة في هذه البلدة بخلاف العاصمة، ويقابل في بني سويف مسلمًا عائدًا من المملكة العربية السعودية بعد سبعة عشر عامًا من العمل هناك، ولأن الأسماء لها دلالات دينية في مثل هذا النص الروائي. فإن المؤلف يبدو مشغولاً بشرح هذه الأسماء ويقدم معلومات ربما كانت جديدة خاصة بالنسبة للقارئ المسلم.

- وكان اسمها مريم، للدقة كان اسمها - مصطفية - مصطفية.

سأل والده..

- مصطفية أليس اسمًا مسلمًا؟!

رد والده المقدس:

- واصطفاك على نساء العالمين.

وكان أن سمى ابنته مريم.

يناقش بولا مع زوجته ناهد وضعه، رأيها أن يطلب إلغاء النقل، وإلا فهو يغوص في الاستكانة، وإن المسيحية في هذه الحالة تعني الخضوع. وهذا ما يعنيه قول من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر. يرد عليها: رفضت أن أكون مقتولاً. ونمت الشراسة بداخلي، ولكي تنمو أكثر كان لابد من الابتعاد عن الكنيسة، وعندما تقول له زوجته إنها كانت تحسب عدم ذهابه إلى الكنيسة لأسباب غير هذا. ينصحها بالذهاب إلى الصعيد أولاً ثم تتحدث معه.

ويعزيه زميل مسلم معه في العمل في وفاة أطباء شبان قتلوا في موكانة بالمنيا، كانوا يعملون في مجال الدعاية للأدوية، وهذا الخبر لم تنشره الصحف، ولكنه سرى من المنيا إلى بني سويف عبر الأفواه، وبولا يقرر أن تكون أول دعوة يلبيها في بني سويف لزيارة منزلية معلنة لزملاء العمل الجدد من المسلمين محسبًا لأية تقولات. أما زيارته لمنزل «أبونا إسحق» فلن يعرف بها أحد. ويلاحظ أنه بدلاً من صور القديسين، كانت هناك آيات قرآنية معلقة على الحائط. يصلي زميله المسلم، فيقول له بولا - كما يفعل المسلمون - حرمًا، فيرد عليه المسلم، كما يقول المسيحيون: معًا إن شاء الله.

من قضايا المجتمع القبطي في مصر التي ترد في هذه الرواية قضية سفر الأقباط إلى القدس. تريز تسافر من أجل أن تقدس. «يعني سافرت إلى إسرائيل. البابا قطع حرمانية على أقباط مصر لو سافر أحدهم إلى القدس. مناقشات كثيرة تدور بين الأقباط حول هذا التحريم. البعض مؤيد، البعض رافض. أنجيل زميلة تريز. تتناول الأمر على هذا النحو: انشغلت أنجيل حواريًا حول هذا الموضوع. لكنها لا تتصور أن تقدر على مخالفة البابا. ترددت داخليًا حتى لو كان مخطئًا. لا أتصور مخالفته وإلا انقسمنا على أنفسنا. أنجيل تقابل تريز في الكنيسة وتسألها عن حكاية السفر لإسرائيل. ترد عليها: إنها موظفة حكومية. هل أملك الرفض؟! ثم إن البابا قطع حرمانية على من يذهب ونيته التقديس، هل لو كنت مكاني، أما كنت ستفعلين مثلي؟! وبعد رجوعي أحتفل بالعيد مع كنيستي، وتسرح



قال لي نجيب محفوظ: إن الرواية أعجبته لسببين. الأول: أنها تقدم حيًا بأكمله هو حي شبرا بكل سكانه. وهذا لون جديد من الكتابة الروائية. فهو لا يكتفي بتقديم أسرة أو سكان عمارة ولكن يقدم حيًا. الأمر الثاني: أنه يقدم أفضل ما في أبطاله



انجيل في خيالها: أورشليم مرتبطة في وجدان انجيل بقول السيد المسيح له المجد: يا أورشليم. ياراجمة الأنبياء وقاتلة المرسلين. كم تتمنى انجيل السفر إلى مهد المسيح. وكنيسة القيامة لرؤية طريق الآلام وجبل الجلجثة. تتمنى لو قدست وحققت حلمها الباقي. حظيت تريز بسهولة على هذا الحلم، ودون تكلفة، على نفقة الدولة. تردد انجيل: هل هذا معقول؟!

ويناقشها بولا، في قضية سفرها إلى إسرائيل. يقول لها بعيدًا عن البابا شنودة وتحريمه، فليس هذا هو موضوعنا، إسرائيل لا، مصر تتفاوض، الفلسطينيون يتفاوضون، الجميع أحرار فيما يفعلونه، وبالنسبة لي إسرائيل لا، لو رأيت إسرائيليين جسدي ينتفض، فما بالك لو ذهبت إليهم؟ لن أتحمل. لا أضمن رد فعلي، إنهم أعدائي، قتلوا زملائي وكان من الممكن أن أكون أنا أيضًا أحد القتلى.

وقرب نهاية الرواية يقرر بولا السفر إلى «أسيوط» إلى قريته أولا. كان حلمه أن يرى الكنيسة التي تربى فيها صغيرًا. كانت مراحل رحلته كما تمناها كالتالي. قريته ثم دير درنكة لحضور عيد السيدة العذراء. كريم مشغول في التقديم للكليات. مريم ترتب مشاريعها، ناهد تخبره أنها ستحضر مع الأولاد في ليلة عيد العذراء. أو قبلها بيومين، غادرهم بولا قبل عيد السيدة العذراء بأسبوع. وبعد سفر بولا بيومين، يأتي اتصال غامض أن بولا في خطر. تسافر الأسرة، تعرف أن القطار الذي كان يستقله تعرض لهجوم. وأن الخبر انتشر في أسيوط. ولا يقول غبريال من الذي هاجم القطار، ولكننا نعرف هذا ضمنيًا، «لابد أنهم المتطرفون الإرهابيون». تتماسك ناهد، تحير بتماسكها كريم، مريم تحاول أن تتماسك هي الأخرى تقدر أحيانًا وأحيانًا أخرى تضعف، ضابط شرطة يتقدم من ناهد قائلاً: لن يفلت أحد منهم أرجوك. نريد أن نلم الموضوع. الموقف ملتهب. أنت قاهرية ولا تعرفين الصعيد، صرخت فيه ناهد: ما له الصعيد، رجاله أشراف، هوارة، عرب أشراف. ما له الصعيد، أنا من نجاد لقصر «الأقصر» ماله الصعيد. ماذا تخشى؟ مم تخاف هات لي حادث جتل «قتل» ليس للشرف، يتقدم منها أحد الأقارب: المهم الآن. ماذا ترغبين يا بنتي، هنا أم في القاهرة؟: فهمت ناهد الرجل يتكلم عن الدفن. تبكي ناهد. «جنب جراباته ياعم» بجانب أقاربه يا عم. ألم يأت برغبته؟ لتكن مشيئة الرب.

ويكتب الروائي اسمه هكذا: غبريال زكي غبريال حنا داود حنا، الاسم خماسي ومن المؤكد أن الهدف ليس الإعلان عن الهوية الدينية للمؤلف. فالاسم الأول يعلن عنها بوضوح، سألت المؤلف عن السبب في هذا الاسم الطويل، فقال لي إن المشكلة في مصر أنه بعد ظهور الاسم الثنائي، تاهت أسماء العائلات. وأسماء الأجداد ومن حقهم أن تبقى أسماؤهم فترة من الوقت - وإنه يريد أن يعيد ذلك من خلال أن يضرب المثل بنفسه، لكنه عندما يحدد مكان وزمان كتابة الرواية يكتب هكذا: القاهرة - أسيوط، أو مصر الجديدة، درنكة، أما تاريخ الانتهاء من كتابة الرواية فيدونه هكذا: ١٣ مايو ١٩٩٧/ ٦ ذو الحجة ١٤١٧/ ٥ بشنس ١٧١٣، ولن أتساءل عن تدوين التاريخ الفرعوني القبطي القديم، ذلك أنه مدون في ترويسات صحفنا السيارة. وإن استغربت كتابته في آخر الرواية. أما العبارة الأخيرة فهي: وانضمت ناهد إلى زمرة لابسي السواد. وبين البكاء الأول، والسواد الأخير، مجتمع لا يمكن إلا أن يكون فيه عنصرا الأمة، رغم أن الروائي يسخر من مذيعة التليفزيون عندما تقول هذا الكلام، إلا أنه رغم هذه السخرية بالكلام فإنه يكرسها، حتى وإن لم يهدف إلى هذا. من خلال أفعال الرواية، إن كلام هذه الرواية جميل، ولكن المشكلة هي في أفعالها، والخطير هو الرسالة التي تحاول توصيلها إلى القارئ!

مقارنات

الروايات الثلاثة تنتمي إلى الكتابة الروائية التقليدية، والكتاب الثلاثة من خارج المشهد الثقافي المصري. بمعنى أنهم ليسوا كتابًا محترفين، وهم رجل دين كان مشتغلاً بالفكر، ومهندس لم يمارس الهندسة، وطبيب بيطري انشغل بالعمل السياسي فترة من حياته. الرواية الأولى تدور أحداثها في الصعيد، ثم روض الفرج وقويسنا. والثانية تجري في شبرا التي تحمل عنوانها، ثم ليبيا، والثالثة تبدأ من القاهرة ثم تمتد إلى بني سويف وأسيوط بعد ذلك عن زمان هذه النصوص الروائية. الأولى تحاول أن تستعرض ما جرى في مصر في القرن العشرين بأحداثه السياسية وأبطاله الكبار وإن كان في رواية يوحنا حالة من القفز فوق الأحداث. من أجل وهم التاريخ لكل ما جرى في مصر في القرن الماضي. تبدأ من ثورة سنة ١٩١٩، وتنتهي بعد ١٩٧٣ التي يستشهد في معاركها ابن كامل القلطاوي، وإن كان يتجاهل الكثير من الأحداث المهمة الأخرى. ولكنه عندما يتناول الأحداث التاريخية الكبرى يرصدها من زاوية موقف الأقباط منها. عند الكلام عن ثورة يوليو - مثلاً - يركز على موقفها من الأقباط، أما الروايتان الثانية والثالثة، فأحداثهما تدور في عصرنا الحاضر. وضمائر الحكي تتراوح بين هو الغائب والمتكلم أنا، ولكن ضمير المخاطب أنت لا وجود له في هذه النصوص. ونسبة الاقتراب من حياة الروائيين الثلاثة الشخصية ونصوصهم الروائية تبدو شديدة الوضوح. مثل التجربة الشخصية التي مر بها نعيم صبري، وتجربة تغيير البطل لدينه حتى يتزوج من مسلمة يحبها. وكذلك تجربة حياة الرهبنة في رواية الدكتور يوحنا قلته، فهو عاشها في حياته وقدمها في نصه الروائي، وفي رواية يوحنا تقابل تجربة زواج المسلمة من مسيحي، بل ويناقش المؤلف القضية في روايته.

وإن كان بطل غبريال يقتل في القطار في هجوم للمتطرفين عليه، فإن يوحنا حريص على وحدة عنصري الأمة، ويؤكد على هذا طوال نصه الروائي، الخواجة كامل يكتب البسملة بخط جميل، ويحضر للعمدة سجادة صلاة من الحاج فتحي ليصلي عنده، بل إن الصداقة بين الخواجة كامل والحاج فتحي توشك أن تكون العمود الجوهري الذي تقوم عليه الرواية كلها. خلال الرواية يموت الحاج فتحي، وفي السطر الأخير من الرواية يموت الخواجة كامل، إن هاجس الوحدة الوطنية يسيطر على الأنبا يوحنا، ولكن في المقابل فإن وحدة الأقباط الداخلية لم تكن تعنيه بنفس القدر. تنفرد رواية يوحنا بالكلام عن روح فرنسية تسري في مصر، غريب عندما يذهب إلى الدير ويعود، يكلم والده عن القسس الذين يدافعون عن الإسلام، ويتكلم عن جاك جوميه وهو أب موجود في الواقع. كان يعمل في دير الآباء الدومنيكان في العباسية، وله كتاب جميل عن ثلاثية نجيب محفوظ، وصاحب النص الروائي كانت رسالته للماجستير ورسالته للدكتوراه حول التقاء الثقافة العربية بالفرنسية، بل إن طه حسين الذي كان موضوعه للماجستير بالتحديد تأثير الثقافة الفرنسية فيه، نلتقي به في الرواية، ولكن من خلال اهتمام الأب جاك جوميه به. إن علاقة صاحب الرواية بأحداثها، بالتحديد إن كمال قلته ويوحنا قلته يلتقيان معًا في هذه النقطة، نقطة الاهتمام بالثقافة الفرنسية في مصر. ■

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٥ - في الصورة والهيولى والأداة

واعلم يا أخي.. بأن الجسم الواحد يسمَّى تارة هَيُولى، وتارة موضوعًا، وتارة صورةً، وتارة مصنوعًا، وتارة آلةً، وتارة أداةً، وإنما يُسمى الجسم هيولى للصورة التي يقبلها وهي الأشكال والنقوش والأصباغ وما شاكلها. ويسمَّى موضوعًا للصانع الذي يعمل منه وفيه صنعته من الأشكال والنقوش، وإذا قبل ذلك سمي مصنوعًا. وإذا استعمله الصانع في صنعته أو في صنعة أخرى يُسمَّى أداة. مثال ذلك قطعة الحديد، فإنه يقال لها هيولى لكل صورة تقبلها، ويقال لها أيضًا إنها موضوع للحدَّاد الذي يعمل فيه صنعته، وإذا صنع الحدَّاد منه سكينًا أو فأسًا أو منشارًا أو مبردًا أو غير ذلك سمي مصنوعًا.

واعلم يا أخي أن موضوعات الصنَّاع البشريين في صناعتهم نوعان فقط: بسيط ومركب، فالبسيط أربعة أنواع، وهي النار والهواء والماء والأرض، والمركب ثلاثة أنواع، وهي الأجسام المعدنية، والأجسام النباتية، والأجسام الحيوانية، وهي كلها مصنوعات الطبيعة.

واعلم أن كل صانع من البشر لابد له من أداة أو أدوات أو آلة أو آلات يستعملها في صنعته، والفرق بين الآلة والأداة أن الآلة هي اليد والأصابع والأرجل والرأس والعين، وبالجملة أعضاء الجسد، وأن الأداة ما كانت خارجة من ذات الصانع كفأس النجَّار، ومطرقة الحدَّاد، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، وشفرة الإسكاف، وموسى المزيِّن وما شاكل هذه من الأدوات التي يستعملها الصنَّاع في صنائعهم، ولا تتمُّ صناعتهم إلا بها.

عـــروض موجـــزة

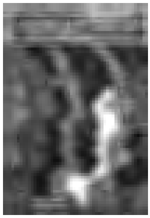
كتب عربية

موسوعة أدباء نهاية القرن العشرين

محمود قاسم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٠ .

٤٦٤ صفحة



مئات الأسماء تضمها هذه الموسوعة التي يقول مؤلفها أنها لا نظير لها في أية لغة عالمية، وهي تضم أدباء وشعراء ومؤلفين مسرحيين عالميين. أما سبب تفردها كما يراه المؤلف. فكونها تضم أدباء مازال معظمهم على قيد الحياة. ويمارس الإبداع في مجاله. كما أنها لا تكتفي بالمعلومات الأولية البيلوجرافية التي تضمها عادة الموسوعات، وإنما تتضمن آراء منشورة لأصحابها في حوارات أو مقابلات صحافية وإذاعية وتليفزيونية، وأكثرها أو جميعها، عن حصاد ما جمعه الكاتب على مدى سنوات طويلة في أرشيفه الخاص، وهي لا تشتمل على مشاهير الأدباء فحسب. وإنما تتضمن أسماء ربما لم يسمع بها القراء من قبل، من دول كبيرة وصغيرة. في الشمال أو الجنوب، ويبدو أن المؤلف آثر ألا يغضب أدباءنا العرب فقصر موسوعته على من هم سواهم من الأدباء والشعراء والمسرحيين، ووعد بموسوعة تضمهم في خلال أعوام قلائل، ومع ذلك، فإن موسوعته، لم تخل من أدباء عرب، أكثرهم يكتب بلغات أوروبية مثل كاتب ياسين والطاهر بن جلّون وأمين معلوف ورشيد بوجدرة - الذي كتب بالفرنسية والعربية - وآسيا جبار وآندريه شديد وألبير قصيري ومولود معمري ورشيد ميموني وألبير ميمي، والاستثناءان الوحيدان ممن يكتبون باللغة العربية هما أديب مصر والعرب الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ، والأديب الجزائري الطاهر وطار، ولم نعرف - ولم يقدم لنا المؤلف - سببًا لاختياره محفوظ ووطار بالذات من بين مبدعي العربية لينضما إلى موسوعته. كما أن اختياره لأدباء عرب يكتبون بلغة أجنبية ضمن أدباء نهاية القرن العشرين، يعني أن يصنفهم ضمن المبدعين الأجانب وفقًا للغة الكتابة، وهو ما يعني أن موسوعته القادمة عن الأدباء العرب، لن تضمهم. الجهد الذي قدمه المؤلف على كل حال كبير وشاق. آخذًا في الاعتبار أنه عمل فردي لا مؤسسي، لكنه استطاع أن يحشر أسماءً لا نعرفها من مبدعي نهاية القرن أمثال إنيس كانيتي وإيرا ليفين وبريمو ليفي وبرنارد مالامود وميشيل تورنييه وبيير مورنس وروبير ميرل وماري نيميه وبافو هافيكو وباتريشيا هايسميث وعشرات غيرهم إلى جوار عشرات آخرين من مشاهير مبدعي القرن وعلاماته من أمثال جابرييل جارسيا ماركيز وأوكتافيو باث وجورج أمادو وإمبيرتو إيكو وصمويل بيكيت وإيزابيل الليندي ونادين جورديمير وجراهام جرين وتوني موريسون و[illegible]ان جنيه. وكما نرى فإنهم ينتمون إلى قارات مختلفة وثقافات متباينة وعقود عمرية متفاوتة.

□ □ □

تساؤلات أمام الحداثة والواقعية في النقد العربي الحديث

محمد دكروب

دمشق: دار المدى، [illegible]، ٢٧٠ صفحة



يتحدث البعض الآن عن «ما بعد الحداثة»، بما يعني أن الحداثة انقضى زمنها وتجاوزها المبدعون. ونهاية الحداثة تعني أنها صارت إرثًا من الماضي، بما يعني بالضرورة أن ما بعد الحداثة ذاتها ستصير بعد سنوات قلائل فعلاً ماضيًا. فهل سيتداولون مصطلحًا جديدًا يدلل على تلك المرحلة، وما عساه أن يكون هذا المصطلح، وهل ستستمر سلسلة الـ «ما بعد» إلى ما لا نهاية، دون أن نعرف بدءًا معنى الحداثة؟

المؤلف يطرح عشرات الأسئلة من هذا النوع، ويبدأ بسؤال عن محنة الشعر الحديث، الذي تفصله عن القراء فواصل منيعة، وينقل المؤلف نصوصًا مما يقوله الحداثيون من الشعراء، وجميعها يشجّع انعزال الشعر عن قرائه، بل إن أدونيس زعيم الحداثيين العرب يؤكد على هذا التنافر ويراه.. «من أبرز خصائص الشعر الجديد وأكثرها أصالة»، وعليه فإن «أنا» الشاعر هي كل شيء»، لا وجود للقارئ ولا أهمية للمجتمع وتحولاته، وهو ما يناقض فكرة الحداثة أصلاً التي تعني التواجد الفعّال في العصر والتفاعل معه والإبداع فيه.

وفي قسم آخر من الكتاب يعرض المؤلف للمشروع النقدي للناقدة اللبنانية الدكتورة يمنى العيد، وهي ممن يمتلكون أدوات نقدية حديثة، وتعالج النصوص مستفيدة من نظريات النقد المعاصرة دون أن تقع في فخ «الشكلانية» والعزلة الذي يقع فيه مبدعو الحداثة، ويشير المؤلف إلى أن يمنى العيد حين أخذت بمنجزات المنهج البنيوي لم تحصر نفسها ضمن حرفية أحكام هذا المنهج، بل هي تنتقده من داخله، وتأخذ عليه قصوره عن رؤية العلاقات بين داخل النص وخارجه. وهي لا تغرق في التنظير المجرد، بل تصل إلى التنظير عبر قراءتها النقدية للنص الإبداعي، كما أنها تسعى - من ناحية ثانية - إلى المعرفة بالنص الإبداعي عبر النظرية النقدية.

وفي موقع آخر يتناول المؤلف «إحسان عباس ناقدًا»، ويصفه بأنه عقل متفتح مشرع على الجهات كلها، وهو إذ يكتب النقد والدراسة الأدبية يأتي الكلام في سياق جمالي، ويتجلى الشعر في عمق الكتابة النقدية نفسها. ويشير المؤلف إلى قدرة إحسان عباس على التفاعل مع منجزات الثقافة والفكر البشري دون تقليد أو اتباع أو قيود ثابتة، منبهًا إلى أنه لا يجوز النقل الحرفي من هذا المنجز، وهو أساسًا مستمد من سياق أدبي آخر ومسارات تاريخ آخر.

إلى جانب يمنى العيد وإحسان عباس، يشيد المؤلف بالمشاريع النقدية لمحمود أمين العالم وفيصل دراج وغالي شكري ونزار مروة وسعيد عراد.

والكتاب لا يكتفي بتحليل المشاريع النقدية لعدد من النقاد العرب، ونقد الحداثة خصوصًا الشعرية منها، وإنما أعطى مساحة للمتابعات المسرحية والموسيقية والسينمائية. محتفظًا بالالتزام الماركسي الذي يمثله المؤلف، ومنفتحًا على التجارب المغايرة في الآن ذاته.

□ □ □

خارج المكان

إدوارد سعيد

ترجمة: فواز طرابلسي

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠، ٣٦٠ صفحة



ما أن طرحت هذه المذكرات باللغة الإنجليزية، حتى واكبتها ردود أفعال ناقمة، كان أبرزها هجومًا مذهلاً تعرض له صاحبها في مجلة كومنتري وهي شهرية أمريكية يمينية متطرفة. فقد زعم صاحب المقال الهجومي، أنه أمضى ثلاث سنوات كاملة ينقب في حياة إدوارد سعيد، ويقرأ عشرات الوثائق ويقابل عشرات الأشخاص، وقد انتهى جيدد إلى إثبات أن صاحب المذكرات ليس فلسطينيًا.. وأن حديثه عن حق العودة غير ذي موضوع، لأن تلك الأرض لم تكن لهم أصلاً.

والآن.. الطبعة العربية بين أيدي قرائها، وهي تثير عشرات الأسئلة الإشكالية التي تبدأ من عنوان المذكرات ذاته - في «خارج المكان» عنوان دال تمامًا على حيرة صاحبه، فالاسم إنجليزي «إدوارد».. عربي «سعيد»، ولغته إنجليزية عربية، لا يعرف متكلمها أيهما أسبق، والتعليم والممازجة والتربية والنشأة، كلها صارت في مراوحة بين الكفتين على نحو لا يستبينه صاحبه.

بدأ إدوارد سعيد كتابة مذكراته في العام ١٩٩٤، بعد ثلاث سنوات تقريبًا من إصابته بسرطان الدم، وقد أيقظ هاجس الموت الذي بدا مؤرقًا وطاغيًا، أسئلة المواطنة والهوية، التي توارت في غمار نجاحاته التي توالت، في التدريس كما في الكتابة والتأليف وسياقات الفكر عمومًا.

تكشف سيرة إدوارد سعيد عن نشأة أرستقراطية باذخة، والمشاهد التي ينقلها لنا من حياته في القاهرة التي عاش فيها سنوات صباه الأولى وتعلم في مدارسها الكولونيالية.. «الجزيرة»، فيكتوريا كولدج»، «المدرسة الأمريكية»، وقد غادرها في عام ١٩٥١، وكان عمره آنذاك ستة عشر عامًا، كي يكمل تعليمه الجامعي في الولايات المتحدة الأمريكية ويستمر فيها حتى اليوم، هذه السيرة الأولى تبرهن على نشأته الأرستقراطية، الأب صاحب الأعمال التجارية الناجحة وكيل الشركات الكبرى، اعتبر نفسه دومًا مواطنًا أمريكيًا، وحاول أن يغرس في إدوارد، الذي كان أخًا لأربع أخوات، عبر التعليم ونمط الحياة، الشعور بأنه أمريكي أيضًا، لكن بعكس ما أراد الأب. فإن الدراسة في المدارس الكولونيالية، وسّعت الفجوة بين إدوارد وأبناء الجنسيات الغربية والأمريكية، الذين لم يعدوه أبدًا واحدًا منهم، فضلاً عما خلفه الاستعمار سواء في مصر أو فلسطين من حواجز ومشاعر كراهية لم تمح.

أما الأم، التي نستبين بوضوح تأثيرها العارم على إدوارد، ورغبتها الدائمة أن يبقى دائرًا في فلكها، فلم تكن راضية أبدًا عن تغريبة ابنها، كما أنها كانت أقل تأمركًا، وكانت تتحدث دومًا باللغة العربية، وحين جرى التقسيم وحرب فلسطين وفقد الوطن، شغلتها النكبة وأشعلت حماستها وشعورها اليائس باستعادة الهوية ومعنى المواطنة.

تبرهن المذكرات التي كتبها إدوارد سعيد ردًا على مشقات مرضه المتزايدة، على وعيه المبكر بالكيفية التي تعامل بها مع الازدواجية التي عاشها من ناحية، ومع الوسط الكولونيالي الذي عاش في رحابه، من ناحية ثانية.. فقد امتنع عن «أية صلة حميمة بأي منهم.. مكتفيًا بأن انتزع منهم ما يملكون تقديمه لي بجهدي الشخصي».

وكان اختياره.. «تعلمت وحياتي ضئيلة إلى هذا الحد بتنافر الأصوات، أن أوثر ألا أكون سويًا تمامًا وأن أظل في غير مكاني».

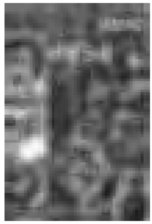
□ □ □

عـــــروض مـــوجـــزة

وجـــــود

محمد شكري

الرباط: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠، ١٥٦ صفحة، ٣٠ درهمًا



لا يقدم نص «وجود» جديدًا في مسيرة محمد شكري الأدبية، فالنص يمثل الجزء الثالث من سيرة المؤلف التي بدأها بـ «الخبز الحافي» ثم «الشطار»، وهو مثلهما ينهل من نفس المعين، تجارب العالم السفلي وحيوات الهامشيين الضالين في شوارع طنجة وحاناتها. الفقر المعذب وغياب الأمان والطمأنينة والبهاث الدائم من أجل العيش، مجرد العيش ولو بلم الفوت من المزابل واغتنام المتع الصغيرة وإشباع نزوات الجسد.

ومثل الجزءين الأولين من السيرة لا شعور بالذنب على ارتكاب المعاصي. ومنطق شكري هو كما يقول في الصفحات الأولى من الكتاب: «عندما تصبح التجربة أقوى من الندم ينمحي الشعور بالذنب».

المرأة، هي الحاضر الدائم في سيرة شكري، وأغلبهن نسوة قهرتهن الحياة لأسباب مختلفة، وهي إشكالية يشير إليها في سطور موجزة يقول: من حسن حظي أني لم أحب أي امرأة حتى تقهرني: لا قاهر ولا مقهور، لقد أحببتهن من بعيد، لا يهمني أن يبادلنني حبي لهن، عندما تبدأ امرأة تبادلني الحب عن قرب وجدية العشرة معها، فإنها الكارثة هي التي تبدأ.

ويقول في موضع آخر: المرأة عاشت دائمًا بعيدًا عني، فهي إما مقدسة لا تمس أو أنها مدنسة خسيسة، ربما أيضًا أني أخشى الاستحواذ والغيرة المجنونة أو القاتلة إذا ما أنا خلقت علاقات وأنا لا أبغي إلا حريتي.

الوجوه التي نطالعها في سيرة شكري نراها قطعًا بطريقته، ولأنه هنا لا يكتب عن سيرته بالطريقة التي انبنى عليها الجزءان الأولان من السيرة، وإنما عن وجهات نظر في بعض من التقى، ورؤى لبعض ما رأى، فإن مسحة من العطف والتعاطف تغطي الكتابة، فهو يتعاطف مع نسوة الحانات من أمثال «فاطما» و«للا شفيقة» وأخريات، كما لا تغيب خبرات السنين والنضج الذي اكتسبه المؤلف بحكم انغماسه في العوالم السفلية وناسها، إلا أن ما يلفت النظر هو كالعادة، تجربة المؤلف الفاحشة وجرأته اللافتة، التي تبقى دومًا بعيدة عن سياق الأدب أو على الأقل، لا توازي تجاربه الكارثية.

□ □ □

خمسون عامًا من الموسيقى والأوبرا

صالح عبدون

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ١٦٣ صفحة



يمثل هذا الكتاب شهادة شخصية تستحضر الذكريات وتضعها في إطار أشمل، متجاوزًا البعد التسجيلي للدور الفني المباشر لدار الأوبرا وموقف المجتمع منها، وتأثيرها في مكونات المواطن، ليمزجها مع التجربة الذاتية والإنسانية في عمومها، حيث يعرض في الباب الأول لنشأة المؤلف في مجتمع ريفي يتمسك بقيم وتقاليد أصيلة، بيئة نقية، كل ما فيها يحب الفن ويبجل الطبيعة ومكوناتها، تليها مرحلة أخرى - قاهرية - يقترب فيها المؤلف من بيئة مدنية حافلة بالعلم والمعرفة والترفيه، وتساؤلات مشروعة عن العلاقة بين فنون وموسيقى الأوبرا، وموسيقانا العربية وتراثنا الشرقي. ويشير المؤلف في هذا الصدد إلى جهود وطنية رائدة، بينها وقوف محمد حسن الشجاعي على رأس أوركسترا سيمفوني يضم بعضًا من أمهر العازفين إلى جوار أعضاء من فرق الموسيقى العسكرية وآخرين من الأجانب الذين عملوا بدار الأوبرا. ويعرض الباب الثاني لبوادر الصحوة الثقافية في الخمسينيات، وإسهام المؤلف - كموظف حكومي هذه المرة - في إنعاش هذه الصحوة وتنمية الإحساس برسالة الفن والأدب، والموسيقى الراقية خصوصًا، في الارتقاء بالوطن والمواطن. وفي سياق استعراضه لدوره أمينًا عامًا للجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، يعرض للدور الذي لعبه المجلس في هذا الإطار والصعوبات التي واجهته، ثم يعرض في القسم الثاني من الباب، لظهور المعاهد الفنية، واستحداث الفرق الموسيقية: السيمفونية والعربية والكورال والباليه، ومشاركاتها اللامعة في المناسبات الوطنية والدولية.

الدين والسياسة في مصر المعاصرة

القمص سرجيوس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ١٣٥ صفحة



حين قامت ثورة ١٩١٩، كان القمص سرجيوس المولود في جرجا بصعيد مصر، لأسرة توارثت سلك الكهنوت، قد بلغ من العمر ٣٦ عامًا.

شارك «سرجيوس» في الثورة، مستندًا إلى بلاغته وقدراته الخطابية الفذة وعلاقاته برجال الثورة وزعيمها سعد زغلول الذي منحه لقب: خطيب ثورة ١٩١٩.

لكن الدور الوطني لسرجيوس بدأ قبل ذلك بسنوات، حين تم تعيينه وكيلاً للمطرانية القبطية بالسودان، في أعقاب عدد من الأحداث الطائفية التي شهدتها مصر إثر مقتل رئيس الوزراء بطرس غالي في عام ١٩١٠، وانعقاد المؤتمرات الطائفية عام ١٩١١، وهناك.. في السودان، بدأ سرجيوس جهودًا لرأب الصدع الذي أصاب العلاقة بين المسلمين والأقباط، وأصدر مجلة «المنارة المرقسية»، التي بثت أفكاره، لكن السلطات البريطانية رأت في هذا النشاط خطرًا يهدد سياساتها فأمرته بالرحيل عن السودان، فعاد إلى جرجا بلا راتب أو أي مصدر آخر للرزق.

وما أن اندلعت الشرارات الأولى لثورة ١٩١٩، حتى شارك فيها سرجيوس بتلقائية وعفوية، دون انتظار لما يسفر عنه موقف الأقباط، الذين سعوا إلى الحصول على ضمانات من زعامات الثورة، تؤكد وضعيتهم في الحركة الوطنية، ومصيرهم في حالة تحقيق الاستقلال.

انضم إلى صفوف المجاهدين، وسار في المظاهرات محمولاً على الأعناق، وخطب في التجمعات، والصورة التي نقلها فيلم «بين القصرين» لقسيس يخطب في الأزهر الشريف، كانت للقمص سرجيوس بالذات، ومن جديد اعتقلته السلطات البريطانية وتم نفيه إلى رفح لمدة ثمانين يومًا.

وما أن خفت - نسبيًا - الصوت الشعبي في ثورة ١٩١٩، وبرزت تحديات من نوع جديد، مثل الدستور والجلاء والمفاوضات، واتسعت الساحة الحزبية لتشمل إلى جانب الأحزاب القديمة أحزابًا جديدة، بعضها يدين بالولاء للملك، وبعضها للإنجليز، وبعضها يلعب على التناقضات بين الوفد والملك، حتى توارى سرجيوس، أو بالأصح، تراجع صوته الوطني لحساب نزعته الطائفية، ونشر العديد من المقالات عن حقوق الأقباط الضائعة واضطهادهم «كأقلية» في المجتمع المصري، وقد جمعت هذه المقالات في كتب، وصارت الآن مرجعًا لغلاة الأقباط ذوي النزعة الطائفية وخصوصًا في المهجر. وقد وصل الأمر به إلى حد طلب النجدة من الإنجليز، وهو الاتجاه الذي قاومته زعامات قبطية تاريخية من أمثال مكرم عبيد الذي قال عنه: «قضى سرجيوس السنين في شتم المسلمين والطعن في الإسلام بأقذر قلم وأفحش لسان».

والحقيقة، أن التعامل الظاهري مع مواقف سرجيوس وتحولاته، دون الإشارة إلى ما شهدته الحياة السياسية المصرية ذاتها من تحولات، وبروز جماعة الإخوان المسلمين بقوة بدءًا من العام ١٩٢٨، والتناقضات في مواقف الأحزاب خصوصًا أحزاب الأقلية، والانشقاقات التي عصفت بحزب الجماهير الكبير «الوفد» مظلمة، وقد رأى سرجيوس في جماعة الإخوان المسلمين «روحًا بغيضة تقضي على النتائج التي حصلنا عليها بجهدنا في أيام الثورة، ينبغي علينا أن نحاربها».

كما انتقد بشدة مواقف الوفد، وناصر السعديين، وفي عام ١٩٤٩ رشح نفسه عن دائرة الشماشرجي بشبرا مستقلاً، ضد مرشح الوفد - القبطي أيضًا - إبراهيم فرج، وفي حملته الانتخابية، التي تولاها أقباط، شهّر سرجيوس بالنحاس باشا شخصيًا، لكنه مع ذلك قبل الصفقة التي عرضها عليه الوفد، بالتنازل لمرشحه مقابل تعيينه في مجلس الشيوخ، وقد نكث «الوفد» عهده، مما زاد من حنقه على الوفد وزعامته.

كان «سرجيوس» شديد الولاء للملك، وما أن قامت الثورة حتى أعلن ولاءه لها وكتب يقول: باسم الشعب.. انزل عن العرش لينتهي عهد الطغيان والفساد، وحين جرّب سرجيوس أن ينتقد ثورة يوليو ١٩٥٢ زاعمًا أنها لم تقدم جديدًا للأقباط، أجبرته القيادة الجديدة على الدخول في مرحلة بيات شتوي طويل، وانتهت دوره التاريخي حتى وفاته في عام ١٩٦٤.

مواقف «سرجيوس» المتناقضة، وتحولاته الانقلابية، وسفور وجهه الطائفي وتواري وجهه الوطني، يمكن فهمها - ربما - بالتصارع داخل الرجل نفسه، بين دوره كرجل دين وطموحاته السياسية، وهي إشكالية غالبًا ما تحسم لصالح السياسيين الذين يستثمرون دور رجل الدين ومكانته في تحقيق أهداف معينة ويجبرونه في نهاية المطاف على القبول بالدور المرسوم له، وإن لم يرض فليندب حظه، لا عنّا السياسة وساس ويسوس!

عماد الغزالي

عـــــــروض
مــــوجــــزة

ويعرض المؤلف في الفصل الثالث للدور الذي لعبه حين تولى الأكاديمية المصرية بروما.

وفي أمتع صفحات الكتاب، ينتقل في الفصل الرابع إلى استعراض الأشكال المتعددة للحياة الموسيقية في كثير من العواصم الأوروبية تحت عنوان «سياحة موسيقية»، يجول فيها من أقصى الشرق الأوروبي إلى أقصى الغرب الأمريكي.

ويخصص المؤلف الباب الأخير لقراءات وتعليقات لعدد من المخطوطات والمطبوعات التي تلخص مسيرة الأوبرا طوال قرن من الزمان، مستفيدًا مما جمعه من أوراق، ترجع إلى العصور الخديوية والسلطانية والملكية، مستعرضًا أهم ما قدم بدار الأوبرا والمسارح المماثلة في عشرات السنين.

□ □ □

جم الزر وعصابة الـ ١٢ المتوحشة
ميشيل أنده
ترجمة: نهى الصراف خورست
بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١، ٢٧٦ صفحة

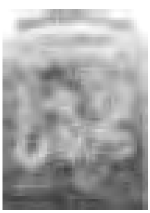


مغامرات مشوقة يعيشها «جم الزر» وصديقه «لوقا» مع القاطرة القديمة إيما.

رحلات مثيرة عن مغامرين يعشقان المخاطر، ولا يحدهما عن بلوغ هدفهما أي شيء، كتبها ميشيل أنده، وهو مؤلف ألماني ولد في عام ١٩٢٩، وعاش السنوات الأخيرة من حياته في ريف إيطاليا. والمدهش أن هذا المؤلف الذي أثار خيال الكبار والصغار لم يكمل تعليمه الجامعي لأسباب مالية، لكنه عمل ممثلاً ومخرجًا وكاتب مسرحيات خفيفة وناقدًا سينمائيًا حتى عام ١٩٦١، وقد منح عن كتابه هذا جائزة كتاب الفتيان الألماني. ثم منح الجائزة مرة أخرى عن كتابه «أوموو». وفي هذا الكتاب يصادق المغامران ملك البحر وابنته الجذابة سورسولا بيتشي، ويخترعان مستمر الحركة الذي تتعلم القاطرة إيما الطيران بمساعدته، وينتصران على عصابة قراصنة البحر المفزعين.

□ □ □

الفيزياء والطفولة المبكرة
محمد تندين وحميدة نديا
القاهرة، النهضة المصرية، ٢٠٠٠، ٤١٠ صفحات



إدراكًا لحقيقة أن «العلم» هو الوسيلة الوحيدة للتقدم في عالمنا المعاصر، وأن «التربية العلمية» للأطفال والأجيال الجديدة هي الضمان الحقيقي لكي يأخذ «العلم» دوره المطلوب في بناء المجتمع، يأتي هذا الكتاب - ولعله الأول من نوعه باللغة العربية - ليقدم مشروعًا لتبسيط العلوم وخاصة الفيزيائية منها للأطفال الصغار في سن الخامسة والسادسة.

يستهدف البرنامج الذي يقدمه الكتاب تحويل المفاهيم الفيزيائية إلى خبرات مرئية تعتمد على شغف الأطفال الطبيعي بالبيئة من حولهم، وكما تعتمد على تحفيزهم للمشاركة في الإجابة عن السؤال المثير «ماذا يحدث إذا؟»...

ويقدم الكتاب خلاصة تجربة تم تطبيقها بالفعل لمدة عامين كاملين على عدد كبير من الأطفال والذين أتيح لهم أن يشاركوا بأنفسهم في فحص طبيعة مفاهيم فيزيائية كانت تبدو لهم معقدة قبل أن يختبروها بأنفسهم باستخدام أدوات من بيئتهم الطبيعية.

ويحاول الكتاب التدليل على أننا نظلم الأطفال حين لا نعطي قدراتهم العقلية والذهنية في هذه السن المبكرة قيمتها الحقيقية.

يحاول مؤلفا الكتاب وهما باحثان في الطفولة والتربية، أن يقدما طريقة جديدة لتبسيط مفاهيم فيزيائية مثل الطاقة، والدفع، والحركة، والاتزان، والضوء.. وغيرها. معتمدًا على أدوات بسيطة، رخيصة الثمن، آمنة الاستخدام.

ويعمد البرنامج الذي يقدمه الكتاب إلى ربط المفاهيم العلمية بمعارف الطفل وخبراته، من خلال التمثل الجسدي للمفهوم، حيث يقوم بأداء حركي ذي صلة، يبدأ من خلاله في بلورة خبراته ليصبح مؤهلاً ذهنيًا للتعامل مع باقي أوجه النشاط المرتبطة بالمفهوم.

ويشير الكتاب إلى أن نتائج التطبيق الأولية للبرنامج أكدت استجابة الأطفال التلقائية التي تميزت بالقدرة الفائقة على الملاحظة، والتفاعل مع الموقف بكفاءة وفاعلية عالية، وتمكن الأطفال من القياس، والقيام بالتفكير الإحصائي، وعمل علاقات بيانية وقراءتها رغم عدم تعلمهم القراءة والكتابة بعد، ولكن اعتمادًا على الرسم وقراءة الرموز.

كتب أجنبية

Hall of Mirrors
(قاعة المرايا)
David Sinclair
Century, 2000, 336pp., £16.99



مازالت الحرب العالمية الأولى بدمويتها وبالنتائج التي أسفرت عنها تثير النقاش والجدل بين المؤرخين حتى الآن. إنها الحرب التي كان من المفترض أن تنهي الحرب وتؤسس للسلام والأمن في العالم وخاصة أوروبا. وهو ما لم يتحقق، ورغم انتهاء القرن الذي وقعت فيه تلك الحرب الرهيبة فإن آثارها غير المباشرة لازالت تحدث وليست حرب البوسنة وكوسوفا ببعيدة.

ومؤلف الكتاب ديفيد سنكلير يسترجع ما حدث عند نهاية تلك الحرب وخاصة مؤتمر السلام والمعاهدة التي وقعت خلاله في قاعة المرايا بقصر فرساي في باريس عام ١٩١٩. وقد كان المؤلف يواجه تحديًا واضحًا فماذا سيقول في كتابه، وهل هناك جديد يمكن أن يتحدث عنه. ثم إنه ليس قصاصًا حتى يتحدث عن أمور خيالية لم تحدث وعندها يكون هذا هو الجديد، بل إنه مؤرخ يعتمد على مصادر لبناء تفسير لما حدث. وفي هذا الصدد فإن المؤرخ اعتمد على مجموعات معتبرة من الوثائق الرسمية وغير الرسمية والخطابات والتقارير السرية والمذكرات واليوميات والدراسات التاريخية وتعليقات شهود العيان والسجلات الأخرى في محاولة للإجابة عن سؤال كبير وهو: ماذا حدث في قاعة المرايا وكيف جاءت المعاهدة؟

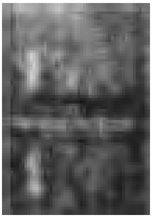
وهو من خلال ذلك يتحدث باستفاضة عن نجوم ذلك المؤتمر خاصة كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الذي كان يطلق عليه النمر، ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا السياسي الميكافيلي، والرئيس الأمريكي وودرو ويلسون المتمسك بالمبادئ المسيحية، ورئيس الوزراء الإيطالي فيتوري أورلاندو.

ويتناول الكتاب كيفية نجاح فرنسا تحديدًا في فرض عقوبات هائلة على ألمانيا وعواقب ذلك فيما بعد حيث انتفض الألمان على الذل الذي تعرضوا له في فرساي. وهو ما كان جون ماينارد كينز الاقتصادي البريطاني الشهير قد حذر منه في كتابه الآثار الاقتصادية للسلام الذي صدر عقب المؤتمر.

والسؤال الذي يثير الكتاب، هو هل المعاهدة التي جرى توقيعها في قاعة المرايا هي المسئولة عما حدث بقية سنوات القرن من حروب ومآس، ماذا لو كان السياسيون أبعد نظرًا وأقل رغبة في الانتقام؟

□ □ □

This House has Fallen: Nigeria in Crisis
(هذا المنزل يتداعى: نيجيريا في أزمة)
Karl Maier
Allen Lane, 2001, £20.00



منذ عودة الديمقراطية إلى نيجيريا في مايو ١٩٩٩، عقب نهاية الحكم العسكري بدا أن البلاد دخلت عصرًا جديدًا تحاول فيه أن تتخلص من سمعتها كبلد الفساد والديكتاتورية والمحتالين بامتياز وتعيد للعناصر الموهوبة فيها من العلماء والكتاب وفئات الشعب الأخرى الاعتبار. إلا أن المشاكل الكثيرة والهائلة التي ورثتها البلاد من عصر ما قبل الديمقراطية جعل من الصعب للغاية الخروج من هذه الدوامة. فآلاف الأشخاص يموتون في صراعات عرقية أو دينية، كما أن الديمقراطية لم تفعل شيئًا للفئات المحرومة في بلد ينتج البترول بكثرة، أيضًا تسود مناطق كثيرة من البلاد عمليات اختطاف وتدمير تجري بشكل يومي تقريبًا.

ويقول مؤلف الكتاب، وهو صحفي يعمل بصحيفة الاندبندنت البريطانية، إن الطريق طويل للغاية قبل أن تتمكن نيجيريا من إنهاء «العجز» في الديمقراطية التي وجه لها الحكم العسكري ضربات ساحقة لسنوات طويلة.

ولا يدعي المؤلف أنه يقدم تحليلاً متكاملاً وشاملاً للوضع في نيجيريا والتحديات التي تواجهها، لكنه ينجح في الإحاطة بالمشهد السياسي على تنوعه سواء في قصور الحكم ومؤسساته أو أحياء الفقراء القذرة في لاجوس كبرى مدن البلاد. كما يسرد حكايات وأحداثًا عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي. لا يستطيع سوى قليلين الحديث عنها خارج نيجيريا، وذلك لأن

عـــروض موجـــزة

المؤلف ظل لسنوات طويلة يغطي أحداث نيجيريا للإندبندنت. وعلى سبيل المثال يتناول مسألة الأديان الجديدة التي تحاول الانتشار في نيجيريا مسببة المشاكل والصراعات. كما أن هناك جماعات الشعوذة والدجل التي تدعي القدرة على علاج الأمراض خاصة الإيدز. وأهم ما في الكتاب أنه يطرح الأسئلة الحقيقية التي لابد للنيجيريين من الإجابة عنها للخروج من المأزق الراهن، ويقدر محاولته المشاركة في الإجابة الآن. المؤلف يعتقد جازمًا أن النيجيريين وحدهم الذين يستطيعون الإجابة وحل مشاكل بلادهم. ويضيف أن نيجيريا (أكثر من ١٠٠ مليون نسمة) بلد غني بالإمكانيات المادية والبشرية، وهي قادرة على حل مشاكلها شريطة أن تستعين بخبرات أبنائها الذين هاجر الموهوبون منهم في زمن الحكم العسكري، ومازالوا مترددين في العودة حتى الآن.

□ □ □

Monarchs of The Nile

(ملوك النيل)

Aidan Dodson

AUC press, 2000, 256pp., $19.95, LE.70



يقدم هذا الكتاب الذي أصدرته الجامعة الأمريكية في القاهرة بانوراما جيدة لحياة وسنوات أشهر ملوك عصر الفراعنة منذ توحيد البلاد على أيدي مينا، حوالي ٣١٠٠ قبل الميلاد. وكما أي تاريخ ستجد العظماء من الفراعنة والذين مروا مرور الكرام، فلم يتركوا شيئًا ذا بال يعبر عن إنجازاتهم. ويقف في الصف الأول من العظماء تحتمس الثالث الذي طغى تأثيره على زمنه وعصره وامتد إلى ما بعد رحيله وهناك أيضًا توت عنخ آمون الذي نسيه المصريون باعتباره لم يكن فرعونًا ذا شأن. لكن اكتشاف مقبرته في عشرينيات القرن الماضي بعد آلاف السنوات من وفاته فجر طوفانًا من الاهتمام بهذا الفرعون الشاب في جميع أنحاء العالم. وتبارى المؤرخون وعلماء الآثار وحتى رجال البحث الجنائي في محاولة معرفة كيف مات هذا الفرعون في شبابه. ويقدم المؤلف رؤية متوازنة لهؤلاء الفراعنة وإنجازاتهم.

وقد درس المؤلف الآثار المصرية في جامعة «درام» في ليفربول وفي جامعة كمبردج وحصل على الدكتوراة عام ١٩٩٥. وهو يقوم بالتدريس وإلقاء المحاضرات في إنجلترا ومصر وكذا والولايات المتحدة، كما أنه يحاضر بشكل منتظم في المتحف البريطاني وعلى الرحلات النيلية في مصر.

وقد شارك سليمة أكرم في تأليف كتاب «المومياوات الملكية في المتحف المصري» وهو من مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٧، وكذلك كتاب المومياء في مصر القديمة وهو من مطبوعات الجامعة الأمريكية أيضًا وصدر عام ١٩٩٨.

□ □ □

Dark Inheritance

(ميراث مظلم)

Elaine Feinstein

The Woman's Press, 2001, 197PP., £9.99



هذه الرواية من تأليف كاتبة بريطانية فازت بجوائز في الشعر ولها عديد من القصص والسير الذاتية والترجمات. وهي عمل يجمع بين الطابع السياسي والجريمة وكل شيء في هذه الرواية يتفرع عن العلاقة بين أمين وولدين. فالبطلة الأولى تدعى راشيل أوعيلي، وهي ابنة لمؤلف مشهور ولها ولد واحد سافر إلى البوسنة التي مزقتها الحرب، وفي نفس الوقت فإن هذه الأم تجد نفسها وقد دخلت «عش الدبابير» أو المافيا الإيطالية، فعندما طلب منها أن تكتب مقالة عن إيمانويل سيليني وهو قصاص إيطالي تكتشف أن والده السياسي رجل كان له علاقة بالمافيا. كما أن هذا الوالد أجبر زوجته على الانتحار. أما البطلة الأخرى فهي ريبيكا السيدة ذات المزاج العنيف ذات علاقات عاطفية متعددة تجعلها تتعرض لمشاكل كثيرة مع رجال المافيا في إيطاليا، ومن خلال هاتين السيدتين تصف المؤلفة بشكل تفصيلي أعمال رجال المافيا وتصف منازلهم وتخوض في أسرارهم وتتخيل العلاقات وأساليب التعامل بين رجال المافيا. وهي لا تعتقد أن الرواية تمثل أصواتًا عديدة، كما ذكر النقاد، بل تقول إن هناك خيطًا واحدًا يربط أجزاء الرواية. وتشير إلى أن عملها على بالسياسة والتاريخ والعاطفة.

□ □ □

One Palestine, Complete: Jews and Arabs under the British Mandate

(فلسطين واحدة كاملة: اليهود والعرب تحت الانتداب البريطاني)

Tom Segev

Little, Brown, 2001, 612PP., £25.00



منذ نهاية الثمانينيات، أعادت مجموعة من الباحثين والصحفيين الإسرائيليين كتابة تاريخ إسرائيل فيما عرفوا بالمؤرخين الجدد وأزال هؤلاء المؤرخون كثيرًا من الأساطير والانحيازات التي لازمت الرؤية الإسرائيلية للصراع العربي الإسرائيلي.

ومن بين هؤلاء المؤرخين توم سيجيف الذي يتناول في هذا الكتاب تاريخ فلسطين تحت الانتداب البريطاني معتمدًا على مصادر جديدة تلقي أضواء باهرة على تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي. ويعتمد المؤلف على شهادات عربية ويهودية وعلى خطابات كتبها موظفو الإدارة البريطانية إلى أولادهم في بريطانيا. ومن بين هؤلاء الموظفين الجنرال إيفالدين باركر الذي قاد القوات البريطانية في فلسطين في الفترة ٤٥ ـ ١٩٤٧ الذي كتب خطابات إلى سيدة عربية في القدس. وقد استولى الإسرائيليون على تلك الخطابات وهي موجودة بأرشيف الدولة في إسرائيل حاليًا.

لقد نظر كثير من موظفي الإدارة الاستعمارية البريطانية إلى القدس على أنها كالفردوس واعتقدوا أن العرب لا يمكن أن ينافسوا اليهود، فالتركيبة السياسية لهم متخلفة كما أن دعاياتهم بشأن أحقيتهم في فلسطين فجة ومعادية للسامية. ويؤكد المؤلف أن البريطانيين انحازوا للصهيونيين وسمحوا لهم بزيادة نفوذهم. وهو رأي مضاد للرؤية الرسمية الإسرائيلية التي تدعي أن البريطانيين كانوا يناهضون التواجد الصهيوني في فلسطين. لقد طرد البريطانيون الأتراك من فلسطين وأرادوا أن يحتفظوا بها وعملوا على إيجاد سبب لذلك فكان احتضانهم للصهيونية لمناهضة العرب.

ويسجل الكتاب كيف كانت شهية الزعماء الصهيونيين مفتوحة للاستيلاء على أراضي العرب وترحيل أصحابها.

ويمثل هذا الكتاب شهادة جديدة على الدور البريطاني في تمكين اليهود من الاستيلاء على فلسطين. وهو يهدم كثيرًا من الخرافات الرسمية في التاريخ الإسرائيلي حول السنوات السابقة على قيام إسرائيل عام ١٩٤٨.

□ □ □

Last Days of Glory

(آخر أيام مجد)

Tony Rennell

Viking, 2001, 326PP., £12.99



قبل ١٠٠ عام، توفيت الملكة فيكتوريا بعد حكم استمر من ١٨٣٧ حتى ١٩٠١، واعتبر كثير من المؤرخين موتها سنة فاصلة وحاسمة في تاريخ الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن تغيب عنها الشمس. وهذا الكتاب يتحدث ليس عن أعمال وإنجازات الملكة، ولكن عن جنازتها وكيف عم الحزن الشعب البريطاني بصورة لم يسبق لها مثيل. لقد تصرف البريطانيون مع وفاة ملكيين سابقين على حكم فيكتوريا بدون اهتمام وربما فرحوا لوفاتهم لكن الأمر اختلف معها. فقد استطاعت هذه الملكة أن تأسر خيال البريطانيين سواء بالنظام الاجتماعي والأخلاقي الذي ساد في عصرها أو بالنمو الواسع للصناعة والتوسع الإمبراطوري غير المسبوق، بحيث أصبحت بريطانيا تستعمر ثلثي العالم. ولذلك لم يكن غريبًا أن ينفق البريطانيون ما يعادل ٣,٥ مليون جنيه إسترليني بمقاييس وقتنا الحاضر على شراء الزهور والورود لوضعها أمام مقبرتها. وأطلق البريطانيون عليها «إمبراطورة القلوب» تمامًا كما سوف يطلقون بعد حوالي ٩٦ عامًا على الأميرة ديانا أميرة القلوب.

وكما فجرت وفاة ديانا حزنًا في أنحاء العالم، كان موت فيكتوريا قد فعل الشيء نفسه، فلأول مرة على الإطلاق يتم تنكيس العلم الأمريكي على البيت الأبيض تكريمًا لحاكم أجنبي توفي، كما أن صلوات خاصة أقيمت في الصين وتركيا آنذاك على روح الملكة التي بكاها الأشارقة.

ويشير المؤلف إلى أن الجنائز الرسمية خاصة الملكية في بريطانيا أصبحت تجذب اهتمامًا شعبيًا كبيرًا وتحولت إلى ما يشبه الفن البريطاني الخالص من حيث التنظيم والدقة.

□ □ □

إصدارات يابانية

أوكيناوا نو كتسودان
(قرارات أوكيناوا)
أوتا ماساهيدي
أساهي شمبونشا، ٢٠٠٠، ٣٤٨ ص،
٢،٢٠٠ (ين)



هذا الكتاب يكتبه الحاكم السابق لجزيرة أوكيناوا اليابانية، والذي خدم لفترتين متتاليتين من عام ١٩٩٠ إلى ١٩٩٨ ويروي فيه القصص الخلفية للمفاوضات التي أجراها مع الحكومة المركزية اليابانية حول تواجد القواعد العسكرية الأمريكية على مجموعة جزر أوكيناوا.

فالحكومة اليابانية توفر للقوات الأمريكية الأراضي اللازمة للقواعد العسكرية والخدمات الملتحقة بها. وتتركز في أوكيناوا وحدها ٧٥٪ من القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان.

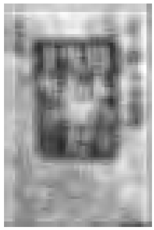
وقد قامت في عام ١٩٩٥ مظاهرات ومسيرات احتجاج جماهيرية بسبب حادثة اعتداء جندي أمريكي على فتاة يابانية من سكان الجزيرة، وتشكلت حركة تطالب بإزالة القواعد الأمريكية. ورفض «أوتا» حاكم أوكيناوا في ذلك الوقت ومؤلف الكتاب توقيع الأوراق التي تجبر مُلاك الأراضي اليابانيين على السماح للقوات الأمريكية بالتواجد عليها، وذلك بالرغم من أنه كان عليه أن يوقعها بالنيابة عنهم إذا هم رفضوا التوقيع. وبموقفه هذا، عبر أوتا عن معارضته لكل من الحكومة اليابانية المركزية والحكومة الأمريكية.

وتواجه أوكيناوا مشاكل أخرى صعبة، من ضمنها البطالة وكيفية بناء اقتصاد محلي لا يعتمد على خدمة القواعد العسكرية الأمريكية. ويرى المؤلف أن مستوى نضج الديمقراطية في اليابان سوف يقاس من خلال الاختبار الذي تتعرض له الديمقراطية اليابانية في كيفية معالجة قضية القواعد العسكرية الأمريكية في أوكيناوا.

وإلى جانب شهادة أوتا الشخصية في هذه القضية يحتوي كتابه هذا على شهادة ٣٢ فرداً آخرين، من ضمنهم رئيس الوزراء السابق موراياما تومييتشي.

□ □ □

نيهون نو يوشيناوارتا جونين
(العقد الضائع في الاقتصاد الياباني)
هارادا يوتاكا
نيهون كيزاي شمبونشا، ١٩٩٩، ٢٤٨ ص،
١،٦٠٠ (ين)



حتى نهاية الثمانينيات، كان الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي في اليابان ينمو بمعدل سنوي قدره ٤،٨٪. ولكن منذ عام ١٩٩٢ ومع بداية الركود الاقتصادي هبط نموه إلى أقل من واحد في المائة، كما ارتفعت نسبة البطالة في عام ١٩٩٩ إلى ٤،٩٪ وكذلك قدرت القيمة الإجمالية للقروض المعدومة أو المشكوك فيها التي تورطت فيها المؤسسات المالية اليابانية بحوالي ١٥٠ تريليون ين ياباني.

يتناول هذا الكتاب السياسات المالية في اليابان ويحاول أن يبين أسباب فشلها. كما يتناول المشاكل الهيكلية في الاقتصاد الياباني، وأوجه الضعف في الفلسفة الاقتصادية القائمة، والتي أدت إلى تعثر مسيرة التقدم الاقتصادي الياباني.

ويتوصل المؤلف بعد تحليله للسياسات المالية والبنوك والهيكل الاقتصادي، وخرافة «قيمة الأراضي» (وهي الاعتقاد بأن أسعار الأراضي سوف تستمر في الارتفاع بشكل لا نهائي)، إلى أن العامل الرئيسي وراء هذا الكساد الذي أصاب عقد التسعينيات هو تبني سياستين متعارضتين: فمن ناحية يوجد إصرار على سياسة تحكمية في عرض النقود، وفي نفس الوقت غابت القدرة على التعامل بسرعة وحسم مع أزمة القروض المعدومة والمشكوك فيها.

وفي النهاية ينصح المؤلف بالابتعاد عن اتباع الولايات المتحدة الأمريكية في إيجاد علاج للأزمة، والبحث عن حلول يابانية خالصة. كما يرى أن عودة اليابان إلى السياسات الحاسمة وروح العزيمة التي ميزت عصر ميجي بعد عام ١٨٦٨، ومرحلة النمو الاقتصادي السريع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، هو الذي سيكفل لها استكمال مشروع التقدم الحديث. بينما سيؤدي استمرار المداراة والتغطية على الإخفاقات وتجاهل معالجتها بسرعة إلى مزيد من الانتكاسات.

□ □ □

طوكيو شوستسو
(حكايات طوكيو)
شينا ماكوتو وآخرون
كينو كونيا شوتن، ٢٠٠٠، ٢١٦ ص،
١،٥٠٠ (ين)



تقوم دار النشر الفرنسية «إيديسيون أوترمون» بإصدار سلسلة من القصص المتصلة بمدن معينة، فتختار مدينة وتطلب من الكتاب الذين يسكنون تلك المدينة أو البلدة كتابة قصة قصيرة تدور فيها.

وهذا الكتاب هو آخر ما صدر في تلك السلسلة، ويحتوي على قصص تدور في ضواحي طوكيو المختلفة. وقد نشر في نفس التوقيت في طوكيو وباريس. في هذا الكتاب تم اختيار ثمانية من الكتّاب اليابانيين المعاصرين، ما بين كتّاب مشهورين وبعض الشباب، لم يسبق لأحد منهم أن ترجمت أعماله إلى الفرنسية من قبل. وتلقي قصصهم الضوء على هذه العاصمة المزدحمة كاشفة عن تعقيدات وأشكال الحياة فيها.

□ □ □

نيجيرو أوتوكو
(الرجال الطائرون)
أوزايا نوبوكو
كوسايدو شوبان، ٢٠٠٠، ٢٤٢ ص،
١،٦٠٠ (ين)



الرجال الطائرون هو التعبير الذي تطلقه الباحثة على الرجال الذين يعانون من «عقدة الأم»، الذين يتجنبون الواقع ويتجنبون الجنس الآخر، رافضين النظر إلى أنفسهم بشكل صادق. وبصورة أكثر تحديداً ترى الباحثة أن الرجال الذين ينشأون في ظل حماية وتدخل شديد من جانب الأم يكبرون دون المقدرة على التعامل مع مشاعر طبيعية كالأسى والألم والفرح.

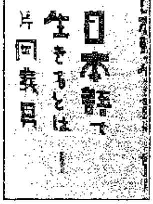
وهذا الكتاب يقوم على مقابلات أجرتها الباحثة مع ثمانٍ من النساء وجدن أن علاقتهن بالرجال انهارت بسبب عقدة الأم لدى شركائهن.

وتحتوي تلك العينة من الرجال الهاربين على طبيب، وآخر وريث لعائلة ثرية، منهم من فسخ خطبته بسبب مكالمة هاتفية، وآخر لم يستطع أن يقرر ماذا يفعل بعد ست سنوات من الارتباط، وآخر لم يستطع مواجهة الجانب الجنسي في العلاقة.

الكتاب لا يقدم وجهة نظر الرجال الذين تم تناولهم، ولكن توجد تعليقات في نهاية الكتاب لسبعة وثلاثين رجلاً يتحدثون عن العلاقات بين الرجال والنساء في المجتمع الياباني المعاصر.

□ □ □

نيهونجو دى إكيرو تووا
(الحياة مع اللغة اليابانية)
كاتا أوكا يوشيو
شيكومي شوبو، ١٩٩٩، ٢٦٢ ص، ٢،٢٠٠
(ين)



يجد اليابانيون صعوبة شديدة في إجادة اللغة الإنجليزية. والسبب كما يراه المؤلف هو اللغة اليابانية. واللغة اليابانية في ذاتها ليست معيبة كما يقول، ولكن العيب يكمن في طرق استخدامها.

يقول المؤلف إن سمة اللغة تعود إلى أسلوب الحياة وثقافة مستخدميها ومفاهيم حياتهم. فهو يعتقد أن اللغة الإنجليزية تساعد على تحديد المشكلات والتحديات، وتوظف في إيجاد الحلول لتلك المشكلات. كما أنها تشجع على إقامة الصلة بين مستخدميها، وتنسب لمستخدميها المسئولية عن أفعالهم وأفكارهم.

أما اللغة اليابانية فتعطي الأولوية فوق كل شيء للمصالح، والعلاقات الهيراركية، وتستخدم كوسيلة لمساعدة المتحدثين بها في الإبقاء على تلك العلاقات التراتبية، كما تساعد على المراوغة والتكيف المستمر مع المصلحة.

الكتاب يقدم تقييماً نقدياً للعقلية اليابانية خاصة في تطورها على مدار الخمسين سنة الماضية.

□ □ □

اجتماع

إعداد الأسرة والطفل لمواجهة الإعاقة
ترجمة: د. إيمان فؤاد الكاشف
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

تواجه بعض الأسر مشكلة طفل معاق، ولا تعرف كيف تتعامل معه، وتشعر أن هذا الطفل عبء شديد على الأسرة فتنغلق على نفسها وتحيل حياة الطفل نفسه إلى جحيم، المؤلفة تسعى إلى تحقيق قدر من التكيف مع حقيقة وجود طفل معاق داخل الأسرة، وهو ما يساعد الطفل والأسرة ذاتها على تجاوز العقبات في سبيل إعداده وتعليمه لمواجهة المجتمع.

■■■

تقاليد
الطاف سالم الصباح
الكويت: جمعية الصدو التعاونية الصرفية، ٢٠٠٠

دراسة تحليلية تفصيلية عن أهم العادات والتقاليد داخل المجتمع الكويتي، والروافد الثقافية التي تحكمه وتؤثر فيه، وتفاعلاته مع الثقافات والبيئات المحيطة.

■■■

جذور السلبية الشعبية في مصر
إبراهيم السايح
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

ثمة سلبية يشكو منها حتى الشعب المصري نفسه لا تخطئها عين، لكن هذه السلبية ليست من سمات المصريين وخصائصهم، بل إنها في كثير من الأحيان تكون ردًا على استبعاد الشعب المصري واقصائه عن إبداء الرأي في حياته وما يؤثر فيها وعليها. المؤلف يبحث في جذور هذا السلوك وأسبابه.

■■■

سيكلوجية الفرد في المجتمع
محمود شمال حسن
القاهرة: دار آفاق، ٢٠٠٠

الفرد ابن بيئته، يؤثر فيها ويتأثر بها، وسلوك الفرد داخل مجتمعه وعلاقاته في إطاره، تتحدد وفق المستوى الثقافي والمادي للفرد نفسه، ونظرة المجتمع إليه.

■■■

The Price of Motherhood: Why The Most Important Job in the World is Still the Least Valued

(ثمن الأمومة: لماذا تحصل أهم وظيفة في العالم على أدنى تقدير)

Ann Crittenden
New York: Henry Holt & Co., 2000.
323pp., $25.00

تنتقد المؤلفة قوانين العمل التي لا توفر الحماية الاقتصادية الكافية للمرأة التي تترك عملها من أجل الإنجاب. فقد وجدت الباحثة أن السيدات اللاتي يتركن وظائفهن أثناء فترة الإنجاب وتربية الأطفال، يقل بشدة مستواهن الاقتصادي ويتعرضن لخطر الفقر، كما يتعرض نجاحهن الوظيفي إلى التعثر بسبب صعوبة الحصول على وظيفة جيدة بعد فترة الانقطاع عن العمل.

وتنادي المؤلفة بتبني السياسات التي طبقتها بعض الدول الأوروبية والتي توفر تسهيلات وتأمينات اجتماعية واقتصادية للأم العاملة وغير العاملة.

كما تذكر المؤلفة الاقتصاديين والإحصائيين بضرورة احتساب وظيفة الأمومة ضمن الخدمات الاقتصادية غير المدفوعة، حيث دائمًا ما تحتسب الإحصاءات الاقتصادية الأمهات في المنزل بصفتهن غير منتجات، في حين أنهن يقمن بالمساهمة في إنتاج وإعداد رأس المال البشري اللازم للنمو الاقتصادي.

أدب

أخبار أبي نواس.. تاريخه ونوادره وشعره ومجونه
ابن منظور المصري
شرح: محمد عبد الرسول إبراهيم

سيظل أبو نواس علامة فارقة في تاريخ الأدب والشعرية العربية، ويثير جدلاً دائمًا حول أغراض شعره ومراميه وقصائده التي يعتبرها الحداثيون أكثر تحررًا من كثير مما تنضح به قرائح الشعراء المعاصرين. وهذه الدراسة كاملة عن أبي نواس. حياته وشعره معًا.

■■■

الحب في زمن النفط
نوال السعداوي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

تعبير زمن النفط يشير مباشرة إلى تغلب المعايير المادية على المعايير الإنسانية وغياب الزمن الرومانسي في العلاقات بين البشر، كيف يمكن للحب أن يعيش في تلك الأجواء التي تجعل المشاعر في الخلفية، فيما يتيح للعدة أن تتقدم وتحتل الصورة الكاملة.

■■■

الكاتبات اللبنانيات - بيبلوغرافيا
نازك سابايارد، نهى بيومي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

تعريف بعشرات من الأسماء المهمة من اللبنانيات اللاتي امتهن الكتابة في أفرع عدة في الفترة من ١٨٥٠ وحتى ١٩٥٠ أي قرن كامل من الإبداع النسائي، بما فيها المقالات والقصص التي نشرت في الصحف، وكذلك الإبداع الشعري والروائي والمسرحي، باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

■■■

جرة قلم
محمد حسن عبد الله
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

مجموعة من المقالات القصيرة التي تتناول عددًا من القضايا في الأدب العربي والإسلامي والعالمي، بعضها ذو طابع تحليلي نقدي، والآخر يثير اشكالات أو يرد على تساؤلات في مجاله.

■■■

ديوان الأساطير.. الموت والبعث والحياة الأبدية
ترجمة وتعليق: قاسم الشواف
تقديم: أدونيس
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

لعبت الأساطير ومازالت دورًا مهمًا في الإبداع كما في حياة الناس. ومن بعض هذه الأساطير استخلص الناس الحكمة. وهي وإن تشابهت بين الحضارات في محتواها، فإن كل حضارة صبغت عليها من روحها كي تكتب لنفسها الخلود. وأغلب هذه الأساطير هو ما يركز على فكرة الخلود بالذات. ويناقش فكرتي الموت والبعث من بعده.

آثار

آثار العالم العربي في العصرين اليوناني والروماني
عزت زكي قادوس
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

تتناول المؤلفة حقبة زمنية سادت فيها السيطرة اليونانية والرومانية، وحكمت الأذواق والأفكار، وصبغت الحياة إجمالاً بصبغتها، كما خلفت وراءها كمًا هائلاً من الآثار التي بقيت شاهدة على هذين العصرين.

■■■

آثار الإسكندرية القديمة
عزت زكي قادوس
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

للإسكندرية مكانة خاصة في تاريخ الإنسانية، ليس فقط عبر مكتبتها التي شعت بأنوارها على العالم كله، وإنما لمكانتها التاريخية والأثرية، والتي بقيت شواهدها حاضرة حتى اليوم، دليل على حضارات سادت ثم بادت.

■■■

الفاطميون وآثارهم المعمارية في أفريقيا
عبد الله كامل
القاهرة: دار آفاق، ٢٠٠٠

رحلة في المعمار الفاطمي في أنحاء أفريقيا التي جابها الفاطميون وتركوا آثارًا تشير إلى معالم حضارتهم وثقافتهم، في المساكن والمساجد وغيرها.

■■■

The Bible Unearthed: Archeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texts

(رؤية علم الآثار الجديدة في إسرائيل القديمة ومصدر نصوصها المقدسة)

Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman
Free Press, 2001. 385pp., £ 26.00

اثنان من علماء الآثار الإسرائيليين يعيدان النظر في الحقبة التاريخية التي تناولها العهد القديم عن طريق الاستعانة بالأدلة الأثرية. ومن خلال أبحاثهما وأبحاث علماء سابقين، استنتج العالمان أن علم الآثار لا يؤيد معظم القصص التي وردت في العهد القديم. فالخروج من مصر لم يحدث كما وصف. والغزو الشامل والسريع لكنعان لم يحدث. كما أن داود وسليمان عاشا في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكن لم يكونا أكثر من رؤساء لقبائل صغيرة. وحسب ما جاء في كتابهما أيضًا، لم يكن هناك عصر ذهبي لمملكة موحدة لإسرائيل، لها عاصمة كبيرة أو امبراطورية مترامية. كل هذا حسب نظرية المؤلفين كان جزءًا من ملحمة وطنية صيغت ببراعة في عهد الملك يهودا لكي تتناسب مع طموحاته التوسعية التي تطلبت أقصى شكل من أشكال التوحد.

تاريخ

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية. نجد والحجاز
نجدة فتحي صفوة
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

هذا هو الجزء الخامس من السلسلة عن الوثائق الخاصة بعام ١٩٢٠. وفي هذا العام تصاعد الخلاف الهاشمي السعودي، وينطوي هذا الجزء على مجموعة من المراسلات المتبادلة بين الملك حسين والمعتمد البريطاني في جدة.

■■■

الروس والمجتمع الدولي
طارق منصور محمد
القاهرة: دار مصر العربية، ٢٠٠٠

دراسة عن تاريخ المجتمع الروسي، وهو قديم ويمتد بجذوره إلى أعماق بعيدة في تاريخ الإنسانية. والدراسة تعرض لهذا كله منذ بدايات الحروب مع دولة بيزنطة، مرورًا بالتوسعات الروسية في قارة أوروبا على حساب عدد من الدول مثل بلغاريا ورومانيا وغيرها. كما تعرض لسياسات روسيا الخارجية قديمًا وحديثًا وعلاقاتها التجارية بالدول المجاورة لها، وكذلك لدور الحكام في المجتمع الروسي.

■■■

ذاكرة فلسطين
المحرر العام: عبد القادر ياسين
القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات والنشر، ٢٠٠١

جزء أول في سلسلة عن الذاكرة الفلسطينية بما هي تاريخ وتراث وتفاعلات بين البشر، ويحتوي هذا الجزء على التاريخ القديم للقدس الشريف وأهميتها الدينية والاجتماعية، وموقف الصهاينة منها ومن أهلها، وكيف كان الرد الفلسطيني الشعبي الذي ترجمته الانتفاضة على الأرض في مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية.

■■■

مدائن صالح.. من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء
إبراهيم السايح
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

عن مملكة اليمن قديمًا، والقبائل التي

سكنتها والعلاقات بينها وعاداتها وتقاليدها، وتهم المعتقدات التي كانت سائدة فيها.

■■■

هذا اليوم في التاريخ

نجدة فتحي صفوة

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

على مدار عقد كامل استمر المؤلف ينشر هذه الرواية التي يروم القراء إلى متابعتها كي يعرفوا كثيرًا عن تاريخهم ويقفوا على أوجه التشابه بين الأمس واليوم، وهذا المجلد هو في حقيقته مجلد في ثمانية أجزاء. يتناول الجزءان الأول والثاني أهم الشخصيات التي أثرت في المسيرة التاريخية والسياسية. وأجزاؤه التالية تعرض لأحداث وشخصيات في العالم كله.

■■■

Kitchener

(كتشنر)

John Pollok

Constable, 2001, 620pp., £ 20.00

من ثلاث سنوات، صدر للمؤلف جون بولوك الجزء الأول من سيرة حياة لورد كتشنر، وكان عنوانه: «الطريـــق إلى أم درمان». هذا العام صدر الجزء الثاني بعنوان: «كتشنر: منقذ الأمة»، وقد جمع الناشر الجزءين في مجلد واحد. ينتهي الجزء الأول عام ١٩٠٢، بعد نجاح كتشنر في السودان (في حادثة فاشودا الشهيرة) ونجاحه في حروب البوير في جنوب أفريقيا. أما الجزء الثاني، فيبدأ مع وصول كتشنر إلى الهند لقيادة الجيش هناك، وينتهي بمعارك الحرب العالمية الأولى التي قادها كتشنر بعد أن عين وزيرًا للحرب.

دين

أحكام الأسرة الإسلامية فقهًا وقضاء

حسن حسانين

القاهرة: دار آفاق، ٢٠٠٠

أولى الإسلام الأسرة عناية خاصة بوصفها النواة الأولى في بناء المجتمع. ولذلك فصلت الآيات مسائل الخطبة والزواج والميراث وتنشئة الأبناء وتربيتهم. كما بينت أحكام الطلاق بوصفه أبغض الحلال وحقوق الزوجين والأولاد في حالة حدوثه.

■■■

الذين تسوا وجود الله

صبحي عصر

القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

تلمُس وجود الخالق سبحانه وتعالى يكفيه النظر إلى مخلوقاته في الطبيعة، التي تعج بمعجزات وآيات كونية يستحيل حصرها. المؤلف يعرض لعشرات الآيات التي حولت شك أصحابها في وجود خالق للكون، إلى يقين لا يأتيه الباطل أبدًا.

■■■

السياسة بين الحلال والحرام

تركي الحمد

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يموج عالمنا بالحداثة والتكنولوجيا المتقدمة التي هي الأكثر تعبيرًا عن هذه الحداثة. وتعلو أصوات المعلوماتية والشعارات ذات الأبعاد الإنسانية التي تتناول قيم العدالة والحرية والمساواة وحقوق الإنسان عمومًا، وكيف أن الإسلام في تطبيقاته المثالية، طالب بتلك الحقوق وأكد على أهميتها في العمران الإنساني.

■■■

دولة الإسماعيلية في إيران

السعيد جمال الدين

القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٠

لعبت دولة الإسماعيلية دورًا بالغ الأهمية في نشر المذهب الإسماعيلي الشيعي في إيران، كيف قامت هذه الدولة، ومن هم أهم حكامها، وما أشهر المعارك التي خاضها الإسماعيليون، وكيف كانت التيارات السياسية في حينها، هذا كله مما يعرض له المؤلف.

■■■

قراءة في ميراث النبوة

أنوار وجدي

القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

فصلت السنة النبوية الشريفة ما جاء مجملاً في الآيات القرآنية الكريمة، وميراث النبوة ليس الأحاديث الشريفة فحسب، وإنما أيضًا ما روي عن سلوك الرسول الكريم وأفعاله وحكمته.

سياسة

الكرد.. دراسة سوسيولوجية وتاريخية

باسيلي نيكتين

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

برزت القضية الكردية بقوة على الساحة السياسية العالمية مع الصراع الدائر بين الزعيمين جلال طالباني ومسعود بارزاني، ثم إلقاء القبض بشكل درامي أشبه بشريط سينمائي على الزعيم الكردي عبد الله أوجلان. المؤلف يعني هنا أكثر بالموقع والتاريخ والتنويعات القبلية والعشائرية وتأثيراتها وأهم الرموز التي لعبت دورًا في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ المنطقة من بين الأكراد، وأبرزهم بطبيعة الحال صلاح الدين الأيوبي.

■■■

النظم السياسية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية

إبراهيم السايح

القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

منطقة شبه الجزيرة العربية ذات أهمية خاصة للعالم كله، وقد تصاعدت هذه الأهمية في العقود الأخيرة عقب اكتشاف النفط في أراضيها فباتت محط أنظار العالم، وما يجري فيها يؤثر على سياسات العالم واقتصادياته، لهذا فإن دراسة النظم السياسية والاقتصادية لها مما يلقي أضواء على تحولاتها المحتملة في المستقبل المنظور.

■■■

الديمقراطية وتحديات الحداثة بين الإسلام والغرب

إيليا حريق

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

الديمقراطية في صيغتها المعاصرة هي أيدلوجية غربية، وبشكل ما لم يتم استيعابها تمامًا في البلدان النامية. السؤال الأساسي الذي يعالجه المؤلف هنا هو كيفية المواءمة بين الديمقراطية وحضارات البلدان الآسيوية والأفريقية، وخصوصًا أن الديمقراطية تصطدم أحيانًا بأبعاد عقائدية وفكرية في تلك البلدان.

■■■

جيل السبعينيات

تحرير: محمد عبد الرسول

القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات، ٢٠٠٠

حصيلة لأعمال ندوة أجراها المركز عن الحركة الطلابية في السبعينيات. وهي التي كانت ذات تأثير بالغ في المسيرة السياسية والثقافية في مرحلة لاحقة. وجيل السبعينيات من أبناء الحركة الطلابية، هم الذين هبوا يرفضون الهزيمة ويطالبون بالثأر حتى كان انتصار أكتوبر ١٩٧٣. والندوة التي شارك فيها عدد من رموز وأبناء هذا الجيل على اختلاف توجهاتهم، تعرض الدروس المستفادة من حركة الطلاب آنذاك. والروافد الثقافية والاجتماعية لعناصرها، وكيفية تفعيل الدور الطلابي في المرحلة الراهنة.

■■■

دور الصين في البنية الهيكلية للنظام الدولي

عبد القادر فهمي

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠

يرى كثيرون أن الصين ستلعب دورًا مهمًا خلال العقد القادم، بما تحققه من معدلات تنمية تتجاوز ١٠٪ سنويًا، وبإسهامها في الاقتصاد العالمي بنصيب وافر، وتنوع مصادر دخلها وتعدد صادراتها. لهذه الأسباب عني المؤلف بتقديم هذه الدراسة التحليلية عن الصين المعاصرة.

■■■

While America Sleeps: Self - Delusion, Military Weakness, and the Threat to Peace Today

(بينما تنام أمريكا: خداع النفس، والضعف العسكري والخطر الذي يهدد السلام اليوم)

Donald Kagan and Frederick W.Kagan

New York: St. Martin's Press, 488pp., $32.95

الكتاب يعقد مقارنة بين الوضع الاستراتيجي للولايات المتحدة في العالم اليوم، وبين الوضع الاستراتيجي لبريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى. ويرى المؤلفان (كيجان الأب، وكيجان الابن) أن قادة أمريكا اليوم يكررون الأخطاء ذاتها التي ارتكبها قادة بريطانيا آنذاك. وهي الثقة في التصريحات بالنوايا الحسنة، والثقة في المنظمات الدولية واتفاقات خفض التسلح، والدبلوماسية السلبية. والسماح للقوة العسكرية بالانخفاض إلى مستوى لا يتناسب مع التزامات الدولة العظمى.

سيرة ومذكرات

نوري السعيد.. رجل الدولة والإنسان

عصمت السعيد

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يحتوي الكتاب على قسمين، يتناول الأول أعمال نوري السعيد كرجل دولة ومساهماته ودوره في القضايا العربية. وفي القسم الثاني وصف لحياة نوري السعيد الأخرى، حياته الخاصة وذكريات عنها.

■■■

An Hour Before Day Light: Memories of a Rural Boyhood

(ساعة قبل ضوء النهار: ذكريات صبا ريفية)

Jimmy Carter

Simon & Schuster, 2001, 284pp , $26.00

هذا هو الكتاب الثالث عشر الذي يكتبه الرئيس السابق جيمي كارتر منذ أن ترك البيت الأبيض عام ١٩٨١. وتقع أهمية هذا الكتاب ليس فقط في قيمته كمذكرات شخصية، ولكن كوثيقة تاريخية اجتماعية لما كانت عليه الحياة في ريف الجنوب الأمريكي أثناء السنوات الصعبة، في العشرينيات والثلاثينيات. تبين المذكرات أيضًا أنه بالرغم من أن والد كارتر كان من ملاك الأراضي الأثرياء، وكان يؤمن بالتفرقة، إلا أن جيمي كارتر نشأ في طفولته وصبياه مع السود. وربطته بهم صداقات حميمة، حتى أنه كان يتحدث بلهجتهم إلى جانب لهجته «البيضاء». وقد أثرت صداقاته هذه في مواقفه السياسية فيما بعد، حيث كان من أفضل رؤساء أمريكا مناهضة للعنصرية.

شعر ومسرح

حادثة خط الاستواء

محمد حسن عبد الله

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

مسرحية تستوحي أسطورة حي بن يقظان، التي أثارت أفكارًا وقضايا عديدة لدى الفلاسفة المسلمين بأبعادها العميقة حول كيفية اكتشاف الخالق عبر قلوب الطبيعة ذاتها حتى في بيئة معزولة عن أية مؤثرات فكرية.

■■■

ستظل تحب

عبد الحكيم منذور

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

قصائد تنتمي إلى الشعر الحر. جميعها تؤكد أن لا حياة بلا حب، فالحب نور محض يضيء الجوانب المظلمة في حياتنا. من قصائد الديوان: قيثارتي، حظ العشاق، حبك يغزوني، حكاية حب.

طـــب

الهرمونات.. صور من الوظائف الحيوية والتطبيق العملي

سعد الدين المكاوي

القاهرة: دار منشأة المعارف، ٢٠٠٠

عن الدور الكبير الذي تلعبه الهرمونات في جسم الإنسان والوظائف التي تؤديها، ومدى تأثيرها على وظائف الجسم وكفاءته، والخطورة الناجمة عن عدم اتزان الهرمونات وما تجلبه من أمراض.

■■■

The Irritable Heart: The Medical Mystery of the Gulf War

(القلب: اللغز الطبي لحرب الخليج)

Jeff Wheelwright

New York: W.W Norton & Co., 427pp., $26.95

بعد انتهاء حرب الخليج بدأ الجنود الذين شاركوا في الحرب في الشكوى من آلام في المفاصل والعضلات، ومن الصداع والدوخان وفقدان الذاكرة، ومن الأرق والإسهال والإرهاق وصعوبة في التنفس.

المشكلة أن العلم فشل في إلحاق هذه الأعراض بمرض محدد أو حتى إرجاعها إلى سبب واحد معين. يتحدث الكتاب عن تلك الأزمة والنظريات المتعارضة التي نشأت محاولة لتعيين السبب والذي تأرجح ما بين عدوى بيولوجية غامضة والتعرض للأدخنة والبترول واليورانيوم المستنفد وغازات الأعصاب العراقية، ولكن لم تنجح أي من هذه النظريات في الحصول على الإجماع الطبي.

ويرى المؤلف أنه لا يوجد سبب عضوي وحيد يمكن الرجوع إليه، وإنما ما يتعرض له المحاربون القدامى من أعراض مرضية يقع في المنطقة التي يتقاطع فيها الجهاز المناعي مع العقل مع المشاعر مع الغدد الهرمونية.

■■■

لغة الجسد

فؤاد إسحاق خوري

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب عالم الحركات والإشارات الجسدية الواسع، فحركات الجسد وإشاراته تعكس المزاج النفسي لصاحبه، الذي يحكم علاقاته مع المحيطين به.

فلسفة

قضية الألوهية بين الدين والفلسفة

محمد السيد الجليند

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

تناولت دراسات عديدة قضية الألوهية في الفلسفة الإسلامية، وكذلك كانت قضية الألوهية أحد شواغل الفلسفتين الإغريقية واليونانية. المؤلف يتناول هذه القضية الشائكة وموقف الدين والفلسفة منها.

■■■

معارك من أجل الأنسنة الإسلامية في السياقات الإسلامية

محمد أركون

ترجمة: هاشم صالح

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يشير المؤلف إلى انهيار الفكر الفلسفي الإسلامي مع انهيار الحضارة الكلاسيكية في القرن الثالث عشر الميلادي. ويكشف عن تيار تنويري في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، تشكل بفعل اندماج الثقافتين الإسلامية والإغريقية، ونحو تيار ديني عقلاني. كما يقدم نماذج لمفكرين وفلاسفة إسلاميين يعبرون عن تلك المرحلة، بينهم أبو حيان التوحيدي ومسكويه.

■■■

مدخل إلى علم الكلام

محمد صالح محمد السيد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

علم الكلام أحد أهم العلوم الإسلامية التي اضطلع بها علماء ينتمون إلى فرق إسلامية أثرت الفكر الإنساني في عصوره الأولى. المؤلف يدخل بنا إلى هذا العالم، فيعرض لمؤسسي علم الكلام ومعناه ودوره في الفلسفة الإسلامية والفكر الديني عموماً.

■■■

Socrates Cafe: A Fresh Taste of Philosophy

(مقهى سقراط: مذاق جديد للفلسفة)

Christopher Phillips

W.W Norton & Co., 224pp., $25.95

ينقل لنا المؤلف في كتابه نتاج رحلاته وحواراته الفلسفية مع مختلف أنواع الأشخاص العاديين، الذين وجدهم وطرح عليهم تساؤلاته في المكتبات وقاعات الجامعة والمقاهي والسجون.

فبالنسبة له الفلسفة ليست شيئاً تقرأه أو تدرسه، وإنما شيء تفعله. وهو يحاول أن يقوم بدور «سقراط» المعاصر، الذي تراه برجه العاجي والهم أهل أثينا في الماضي بإحياء رغبتهم في التساؤل.

■■■

The Road Since Structure: Philosophical Essays, 1970 - 1993

(الطريق منذ البنية: مقالات فلسفية، ١٩٧٠ – ١٩٩٣)

Thomas S. Kuhn

Jim Conant, John Haugeland (Editors)

University of Chicago Press, 2000

335pp., $25.00

البنية المذكورة في عنوان هذا الكتاب، تشير إلى كتاب توماس كوهن الشهير «بنية الثورات العلمية» الذي نشر لأول مرة عام ١٩٦٢، واشتمل على نظريته القائلة بأن المعرفة العلمية لا تتطور بشكل تراكمي متدرج، وإنما تتطور في شكل سلسلة من الانتقالات الثورية التي تحدث في المنظور الذي للمعرفة وسيادته المحاكمة. تلك النظرية التي أسرت فلاسفة العلم وامتد تأثيرها لعدد كبير من الأفرع الأكاديمية.

وهذا الكتاب يحتوي على إحدى عشرة مقالة فلسفية كتبها توماس كوهن منذ عام ١٩٧٠، وحتى وفاته عام ١٩٩٦. يناقش فيها منقحاً وشارحاً الردود التي وردت على نظريته الشهيرة، كما يحتوي على مقابلة طويلة أجريت معه قبل عام من وفاته يناقش فيها بشكل صريح وجذاب المنعطفات المهمة في حياته الشخصية والعملية والفلسفية.

فكــــر

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه

إعداد: هاشم صالح

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يعنى هذا الكتاب بطرح المسألة الاستشراقية، هذه المرة من جانب المستشرقين أنفسهم. فقد تعرض الاستشراق لانتقادات عديدة من جانبنا، بعضها صحيح وبعضها خاطئ. المؤلف هنا يمنح المستشرقين فرصة الرد، ويخوض في العلاقة بين العالمين العربي والإسلامي من جهة، والمسيحي الغربي المعاصر من جهة ثانية، وهي أصل إشكالية الاستشراق.

■■■

الرجولة المتخيلة.. الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث

مي غصوب وإيما سنكلير

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يقوم هذا الكتاب على فكرة أساسية هي أن الذكورية لا تقل عن النسائية بوصفها نتاجاً لبناء اجتماعي ومصدراً للتعددية. ومن الشائع أن المجتمعات الشرقية ذكورية الطابع، وهكذا تركز المؤلفتان على معنى الذكورية في الثقافة الشرقية وتأثيرها وتجلياتها في الشرق الأوسط كله.

■■■

الفضيلة الواجبة

محمد الرميحي

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

تحدث كثيرون عن فرائض وفضائل غائبة عن المجتمعات العربية والإسلامية كي يمكنها أن تنهض وتحقق تقدمها وتلحق بركب العصر. المؤلف يشير إلى السباق العلمي والتكنولوجي الذي فرض على مجتمعاتنا وصرنا طرفاً فيه حتى وإن لم نرد، بما يعني أهمية التسلح جيداً للمشاركة في هذا السباق، وخصوصاً أننا نملك ثروة بشرية هائلة، يمكن إذا أحسن توظيفها أن تكون عوناً بدلاً من أن تصير عبئاً في هذا المعترك.

■■■

جنادة الرؤيا

أمين الريحاني

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

مقارنات بين خصائص المجتمع الشرقي وسمات المجتمع الغربي، وحدود العقل والروح في كل منهما. الصراع بين العقل والروح أحد ثوابت الجدل الفكري على مر العصور، وهي إشكالية يبدو أنها لم تحسم في المجتمعات الشرقية، وتلقي بظلالها على مسألة الهوية وغيرها من القضايا الشائكة.

■■■

ديانة قدماء المصريين

شتيندورف

ترجمة: سليم حسن

القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

عن المعتقدات التي سادت في العهود المصرية القديمة، والمعبودات التي قدسها المصريون من حيوانات ونباتات وقوى طبيعية كالشمس وغيرها، وكيف استطاع المصريون أن ينسجوا عقيدة التوحيد كأول حضارة إنسانية تحقق هذه الفكرة، علاوة على الدور المهم الذي يلعبه الدين في حياة المصريين.

لغــــة

الدراسات اللغوية للقرآن الكريم في أوائل القرن الثالث الهجري

عيسى شحاتة عيسى علي

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

عندما بزغ فجر الدراسات اللغوية ووضع الفقه وأسس النحو في القرن الثالث الهجري، كان القرآن الكريم هو أهم نص للدراسة، بسبب ثرائه بالتعبيرات والقواعد النحوية وبلاغته التي أعجزت المعاصرين والأقدمين، وهذا الكتاب يعرض للدراسات اللغوية التي استندت إلى النصوص القرآنية.

مـــوارد

زراعة القمح

محمد محمد

القاهرة: منشأة المعارف، ٢٠٠٠

يعد القمح من المحاصيل المهمة ذات الطبيعة الاستراتيجية، فالقمح يعني لقمة العيش، وتحقيق الاكتفاء منه أمر بالغ الحيوية في السياسات العامة، المؤلف يعرض في دراسته تلك لأهمية القمح والمشاكل التي تواجه زراعته وكيفية التغلب عليها.

■■■

مشكلة المياه في الوطن العربي

رمزي سلامة

القاهرة: منشأة المعارف، ٢٠٠٠

يؤكد كثير من الباحثين والخبراء على أن القرن الحالي هو قرن المياه، وإن أية حروب ستنشأ فيه، سيكون سببها نقص المياه، والوطن العربي يعاني نقصاً شديداً في مصادر المياه، وهو ما يعرض له المؤلف، واحتمالات الصراع التي يمكن أن تنشأ عن هذه الحالة بما يؤثر على مفهوم الأمن في الوطن العربي كله.

■■■

تعقيبان على مقال جلال أمين: «قصة حياة عادية، وأخرى فذة»

مقارنة لا تخلو من طرافة

عندما كنت أتناول أعداد «وجهات نظر» خلال العامين الماضيين (٢٤ عددًا بالتمام والكمال) كنت أبدأ عادة بقراءة تقديم العدد ثم أذهب مباشرة بعد ذلك إلي مقال هيكل. ولم يختل هذا النظام مرة واحدة طوال هذه الشهور. ولكني في هذا الشهر لم أتبع هذه العادة، وذلك لأني رأيت اسمي علي غلاف العدد. وكان طبيعيًا أن أذهب مباشرة إلي مقال الصديق القديم الدكتور جلال أمين.

وكان أول إحساس شعرت به هو العرفان لجلال لأنه قرن اسمي باسم العالم الكبير رشدي سعيد وهو من العلماء الذين أنطوي لهم علي إجلال وتوقير كبيرين.

لقد أحسست أن الصديق جلال أمين أراد أن يكرمني بأن قرن بين اسمي واسم أستاذنا الدكتور رشدي سعيد.

وبعد أن قرأت المقال كله جاءني إحساس آخر ليس بعيدًا عن الإحساس الأول.

ذلك أنه منذ أن ظهر كتابي «قصة حياة عادية» وأنا أقرأ عنه لكبار النقاد والكتاب ما جعلني أتصور فعلاً أنني قدمت للقارئ العربي شيئًا جيدًا.

وغير كبار الكتاب والنقاد فإني أشهد أنني سمعت من عديد ممن أحترمهم من الإطراء ما أسعدني سعادة عميقة.

في الأسبوع الماضي قابلت السيدة العظيمة ليلي شرف وزيرة الإعلام الأردني السابقة وعضو مجلس الأعيان وأول ما رأيتها قالت لي أنها قرأت ذلك الكتاب في جلستين اثنتين وأنها لم تستطع أن تتركه إلا بعد أن انتهت من قراءته وأضافت كلامًا آخر جميلاً أشعر بكثير من الحرج في إعادته.

وكثيرون آخرون سمعت منهم نفس الشيء مما جعلني أشعر بالزهو.

وجاء مقال جلال أمين ليشعرني أن الناس لا يمكن أن تجمع علي شيء، فهذا هو جلال يرى في هذا العمل غير رأي الناس جميعًا مما أراحني كثيرًا لأنني - حتي في هذه السن - لا أخشي من شيء قدر خشيتي من الزهو الزائد الذي جعلني أحس به ما قرأت وما سمعت عن هذا الكتاب. شكرًا للصديق القديم.

وبعد ذلك أستأذن الدكتور جلال في بعض الملاحظات.

ألا يرى وهو عالم الاقتصاد المبرز أنه قارن بين منهجين مختلفين اختلافًا بعيدًا بحيث لا تجوز بينهما المقارنة؟

كتاب قصة حياة عادية عبارة عن «لوحـات نفسـية» تصف التطور الوجداني والنفسي لصبي، ثم لشاب عاش بأحلام معينة عن الحب وعن الأدب وعن الجامعة، ويتوقف وصاحبه لم يعدُ الثلاثين عامًا.

والكتاب الآخر «رحلة عمر» هو كتاب علم تختلط فيه رحلة العمر بالجيولوجيا والمساحة والمعادن والمعارك السياسية.

شتان بين الكتابين.

وشتان بين المنهجين.

لا يجمع بينهما إلا أن المؤلف في كل منهما عبر عن جانب من حياته ولكن التعبير مختلف، والجانب المعبر عنه مختلف أيضًا.

لقد كتبت «قصة حياة عادية» وقرأت «رحلة عمر» وأشهد أن الثانية أفضل من الاولي وأكثر نفعًا للناس ولكني لا أستطيع المقارنة بين الكتابين فكل منهما ينتمي إلى عالم مختلف عن الآخر إلى حد بعيد.

ولكن يبدو أن جلال أمين يرى رأيًا آخر وقد يكون رأيه هو الصواب، وإذا كانت هذه هي الملاحظة الأساسية والتي توجز في أن جلال أمين قارن بين عملين كل منهما يسلك منهجًا مغايرًا عن الآخر ويعالج قضايا مغايرة تمامًا للقضايا التي يعالجها الآخر وهو الأمر غير الجائز فيما أتصور.

إذا كانت هذه هي الملاحظة الأساسية فإن ثمة بعض الملاحظات الجزئية الأخرى.

مثلاً يصف صاحب قصة حياة عادية زيارته الأولي لمسكن أستـــاذه الدكتور/ حامد سلطان وكيف أن نوعًا من الرهبة والهيبة ألم به عندما دخل المسكن الذي لم يكن قد رأى مثله من قبل وعبر عن ذلك بعبارات صادقة - هل يعد مثل هذا الإحساس من قبيل الاحتفال بمظاهر الثراء والأبهة كما قال جلال؟ أم أنها ردة فعل طبيعية لشاب من أسرة متوسطة يعيش في مسكن عادي ويدخل بيت أستاذه الذي كان الكل يعرف مدى أناقته وغناه الفني - وليس المادي - فيعبر عن ذلك بمثل ما عبر عنه؟

على كل حال هذا اكتشاف جديد يحسب للدكتور جلال أمين.

ويجري لذا المجرى أيضًا أن الدكتور جلال أمين يرى أن صاحب قصة حياة عادية مفتون بظواهر الأشياء وبعلية القوم ومن بيدهم الحل والعقد والتعيين والنقل والندب والإعارة والترقية. والحقيقة أنني لا أعرف شيئًا من ذلك عن صاحب قصة حياة عادية وما أظن أن الكتاب نفسه يعكس شيئًا من ذلك قط أو أن أحدًا غير الدكتور جلال ببصيرته النافذة قد لاحظ شيئًا من ذلك.

وأجدني مدينًا بشكر خالص للدكتور جلال في أنه جمع بين تعبير عن مرحلة مبكرة من حياة شاب لم يجاوز الثلاثين وبين اسم عالم كبير في مثل قامة رشدى سعيد يكتب عن تجربة عمر ناهز الثمانين.

لقد كانت مقارنة لا تخلو من طرافة.

ولله في خلقه شئون.

د. يحيى الجمل

لماذا كل هذا التحامل؟

لفت انتباهي مقال الدكتور جلال أمين الذي نشر في العدد السابق من مجلة «وجهات نظر».. تلك المجلة التي أحترمها وأتابعها لما تحوي من جهد مخلص، وفكر عميق وديمقراطي يطفو فوق سطورها، وتأتي به مقالات كبار الكتاب والمفكرين في مصر.

والنقطة الأساسية التي أريد أن أنطلق منها هنا هي فكرة «المقارنة» التي عقدها كاتب المقال بين كتابين في السيرة الذاتية نشرتهما دار الهلال خلال عام ٢٠٠٠، ولا يفصل بين ظهورهما إلا شهور قليلة. أحدهما كتاب «قصة حياة عادية» للدكتور يحيي الجمل. والثاني بعنوان «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات».. للدكتور رشدي سعيد.

والمقارنة التي جعلها د. جلال أمين موضوعًا للمقالة كانت - في رأيي الشخصي - شديدة الغرابة! لماذا؟ لأن المقارنة يجب أن تقوم بين شيئين يجمعهما الكثير من التشابه.. وتربط بينهما عدة عوامل تصلح لأن تكون قاعدة للمقارنة.

والعجيب أن كاتب المقال يقر بنفسه بأن تلك القاعدة من الأشياء المشتركة بين المؤلفين غير موجودة.. فيقول: «فيما عدا هذه الأشياء البسيطة لا يكاد يكون ثمة شبه بين الكتابين أو بين المؤلفين» ويضيف: «والواقع أن ما بين الكتابين والمؤلفين فوارق شاسعة»!

وهنا أود أن أسأل الدكتور جلال أمين: هل نستطيع أن نفاضل أو ننحاز إلي تجربة إنسانية لحساب تجربة إنسانية أخرى؟! وإذا كان صاحب السيرة الذاتية قد رأى أن في تجربته ما يستحق أن يروى، وأن ينقل، فهل من حقنا نحن كقراء أن نصادر علي تجربته أو أن نقيمها؟

ثم لماذا هذا الرأى المتحامل من بداية المقال.. الذي راح يبحث في مساحة طويلة، وصلت إلي أربع صفحات ونصف الصفحة من صفحات المجلة ذات القطع الكبير عن حجج وأسباب تثبت حكمه علي الكتابين.. ورأيي أن الكاتب مزج كثيرًا بين رأيه الشخصي في المؤلفين وبين تقييمه الموضوعي لهاتين التجربتين الغنيتين.

ويستطرد كاتب المقال فيقول: «وصورة المؤلف المنشورة علي الغلاف صورة يشع منها الذكاء، ولكنه ذكاء يختلط بدرجة لا يستهان بها من الدهاء تتضح من أن الابتسامة التي ترتسم علي الوجه ليست ابتسامة كاملة، بل هي نصف ابتسامة.(!)

الحقيقة أنني اندهشت من هذا الرأى.. فحتي صورة الدكتور يحيى الجمل التي التقطها مصور ونشرت علي غلاف السيرة الذاتية لصاحبها لا تعجب الدكتور جلال أمين.. فهل هذا ينتمي إلى النقد الأدبي.. أم أنه رأى شخصي واضح وصريح؟!

وتتتابع المتناقضات في مقالة الدكتور جلال أمين. فهو يقر بأن الفترة الزمنية التي تمت تغطيتها في كلا الكتابين مختلفة.. تنتهي عند الدكتور يحيي الجمل بحصوله علي الدكتوراه عام ١٩٦٢.. في حين تمتد في كتاب الدكتور رشدى سعيد إلي نهاية القرن. ومع أنه يدرك هذا الاختلاف بين الفترتين الزمنيتين نجده يمتدح بشدة وحماس الدكتور رشدى لأنه وصف شخصية أنور السادات، وتصرفاته وسعاداته الشخصية هو وزوجته بسبب معاملة السادات له. وكذلك وصفه لما حدث للواحات الخارجة ولموارد مصر بصفة عامة، وما تعرضت له من إهمال ونهب عندما وقعت في أيدي أشخاص ضعيفي الإحساس بالمسئولية.

وينسي كاتب المقال في غمرة حماسة لكتاب الدكتور رشدي سعيد واستيائه من كتاب د. يحيي الجمل أن الكتاب الثاني انتهي عندما كان د. يحيي الجمل شابًا في الثلاثين من عمره.. أي أن الذكريات والتجارب التي مر بها مع الرؤساء. ومن خلال عمله السياسي لم ترد بعد في هذا الجزء من الكتاب.. وطبيعي أن يستكمل الدكتور يحيي الجمل سيرته الذاتية الشيقة والغنية في جزء ثان.. يعكف على الانتهاء من كتابته الآن.

والعجيب أن ينتقد كاتب المقال الدكتور يحيي الجمل لأنه قصد من كتابة قصة حياته أن يقدم لنا في هذا الكتاب عملاً أدبيًا، أما رشدى سعيد فإن من الواضح أن كتابة عمل أدبي لم تخطر له علي بال وأنه لم يرد من كتابته إلا أن يروى ما حدث له. علي أمل أن يتضمن بعض الحقائق المهمة عن السياسة المصرية والمجتمع المصري.

وأنا أختلف معك يا دكتور جلال.. فهل تجد في الأسلوب الأدبي عيبًا؟! وهل ترى أن مضمون ما صاغه الدكتور يحيي الجمل صياغة جميلة وعميقة لقصة حياته لا يستحق أن يقرأ أو أن يحفظ في أوراق كتاب؟!

رأيي المتواضع أن الأسلوب الأدبي

الجميل هو وسيلة التوصيل الجيدة التي نستطيع من خلالها أن ننقل أفكارنا ومفاهيمنا وتجاربنا إلي الآخرين. وكتاب «الأيام» للدكتور طه حسين.. عميد أدبنا العربي.. تحفة أدبية وهو في ذات الوقت ثروة إنسانية لتجربة فريدة لا تزال تقرؤها الأجيال.

وإذا كان لكل كاتب أسلوبه فكيف نختلف في ذلك أو نعترض. إن الأسلوب مثل الصورة الفوتوغرافية أو الاسم الذى يعرف به الإنسان. وأسلوب الكاتب هو دائمًا صورته من الداخل، وطريقته في التعبير عن نفسه وعن تجربته تشكل جزءًا من ذاته، فكيف لنا أن نقارن بين أسلوبين مختلفين لتجربتين مختلفتين؟!

وفي رأيي أن كل تجربة إنسانية جديرة بأن تروى.. وتزداد أهمية إذا جاءت الرواية على لسان وبأقلام أصحابها.. ورأيي أن كلتا التجربتين، تجربة الدكتور يحيى الجمل، وتجربة الدكتور رشدى سعيد لها خصوصيتها، ولها غناها المختلف، والجدير بالتسجيل والحفظ في ذاكرة الأجيال. واعذرني إن كنت قد اختلفت معك.. فالاختلاف في الرأى لا يفسد للود قضية.

نوال مصطفى
صحفية

ملاحظات على مقال رشدى سعيد «مياه النيل فى سوق التجارة العالمية»

كلما قرأ المرء لأستاذنا الدكتور رشدى سعيد لا يملك إلا أن يزداد حبًا واحترامًا لهذا العالم المخلص العظيم. كما أنني أشعر بالفخر لأني قرأت له واستمعت إليه وشاهدته بعيني.

بغير شك المخاوف التي أطلقها د. رشدى سعيد فى مقاله حول قضية خصخصة وتسعير المياه، مخاوف مشروعة. خاصة إذا تحولت المياه في ظل هذا الوضع الغريب إلى سلعة للتداول بين الدول. وهو الوضع الذى استشعرنا الخوف منه منذ صدور الاتفاقية الإطارية للأنهار الدولية والتي وصفها د. صلاح عامر بأنها سوف تسبب من المشكلات بأكثر مما تحل.

لقد أهملت الاتفاقية الإطارية مبدأ حق الارتفاق على مياه الأنهار الدولية، وهو من المبادئ الأصيلة في القانون الدولى. لصالح عبارات غامضة حول مصالح الدول، ومنحت دول المنبع حقوقًا أكبر كثيرًا قد تهدد فيما بعد حقوق دول المصب.

لا نستطيع أن نفصل بين مبادرة حوض النيل وبين هذا الفصل التمهيدى المتمثل في الاتفاقية الإطارية المشار إليها. غير أن مبدأ إعادة النظر في حصص مياه النيل بين البلدان الواقعة على حوض النهر، أمر لا يمكن رفضه أو إنكاره على البلدان المشاركة فى نهر النيل، بحجة وجود اتفاقات من زمن الاحتلال الإنجليزى أمنت لنا حقوقًا مائية ليس لأحد الحق فى إعادة النظر فيها حتى ولو تعرضت البلدان المشاركة في النهر لخطر الجفاف والمجاعات.

لكي تحافظ مصر على حصتها من مياه النيل عليها أن تبادر بفتح الملف المتوقع فتحه بين يوم وآخر. لأن اختيار مصر فتح الملف بإرادتها يسمح لها بتحديد عدد من العوامل المؤثرة على المفاوضات. إذ على الأقل يسمح لنا ذلك باختيار موعد ومكان ومستوى المفاوضات المناسب. وإن كنا قد تأخرنا كثيرًا في ذلك حتى سمحنا لأطراف غير مرغوب في تدخلها أو ظهور تأثيرها على هذه المفاوضات بالظهور.

لقد حمل أستاذنا د. رشدى سعيد على التفكير الحالى فى أثيوبيا لبناء السدود، فى حين أنه لم يتخوف من ذلك في كتابه المهم عن نهر النيل (طبعة دار الهلال) من بناء السدود في أثيوبيا، بل وصل إلى أن بناءها سوف يكون مفيدًا في تنظيم تدفق المياه، وقد توقع أن يؤدى ذلك إلى زيادة المياه بحوالى ٦ مليارات متر مكعب من المياه، وأنا واحد من الناس الذين أخذوا هذا التفكير بكل اطمئنان لأنه صادر عن الدكتور رشدى سعيد.

من ناحية أخرى لقد سلم أستاذنا بمبدأ المفاوضة على إعادة اقتسام مياه النيل عندما أطلق تحذيراته المهمة جدًا والتي جاءت في محلها تمامًا حول مشروع توشكي، إذ طلب من المسئولين عدم الإقدام على مشروعات ذات تكلفة مالية كبيرة، لأنه يشك في أن يتمكن المفاوض المصرى من المحافظة على الكمية التي تحصل مصر عليها حاليًا من مياه النيل.

غير أن ريبة الدكتور سعيد في موضوع مبادرة حوض النيل، في محلها تمامًا، ولنا أسبابنا في ذلك:

* أن تطرح المبادرة في علاقة مع اللغط الدائر حول بنوك المياه، فهذا أمر مريب لأن القبول بفكرة بنوك المياه متعارض مع حقوق الارتفاق التاريخية على مجارى الأنهار.

* لأن الجهة أو الجهات التي تقف خلف المشروع وتقدم له الدعم مشبوهة، ولم يحدث أن وقفت يومًا إلى جوار الحقوق المصرية فى مياه النيل منذ خرجت مصر من عباءة السيطرة الإنجليزية.

* وأخيرًا، مبادرة بهذه الدرجة من الأهمية والمصيرية لشعب مصر ومستقبل أجياله، نرى أنه من غير المقبول ولا المسموح أن يتم التداول فيها سرًا على هذا النحو، خاصة أن الموضوع لا يخص وزارة الرى وحدها ولا حتى بمشاركة وزارة الخارجية، ولا هو اختصاص مقصور على الحكومة المصرية حتى لو جندت له كل أجهزتها، إننا في موضع يتقرر فيه مستقبل مصر وأجيالها ربما للأبد، ذلك فإن الجهة التي تتصور في نفسها المقدرة على حسم هذا الأمر منفردة، لا بد أن تكون جهة غير مقدرة لخطورة الأمر. ومن هنا يتخذ تحذير د. رشدى سعيد أهميته الاستثنائية.

أما فكرة أن البلدان الواقعة في حوض النيل لا تستفيد بغير ٥٪ من الموارد المائية لحوض النيل، ففي هذا القول قسم من الحقيقة وآخر من المبالغة. فنحن بالفعل لا نستفيد إلا بالقدر اليسير من الموارد المائية المتوافرة. أما إذا تعاملنا مع هذه الموارد المائية من منطلق القابلية للاستخدام الاقتصادى في ظل أوضاع البنية الأساسية والظروف التكنولوجية السائدة في منطقة حوض النيل، فإن الأمر يختلف كثيرًا عن هذا التقدير المتفائل، لذلك فإن المقدرة على استخدامها استخدامًا اقتصاديًا تكاد تكون منعدمة. فضلاً عن مخاطر تناقص هذه الموارد المائية بفعل زحف التصحر على مساحات شاسعة من حوض النيل. ومن هنا لا نستطيع أن نتصور دخول مصر لأى حوار أو مفاوضات حول حصتها المائية دون النظر إلى مجمل الأوضاع الاقتصادية والسياسية لمنطقة حوض النيل. وهذه المخاوف التي أبداها الدكتور رشدى سعيد من الدور الأثيوبى، قد لا تكون في محلها على الرغم من المعرفة بالعداء الأثيوبى واستعداد الأنظمة الحاكمة هناك لاتخاذ مواقف مناوئة لمصر منذ عام ١٩٥٢. وذلك لأن المصالح الحقيقية للمجتمع الأثيوبى مع جيرانه في منظومة حوض النيل. وليست مع الأطراف الدولية الأخرى التي تستخدم النظام الأثيوبى في إقلاق راحة جيرانه وشركائه. وكون الدبلوماسية المصرية قد سجلت فشلاً ذريعًا في ذلك خلال خمسة عقود، فهذا لا يبرر على الإطلاق أن هناك مصالح حقيقية لأثيوبيا مع الأطراف الدولية الواقعة خارج حوض النيل. ومن هنا فليسمح لي أستاذنا الدكتور رشدى سعيد بالاختلاف معه في التعامل مع أثيوبيا كطرف مناوئ لكل من مصر والسودان في مصالحهما المائية، بل إن على مصر العمل على حل مشكلاتها المائية مع المشكلات المائية لأثيوبيا في وقت واحد. لأن المشكلة المائية في أثيوبيا في واقع الأمر ليست أكثر من مشكلة تنظيم استغلال الموارد المائية وليست تدبير موارد مائية إضافية وقد سبق أن وصف الدكتور رشدى سعيد أثيوبيا بوصف نافورة المياه في أكثر من مناسبة، وهو وصف موفق إلى حد بعيد.

وإذا عدنا لمبادرة حوض النيل فإن أى مبادرة حقيقية لتنظيم توزيع الحصص المائية بين بلدان حوض النيل لا تضع في اعتبارها أن حوض النيل يمثل منظومة بيئية وتنموية واحدة، هى مبادرة محكوم عليها بالفشل، لأنها سوف تبدد طموحات التنمية لبلدان المنبع والمجرى والمصب على حد سواء، ونقصد بذلك الاقتراب الحالى الذى يهدف إلى تحكيم عوامل السوق في توزيع المياه وما سوف يترتب عليه من خلق تعاقدات مائية خارج منطقة الحوض فتحرم الشركاء الآخرين من حقوقهم القانونية من ناحية، كما تحرم باعة المياه أنفسهم من حقوق أجيالهم القادمة في المياه. إن اقترابًا تنمويًا ذا بعد بيئى في التعامل مع منطقة حوض النيل يضمن تنمية الموارد المائية للمنطقة ويتعامل معها كمنظومة تنموية واحدة. وفي نفس الوقت يحقق استدامة مواردها الطبيعية وأهمها المياه. لأن المخاطر البيئية الحالية سوف تكون مسئولة في المستقبل عن ضياع قسم كبير من موارد المياه، كما أن التخلف الاقتصادى الشديد لأغلب بلدان حوض النيل يقف عائقًا حقيقيًا أمام استفادة أغلب البلدان بمواردها المائية المتنوعة. فضلاً عن أن ضعف البنى الاقتصادية الحالية لأغلب البلدان سوف يكون عاملاً مشجعًا لقبول فكرة بيع الموارد المائية الحالية. لعل عائدها يؤمن قسمًا من الاحتياجات المعيشية للسكان، (وربما لتمويل نيران الحروب الأهلية والصراعات العرقية كما تفعل مناجم الماس والذهب).

على صعيد آخر قد يمثل الاتجاه نحو بيع المياه من وجهة نظر بعض البلدان الشريكة في حوض النيل حلاً سريعًا لمشكلة نقص مواردها المالية. ولكونها بلدانًا فقيرة، فهي غير قادرة على تمويل التجهيزات الهندسية العملاقة التي تحتاجها عمليات تخزين المياه بوصفها أرصدة مائية في بنوك المياه التابعة لكل دولة أو ربما لمجموعة من الدول. هذا الوضع سوف يوقعها فريسة الشركات عابرة الجنسيات، فهي القادرة على تمويل هذه المشروعات وبالتالي الدخول كشريك رئيسي في بيع هذه الأرصدة المائية وتملكها في بورصات المياه التي ستترتب على هذا الوضع الشاذ.

غير أن هذه التجهيزات الخاصة بالتخزين ونقل المياه سوف تضر ضررًا بليغًا بالمنظومة الهيدرولوجية لنهر النيل، وبالقطع سوف تترتب على ذلك تغيرات بيئية حادة ربما تؤثر على مستقبل الموارد المائية نفسه بسبب ما تسمية مسطحات التخزين من اختلال في الدورات المناخية المحلية من ناحية وما يترتب على شح جريان المياه في مناطق أخرى من مخاطر التصحر، وبالتالي ظهور مصدر آخر للاختلال المناخي. وفوق هذا وذاك فوضى إدارة الحقوق المائية على امتداد النهر الخالد.

لقد دأب الدكتور رشدى سعيد على دق ناقوس الخطر، وكثيرًا ما تشاغل المسئولون عنه في عناد غريب. هذه المرة المسألة أكبر من كل شيء، إنه الفخ الذى ينصب لنهر النيل، أى لمصر، تاريخها وحاضرها ومستقبلها.

أستاذنا الكريم تقبل حبي ومودتي، أدامك الله لنا بصحة وعافية.

د. محمد نعمان نوفل
خبير البيئة والتنمية البشرية
مدرس بجامعة المنوفية

نون

لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة؟

ليس هناك في العالم العربي الآن من لا تؤرقه «الأزمة»، أو يثير قلقه اتساع الفجوة بيننا وبين العالم المتقدم.. وفي كل المناسبات يطرح المثقفون والسياسيون والمفكرون سؤالاً لا يتغير بألفاظه ودلالاته، حتى ليكاد يصبح هاجسًا مُلحًا أو وسواسًا قهريًا يتكرر بوتيرة منتظمة: لماذا أخفق النظام العربي في تحقيق أهدافه، كما تساءل أخيرًا في القاهرة الأمير الحسن شقيق الملك الأردني الراحل حسين؟ أو ما الذي حدث للمصريين كما تساءل قبلها الدكتور جلال أمين ونسج على منواله آخرون؟ أو لماذا فشل مشروع النهضة العربية الذي شهدنا بداياته في أوائل القرن ثم سرعان ما انطفأت الشعلة كما تساءل كثير من المفكرين؟ وعندما يفرغ الناس من التحليل والتعليل يبقى السؤال الذي لا تتغير دلالته هو نفسه جوابًا يتكرر مع كل عثرة في الطريق، أو معضلة تبدو بغير حل: لماذا لا تتفق الأمة بكل فصائلها على مشروع قومي واحد، تلتف حوله، وتعبئ جهودها من أجل تحقيقه؟ وقد لخص المتنبي الموقف في بيتين من شعره حين قال:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد
أطويل طريقنا أم يطول؟
وكثير من السؤال جواب
وكثير من رده تعليل!

وعلى الأرجح فإن طريقنا سوف يطول ويطول، لأننا لا نسأل السؤال الصحيح، أو لأننا قد اكتفينا بالسؤال عوضًا عن الجواب، وحين تختزل الإجابة في سلسلة من التعليلات والتبريرات، التي تتحدث باسم التمسك بالتراث، أو تختفي وراء العادات والتقاليد، أو ترفع شعار الوحدة والحفاظ على الهوية، أو تحتج بأعذار سياسية مثل: السلام الاجتماعي وتوحيد الصفوف في مواجهة العدو، أو مقاومة الغزو الحضاري والتغريب.. فإن الحقائق سرعان ما تضيع تحت ركام من الزهو الكاذب وخداع النفس.

تذهب بعض التفسيرات التي طرحت لفهم أسباب «الأزمة» أو الإخفاق الذي أصاب النظام العربي، والحق الهزيمة بالمشروع العربي للنهضة، أيا كانت مسمياته، قد دفع بالمجتمعات العربية القهقرى.. مخترقًا لدى الإنسان العربي هذا القدر الهائل من التوجس والشك والحذر وعدم الثقة بالنفس.. إلى فشل التجربة الليبرالية العربية وعمليات التحول السياسي نحو الديمقراطية، وما أصابها من نكسات في ظل ظروف دولية معقدة، ضاعف من تعقيدها استمرار الصراع العربي الإسرائيلي أكثر من نصف قرن، استنزفت خلاله الإمكانات والطاقات العربية، ووقف عائقًا دون تطور الحياة السياسية ونضوج التعددية، فلم تنجح المجتمعات العربية في الخروج من مرحلة حكم الحزب الواحد أو الحزب القائد والخضوع لنظام سلطوى، وظل التحجج بالصراع العربي الإسرائيلي تارة، وبمقاومة التيارات الهدامة وقوى الإرهاب والتطرف تارة أخرى، والقضاء على أعداء الشعب تارة ثالثة.. مبررًا لإبقاء الأوضاع الاستثنائية التي تحد من الديمقراطية وتسمح بفرض قوانين الطوارئ.. التي استمرت ومازالت في بعض البلاد العربية عقودًا طويلة تقترب من نصف قرن، هي الفترة الفاصلة بيننا وبين دول كانت معنا وتجاوزت مرحلة التخلف.

ونسبت تعليلات أخرى هذه الحالة المزمنة من الإخفاق والتردي، إلى السقوط في براثن هيمنة اقتصادية عالمية مدمرة أدت إلى انفتاح اقتصادي استهلاكي مخرب، أحدث انهيارًا في القيم والسلوكيات، وفتح الباب للفساد، وعمل على تعميق حالة الاستقطاب والانقسام الطبقي الحاد، في ظل تآكل لدور الدولة.. ترتب عليه خلل واضح في هياكل الإنتاج والعمالة. وضاعف من حالة التردي بروز ظاهرة العولمة بكل تداعياتها السياسية والاقتصادية والتجارية، تحركها الثورة المعلوماتية التي أسقطت الحواجز، وأذابت الحدود، وتوشك أن تغير أساليب الإنتاج الصناعي تغييرًا جذريًا في العالم.

ولكن التعليل الأكثر رواجًا لدى الطبقات العريضة من الشعوب، هو أن ارتماء المجتمعات العربية في أحضان الغرب والأخذ بأفكاره ومذاهبه، والتخلي عن التراث الإسلامي، واللجوء إلى تشريعات وضعية لا تلتزم بأحكام الكتاب والسنة، هو الذي أفضى بالمجتمعات العربية إلى ما هي عليه من تفكك وانحلال، وخمول في الهمة وقعود عن تحقيق النهضة.. أدى بدوره إلى وهن في مقاومة العدو، وخضوع أمام قوى الاستكبار العالمية المسيطرة التي تتحكم في مصائرنا وثرواتنا وتملي علينا سياساتنا وقراراتنا.

وفي اعتقادي أن هذه التفسيرات لا تصل إلى لب المشكلة ولكنها انعكاس للحالة الفعلية التي مرت بها الأمة على امتداد القرن الأخير.. من مرحلة السعي إلى الاستقلال والتحرر، والسير على طريق الليبرالية الغربية دون أن تنجح في امتلاك المقومات الأساسية لها، إلى مرحلة البحث عن حلول أخرى في إطار النظرية الاشتراكية التي سرعان ما أثبتت فشلها عالميًا وإقليميًا.. وأخيرًا اكتملت الدائرة ببروز تيار العودة إلى الأصول والبحث عن الثوابت الدينية كمرجعية تمتلك الحلول الجاهزة لكل مشكلات العصر.

وسوف نلحظ أن القاسم المشترك الأعظم في كل هذه المراحل، والذي سرعان ما كان يقود إلى جو «الأزمة» ثم الإخفاق، هو أن الشعوب العربية ظلت مستبعدة من المعادلة الأساسية في صناعة مصيرها وتقرير مستقبلها. ولم يحدث في أية مرحلة من هذه المراحل أن وثقت القيادات بشعوبها أو آمنت بقدرتها على اختيار ما تراه صالحًا ونافعًا لنفسها ولأبنائها. فالشعوب إما أن تكون خاضعة لسيطرة أحزاب وزعامات سياسية ارتبطت مصالحها الشخصية بنزوع جامح إلى السلطة، أو هي خاضعة لهيمنة السلطة العسكرية التي قامت بالثورة، أو حتى في ظل النظم الدينية فإن السلطة لا تذهب إلا إلى الأئمة والمراجع الدينية.

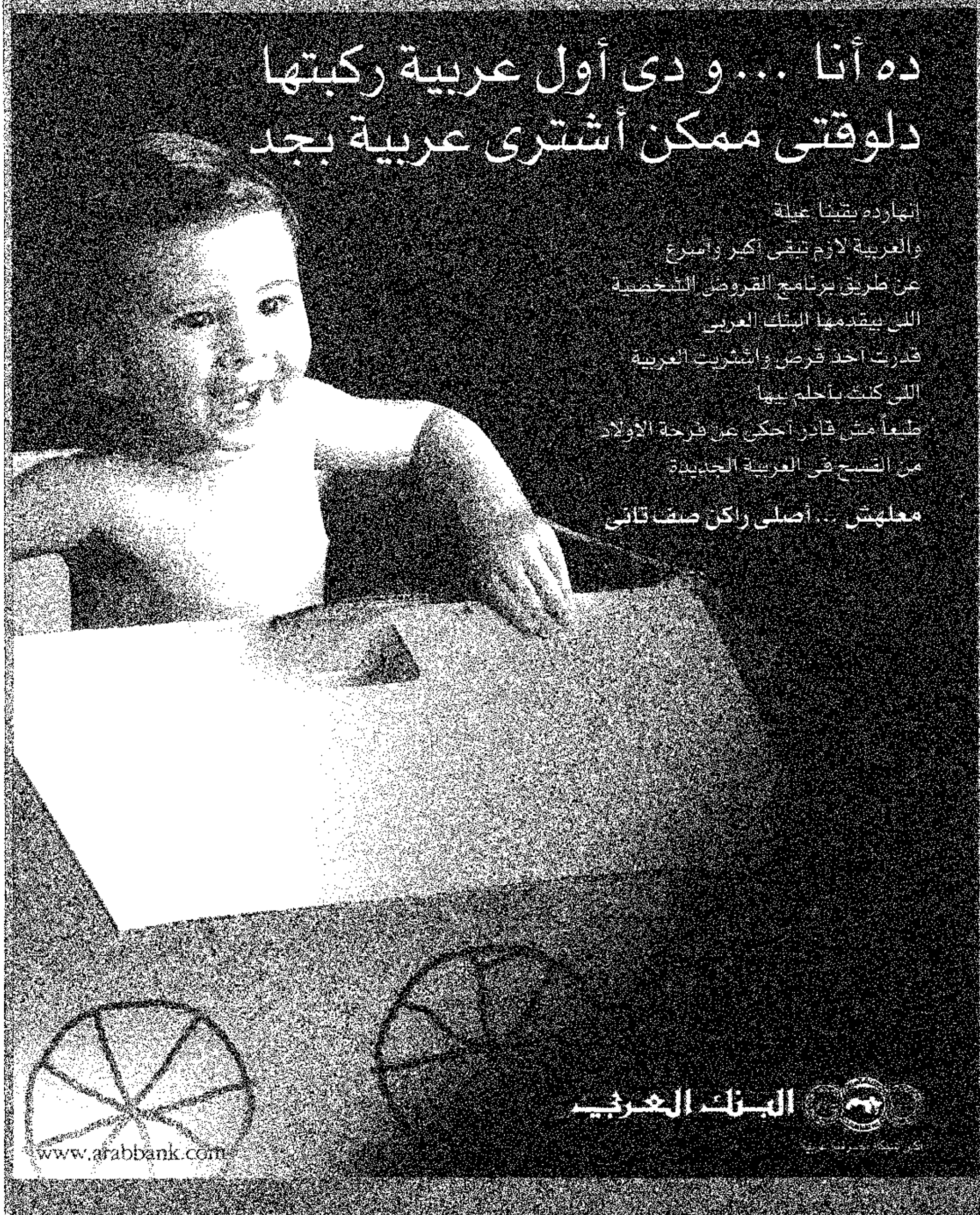
والسؤال الآن: ألم يحن الوقت لكي يثق الحكام العرب بشعوبهم، ونثق بقدرة المواطن العادي على تحديد مصيره وتقدير ما يراه صالحًا لنفسه.. فنعطيه من ثم الحق في استشعار قدراته واستثمارها في خدمة نفسه ومجتمعه؟ ألم يئن الأوان لكي تتحول الرقابة الخارجية من جانب السلطة أو الحكومة أو مقص الرقيب إلى رقابة ذاتية داخلية، تستمد قوتها من مبدأ أخلاقي أو وازع ديني، بقدر ما تستمد فاعليتها من إحساس عميق بالمسئولية المدنية والاجتماعية؟ وكلتاهما لا تنمو وتترعرع إلا في جو من الحريات التي توسع مجالات الفكر والعمل، وفي ظروف تسمح بنشاطها وازدهارها.

هذه الثقة المفقودة التي تنبع من ادعاء ذوي السلطان على كافة المستويات، من البيت إلى المدرسة إلى الجامعة، ومن المؤسسة إلى الصفوة الحاكمة، بأنها وحدها تملك الحقيقة وتحتكر القدرة على التفرقة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.. هي التي أنتجت شعوبًا ضعيفة، ومن ثم حكومات مذعورة خائفة.. سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من الفرد الذي عجزت أساليب التعليم والتربية في بيوتنا، ثم في مدارسنا وجامعاتنا عن تنشئته على أساس من حرية التفكير والتعبير، والقدرة على النقد وتكوين شخصية مستقلة تملك روح المبادرة والشجاعة والاعتماد على النفس وانتهاج التفكير العقلاني.. وهي اللبنة الأولى في أي بناء ديمقراطي، يعتمد على قوة الشعوب وقوة الحكام، ويشرك الشعب في تحمل المسئولية ومواجهة تحديات العصر.

وإذا أردنا أن نبحث عن تفسير علمي وموضوعي لأسباب الإخفاق الذي يلاحق الشعوب العربية منذ بداية القرن الماضي، وأجواء الأزمة التي تخيم علينا مثل سحابة سوداء لا تنقشع، فلابد أن نبحث عنها في الخلل الذي أصاب جذور الشخصية العربية عمومًا والمصرية خصوصًا، نتيجة لانهيار نظام التعليم، وتآكل التفكير العلمي، وانحطاط مستوى التربية على مستوى الأسرة والمجتمع، وغياب القدرة على تنفيذ القوانين وإلزام المجتمع باحترامها.. إذ سرعان ما تسللت جراثيم هذا المرض إلى خلايا الأمة فأفسدت جيناتها عبر أجيال متتالية أوصلتنا إلى ما نحن فيه من وهن واهتراء.

في ضوء هذا يمكن فهم الأسباب التي تحمل شرائح كثيرة في المجتمع، في السلطة وخارجها، لكي تعطي نفسها الحق في منع الناس من إعمال عقولهم وتفكيرهم، بفرض وصاية على أي شكل من أشكال الإبداع الحضاري بدعوى الدفاع عن القيم والأخلاق والدين. وتصبح هذه الرقابة نوعًا من التكفير، بل هي عقوبة مستترة بغير قانون.. لأنها تمنع الفرد من ممارسة قدراته وملكاته، وتحكيم ضميره، وهي في النهاية تجرده من إنسانيته وتجعله أشبه بحيوان أليف في قطيع، أو طفل يحتاج دومًا من يعوله. لذلك ظلت مجتمعاتنا العربية عاجزة، لا تشب عن الطوق ولا تصل مرحلة الفطام والاعتماد على الذات في كل شئونها.. وهو نفس أسلوب التربية السائد في البيت وفي المدرسة، الذي تحل فيه الرقابة الخارجية محل الرقابة الداخلية حتى بين الكبار والراشدين. وهذه هي السلبية القاتلة التي تتكفل بالقضاء على الشعوب وإغراقها في «أزمة» لا خلاص منها مهما تبدلت النظم، وتغيرت الدساتير، واختلف الحكام، لأن جذور «الأزمة» داخلنا وليست خارجنا!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخد قرض واشتريت العربية
اللى كنت باحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الصبح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
www.arabbank.com

المستقبل
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد السادس والعشرون
مارس ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

※ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ※

محتويات العدد :

كتّاب العدد :

ـ أحمد يوسف أحمد .. مدير معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة.
ـ آفي شلايم.. أستاذ العلاقات الدولية بكلية سانت أنطونز بجامعة أكسفورد.. مؤرخ إسرائيلي.
ـ إلياس سحاب.. ناقد موسيقي من لبنان.
ـ حازم الببلاوي.. أستاذ الاقتصاد بجامعة الإسكندرية.
ـ سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
ـ عفيف البهنسي .. باحث في الفن والعمارة ـ سوريا.
ـ قدري سعيد .. رئيس وحدة الدراسات العسكرية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام.
ـ محمد السطوحي.. صحفي مصري مقيم بواشنطن.
ـ محمد حسنين هيكل .. صحفي.
ـ نعيم عطية.. ناقد أدبي.
ـ يوسف القعيد.. صحفي وروائي.

رسوم العدد للفنانين : محمد حجي ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٢٠٤٩٠ / ٣٩٢٠٤٩٢ / ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص . ب ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٨٥٥٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٢٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة


Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND QATAR
EF001 HONGKONG EGYPT
EF254 YEMEN ETHIOPIA
EF261 NEWYORK JORDAN
EF255 SAUDIARA. BOTSWANA
EF013 KUWAIT KENYA
EF225 JORDAN NAMIBIA
EF420 EGYPT MOROCCO
EF540 SPAIN ZIMBABWE
EFG - Hermes